مُحمَّد

أول جنرال في الإسلام

مُحمَّد

أول جنرال في الإسلام

السيرة العسكرية الشاملة

ريتشارد غابرييل

ترجمة

أحمد العبدة

جسور للترجمة والنشر

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

محمد: أول جنرال في الإسلام/ ريتشارد غابرييل؛ ترجمة أحمد العبدة.

٣٠٠ص.

ببليوغرافية: ص٢٩٥ ـ ٣٠٠.

ISBN 978-614-431-737-2

١. محمد، النبي (ت٦٣٢) ـ القيادة العسكرية.

297

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

Muhammad

Islam's First Great General

© 2007 by Richard Gabriel

Published by the University of Oklahoma Press, Norman, publishing division of the university. All Rights Reserverd.

Arabic edition published by arrangement of Josour for Tanslation and Publishing.

جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة لجسور

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢٣

جسور للترجمة والنشر

لبنـان ـ بيروت

josour.pub@gmail.com

لسوزان الجميلة

التي ترى الحلم... والتي أحبها بلا حدود

وفي ذكرى البروفيسور جون دانيال ويندهاوسن(*)

(١٩٣٢ ـ ٢٠٠٦)

«ها هو عبدك جون... خذه يا رب... وأحسن نُزله»

(*) جون دانيال ويندهاوسن (١٩٣٢ ـ ٢٠٠٦) كان أستاذاً للتاريخ في جامعة سانت أنسيلم لأكثر من ٤٠ عاماً، وتخصص في دراسة التاريخ الروسي والأوروبي. نشر أكثر من ٦٠ كتاباً علمياً ومقالات أكاديمية وأوراق مؤتمرات ومراجعات لكتب حول التاريخ والرياضة الروسية والسوفياتية، كما قاد الجولات الطلابية السنوية إلى الاتحاد السوفياتي، أما جامعة سانت أنسيلم (Saint Anselm College) فقد تأسست عام ١٨٨٩، كثالث جامعة كاثوليكية في منطقة نيو إنغلند شرق الولايات المتحدة (المترجم).

لقد انتصر جميع الأنبياء المسلحين، وفشل العُزّل

مكيافيلي، الأمير

لم يتجاوز عدد المقاتلين في معارك محمد بضعة آلاف،
لكنها كانت من أهم المعارك حسماً في التاريخ

ألفريد غيوم، الإسلام

لا يعيش العظماء عبثاً، وليس تاريخ العالم إلا سير
رجال عظماء.

كارلايل، عن الأبطال

المحتويات

قائمة الخرائط ٩

تواريخ مهمة ١١

شكر وتقدير ١٣

توطئة المترجم ١٥

مقدمة ١٩

الفصل الأول: أرض جزيرة العرب ٣٩

الفصل الثاني: الوضع الاستراتيجي ٤٩

الفصل الثالث: الحرب العربية ٦١

الفصل الرابع: محمد ٩٧

الفصل الخامس: تمرّد ١١١

الفصل السادس: غزوة بدر (١٥ آذار/ مارس ٦٢٤م) ١٣٣

الفصل السابع: معركة أُحُد (آذار/ مارس ٦٢٥م) ١٥٩

الفصل الثامن: معركة الخندق (آذار/ مارس ٦٢٧م) ١٨٥

الفصل التاسع: معركتا خيبر عام ٦٢٨م ومؤتة عام ٦٢٩م ٢١١

الفصل العاشر: فتح مكة (١١ كانوان الثاني/ يناير ٦٣٠م) ٢٢٧

الفصل الحادي عشر: معركة حنين (١ شباط/ فبراير ٦٣٠م) ٢٤١

الفصل الثاني عشر: تبوك ووفاة محمد (٦٣٠ ـ ٦٣٢م) ٢٥٧
الفصل الثالث عشر: الإرث العسكري لمحمد ٢٧٥
المراجع ٢٩٥

قائمة الخرائط

١ ـ مناطق مهمة بشبه الجزيرة في زمن محمد ٣٧

٢ ـ شبه الجزيرة العربية: الأرض ٤٠

٣ ـ النطاق الاستراتيجي خلال حياة محمد ٥٧٠ ـ ٦٣٢م ٥٦

٤ ـ الفتح العربي بعد وفاة محمد ٦٣٢ ـ ٦٥٢م ٥٩

٥ ـ غزوات محمد ٦٢٣م ١٢٤

٦ ـ معركة بدر ٦٢٤م ١٤٢

٧ ـ معركة أُحُد ٦٢٥م ١٦٥

٨ ـ ساحة معركة أُحُد ١٦٧

٩ ـ ساحة الخندق ٦٢٧م ١٨٩

١٠ ـ فتح مكة ٦٣٠م ٢٣٦

١١ ـ معركة حُنين ٦٣٠م ٢٤٧

١٢ ـ الحملات العسكرية في الردة ٦٣٢ ـ ٦٣٣م ٢٨٢

تواريخ مهمة بالتاريخ الميلادي

ولادة محمد	٥٧٠
نزول الوحي	٦١٠
بدء الدعوة المحمدية	٦١٣
بيعة العقبة الأول	٦٢١
بيعة العقبة الثانية	٦٢٢
هجرة محمد إلى المدينة	حزيران/ يونيو ٦٢٢
أولى غارات المسلمين على القوافل المكية	كانون الثاني/ يناير ٦٢٣
غارة قرب رابغ	شباط/ فبراير ٦٢٣
غزوة بني ضمرة	حزيران/ يونيو ٦٢٣
غزوات المسلمين الأخرى	حزيران/ يونيو ـ تشرين الأول/ أكتوبر ٦٢٣
أول قطيعة مع القبائل اليهودية	تشرين الأول/ أكتوبر ٦٢٣
سرية نخلة	تشرين الثاني/ نوفمبر ٦٢٣
معركة بدر	١٥ آذار/ مارس ٦٢٤
الهجوم على قبيلة بني قينقاع اليهودية	نيسان/ أبريل ٦٢٤
غزوة السويق	نيسان/ أبريل ٦٢٤
غزوة ذي أمَر	حزيران/ يونيو ٦٢٤
غزوة بحران	آب/ أغسطس ٦٢٤

الاستيلاء على القافلة المكية بماء ذي قَرَد	أيلول/ سبتمبر ٦٢٤
معركة أُحُد	آذار/ مارس ٦٢٥
حادثة الرجيع	أيار/ مايو ٦٢٥
مقتل المسلمين في بئر معونة	حزيران/ يونيو ٦٢٥
حصار بني النضير ونفيهم	آب/ أغسطس ـ أيلول/ سبتمبر ٦٢٥
معركة بدر الثانية	آذار/ مارس ٦٢٦
غزوة ذات الرقاع	حزيران/ يونيو ٦٢٦
غزوة دومة الجندل	آب/ أغسطس ٦٢٦
حصار المدينة	آذار/ مارس ـ نيسان/ أبريل ٦٢٧
إبادة بني قريظة	نيسان/ أبريل ٦٢٧
غزوة بني لحيان	كانون الثاني/ يناير ٦٢٨
هدنة الحديبية	آذار/ مارس ٦٢٨
فتح خيبر	أيلول/ سبتمبر ٦٢٨
معركة مؤتة	أيلول/ سبتمبر ٦٢٩
عمرة محمد إلى مكة	شباط/ فبراير ٦٢٩
فتح مكة	كانون الثاني/ يناير ٦٣٠
معركة حنين	شباط/ فبراير ٦٣٠
حصار الطائف	شباط/ فبراير ـ آذار/ مارس ٦٣٠
غزوة تبوك	أيلول/ سبتمبر ـ تشرين الأول/ أكتوبر ٦٣٠
عام الوفود	٦٣١
حجة الوداع لمحمد	٦٣٢
وفاة محمد	حزيران/ يونيو ٦٣٢
الردة	٦٣٢ ـ ٦٣٣

شكر وتقدير

إنني مدين وممتن للغاية للأفراد الآتية أسماؤهم الذين تكرموا بوقتهم وخبرتهم في قراءة النص الأولي وتقديم نصائحهم ونقدهم. يستحق جو سبورل، أستاذ الفلسفة في جامعة سانت أنسيلم والمختص بالدين والفلسفة الإسلامية، ملاحظة شكر خاصة لجهوده نيابة عني، كان هو أول من اقترح فكرة السيرة العسكرية لمحمد، وكانت تعليقاته الجوهرية لا غنى عنها لفهمي لتيارات الفكر الإسلامي الديني والفلسفي التي قدمت السياق الأكبر الذي يجب أن تُفهم على أساسه الأحداث العسكرية في حياة محمد. كانت نصائح جيم كويل، صديقي وزميلي القديم من أيامنا معاً في الكلية الحربية للجيش الأمريكي، ثمينة جداً في التأكد من انتباهي لحساسيات المسلمين للطريقة التي تناولت بها بعض الجوانب المثيرة للجدل في حياة محمد. قبل توليه منصبه في كلية تشابمان في كاليفورنيا، أمضى جيم أكثر من عشرين عاماً كمحلل في إحدى وكالات الاستخبارات الرئيسة في البلاد، ويجيد العربية والفارسية والأوردية، ودرس التاريخ العربي والإسلامي لأكثر من ثلاثين عاماً. ساعدني جويل كلاين، الحاصل على درجة الدكتوراه في اللغات القديمة والذي يتحدّث اللغتين العربية والعبرية بطلاقة، في تحسين دقة المصطلحات العربية الواردة هنا. ديفيد لوفكين، وهو كاتب ومؤلف محترف، قام بالكثير لضبط النص الأولي وتنقيحه وتقريبه لجعله في متناول القراء الأكاديميين والجمهور. كما قام ستيف وينجارتنر، محرر التاريخ العسكري للناشر غرينوود بريغر وهو كاتب جيد في حد ذاته، بقراءة النص وتحريره. أنا ممتن بشكل خاص لسالم جبران، وهو نصراني عربي يعيش في الناصرة، وللعقيد سليم السالمي من الجيش العُماني، وهو مسلم متدين، لنصائحهما

القيّمة ونظرتهما الثاقبة في دقيق الالتباسات في الثقافة والنفسية العربية والإسلامية. بينما لم يكن من الممكن كتابة هذا الكتاب من دون مساعدة هؤلاء الرائعين ورعايتهم، فإن المسؤولية عن أي أخطاء تقع على عاتقي وحدي.

توطئة المترجم

هذه هي سيرة محمد، ﷺ، كما لم يعرفه الكثيرون، من خلال أدق التفاصيل لحياته كقائد عسكري محنك ومخطط ميداني واستراتيجي من الطراز الرفيع. هو هنا ليس كما اعتاد القارئ معرفته في سيرته غير العسكرية، وخارج ميادين القتال. هذه أسرار أخرى لهذا النبي العظيم والقائد العسكري، يتناولها هذا الكتاب بخبرة تحليلية عميقة.

إن من يقرأ هذا الكتاب تكفيه عبقرية النبي ﷺ في ميدان الخطط والحروب ليؤمن به قائداً تاريخياً قبل أن يعرفه نبياً مرسلاً، تكفيه العبقرية العسكرية للانبهار به، حتى إذا جاء الإيمان عرفه في غير موضع الحروب والقتال وشاهده في موضع المحراب والامتثال.

أشد ما تظهر معالم النبوة وعبقرية صاحب لوائها في المشاهد والغزوات، وفي التعامل مع الخصوم وبناء التحالفات، وفي محاصرة الأعداء ونصب الكمائن، والقدرة على كسب الحلفاء الجدد وكسر أحلاف الخصوم، وقلب الهزائم إلى انتصارات. أكثر ما تتكشف النبوة في صورة الشجاعة الفريدة في دق أبواب الإمبراطوريات الكبرى، بأقل قوة وعتاد. كما هي جليّة في اتخاذ القرارات الاستثنائية والصارمة، تلك التي لا يتوقعها أحد. تتجلى النبوة أيضاً في تجاوز تقاليد الحروب العربية القديمة التي حالت دون تطور نموذج عسكري قادر على الإطاحة بأقوى جيوش الإمبراطوريات الكبرى.

يبدو محمد بن عبد الله ﷺ عقلاً عسكرياً لا يتوقف عن رسم الاستراتيجيات، ولا يعرف ذهنه الكلل والتعب، فهو دائم التفكير في صناعة

مستقبل الإسلام والمسلمين، وإيجاد مكان متقدم لهم في عالم يعيش صراعاً كبيراً بين الإمبراطوريات الواقعة على أطراف جزيرة العرب. سيرته العسكرية مليئة بصور الانضباط الميداني، والصرامة في التنظيم، والإبداع في اختيار الرجال، وصناعة النخب العسكرية.

لم يكن محمد ﷺ أول جنرال في الإسلام فحسب، كما اختار أن يصفه المؤلف؛ بل الأول عسكرياً، والأكثر إبداعاً ونجاحاً ميدانياً من بين كل القادة العسكريين التاريخيين، وبين الأنبياء المقاتلين والفاتحين. لقد مهّد بالقوة التي امتلكها في ذلك الحين لأتباعه من بعده أن يفتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

من المرجّح أن يستغرب القارئ هذا الجانب من حياة الضحوك القتّال ﷺ بوصفه ثائراً يستخدم حرب العصابات، ويبني قراراته الميدانية على ما يبلغه من تقارير العيون التي ترصد الخصوم. إنه إذا روعيت معايير تحليل الثورات التي يستخدمها الخبراء العسكريون المعاصرون فمن الواضح أن وسائل حملة محمد ﷺ وأساليبه لنشر الإسلام في الجزيرة العربية قد استوفت كل معايير الثورة الكليّة الناجحة.

ليس كافياً أن تجيد استعمال الروايات التاريخية وحدها لكتابة سيرة الرسول العسكرية، إلا أن تكون قادراً على نسجها في قصة واضحة الخيوط والمعالم. لقد نجح المؤلف في هذا المسعى، وسيجد القارئ نفسه يعيش تلك الأحداث كأنه أحد شهودها.

اعتبر المؤلف أن المصدر الأكثر فائدة عن حياة محمد ﷺ هو العمل الكبير لابن إسحاق في **المغازي** الذي كُتب بعد نحو تسعين سنة من وفاة النبي ﷺ. ولربما لم يطلع على ما كتبه موسى بن عقبة في **المغازي** أيضاً، لتتاح له إمكانات المقارنة لما بين النصين من اختلاف في التفاصيل في عدد من المواضع. وقد كان ابن عقبة من طبقة ابن إسحاق، وكلاهما مدني. وكان الإمام مالك يقول: «عليكم بمغازي موسى بن عقبة، فإنه رجل ثقة طلبها على كبر السن، ليقيد من شهد مع رسول الله ﷺ، ولم يُكثر كما كثّر غيره» (**سير أعلام النبلاء**).

يبرهن هذا الكتاب على أن أشياء كثيرة لم تُقل حول السيرة العسكرية لرسول الله ﷺ، بكل تفاصيلها اليومية، ويجعلنا أكثر اقتناعاً بأن بحث المسلمين في ميدان السيرة النبوية لم ينتهِ بعد، كما يعتقد البعض. نعم، إن أصحاب الإدراك المتواضع غير قادرين على رؤية كل ما في السيرة، وما ينبغي قراءته برؤية جديدة.

السيرة العسكرية للنبي ﷺ لم تكن مجرد حروب وغزوات، بل كانت دروساً في الواقع العملي، تمتد نتائجها إلى أفق بعيد لا ينقضي. لقد كان المؤلف يضع الخيارات الممكنة، والسيناريوهات التي قد يتبناها ويمضي فيها رسول الله ﷺ، وكان يحاول أن يفكر بما يقارب الكيفية التي فكّر فيها سيدنا النبي، في كثير من الأحيان، ويضع نفسه مكانه ليرى كيف يتصرف في تلك الحالات.

إن عدداً لا يستهان به من الروايات التي اعتمد عليها الكاتب استناداً إلى محمد بن إسحاق أو غيره تدفعنا إلى ضرورة البحث بانفتاح أكبر على طبيعة القواعد الأخلاقية للحروب لدى المسلمين، والأساليب المرتبطة بها. ومن دون شك لم يكن المسلمون ينجحون في حروبهم لمجرد مشاركتهم فيها، بوصفها نزهة واستجماماً، فقد كانت تفرض عليهم الظروف ممارسات وردود أفعال شديدة الواقعية والقسوة في مواجهة الخصوم؛ وذلك بالنظر إلى شراسة وقوة الخطط والاستراتيجيات العديدة التي نشأت بين قبائل الجزيرة العربية ومكوناتها اليهودية الأخرى، لمواجهة النبي ﷺ، ووأد رسالته في وقت مبكر.

يستخدم المؤلف مصطلحات ربما لا نتفق مع كثير منها، لكنها في النهاية تمثل ثقافته الخاصة، وهي جزء من الرؤية الغربية لهذا الموضوع التي نحتاج إلى الاطلاع عليها لنرى السيرة من خلال أبعاد مختلفة. يصف السلوك العسكري لرسول الله ﷺ أحياناً بمصطلحات مثل العنف أو الاغتيالَ أو الانتقام أو الفتك، وكلها مصطلحات تفهم في سياق طبيعة الرؤية الغربية لموضوع السيرة النبوية.

وكما قال العقاد في مقدمة كتابه **عبقرية محمد**: «لهذا كان تقدير «محمد» بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره المسلمون وغير

المسلمين، نافعاً في هذا الزمن الذي التوت فيه مقاييس التقدير. . . إنه لنافع لمن يقدرون محمداً، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه، لأنه في عظمته الخالدة لا يضار بإنكار، ولا ينال منه بغي الجهلاء إلا كما نال منه بغي الكفار».

توجد نقاط ضعف في هذا العمل الأكاديمي المتميز؛ فلم يكن معنياً بمدى صحة الروايات أو ضعفها، لكن حسبه أنه قد اعتمد على ما هو موجود عند المسلمين من كتب المغازي. والحقيقة أن الثقافة الغربية لا تستحضر هذا المعطى كثيراً في بناء الرؤى. ولم يكن غابرييل منفتحاً للاطلاع على دراسات عربية مهمة في مجال الصحيح والضعيف من روايات السيرة النبوية، وفيها ما قد يدفع المؤلف إلى إعادة النظر في بعض القضايا، بسبب عدم صحة ثبوتها.

ومن وجهة أخرى، ينبغي لنا الاعتراف بضعف الباحثين في المنطقة العربية على تقديم قراءات لسيرة النبي، خاصة في جانبها العسكري، والتواصل مع الخبراء العسكريين لتوظيف خبرتهم في ميدان أكاديمي. وقد يكون هذا بسبب طبيعة تكوين متخصصي علوم السيرة النبوية، البعيد إلى حدٍّ كبير عن الاطلاع على الدراسات العسكرية.

إن أعظم إرث عسكري للمصطفى ﷺ، في نظر المؤلف، هو عقيدة الجهاد؛ فقد أصبحت الحروب التي تخاض باسم الله وفي سبيله قوة ذات أهمية كبرى خلال الفترة الإسلامية المبكرة، وظلت دافعاً قوياً للفتوحات التي أعقبت وفاة رسول الله. وقد خلص المؤلف إلى نتيجة تتماشى في مضمونها مع الرؤية الغربية السائدة، حول ربط أعمال العنف بعقيدة الجهاد في الأزمنة المتأخرة. وهي مسألة تحتاج إلى نقاش عميق وجريء؛ فهو يرى، لكن بحذر شديد، أن محمداً ﷺ، باعتباره ثورياً ناجحاً، يمثل نموذجاً تحفيزياً بشكل من الأشكال لأفكار المتمردين المسلمين والقادة الثوريين في أماكن عديدة.

مقدمة

من الصعب أن تكون موضوعياً حين تكتب عن حياة مؤسس دين عظيم؛ حيث تحيطه هالةٌ من المعجزات، اقتضها حاجة المؤمنين إلى تصديقه بالضرورة. فكتّاب السير الأوائل ـ الأقرب زمنياً لحياته ـ لا ينشغلون كثيراً بالحقيقة التاريخية، وإنما بتمجيد سيرة من يعتقدون تجلي الرسالة الإلهية فيه. والنتيجة هي تراكم أساطير ومعجزات، وآيات سماوية، وإشارات غامضة، وآثار من ديانات وشرائع سابقة. إن سير الهداة والأنبياء لا يمكن أن تمرّ عادةً كمادة تاريخية، بل هي دعاية لدين في طور الانتشار(١). مهمة المؤرخ هي تحديد الحقيقة التي تقع وراء الأسطورة وتوضيحها. وتكمن جذور هذا الجهد في إيمان المؤرخ بأن المهمة ممكنة الإنجاز أصلاً.

هذا الكتاب هو عن الحياة العسكرية لمحمد، مؤسس الدين العالمي العظيم: الإسلام. وسيواجه أي عمل حول محمد جميع المشاكل المذكورة أعلاه. فعلى الرغم من الإنجازات العسكرية المتميزة التي حققها، لا توجد سيرة لهذا الرجل العظيم تتناول حياته العسكرية بالتفصيل. ركزت المرويات الموجودة لمحمد على دوره كنبي عظيم أسس دين الإسلام، أو إنجازاته كثوري اجتماعي، أو قدراته كرجل دولة وحاكم، أنشأ مؤسسات جديدة

---

(١) إنني مدين لمايكل إدواردز لأفكاره التي ظهرت في كتابه حول الصعوبات في البحث في حياة الشخصيات الدينية. والكتاب هو نسخة مختصرة من كتاب ابن إسحاق المطول، وهو مفيد كمصدر بسبب التحرير الحازم له. انظر: Michael Edwards, *Ibn Ishaq's Life of Muhammad: Apostle of Allah* (London: Folio Society, 1964).

لحكم قبائل جزيرة العرب(٢). ولكن لا توجد سيرة مكتوبة عن دوره كأول جنرال عظيم للإسلام وزعيم تمردٍ ناجح.

تتناول السير إنجازات محمد العسكرية باقتضاب، ولذلك فهنالك ـ إلى حدٍّ كبير ـ تجاهل لدوره كقائد عسكري مقتدر، أو تتعامل مع سيرته العسكرية على أنها ذات أهمية ثانوية، أو أنها تنسبها إلى معجزات وتوجيه إلهي كما فعل بعض العلماء المسلمون(٣). هذه حالة غريبة، فلولا نجاح محمد بوصفه قائداً عسكرياً لبقي الإسلام واحداً من طوائف دينية هامشية، ولبقي حبيس مكان جغرافي قصي، ولم يكن غزو الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية من قبل الجيوش العربية ليحدث أبداً.

لاحظ صموئيل هنتنغتون فرادة محمد لجمعه بين تأسيس دين عظيم، ومهارته القيادية العسكرية. بالإضافة لكونه قائداً عسكرياً. وغالباً ما لاحظت الأجيال السابقة من علماء الغرب أن محمداً كان رجلاً عسكرياً، كجيمس باين، الذي كتب في عام ١٨٩٩: «محمد كان مقاتلاً وقائداً عسكرياً ماهراً»(٤). ولم يغب هذا الملحظ عن الجهاديين المعاصرين. هذا الكتاب هو أول سيرة عسكرية لمحمد، وهدفه المعالجة المفصّلة لحياته العسكرية،

---

(٢) W. Montgomery Watt, *Muhammad: Prophet and Statesman* (London: Oxford University Press, 1961), p. 237.

(٣) يمكن العثور على أمثلة لهذه الأنواع من التوصيفات في كتاب حميد الله ساحات المعارك في عهد النبي، يعدّ محمد حميد الله عالماً جيداً إلا عندما يسمح للعناصر الدينية بالتعتيم على تفسيراته العسكرية، وهو أمر يمكن تفسيره نظراً إلى أن كتاباته هي أصلاً لجمهور ملتزم دينياً. ومع ذلك، فإن عمل حميد الله المبكر لا يقدر بثمن لإعادته بناء تضاريس ساحات معارك محمد. في رحلة حج عام ١٩٣٩، سار حميد الله بقدميه على تلك المواقع نفسها وقدم بعض الأوصاف والخرائط البدائية لساحات القتال التي يمكن التحقق منها مقابل ملاحظات الآخرين وأوصاف التضاريس كما تظهر في نص ابن إسحاق. انظر: Muhammad Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet* (Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939), (Reprint, New Delhi, 1973).

(٤) Samuel P. Huntington, *The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order* (New York: Touchstone, 1996), p. 263.

وانظر أيضاً: James L. Payne, *Why Nations Arm* (Oxford: Blackwell Books, 1889) p. 125.

إعادة صياغة هنتنغتون لكلام باين غير دقيقة. كان موسى قائداً عسكرياً ممتازاً، كما كان سيدهارتا غوتاما، قبل أن يصبح بوذا، أميراً من طبقة المحاربين في الهند وكان بالتأكيد مدرباً على الحرب لأن هذه الطبقة لم يكن لها وظيفة، ومع ذلك، لا يوجد سجل يشير إلى أن بوذا قد خاض قتالاً. لمزيد من المعلومات عن تجربة موسى القتالية كقائد انظر: الفصل المعنون بـ: "Exodus," in: Richard A. Gabriel, *The Military History of Ancient Israel* (Westport, Conn.: Praeger, 2003).

والإنجازات التي غيّرت جيوش العرب ومجتمعهم. هذا التحول جعل من الممكن غزو اثنتين من أكبر إمبراطوريات العالم القديم من قِبل جيوش الإسلام في غضون بضع سنوات فقط.

وإذا كان هذا الكتاب سيرة عسكرية، فإن البيئات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي عاش فيها محمد ستُناقش أيضاً بقدر ما كان لها من تأثير مهم في حياته العسكرية، وهذا بالطبع يشمل تجربته الدينية. ولكن هذا أيضاً لا يناقش إلا عندما يكون له صلة بالتاريخ العسكري. فعلى سبيل المثال كان الدافع ـ بوجه ما ـ وراء إصلاح محمد لقوانين الزواج، وهو سماحه لكل رجل بالاقتران بأربعة نساء(*)، هو الحاجة إلى إيجاد أزواج لرعاية أرامل وأيتام جنوده الذين قتلوا في معركة بدر(٥). وهنا يحرص الكتاب على تجنب التحليل أو الاستنتاجات الدينية، وهي العناصر التي جعلت في بعض الأحيان سير النبي منحازة وغير موثوق بها.

إن النظر إلى محمد بوصفه رجلاً عسكرياً سيكون تجربة جديدة للكثيرين، ومع ذلك فقد كان جنرالاً عظيماً بالفعل. ففي غضون عقد واحد خاض ثماني معارك كبرى، وقاد ثماني عشرة غزوة، وخطط لثلاث وثلاثين عملية عسكرية أخرى قادها آخرون تحت أوامره وتوجيهه الاستراتيجي. أصيب مرتين، وكُسِر جيشه، وأحيط به مرتين من قبل قوات متفوقة قبل أن يكر عليهم بقواته وينتصر. لكن محمداً كان أكثر من مجرد جنرال عام بارع في التكتيك الحربي؛ فقد كان بالفعل صاحب نظرية عسكرية، ونظرية في إصلاح المؤسسات، ومفكراً استراتيجياً، وقائداً حربياً، وزعيماً سياسياً وعسكرياً، وجندياً بطولياً، ثورياً، ومخترعاً لنظرية التمرد وأول ممارس ناجح لها في التاريخ. ومثل بعض القادة العسكريين الكبار في التاريخ ـ موسى، سوبوتاي، وجياب(**) ـ

(*) يؤمن المسلمون أن قوانين الزواج هي أوامر الله سبحانه، ولم تترك لاجتهاد البشر، ولا حتى لتقديرات النبي. وحجة إيجاد أزواج لأرامل قتلى بدر يدحضها عدد القتلى الضئيل (المترجم).

(٥) W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956), p. 276.

(**) سوبوتاي: أحد أهم القادة العسكريين الكبار لجنكيز خان. جياب: الجنرال فو نجوين جياب، من أهم شخصيات حرب فييتنام، وصاحب خطة معركة ديان بيان فو، التي هُزمت فيها فرنسا عام ١٩٥٤ (المترجم).

لم يخضع محمد لتدريب عسكري قبل قيادة الجيوش في المعارك. وبوصفه يتيماً، لم تكن لديه فرصة لتعلم المهارات العسكرية على يد أبٍ عربي كما كانت العادة بين العرب في حينه. وكانت التجربة الأولى والوحيدة له في الحروب ما عايشه في سن الرابعة عشرة عندما شهد مناوشة بين عشيرتين، حيث جمّع السهام لعمه. ومع ذلك، فقد أصبح قائداً ومخططاً ميدانياً مقتدراً وتميز أكثر في مجال الاستراتيجيات السياسية والعسكرية.

أثبت محمد أنه سيد الاستخبارات في الحرب، وأصبح جهاز مخابراته في نهاية المطاف ينافس أجهزة روما وفارس، خاصة في مجال الاستخبارات السياسية. وكثيراً ما كان يقضي ساعات في وضع الأساليب التكتيكية والسياسية، وقال ذات مرة إن «الحرب خدعة»، مذكراً بمبدأ صن تسو: «الحروب قائمة على المكر». كان محمد في تفكيره وممارسته للقوة العسكرية مزيجاً من كلاوزفيتز وميكيافيللي؛ إذ كان دائماً يستخدم القوة في خدمة الأهداف السياسية. في خدمة استراتيجيته الكبرى كان ذكياً جداً في استخدام أساليب غير عسكرية (بناء التحالفات، والاغتيال السياسي، واستخدام الإغراءات المادية، والدعوة الدينية، والعفو، والقتل المحدود) والتي من شأنها دائماً تعزيز موقفه الاستراتيجي طويل الأجل، وأحياناً على حساب الاعتبارات العسكرية التكتيكية.

إن إيمان محمد الراسخ بالإسلام ودوره كرسولٍ لله قد أحدث ثورة في الحرب في الجزيرة العربية من نواحٍ عديدة، ومنها إنشاء أول جيش متراص في العالم القديم بدافعٍ من نظامٍ أيديولوجيٍّ متماسك. وقد نقلت أيديولوجية الحرب المقدسة (الجهاد) والشهادة من أجل العقيدة إلى الغرب خلال الحروب بين المسلمين والنصارى في إسبانيا وفرنسا؛ حيث غيرت الفكر النصراني المسالم في الحرب، وجلبت زمرة من القديسين المحاربين، وقدمت للكنيسة الكاثوليكية مبرراً أيديولوجياً للحرب الصليبية[٦]. وهكذا

---

(٦) ما هو المقصود سياسياً وعسكرياً بمصطلح «أيديولوجية» يمثله المصطلح الألماني Weltanschauung، بمعنى مجموعة منهجية من الأفكار التي توفر «نظرة شاملة للعالم». إنها أكثر من مجرد مجموعة عامة من المعتقدات، بل هي مجموعة منهجية ومترابطة بمنطقية لشرح كل حياة الفرد وعلاقاته والتزاماته بالطريقة نفسها التي تشرح بها عقيدة الطائفة الدينية. الاختلافات العرقية والدينية في حد ذاتها لا تشكل أيديولوجيا بالطريقة نفسها التي شكلها الإسلام لأتباع محمد. لمزيد من المعلومات =

ظلت الإيديولوجيا في خدمة الدين أو العلمانية عنصراً أساسياً في المغامرات العسكرية منذ ذلك الحين.

وضع محمد الأدوات العسكرية للفتوحات العربية التي بدأت بعد عامين من وفاته من خلال جلبه إلى حيز الوجود نوعاً جديداً تماماً من الجيوش التي لم يسبق لها مثيل في الجزيرة العربية. كمبدع عسكري، قدّم ما لا يقل عن ثمانية إصلاحات عسكرية كبرى حوّلت الجيوش والأعمال الحربية في شبه جزيرة العرب، تماماً كما حوّل فيليب المقدوني جيوش اليونان بحيث استطاع خليفته، الإسكندر، توظيفها كأدوات الفتح، ومن ثَمّ حوّل محمد جيوش الجزيرة العربية حتى تمكن خلفاؤه من استخدامها لهزيمة جيوش الإمبراطوريات الفارسية والبيزنطية وإرساء قاعدة إمبراطورية الإسلام. ولولا هذا التغيير فإن من المرجح أن تظل الفتوحات العربية مستحيلة عسكرياً.

المتمرد

على الرغم من أن إصلاحات محمد وإنجازاته العسكرية لها الكثير من القواسم المشتركة مع أعظم الجنرالات في العصور القديمة، إلا أن محمداً لم يكن جنرالاً تقليدياً، بل كان نوعاً جديداً من المحاربين الذين لم يسبق لهم مثيل في تلك الأزمنة. كان أولاً وقبل كل شيء ثورياً، مُسعّراً لحرب عصابات دينية، أنشأ وقاد أول تمرد وطني في العصور القديمة، وهذه حقيقة فهمها في زمننا هذا، ولا تغيب عن الجهاديين المعاصرين، الذين غالباً ما استشهدوا بالقرآن واستخدام محمد للعنف كمبرر لما يفعلونه. وعلى عكس الجنرالات التقليديين لم يكن هدف محمد هو هزيمة العدو الأجنبي أو الغازي، وإنما استبدال بالنظام الاجتماعي العربي القائم نظام جديد يستند إلى نظرة أيديولوجية إلى العالم مختلفة جذرياً. ولتحقيق أهدافه الثورية استغل كل الوسائل المعترف بها من قبل المحللين المعاصرين بوصفها خصال ضرورية لتمرد ناجح. وعلى الرغم من أنه بدأ كفاحه لتحقيق نظام جديد بقوة

= حول تأثير المسلمين في المذاهب النصرانية اللاحقة للحروب الصليبية انظر: Richard A. Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, 3 vols. (Westport, Conn.: Greenwood, 2005), vol. 3: *From the Medieval Realm to the Ottoman Empire*, p. 792.

صغيرة وعصابة قادرة على القيام بعمليات محددة من الكر والفر، إلا أنها نمت لتصبح قوة مسلحة تقليدية كبيرة مع وحدات سلاح فرسان ومشاة متكاملة، قادرة على القيام بعمليات قتالية واسعة النطاق، وتجلّت في هجومه على مكة. استخدم خلفاء محمد هذه الأدوات العسكرية لتشكيل إمبراطورية عظيمة، وكانت تلك بالفعل أول قوة عسكرية وطنية حقيقية في التاريخ العربي.

بداية من فرقة صغيرة من المؤمنين، خاض محمد حرب عصابات وضع فيها الكمائن وشن حملة من الغارات لتقويض القاعدة الاقتصادية والسياسية لعدوه. كما قدّم محمدٌ برامج اجتماعية جديدة وأيديولوجيا سياسية - دينية جذبت الآخرين إلى قضيته، ووسعت قاعدة قوته العسكرية، وجعلت من الممكن تجنيد ونشر قوات عسكرية أكبر. بعد سنوات من حرب العصابات استطاع محمد أخيراً هزيمة أعدائه من خلال استدراجهم إلى سلسلة من المعارك المنظمة، وتمكّن في نهاية المطاف من الاستيلاء على مكة نفسها. دَعم البعد السياسي الجهود العسكرية للتمرد، حيث استخدم محمد التحالفات السياسية لحرمان أعدائه من مصادر الكوادر العسكرية وتقويض قاعدة دعمهم الشعبية. كما وظّف المناورة السياسية والتفاوض والاستخبارات والدعاية والاستخدام الحكيم للترهيب والتصفية في شن حملة نفسية ضد مصادر المعارضة المحتملة، التي لم يستطع استقطابها إما أيديولوجياً أو من خلال تحقيقه بعضاً من مصالحها الذاتية.

إن صعود محمد إلى السلطة كان قصة مثالية للتمرد الناجح، وهو في الواقع أول مثال من هذا القبيل في التاريخ بحسب ما أعلم[(٧)]. وبإمكان المتمردين المعاصرين أمثال ماو تسي تونغ، هو تشي مينه، جومو كينياتا، فيديل كاسترو، وربما جورج واشنطن، أن يتعرفوا إلى استراتيجيته وأساليبه

---

(٧) لأكثر من ثلاثين عاماً، كنت أؤكد أن التاريخ العسكري للعالم القديم لم ينتهِ في عام ٤٥٠ بعد الميلاد كما يتم تأكيده كثيراً، ولكن عندما انتهى آخر جيش في العالم القديم، وهو جيش الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية عام ١٤٥٣. وجهة نظري هذه موجودة في كتابي: Gabriel, Ibid., vol. 1: *From Sumer to the Persian Empire*, p. 15.

تكمن أهمية الحجة لكتابي هذا في إشارتي إلى أن محمداً عاش خلال الفترة القديمة من التاريخ العسكري. آمل أن يمنحني القارئ هذا التساهل حتى مع الاحتفاظ بالحكم النهائي على صحة الحجة.

في نضالاتهم الثورية. لقد اعتاد الغرب التفكير في الفتوحات العربية التي تلت محمداً بمصطلحات عسكرية تقليدية بحتة، لكن الجيوش التي حققت تلك الفتوحات لم تكن موجودة في الجزيرة العربية قبله. لقد كانت عملياته من خلال حرب العصابات غير التقليدية الناجحة، وتمرده الموفّق، هي التي جلبت تلك الجيوش إلى الوجود. وهكذا، فإن الفتوحات العربية اللاحقة، فيما يتعلق بكل من المفهوم الاستراتيجي والجيوش الجديدة، كانت من نتائج النجاح العسكري السابق لمحمد كزعيم للتمرد.

من المرجح أن يستغرب القارئ هذا الجانب من حياة محمد العسكرية كمتمرد يخوض حرب العصابات، وهذا قد يقوده للسعي نحو بعض التفصيل. إذا كانت الوسائل والأساليب التي استخدمها المحللون العسكريون المعاصرون لتوصيف حروب التمرد، فمن الواضح أن حملة محمد لنشر الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية استوفت كل المعايير التحليلية.

الشرط الأول للتمرد الناجح هو زعيم عازم مميز يرى فيه أتباعه أهلية الزعامة. في مثال محمد تعززت شخصيته الكاريزمية الخاصة مع اعتقاده الراسخ بأنه رسول الله حقاً، وأن اتّباعه طاعةٌ واجبةٌ لأوامر الله. وتتطلب عمليات التمرد أيضاً أيديولوجية رساليّة مُخلِّصة، تتبنى عقيدة متماسكة أو تخطط لاستبدال النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي القائم ـ الذي ينظر إليه عادة على أنه ظالم ـ بنظام جديد أفضل، أكثر عدلاً، له حتمية تاريخية أو أمر به الله. لقد استخدم محمد العقيدة الدينية الجديدة للإسلام لتحدي المؤسسات والقيم الاجتماعية العربية القديمة والنظر إليها بوصفها قمعية وغير مقدسة وتستحق الاستبدال. ولهذه الغاية أنشأ مجتمع المؤمنين أو «الأمة»، والذي هو مجتمعٌ تابعٌ لأوامر الله على الأرض، ليكون بمنزلة بديل رسالي مخلّص للعشائر والقبائل التي كانت أساس المجتمع العربي التقليدي. وكان من أهم إنجازاته إنشاء مؤسسات اجتماعية جديدة غيّرت النظام الاجتماعي العربي القديم وفي بعض الأحيان حلّت مكانه.

يتطلب التمرد الناجح أيضاً كادراً منضبطاً من المؤمنين الحقيقيين للقيام بتجنيد الأعضاء الجدد وتنظيمهم. تألف كادر محمد الثوري من مجموعة صغيرة من المسلمين الجدد الذين استقطبهم في مكة وأخذهم معه إلى

المدينة، وهؤلاء هم المهاجرون. تكوّن هذا الكادر أيضاً من أوائل المسلمين من عشائر المدينة، وهم الأنصار. ضمّ هذا الكادر الثوري دائرة داخلية من الرجال الموهوبين، وآخرين ممن تأخر اسلامهم. كان بعضهم، مثل عبد الله بن أُبيّ، وخالد بن الوليد، من القادة الميدانيين المتمرسين، وقدموا مصدراً كبيراً من الخبرة العسكرية. كانت مهمة هذه الدائرة الداخلية هي تقديم المشورة له والتأكد من إنفاذ توجيهاته. ليس من المستغرب أن بعض مستشاريه جاؤوا لشغل مناصب رئيسة خلال حياته، وتقاتلوا فيما بينهم من أجل السلطة بعد وفاته.

بمجرد أن أنشأ محمد كادره من الثوار، أسس قاعدة لشن عمليات عسكرية ضد خصومه. وقد اتخذت هذه العمليات في البداية شكل كمائن وغارات تهدف إلى عزل مكة مدينة العدو الرئيسة، والمدن التجارية الأخرى التي عارضته. يعيش واحد فقط من كل ستة عرب في مدينة حضرية في ذلك الزمن، والآخرون يقيمون في الأطراف أو البادية كبدو رُحّل[٨]. اختار محمد المدينةَ كقاعدةٍ للعمليات، وكان لها موقع استراتيجي على بعد مسافة قصيرة من طريق القوافل الرئيس من مكة إلى سوريا، والذي شكل شريان الحياة الاقتصادي لمكة وغيرها من الواحات والبلدات التي تعتمد على تجارة القوافل كشرط لبقائها الاقتصادي. كانت المدينة أيضاً بعيدة بما فيه الكفاية عن مكة للسماح له بحرية حركة نسبية في جهوده لأسلمة العشائر البدوية التي تعيش على طول طريق القوافل. وقد أدرك أن مفتاح الفوز الأول هو نجاحه في عملية الدعوة إلى الإسلام وإقامة تحالفات سياسية مع البدو، لا المواجهات العسكرية مع مكة.

تتطلب عمليات التمرد قوة مسلحة، وقوى بشرية للحفاظ عليها. سيكبر هذا الكادر الأصلي الصغير من المقاتلين ليصبح جيشاً تقليدياً كبيراً يتحدى أعداءه في معارك نظامية عندما يحين الوقت وتتهيئ الظروف السياسية. قد يكون محمد أول قائد في التاريخ يفهم وينفذ العقيدة التي أطلقها الجنرال الفييتنامي الشمالي جياب: «حرب الشعب...جيش الشعب»[٩].

---

(٨) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002), p. 17.

(٩) للتعرّف إلى الأساليب المطلوبة لتنظيم التمرد وإجرائه. انظر: Vo Nguyen Giap, *People's* =

بثّ محمد بين أتباعه فكرة أن الله قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وأن عليهم تحمل مسؤولية الكفاح من أجل الدين. كان على كلٍّ من الرجال والنساء وحتى الأطفال(*) واجب الخدمة العسكرية للدفاع عن العقيدة والأمة التي كانت تشكل مجتمعاً اختاره الله للناس. إن لم يكن هذا مفهوماً بشكل صحيح، فسيكون من الصعب فهم جاذبية أيديولوجية الإسلام التي جمّعت القوى العاملة، ما سمح لكادر محمد الثوري الصغير أن ينمو ويصبح قوة مسلحة تقليدية قادرة على القتال بأعداد ضخمة.

إن نمو جيش التمرد بقيادة محمد واضح من الأرقام الآتية: في معركة بدر (٦٢٤م) كان قد وضع ٣١٤ رجلاً فقط في الميدان. وبعد ذلك بعامين في بدر الثانية (٦٢٦م)، كان هناك ١٥٠٠ مسلم. في خيبر (٦٢٨م) نما الجيش الإسلامي إلى ٢٠٠٠ مقاتل. وعندما شن محمد هجومه على مكة (٦٣٠م) فعل ذلك مع ١٠٠٠٠ رجل. أما في معركة حنين بعد بضعة أشهر فقد بلغ عدد الجيش ١٢٠٠٠ مقاتل. تسجل بعض المصادر أن حملة محمد على تبوك في وقت لاحق من العام نفسه ضمت ٣٠,٠٠٠ راجل و١٠ آلاف فارس، ولكن هذا مبالغة على الأرجح(١٠). غير أن ما يتضح من الأرقام هو أن تمرد محمد نما بسرعة كبيرة من حيث قدرته على تجنيد القوى العسكرية المقاتلة.

ومثل جميع الجيوش المتمردة، استولت قوات محمد في البداية على الأسلحة عن طريق نزعها من الأسرى وقتلى الأعداء. كانت الأسلحة والخوذات والدروع مكلفة في شبه الجزيرة العربية الفقيرة نسبياً، وكان المسلمون الأوائل ـ ومعظمهم من الفقراء واليتامى والأرامل وغيرهم من المهمشين اجتماعياً ـ لا يمكنهم تحمل تكاليفها. في أول مواجهة كبيرة مع جيش العدو في معركة بدر، جُرّد القتلى من سيوفهم والمعدات العسكرية

War, People's Army: The Viet Cong Insurrection Manual for Underdeveloped Countries (New York:= Bantam Books, 1968).

(*) لم يرد في السيرة النبوية استخدام الأطفال في الجيوش على الإطلاق، بل تمّ رد بعض المتطوعين المتحمسين بسبب صغر سنهم كما حصل في غزوة أُحُد عندما لم يسمح لعبد الله بن عمر وآخرين في سنه من المشاركة (المترجم).

(١٠) Watt, *Muhammad at Medina*, p. 257.

الأخرى، وأصبحت تلك الممارسة معتادة بعد ذلك، كما طالب محمد الأسرى بتوفير الأسلحة والأدوات بدلاً من المال لفدائهم. وكان أحد الأسرى في معركة بدر تاجر أسلحة فطُلب منه تقديم ألف رمح ثمناً لحريته[١١]. في أيام المدينة الأولى اشترى محمد بعض الأسلحة من إحدى القبائل اليهودية في المدينة التي كانت تتقن صناعتها، وفي وقت لاحق عندما طردهم من المدينة، كان حريصاً على مطالبتهم بترك ورش التصنيع حتى يتمكن المسلمون من تصنيع الأسلحة بأنفسهم. وفي نهاية المطاف تمكن محمد من توفير الأسلحة والخوذ والدروع لجيش من عشرة آلاف رجل في مسيرته لفتح مكة.

لقدرة محمد الحصول على أسلحة ومعدات ميزة مهمة أخرى، فقد جاء الكثير من المسلمين الجدد من أفقر عناصر العشائر البدوية، وليست لهؤلاء القدرة على اقتناء الأسلحة والدروع. كثيراً ما زود محمد هؤلاء المؤمنين الجدد بأسلحة باهظة الثمن، وهذا ما أدى إلى رفع مكانتهم داخل العشيرة وضمان ولائهم له، إن لم يكن هذا الولاء للإسلام. كما استطاع أن يضمن ولاء زعماء البدو في مفاوضاته معهم من خلال هدايا ثمينة لهم، ولو لم يدخلوا في الإسلام.

كانت للخيول والإبل أهمية عسكرية بالغة لشنّ غارات وعمليات بعيدة المسافات، وقد استطاع محمد الحصول عليها بالطريقة نفسها التي فعل بها مع العتاد العسكري، وبنجاح متساوٍ. ففي بدر مثلاً كان لدى المسلمين فرسان فقط، وبعد ست سنوات في معركة حنين كان سلاح الفرسان يبلغ ٨٠٠[١٢].

على التمرد أن يحافظ على القاعدة الشعبية التي تدعم العناصر المقاتلة، ولإنجاز هذا، غيّر محمد العادات القديمة بشأن تقسيم الغنائم. تقليدياً كان زعيم العشيرة أو القبيلة يقتطع رُبع الغنائم لنفسه. أمَر محمد بأن لا يحصل هو إلا على الخُمس، وحتى هذا لم يأخذه لنفسه ولكن باسم الأمة. في

---

(١١) Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet*, p. 40.
نقلاً عن: ابن حجر في كتابه **الإصابة في تمييز الصحابة**.

(١٢) Watt, Ibid., p. 257.

السابق أبقى الأفراد الغنائم التي استولوا عليها، ولكن محمداً أشار بأن تحوّل كل الغنائم إلى سلة مشتركة تقسّم بالتساوي بين جميع المقاتلين الذين شاركوا في الغزوة. والأهم من ذلك، قرر محمد أن أول المطالبين بالغنائم التي أُخذت باسم الأمة هم الفقراء والأرامل وأيتام الجنود الذين قتلوا في المعركة. كما وعد بنصيب أكبر من الغنائم لإبرام التحالفات مع العشائر البدوية التي ظل بعضها موالياً له ووثنياً في الوقت نفسه وكانوا يشاركون من أجل الغنائم لا من أجل الإسلام. إن النجاحات العسكرية التي حققها محمد في وقت لاحق ضد المدن والواحات والقوافل كانت مصدراً مهماً للثروة، وزودت القاعدة الشعبية المتمردة بضرورات الحياة.

على زعيم التمرد أن يولي عناية كبيرة لحماية سلطته من التحديات، بما في ذلك تلك التي تأتي من داخل الحركة نفسها. كان لدى محمد الكثير من الأعداء، وكان دائماً على أهبة الاستعداد ضد محاولات اغتياله. ومثل الزعماء المتمردين الآخرين، أحاط نفسه بمجموعة مخلصة من الرجال الذين سيكونون حراسه الشخصيين المستعدين لتنفيذ أوامره دون تردد. لهذا الغرض أنشأ محمد مجموعة «الصُّفة»(*) على وجه التحديد، وكانوا كادراً صغيراً عاش في المسجد بجوار منزلٍ له، وقد جنّدوا من بين الأكثر تقوى وتعصباً له، ومن أكثر الأتباع فقراً وأقلهم قدرة على إيجاد عمل آخر؛ بل كانوا يقضون أوقاتهم في دراسة الدين والصلاة والروحانية. لقد وهبوا حياتهم لمحمد وعملوا كحراس شخصيين له، ليس ذلك فحسب، بل أيضاً كشرطة سرية يمكن استدعاؤها في أي لحظة لتنفيذ مهمةٍ يبلّغهم بها. وتشمل هذه المهام التصفيات والترهيب.

لا يمكن لأي تمرد أن يعيش من دون جهاز استخباراتي فعال، ولم يكن التمرد الإسلامي استثناء. في وقت مبكر عندما غادر محمد مكة ترك

(*) يذهب المؤلف بعيداً لفهم مكانة أهل الصفة، وينسب إليهم ما لم يُذكر في كتب السيرة. والحقيقة أن المكان الذي نسبوا إليه، وهو «ظلة في مؤخر مسجد رسول الله ﷺ يأوي إليها المساكين» كما قال القاضي عياض، كان مظللاً «لنزول الغرباء والفقراء ممن لا مأوى لهم ولا أهل» كما قال ابن حجر. والواضح أنه لم يكن نزلاً دائماً، وتركه الكثير بعد استقرارهم في المدينة أو بعد إيجاد عمل. ولم يكن إلا مكانَ إيواءٍ مؤقت بعد أن استنفدت طاقة الأنصار في استيعاب القادمين، ولم يعرف عنه أنه تجمع بحد ذاته وأن له أفكاراً أو مهام خاصة به (المترجم).

وراءه وكيلاً موثوقاً به، وهو عمه العباس، الذي واصل إرسال تقارير عن الوضع هناك. عمل العباس كعينٍ في ذلك المكان لأكثر من عقد من الزمن حتى سقطت مكة نفسها بيد محمد. كانت هناك معاناة من نقص الاستخبارات التكتيكية في بداية عمليات محمد، وكان أتباعه في الغالب سكان مدن وليست لديهم تجربة في سفر الصحراء. وفي بعض العمليات المبكرة كان عليه أن يستأجر أدلاء من البدو لإرشادهم إلى مبتغاه. ومع ازدياد التمرد، أصبحت أجهزة مخابراته أكثر تنظيماً وتطوراً، وذلك باستخدام وكلاء في عين الأماكن وجواسيس تجاريين، واستخلاص المعلومات من السجناء، ودوريات الاستطلاع والقتال.

يبدو أن محمداً نفسه كان يمتلك معرفة تفصيلية عن الولاءات العشائرية والسياسية داخل منطقة عمليات التمرد، واستخدم هذه المعرفة في التأثير بشكل جيد عند التفاوض على التحالفات مع البدو. وكثيراً ما أجرى محمد استطلاعاً مسبقاً لميادين القتال قبل أن يخوض المعارك، ولم يفاجأ في عملياته العسكرية إلا مرة واحدة خلال عشر سنوات. غالباً ما تمكنت مخابراته من تزويده بمعلومات كافية عن مواقع العدو ونواياه قبل بداية المعارك. ليس لدينا معرفة كافية بتنظيم جهاز المخابرات لديه أو أماكن وجوده، وتقدير أنه استخدم «أهل الصُّفة» لذلك الغرض يبدو تخميناً معقولاً.

يعتمد نجاح عمليات التمرد أو فشلها بدرجة كبيرة على قدرتها على كسب ولاء أعداد كبيرة من غير الملتزمين بالتمرد لدعم أهداف المتمردين. فَهِم محمد دور الدعاية في النضالِ من أجل قلوب غير الملتزمين وعقولهم، وذهب إلى أبعد من ذلك بكثير لجعل رسالته عامة ومعروفة على نطاق واسع. وكان الشاعر في المجتمع العربي الأمّي غالباً آنذاك بمثابة الناقل الرئيس للدعاية السياسية، وقد استعان محمد بأفضل الشعراء الموجودين ومنحهم المال، وكانوا يمدحونه وينتقصون من خصومه. وقام أيضاً بنشر ما يوحى إليه كنبيٍ مرسل من الله بطريقة علنية، وبقي دائماً موجوداً يشاهده الناس للحفاظ على رؤية النظام الجديد، ووعد الجنة السماوية باستمرار لأتباعه وأولئك الذين يسعى لتحويلهم إلى الإسلام. كما أرسل الدعاة إلى العشائر والقبائل الأخرى لإرشاد الوثنيين إلى الدين الجديد، وفي بعض الأحيان تعليمهم

القراءة والكتابة. أدرك محمد حقيقة الصراع على أنه بين نظامٍ اجتماعي قائم ومظاهره الظالمة جداً وبين رؤيته للمستقبل، وقد تفوّق على خصومه في نشر رؤيته لكسب ولاء المجتمعات العربية ودعمها.

من الواضح أن استخدام الترهيب عنصر لا غنى عنه في أي تمرد ناجح، وهذا ينطبق على حالة محمد، وقد وظفها بطريقتين أساسيتين. **أولاً**، للحفاظ على الانضباط بين أتباعه من خلال جعل الخونة أو المرتدين عبرة للآخرين. يُنسى أحياناً أن عقوبة الردة في الإسلام في عصر محمد كانت الموت. كما أمر محمد أيضاً بالتخلص من بعض أعدائه السياسيين، بمن فيهم الشعراء والمغنون الذين سخروا منه علناً. ولم يكن لينسى تلك الإهانات، ولذلك عندما سارت جيوشه إلى مكة قام «أهل الصُّفة» بتعقب قائمة من أعدائه القدامى وُضعت أسماؤهم في لائحة الموت. **ثانياً**، استخدم محمد الترهيب لترعيب أعدائه على نطاق واسع، كما في حالة القبائل اليهودية في المدينة، ويبدو أنه قد أمر بقتل جميع ذكور قبيلة بني قينقاع وبيع نسائهم وأطفالهم عبيداً قبل أن يثنيه عن عزمه أحد زعماء قبيلة كانت متحالفة معه. وفي مناسبة أخرى، وهذه المرة ضد قبيلة يهودية أخرى في المدينة، أمر بقتل جميع الذكور البالغين ـ نحو ٩٠٠ ـ في الساحة العامة، واسترقاق النساء والأطفال، وتوزيع ممتلكاتهم على أتباعه المسلمين. بعد فترة وجيزة من غزو مكة، أعلن محمد «معركته النهائية» ضد كل أولئك الذين بقوا وثنيين، وأمر أتباعه بقتل أي وثني حيث يثقفونه! هذه الاستعراضات العلنية من القسوة البالغة ـ كما هي الحال في جميع عمليات التمرد ـ تعزز سلطته عند التعامل مع المعارضين والحلفاء.

عند النظر إلى المعايير التي يستخدمها المحللون المعاصرون لدراسة نجاح أي تمرد، فإن الحملة العسكرية التي خاضها محمد لإرساء الإسلام في شبه الجزيرة العربية مؤهلة من جميع النواحي للتميز والنجاح. لا شيء في هذا الاستنتاج ينتقص من جوهر وقيمة الإسلام نفسه كدين، كما أن تاريخ الحملة العسكرية لبني إسرائيل لقهر الكنعانيين لا ينتقص من مضمون الديانة اليهودية وقيمتها. مع مرور الوقت تُنسى أصول العنف من الدين، ويبقى الإيمان وحده قائماً، إلى درجة أن مؤسسي الأديان يبدون غير مرتبطين بذلك

العنف في السجل التاريخي. في مثال محمد كانت النتيجة هي عدم التشديد على الجوانب العسكرية في حياته وإنجازاته العسكرية الكبيرة. إن أحد أغراض هذا الكتاب هو إعادة دراسة السجل التاريخي لحياته العسكرية. أما التاريخ الديني العام للإسلام فنتركه للآخرين.

مصادر البحث

أي محاولة لكتابة سيرة محمد العسكرية تضطر كاتبها إلى الاعتماد على كمية قليلة من المصادر الموثوقة. الأول هو القرآن نفسه، وهو السجل الحرفي للأوامر الأخلاقية والتشريع إضافة إلى تفسيرات الأحداث حيث يعتقد المسلمون بأنه كلام الله الذي أوحاه لمحمد. وعندما كان الوحي يتنزل على محمد فإنه كان يتلوه على أتباعه ليحفظوه في صدورهم. كان البعض يكتبه، ولكن قلة القادرين على الكتابة في ذلك الوقت إضافة إلى ندرة مواد الكتابة في جزيرة العرب كان من شأنه أن يجعل التدوين نادر الحدوث في وقته.

ومع ذلك، يعتقد المسلمون المتدينون أن تعاليم محمد كُتبت مباشرة بعد نزولها، وهذه الحقيقة تؤخذ كدليل من المسلمين على أن القرآن يحتوي على كلمات الله غير المحرفة. على النقيض من ذلك، فإن فشل النصارى واليهود في كتابة كلام الله فور تنزّله ينظر إليه على أنه سمح للبشر بتحريف الكتب المقدسة، ولذا فإن الاعتقاد في التدوين اللحظي لكلام محمد يعد جزءاً رئيساً من إيمان المسلمين. وحتى لو تركنا الدراسة الدينية جانباً، فمن المرجح أن القرآن هو أفضل مصدر لما تحدث به محمد نفسه. لكن، لا ينبغي أن يُعدّ القرآن وثيقة أو مصدراً لكتابة التاريخ العسكري نظراً لقلة المعلومات ذات الصلة بموضوعنا، كما أن القرآن لم يجمع إلا بعد عشرين عاماً من وفاة محمد(*)، (ولم يكن هدف القرآن أن يكون رواية لحياة النبي، كما أنه لم يتم ترتيب القرآن ترتيباً زمنياً لوقوع الأحداث المسجلة داخله، ولكن رُتب حسب طول السور بدءاً من الأطول وانتهاءً بالأقصر. ولأغراض

(*) جُمع القرآن في عهد الخليفة الأول أبو بكر، وكلّف الصحابي زيد بن ثابت وهو أحد الحفّاظ بتلك المهمة، واكتمل العمل قبل وفاة أبو بكر، أي بعد عامين فقط من وفاة الرسول ﷺ (المترجم).

هذه الدراسة فإن أهمية القرآن تكمن في أنه مرجع لمعرفة كلام محمد في تلك الحالات ذات الصلة بحياته العسكرية.

المصدر **الثاني** الأكثر فائدة عن حياة محمد هو الإنجاز الكبير لابن إسحاق، واسمه **السيرة النبوية**، والذي كتب بعد نحو تسعين سنة من وفاة النبي، وترجم إلى الفرنسية والإنكليزية من قِبل العالم الكبير ألفريد غيوم عام ١٩٥٥. وقد نقح ابن هشام كتاب ابن إسحاق في وقت لاحق، وهذه هي النسخة التي بقيت ووصلتنا. وعلى الرغم من اعتراف ابن هشام بأنه قد أغفل عمداً «أشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعضها يسوء بعض الناس ذكره»، إلا أنه لا يوجد منافس له كمصدر أصلي للمعلومات عن محمد والأحداث المحيطة بحياته، خاصة تلك العسكرية. وتعتبر ترجمة غيوم «المعيار الذهبي» لترجمات هذا المصدر، وأنها لمخاطرة بالفشل لأي دارس لحياة محمد ألا يعتمد على ابن إسحاق.

بنيت سيرة ابن إسحاق للنبي من المغازي، وهي أقدم ما سُجّل وكُتب عن حياة محمد في غضون مئة عام من وفاته. ولم ينجُ أي من كتب المغازي بشكل يسهل استعماله غير جزء واحد من كتاب واحد بقي إلى الآن. واستندت المغازي إلى روايات شفهية عن أفراد عرفوا النبي وشاركوا في معارك معه، أو كانوا أقارب لهم. رُويت هذه الشهادات من جيل إلى آخر في التقليد الشفهي المعتاد للثقافة العربية حتى يومنا هذا. حرص ابن إسحاق على الاستشهاد بأسماء مصادره لمعظم الأحداث الكبرى في كتابه، وأحياناً تعقب المصدر إلى سابقيه. ومن غير المستغرب بقاء هذه الشهادات الشفوية حية لما يقرب من مئة سنة ـ قبل أن يجمعها ابن إسحاق ـ في ثقافة كانت تعتاد على حفظ ورواية مآثر القبائل والعشائر، وأبطالها، وتورّثها للأبناء.

تتضمن سيرة ابن إسحاق أيضاً مواد أصلية إضافية في شكل قصائد عن الغزوات والمعارك، والتي كتبت بعد وقت قصير من الأحداث نفسها، وأحياناً من قبل المشاركين الفعليين. ومن ثمّ، حافظت جهود ابن إسحاق على مصدر قيّم آخر، وهو التاريخ الشفوي، والذي ربما كان قد ضاع. كانت القصائد مصدراً ممتازاً للتفاصيل حول العتاد العسكري والأحداث التكتيكية. إن كتاب ابن إسحاق، سواء بالعربية أو من خلال ترجمة غيوم النهائية،

لا يزال من الأعمال الأصلية التي يستخدمها جميع كتّاب سيرة محمد، بما في ذلك الذين كتبوا باللغة العربية.

قد يؤدي القلق الأكاديمي بشأن الاعتماد على المصادر «الأصلية» إلى **انتقاد** المواد التي تعتمدها هذه الدراسة ووصفها بمصادر «ثانوية»، ومن ثَم أقل قيمة. وإن كنا نعني بالمصادر الأولية تلك المواد التي كتبت في أقرب زمن للأحداث فإن عمل ابن إسحاق مؤهل بالتأكيد ليكون مادة أولية. فقد كتبه بعد تسعين سنة من الأحداث التي سجلها، وبالمقارنة مع المصادر «الأصلية» التي كثيراً ما يستشهد بها المؤرخون القدماء في الغرب، فإن كتابه يكاد يكون معاصراً للأحداث ذاتها. المؤرخ بلوتارخ، على سبيل المثال، كتب عن الأحداث التي وقعت قبل مئتي إلى ستمئة سنة، وقد كتب المؤرخ أريان **تاريخ الإسكندر** بعد خمسمئة سنة من وفاة الإسكندر، وأرخ كيرتيوس للإسكندر بين ثلاثمئة وخمسمئة سنة بعد الأحداث التي سجلها، أما المؤرخ المعتبر ليفي فقد كتب عن الأحداث التي وقعت قبل قرنين من ولادته. كان هناك عدد قليل من المؤرخين القدماء - تاسيتوس، بوليبيوس، سويتونيوس - الذين كتبوا عن أحداث وقعت فعلاً خلال حياتهم. وللإنصاف، فإن كتاب ابن إسحاق مؤهل كمصدر أصلي موثوق به.

قد يكون النقد **الثاني** هو أن هذه الدراسة تعتمد على ترجمة المصادر وليس على النسخ العربية الأصلية(١٣). ولكن نادراً ما تكون المهارات اللغوية لأي باحث مساوية لمهارات المترجم العلمي، بحيث يمكن للمرء أن يكون متأكداً أن ترجمةً علميةً يقدمها عالم مثل **غيوم** هي أكثر موثوقية من تلك التي ينتجها باحث، فقط لأن الباحث يقرأ اللغة العربية. وفيما يتعلق بالتاريخ العسكري، فإن معرفة الموضوع وسياق المواد في اللغة المستهدفة هي أكثر أهمية من المهارات اللغوية بلغة المصدر. وإلا، فإن الاستخدام الحرفي للغة من المرجح أن يضلل المترجم، لأن قراءة اللغة العربية لا تجعل من القارئ

(١٣) انظر كتابيَّ كأمثلة لأعمالي السابقة التي تعتمد على مصادر بلغات أجنبية لسرد التاريخ العسكري: Richard A. Gabriel: *Subotai the Valiant: Genghis Khan's Greatest General* (Westport, Conn.: Praeger, 2004), and *The Military History of Ancient Israel* (Westport, Conn.: Praeger, 2003).

مترجماً للتاريخ العسكري العربي، بل يجب أن يكون المرء مؤرخاً عسكرياً بالأصل. إضافة إلى ذلك، فإن الترجمات الحديثة للأعمال الكلاسيكية قد تكون أقل خضوعاً للتحيز الأيديولوجي والثقافي والديني والذي عادة ما يحيط بأجواء الترجمات القديمة. وكلما استعنت بكتب لعلماء غربيين أو عرب (بيكر، كايتاني، غلوب، حتي، الحوراني، لويس، لينغس، رودنسون، الشوفاني، وات، فيلهاوسن) فقد حرصت على الاعتماد على أولئك الذين كانوا يقرؤون العربية والذين خضعت أعمالهم المنشورة للتدقيق الأكاديمي وكان لها قبول. لم أستخدم التهجية الحرفية للأسماء والأماكن المختلفة المذكورة هنا، ولكن اعتمدت على التهجية المستخدمة في مصادري. وحيثما يحدث هذا فقد أشرت في الحواشي إلى الوثائق ذات الصلة والتي استندت إليها المصادر العربية.

الكلمات العربية التي تظهر في المخطوطة مأخوذة مباشرة من المصادر الأكاديمية التي تظهر فيها. وعلى هذا النحو، ينبغي أن تكون كلها صحيحة. قد يجد بعض الناس خطأً في التهجئة العربية لأن بعض الكلمات لم تكتب باللغة العربية الكلاسيكية. هذا خطر لا مفر منه عند قراءة الترجمات، ولكنه ليس عيباً قاتلاً ما دام لم يغير المعنى. وقد تم تقليل هذه المشاكل من خلال مراجعة المخطوطات من قبل الخبراء العرب الأربعة المذكورين في بداية الكتاب.

المصدر **الثالث** للمواد البحثية التي يعتمد عليها هذا العمل هو الحديث النبوي، وهو الأحاديث والآثار الشفهية والتراث المحمدي والذي تم جمعه بعد نحو ١٢٠ عاماً بعد وفاة الرسول، ويشمل «الأقوال والكلمات والأفعال والموافقات الضمنية» من النبي، وقد يصاحبه تفسيرات من قبل الفقهاء والعلماء، بما في ذلك الفصائل السياسية ذات النفوذ في ذلك الزمان. الحديث يمثل السنة، أو الطريقة ـ العادات والأفعال المنسوبة إلى النبي محمد. وكمصدر تاريخي، يمكن أن يعد هذا التجميع في أحسن الأحوال تكراراً لما أرخه ابن إسحاق، وفي أسوأ الأحوال قد يعد مضللاً وغير دقيق بسبب تحيّز المفسرين له.

هناك صعوبة كبيرة في استخدام المصنفات التي كتبت باللغة العربية بعد

كتاب ابن إسحاق، وهو أن كلمات محمد والمرويات الشفهية للأحداث المحيطة بحياته أصبحت بسرعة متشابكة في التفسيرات المختلفة للتشريع القرآني، والذي استخدم كسلاح دعائي في النزاعات الدينية والسياسية من قبل مختلف الفصائل لمدح الذات وتشويه سمعة الخصوم. وكما لاحظ غيوم في هذا الصدد، «إن التراث النبوي في الإسلام هو ساحة معركة للفرق المتصارعة التي تسعى إلى التحكم بعقول الرجال والسيطرة على سلوكهم من خلال الوزن الكبير لذلك التراث - حتى لو كان مفترَضاً أو ملفقاً - وتقِلُّ هذه الظاهرة مع النصوص الأقدم»[١٤]. غالباً ما أصبح الكثير ممّا كُتب عن محمد في اللغة العربية بعد ابن إسحاق غير مُجدٍ كمادة بحثية موثوقة، وذلك بسبب التحيز الثقافي والأيديولوجي والديني والفقهي. وعلى أي حال، فإن القليل منه يعالج مآثر محمد العسكرية.

هذا الكتاب هو أول سيرة عسكرية لمحمد باللغة الإنكليزية كتبها مؤرخ عسكري، وخالٍ من التحيز الديني والسياسي الذي غالباً ما يوجد في سير المسلمين السابقين. الاستنتاج بأنّ محمداً كان مصلحاً عسكرياً جديداً وأنه شكّل صعود نوعٍ جديدٍ من الجيوش وأساليب الحرب في الجزيرة العربية هو استنتاج غير مسبوق في نطاق الدراسات العلمية المعنية بمحمد، ولو لم تدخل هذه الإصلاحات العسكرية حيّز التطبيق والممارسة لتعذرت عسكرياً الفتوحات الإسلامية. أما الأكثر أهمية فهو اختراع محمد لمنهجية التمرد وأنه كان أول ممارس ناجح لها. لقد حاولت جعل أوصاف معارك محمد أكمل وأكثر تفصيلاً من الجهود السابقة، على أمل أن يعيد العلماء النظر في افتراضاتهم السابقة حول تلك المعارك وآثارها. وأخيراً، وبسبب كل هذه الاستنتاجات، حاولت أن أضع حياة محمد في سياقٍ جديدٍ تماماً. إن نجاحه كنبيٍّ لا يمكن إنكاره، ولكني أقترح أنه لربما لم يكن لينجح لو لم يكن محارباً عظيماً أولاً. وهذا يشكل تحدياً جديداً للدراسات الموجودة في تفسير حياته ومكانته في التاريخ.

(١٤) Muhammad Ibn Ishaq, *The Life of Muhammad: A Translation of Ibn Ishaq's Life of Muhammad*, translated by Alfred Guillaume (Oxford: Oxford University Press, 1967), vol. 34.

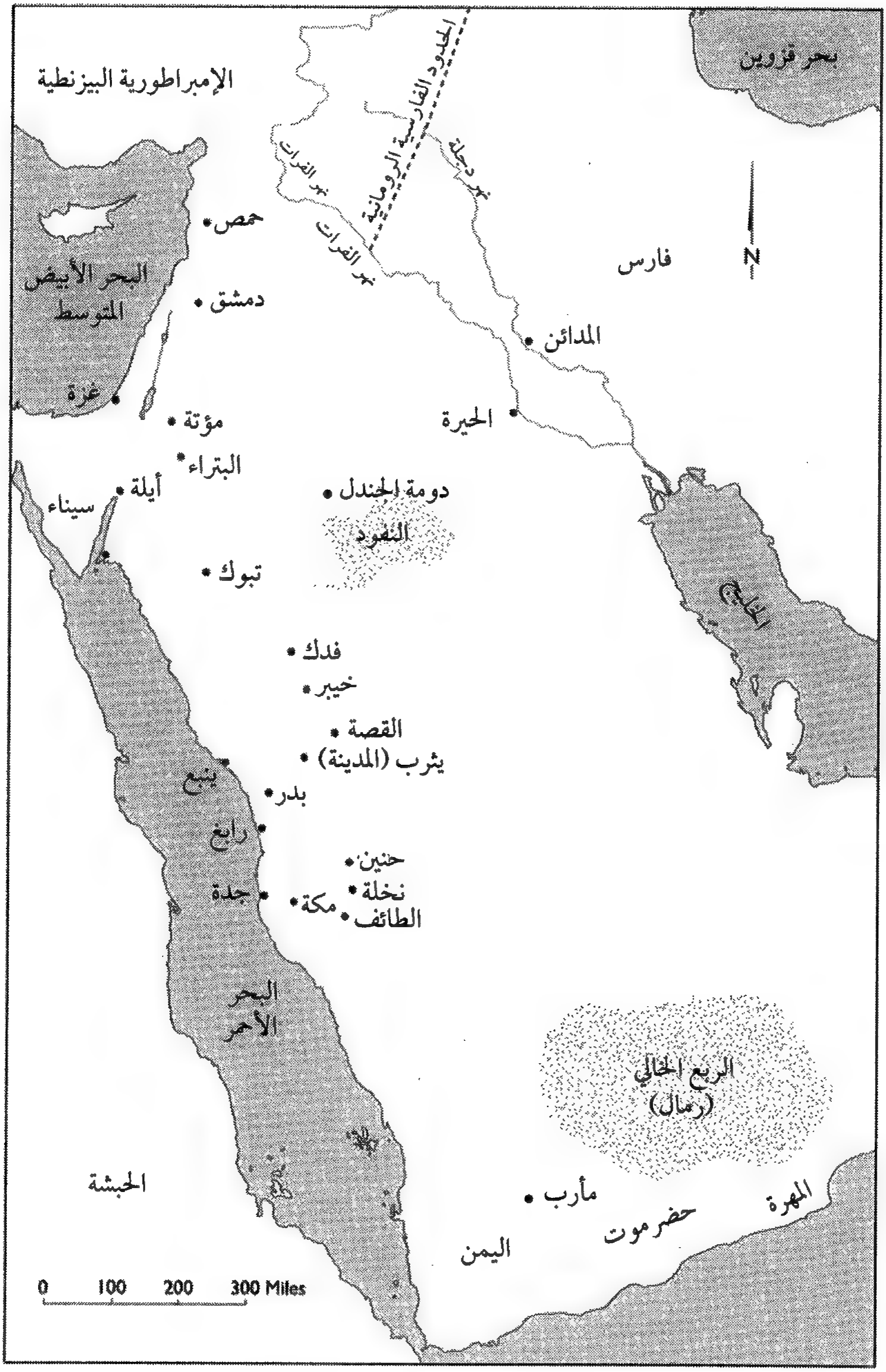

الخريطة ١: مناطق مهمة بشبه الجزيرة في زمن محمد

الفصل الأول

أرض جزيرة العرب

يسمّي العرب أرضهم «جزيرة العرب»، وهي بالفعل جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات والرمال على الجهة الرابعة. أرض قاسية، فإنه لم يعرف التاريخ غازياً نجح في اختراق الحواجز الرملية لتأسيس وجود دائم في تلك البلاد حتى العصر الحديث، حيث تستطيع الجيوش استخدام وسائل النقل الآلية. امتداد شبه الجزيرة العربية إلى الشمال هو الصحراء السورية، وهي اليابسة الواسعة التي تضم ما يقرب من مليون ونصف ميل مربع، وهي مساحة أكبر بقليل من كل أوروبا الغربية، بما في ذلك الدول الاسكندنافية[1]. تتكون الأرض نفسها من كتلة صخرية واحدة تسمى الدرع العربي، وتتكون في معظمها من الصحراء والسهوب. مناخها حار وجاف وقاسٍ، باستثناء اليمن، التي أُنعم عليها بأمطار موسمية وأراضٍ خصبة. أما بقية أنحاء البلاد فهي تقريباً قاحلة تماماً؛ إذ تتلقى في المتوسط خمسة عشر سنتيمترات فقط من الأمطار سنوياً.

تنقسم الجزيرة العربية إلى أربع مناطق جغرافية، إحداها الحجاز، وتتكون من المرتفعات الغربية التي توازي ساحل البحر الأحمر. يصل ارتفاع الجبال إلى أربعة آلاف قدم وتفصل بين الساحل الضيق والسهوب الداخلية. وهناك عدد من الممرات التي تسهّل السفر من المناطق الداخلية إلى الشريط الساحلي. ولكن تلك الممرات قليلة ومتباعدة، ما يجعل الجبال عقبة هائلة أمام الزحف العسكري. ويمر بمحاذاة الساحل، وأحياناً على الجانب

(١) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Routledge, 2001), pp. 3-4.

الداخلي من الجبال، طريق التوابل العربي الشهير، وهذا الطريق يربط بين الموانئ في أقصى جنوب الجزيرة بشمالها والولايات الحدودية البيزنطية السابقة كمصر وفلسطين. كانت السفن من الهند وأفريقيا تفرغ حمولاتها في هذه الموانئ ثم يتم نقل البضائع عن طريق قوافل الجمال شمالاً إلى مكة، وهي المركز التجاري الواقع في منتصف الطريق بين الموانئ الجنوبية والأسواق الشمالية. كان هذا الطريق شريان الحياة التجاري لمكة وجميع المنطقة الغربية من البلاد.

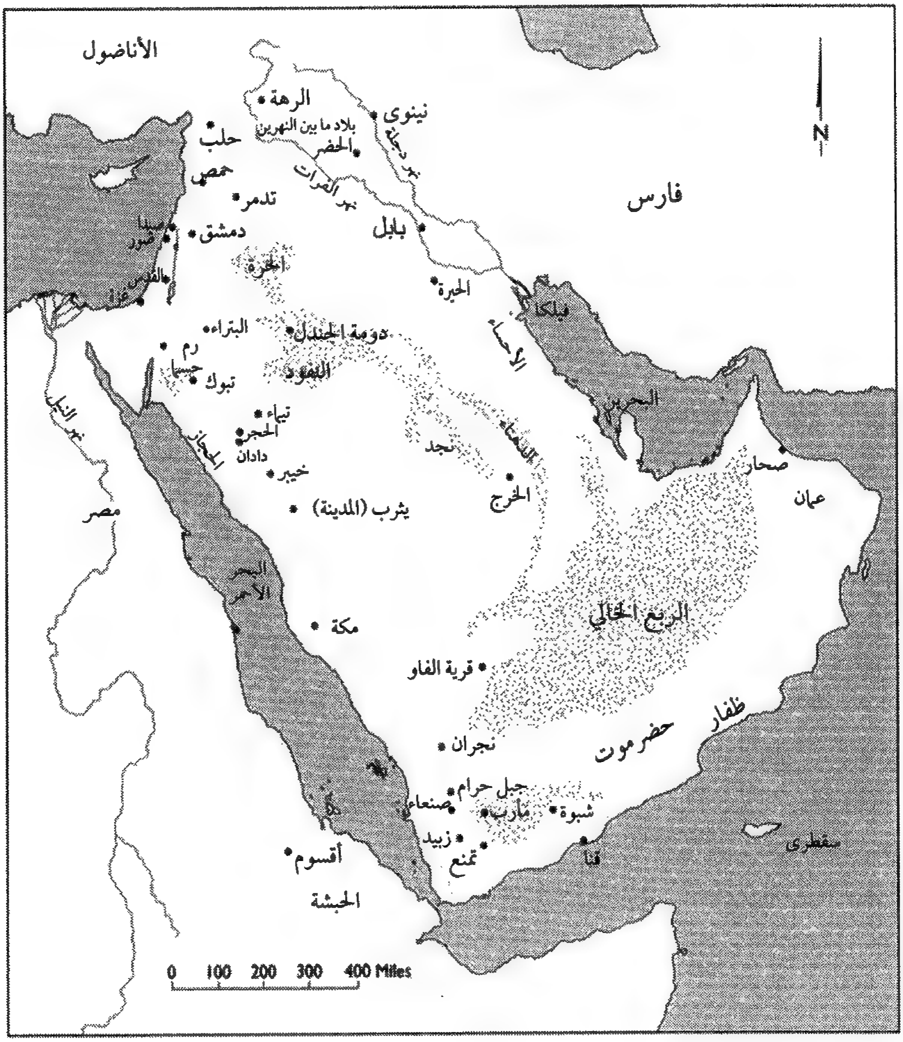

الخريطة ٢: شبه الجزيرة العربية: الأرض

المنطقة الجغرافية الثانية هي المناطق الداخلية، وتغلب عليها الطبيعة الحجرية والرملية لصحرائها وقفارها. أما الربع الخالي فهو صحراء شاسعة في الجنوب ذات كثبان كبيرة، يصل ارتفاعها في بعض الأحيان إلى أكثر من مئة قدم وبتمدد يصل إلى أميال. في وسط شبه الجزيرة العربية صحاري النفود والدهناء، وتشكلان حواجز هائلة أمام السفر من الغرب إلى الشرق. في الشمال تقع الصحراء السورية الكبرى وقفار صغرى كحسمى وحمد. كانت قوافل المكيين تتجنب هذه المناطق المقفرة، إذ من المستحيل على الإنسان أو الحيوان عبور تلك المناطق والبقاء حياً. المنطقة الثالثة تقع إلى أقصى الشرق، وتتكون من الأراضي الساحلية الحارة والرطبة في الخليج حيث الزراعة ممكنة بسبب وفرة المياه الجوفية.

في أقصى الجنوب تقع اليمن، المنطقة الرابعة، وهي المنطقة الشهيرة من العصور القديمة، ومصدر النباتات العطرية الثمينة التي أنتجت اللبان والبخور. اليمن هي بلاد الجبال الشاهقة، والوديان الخصبة، والسهول الساحلية. تجعل الأمطار الموسمية الأرض خصبة ومناسبة تماماً للزراعة. شَعْب اليمن في الغالب يتألف من الحضر لا من البدو الرُّحّل، وكانوا مهرة في بناء السدود ونُظم الري ما مكّن من الزراعة على نطاق واسع. ويقال إن أحد هذه السدود، وهو سد مأرب، مكّن من زراعة أكثر من عشرين ألف فدان من الأرض. وقد كان عدد الأهالي المستفيدين من هذا كبيراً جداً لدرجة أن انهياره في القرن الثاني الميلادي اضطر عدداً كبيراً منهم إلى الهجرة إلى الشمال.

لا توجد أنهار دائمة في أي مكان في الجزيرة العربية، وهطول الأمطار ضئيل ويقتصر على أوقات معينة من السنة. في الجنوب تهطل الأمطار في الربيع والصيف، وفي الشمال تهطل في الشتاء والربيع. وكثيراً ما يكون هطول الأمطار الغزيرة مصحوباً برياح عاتية تحوّل الوديان إلى سيول عارمة تهدم البيوت الطينية والحدائق المسوّرة. في تلك الفيضانات المحلية تتحوّل جدران البيوت إلى كتلة سائلة من الطين(٢).

في زمن محمد كان خمسة أسداس سكان الجزيرة العربية من البدو،

---

(٢) المصدر نفسه.

بينما كانت المستوطنات الدائمة قليلة[٣]. عندما كتب بطليموس كتابه **الجغرافيا**، في نحو عام ١٥٠ للميلاد، قام برصد ٢١٨ مستوطنة فقط في الجزيرة، وكان منها ١٥٠ قرية صغيرة. أدرجت ست «مدن» فقط جميعها في اليمن حيث كانت الأرض خصبة بما فيه الكفاية للحفاظ على عدد كبير من السكان[٤] معظم هذه «المدن» كانت صغيرة نسبياً في المساحة وعدد السكان، واثنتان فقط كانتا محاطتين بجدران الطين والطوب والحجر. طول الأسوار يسمح بتخمين عدد السكان: فمثلاً كان طول سور «قرناو»[*] يبلغ ١١٥٠ متراً، و«تمنع» ١٨٥٠ متراً[٥]، وهذا الحجم من الأسوار بإمكانه الإحاطة، في المتوسط، بما بين ثمانية وتسعة فدانات[٦]. وإذا اخترنا طريقة تقدير يغَئيل يادين[**]، والتي تقول بأن ما يقرب من ٢٤٠ شخصاً يعيشون على كل فدان واحد كمتوسط للكثافة السكانية لمدن الشرق الأوسط القديمة، يمكن للمرء تخمين أن حجم هذه المدن كان نحو ألفي نسمة[٧]. وتعكس لغة الجزيرة نقص التحضر في تلك المناطق، ولذلك لا نجد مثلاً استخداماً لكلمة مدينة في اللغة العربية حينئذٍ بل المصطلح الأكثر شيوعاً في هذا السياق هو **هجر**، وهي الكلمة التي تشير إلى مكان تجمعٍ محصنٍ لقبيلة، حيث يتم جمع عشائرها للحرب أو لأغراض أخرى.

قضى محمد معظم حياته في الحجاز. وباستثناء الجبال، تتكون أرض الحجاز من الصحراء والسهوب. وتلتف تلك السهوب حول حرّات[***]

---

(٣) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002), p. 17.

(٤) Hoyland, Ibid., p. 169.

(*) تسمى أحياناً براقش تاريخياً، وكانت عاصمة مملكة معين (المترجم).

(٥) Ibid., p. 169.

(٦) Richard A. Gabriel, *The Military History of Ancient Israel* (Westport, Conn.: Praeger, 2003), p. 121.

(**) يغَئيل يادين (١٩١٧ ـ ١٩٨٤) هو عالم آثار إسرائيلي وقائد عسكري عُرف باشتغاله بمخطوطات البحر الميت وقيادته للبعثات الأثرية. تلقى تعليمه في الجامعة العبرية، وشغل منصب رئيس الأركان العامة للجيش الإسرائيلي من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٢. وكان أيضاً نائباً لرئيس الوزراء، ١٩٧٧ ـ ١٩٨١ (المترجم).

(٧) Yigael Yadin, *The Art of Warfare in Biblical Lands in Light of Archaeological Discovery*, 2 vols. (New York: McGraw-Hill, 1964), vol. 1, p. 19.

(***) الحرة والحرات هي أرض ذات حجارة سوداء مشققة (المترجم).

وتلال مغطاة بالرمال. تشكل هذه الحرّات عوائق كبيرة للجيوش ولحركة التجارة، حيث لا تستطيع الخيل والإبل شقّها من دون مخاطر جمة كسقوط الحيوان أو كسر قوائمه أو وقوعه على راكبه. هناك عدد قليل من الأشجار، ولا يزدهر إلا نبات الطلح والأثل. الحجاز مكان صخري قاسٍ يميل إلى الجفاف، وقد ينقطع المطر لثلاث سنوات أحياناً. تُشكّل الآبار العميقة والخزانات المحفورة الوسيلة الرئيسة لإمدادات المياه. الخزانات هي ثقوب كالمغارات حفرت في الأرض بجدران من الجص التي تحوّل المياه إليها عند العواصف الممطرة، ويغلق الخزان ثم يفتح عند الحاجة. ومن العادات القديمة بناء الصهاريج على طول الطريق المخطط للقوافل لتزويدها بالماء وهي تعبر الصحراء. لم يكن غريباً أن يقوم البدو ببناء وتعبئة خزان في موقع مقفر ليكون منطلقهم نحو شن غارات على القوافل التي لن يتمكن حرّاسها من مطاردتهم بسبب افتقارهم إلى الماء.

في بعض الأماكن تتدفق المياه الجوفية إلى السطح لتشكيل منطقة ناعمة كبحيرة صغيرة تسمى واحة. تقع معظم الواحات في الحجاز شمال المدينة، وهي أكبر واحة في المنطقة. أما ثاني أكبر واحة في الحجاز فحجمها عشرة أميال مربعة فقط. وعلى الرغم من انتشار الملاريا في الواحات إلا أنها ذات قيمة كبيرة لقدرة مياهها على ري أراضٍ واسعة للزراعة. ربما كانت الزراعة قد أُدخلت إلى المنطقة في وقتٍ ما نحو القرن الأول الميلادي، وعلى الأرجح من قبل القبائل اليهودية. أصول القبائل اليهودية في الحجاز غامضة، وأحد الاحتمالات هو أن اليهود الذين استقروا هناك كانوا لاجئين من قمع روماني لثورة باركوخبا(*) في أوائل العقد الثالث من القرن الثاني الميلادي، أو من حرب يهودية سابقة. احتمال آخر هو أن اليهود هاجروا من اليمن في القرن الثالث بعد دمار سد مأرب. وفي الوقت الذي وصل فيه محمد إلى المدينة كانت القبائل اليهودية في المنطقة لا تُميَّز عن القبائل العربية في مظهرها وروحها وسلوكها، وكان التزام اليهود الديني فقط المميّز لهم عن العشائر العربية الأخرى.

(*) تمرد قام به يهود ولاية يهودا الرومانية، بقيادة شمعون باركوخبا، ضد الإمبراطورية الرومانية. كانت آخر الحروب اليهودية الرومانية الثلاث الكبرى، وتُعرف أيضاً باسم الحرب اليهودية الرومانية الثالثة أو الثورة اليهودية الثالثة (المترجم).

كان الشعير والدخن المحاصيل الرئيسة في الواحات وتستخدم لصنع خبز للاستهلاك البشري، ولربما غذّيت الخيول أحياناً منها. زُرع العنب في وقتٍ ما خلال القرن الرابع، ولم تكن شجرة الزيتون معروفة. كان اليهود والنبطيون مسؤولين عن استيراد أشجار الفاكهة إلى المنطقة، حيث زُرع التفاح والبرتقال والليمون والبطيخ والرمان والموز(٨). كان أهم المحاصيل العربية بلا منازع هو التمر، ومن المرجح أن النخيل نُقل من بلاد ما بين النهرين خلال العصور القديمة جداً. ثمرة التمر إلى جانب حليب الإبل والماعز هما الغذاء الرئيس للبدو. وغالباً ما يتم خلط التمر مع الدقيق أو الشعير المحمص أو الدخن ويأكل مع الحليب أو الماء، وكانت رغبة كل بدوي أن يكون له «الأسودان»، أي الكثير من التمر والماء أو حليب الإبل للشرب. وباستثناء لحم الإبل كانت التمور هي الغذاء الوحيد للبدو(٩). وأشاد محمد بأهمية التمر لطريقة الحياة العربية عندما قال: «اكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم»(*).

لم يكن بدو الحجاز يستعذبون العيش خارج أرضهم القاسية، أما أولئك الذين عاشوا في الواحات أو المدن فغالباً ما اتخذوا دليلاً من البدو للسفر أو لحراسة قوافلهم لضمان رحلة آمنة؛ فالحرارة والطرق غير المعبدة ونقص الغذاء وندرة المياه، وغياب الرفاهية بشكل عام في حياة الصحراء، هي إشكالية في أوقات السلم، لكنها تصبح حليفة للبدوي في أوقات الحرب؛ فحصته اليومية من التمور والماء ستركّع أي جيش في غضون أيام قليلة، بينما يمكن للبدوي أن يقتات عليهما طول الدهر. فالعيش على التمور والماء، إضافة إلى الإبل التي تحملهما، جعلت من الجيوش العربية أكثر قدرة على الحركة من خصومها. وخلال المعارك الأولى من الفتوحات العربية اختارت جيوشها ساحات قتال قريبة من الصحراء حتى تتمكن في حالة الهزيمة من أن تتراجع إلى الصحراء، ولا يمكن للعدو ملاحقتها. ربما كانت هذه القدرة في ذهن ملك السعودية فيصل عندما رد على تهديد وزير الخارجية هنري كيسنجر بأن الولايات المتحدة قد تحتل آبار النفط في المملكة إن لم تخفض سعر نفط

(٨) Hitti, *History of the Arabs*, p. 19.

(٩) المصدر نفسه.

(*) حديث موضوع لا أصل له (المترجم).

الأوبك لتخفيف أزمة عام ١٩٧٣. في مواجهة تهديد كيسنجر، قيل إن فيصلاً ابتسم وأجاب: «نحن عرب، سنعود إلى الصحراء ونعيش على حليب الإبل والتمر... ونحارب من هناك إلى الأبد».

ارتدى العرب زمن محمد ملابس تناسب البيئة العربية القاسية. ارتدى الرجال قمصاناً طويلة تسمى ثوباً، مرتبطة بحزام حول الخصر، كما يلبس فوقه رداء طويل يتدلى إلى الأرض تقريباً. وغطوا رؤوسهم بنوع من الشال يسمى الكوفية نثبّت بنوع من الحبال يسمى العقال(*). لم تكن السراويل ترتدى عادة، ومعظم الناس كانوا يمشون حفاة الأقدام، على الرغم من أن استخدام رِكاب السرج في وقت لاحق اضطرهم إلى لبس الصنادل أو نوع آخر من الأحذية. كما أن الملابس العربية زي عسكري مثالي نظراً إلى الظروف المناخية، فالملابس الفضفاضة توفّر حماية كافية ضد الشمس كما أنها تساعد على إبقاء رطوبة الجسم. وقد وفرت الخيام والأغطية المصنوعة من شعر الماعز أو الإبل حماية ممتازة ضد برد ليالي الصحراء. وقد مكّن العتاد الحربي عند العرب الجيوش العربية من التحرك من دون قيود الأحمال الثقيلة، وأعطت جيوش الفتوحات العربية اللاحقة حركةً وسرعةً ومدىً لا مثيل له عند أعدائها.

انتقل البدو الرّحل من الحجاز مع قطعانهم بشكل منتظم بحثاً عن المراعي والمياه لحيواناتهم. هؤلاء البدو العرب عادة ما يمارسون شكلاً من أشكال الترحل المغلق، أي الحركة في نمط منتظم لكي يكونوا قريبين من المستوطنات والبلدات لشراء السلع أو التجارة من مواردهم الضئيلة. وقد كانت العلاقة بين البدو والحضر تكاملية حقيقية، فلا يمكن لأحد منهم البقاء على قيد الحياة من دون منتجات الآخر. حصل البدو على الحبوب والتمور التي زرعت في الواحات، وكانت من المواد الغذائية الأساسية لهم، كما

(*) لم تذكر روايات السيرة ارتداء الغترة أو الكوفية والعقال من قبل الرسول أو الصحابة، بل تكاد كلها تجمع على ارتداء العمائم كغطاء للرأس. بل وتدل أغلب الرسوم والمنحوتات التاريخية على أن العرب كانوا يرتدون أنواعاً من العمائم. أما العقال فأقدم إشارات تدل على اعتماره تظهر بأنها من شمال الجزيرة العربية في أوائل القرن الثامن عشر. ويزعم الباحثان بروس إنغم ونانسي لندسفارن ـ ترابر بأن العقال كان يتميز به العرب ذوي الثقافة البدوية في داخل الجزيرة العربية (من وسطها إلى شمالها)، بينما امتاز العرب الحضر في أفريقيا والحجاز واليمن والشام والخليج بضفتيه الشرقية والغربية بالعمامة. من كتابهما: *Languages of Dress in the Middle East* (المترجم).

اشتروا السروج والأسلحة والقماش، وغيرها من السلع المصنعة في المدن. في المقابل قدّم البدو للحضر الماعز والأغنام والإبل، وكذلك المواد التي تُنسج منها الخيام والأغطية. كان معظم البدو فقراء ويعانون دوماً سوء التغذية. في أوقات الجفاف أو المجاعة، لم يكن مستغرباً دفن الأطفال الإناث وهن أحياء من أجل توفير الموارد للبالغين والرضع الذكور. وإضافةً إلى ذلك يعتبر قضاء أيام طويلة في مراقبة الحيوانات وهي ترعى عملية مملة خانقة، وليس من المستغرب أن الغزو أصبح طريقة لحياة البدو.

كان لغزو المخيمات وقطعان البدو أو أطراف المدن التي كانت توجد فيها الخيول والإبل وظيفتان مهمتان. **أولاً**، قدمت شكلاً ضرورياً من التحفيز الاجتماعي، وطريقة وحيدة لتمكين البدو من ممارسة فضائل الرجولة للمحارب. في الغالب كانت هذه رياضة عنيفة أكثر من كونها صراعات حقيقية، وعادة ما تجنبت المعارك الضارية والضحايا. أدت الغارات أحياناً إلى معارك فردية بين زعماء، ونادراً ما أدت إلى الموت؛ إذ كان الهدف الرئيس للغزو هو سرقة القطعان. أما الوظيفة **الثانية** لها فكانت بمنزلة شكل من أشكال إعادة توزيع الثروة، وهي وسائل الحصول على سلع ليست بوسع بعض الأسر البدوية أن تحصل عليها بطريقة أخرى. كان الغزو غالباً الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يحسّن بها الرجل حياته في مناطق فقيرة مثل شبه جزيرة العرب؛ حيث كان سوء التغذية واقعاً. وأخيراً، أدت المنافسة على المياه والرعي في كثير من الأحيان إلى مناوشات بين عشائر البدو. كانت المناوشات تشتد في الأوقات الصعبة مناخياً حيث كان على المهزوم الابتعاد عن الماء والعشب واحتمالية هلاك قطعانه. ومع ذلك، فإنه من الصعب التغاضي عن الانطباع بأن الغزو كان مؤسسة اجتماعية أكثر من مجرد مؤسسة عسكرية أو اقتصادية. وغالباً ما فسرها العرب بالشروط الآتية:

أغرنَ من الضِّبابِ على حَلالٍ   وضبةَ إنَّهُ مَن حانَ حانا
وأحياناً على بَكرٍ أخينا   إذا ما لم نَجِد إلّا أخانا[10]

أساس المجتمع البدوي هو العشيرة، وكانت كل خيمة تمثل أسرة،

(١٠) المصدر نفسه، ص٢٥.

وكان معسكر الخيام يسمى (الحي)، ويتكون كلهم من أعضاء العشيرة، وهم (القوم). تتشكل القبيلة من عدد من العشائر ذات صلة الدم والرحم. يعتبر جميع أفراد العشيرة أنفسهم من دم واحد ويخضعون لسلطة رئيس واحد يدعى الشيخ، الذي كانت سلطته القيادية محدودة بحقيقة أن جميع الذكور البالغين في القبيلة متساوون، وقد يختلفون أو يعارضون الشيخ في المسائل المهمة. وكما يقول المثل العربي القديم: «عشيرة الرجل مخالبه». كان الولاء لعشيرة واحدة غير مشروط، وكل من يرتكب جريمة داخل العشيرة إما أن ينفى أو يقتل من قبل العشيرة نفسها. أما مقتل عضو عشيرة من قبل شخص من خارجها فذلك يتطلب من جميع الذكور الثأر بأي طريقة ممكنة، وتتجاهل أخلاق الفروسية لصالح الغدر والغيلة. هذه هي **العصبية**، أو ولاء الدم الذي يجرّد الأشخاص خارج العشيرة من أي حيثية أخلاقية قد تضع حدوداً للثأر. خلال العصر المحمدي كانت العشيرة مركز الأفق الأخلاقي العربي، وكان لأفراد العشيرة وحدهم نصيب من المعاملة الاعتبارية، وحتى هذا لا يلزم سوى أفراد العشيرة. أما أولئك الذين هم خارج العشيرة فيفتقرون إلى تلك المنزلة ويعاملون وفقاً لذلك.

عاش العرب زمن محمد في مجتمع قاسٍ بأرض وعرة؛ حيث كان هناك حفنة من القوانين وقليل من مؤسسات توفر العدالة أو تقيد العنف؛ فالخلاف الدموي ووعيد الثأر من مرتكب الخطأ وفّر توازناً تقريبياً للحد من العنف. لا يستهان بالخلافات الدموية لأن العداء لا ينتهي إلا بالثأر من القاتل أو من عشيرته. في وقت لاحق، أصبح من الممارسات الشائعة للحد من العداء دفع الدية، وهي تعويض مالي بعددٍ من الجِمال عادةً تؤدَّى للشخص أو العشيرة التي اعتدي عليها. وبصرف النظر عن ذلك، بقي من هم خارج العشيرة دون تلك المنزلة الاعتبارية، فعندما قسّم محمدٌ العالم الأخلاقي بين المؤمنين وغير المؤمنين الذين قد يُستعبدون أو حتى يُقتلون من قبل الطرف الأول، فإنه وسّع أخلاقيات النزاعات الثأرية لتشمل الدين. فالمجتمع الديني المؤمن له كامل الولاء، مقابل التحرر من أي التزامات لمن هم خارجه، وهذا المنطق قد حلّ محل الجماعة العشائرية القديمة القائمة على صِلات الدم والقرابة.

الفصل الثاني

الوضع الاستراتيجي

كثيراً ما يحدد الحظ والتوقيت نجاح القضايا العظيمة أو فشلها، وهكذا بدا الأمر في حالة محمد ودين الإسلام الجديد. اعتمد النجاح الأولي لكليهما وبقائهما على مجموعة ملائمة من الظروف الاستراتيجية التي حدثت بعيداً عن مكة والمدينة وكانت خارجة حتى عن سيطرة محمد نفسه. عاصر محمد (٥٧٠ ـ ٦٣٢م) ظروفاً سياسية واجتماعية داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها أنتجت ديناميكية مؤاتية للنجاح الديني والعسكري للإسلام. لا جدوى من التساؤل عما إذا كان النجاح ممكناً في ظل مجموعة أخرى من الظروف غير الواقعية. المهم هو فهم الظروف داخل البيئة الاستراتيجية العربية التي أثرت في مآل حياة محمد وكيف ساهمت في نجاحه العسكري وتأسيس الإسلام.

يُبنى الكثير أحياناً على العزلة التي تفرضها صحاري شبه الجزيرة العربية وبُعد أماكن مثل مكة والمدينة. هذه الصور دقيقة فقط بالمعنى الجغرافي، أما بالمعنى الاجتماعي والسياسي الأوسع فلم تكن الجزيرة العربية في أيام محمد معزولة عن القوى الجيوسياسية والاستراتيجية المؤثرة في الإمبراطورتيين العظيمتين: البيزنطية والفارسية، اللتين كانتا تحُدّان شبه جزيرة العرب. في زمن ولادة محمد، تأثرت الجزيرة العربية واتصلت مع السياسة البيزنطية والفارسية. تمتعت طبقة التجار العرب باتصالات متكررة مع كلتا الإمبراطوريتين ووفدت على مدن القوى العظمى وبلاطها سعياً وراء مصالحها الاقتصادية. فالقوافل التي غادرت مكة متوجهة إلى دمشق أو أيلة على خليج العقبة المتوجهة إلى غزة ومصر، أو سافرت شمالاً وشرقاً عبر الصحراء إلى الحيرة في العراق والمدن الواقعة على طول الخليج العربي، جعلت تجار

مكة على اتصال مباشر مع المسؤولين البيزنطيين والفُرس. كما كانت مكة ترسل قافلتين كبيرتين على الأقل في السنة إلى الأسواق الإمبراطورية، وسافرت الكثير من القوافل الصغيرة إلى هناك بشكل متكرر. وكانت التأثيرات الإمبراطورية في صيغة أفكار دينية وسياسية واضحة في المدن التجارية العربية خلال حياة محمد. لا يوجد سبب لافتراض أن محمداً كان أقل وعياً بها من غيره من أفراد طبقة التجار التي ينتمي إليها؛ بل إن طوائف نصرانية مختلفة في كل من الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية أشارت إلى أنّ نبياً جديداً كان على وشك الظهور في مكانٍ ما في شبه الجزيرة العربية. أما الدين العربي الأصلي في ذلك الزمان فكان يتألف في معظمه من عبادة الأوثان، ومن المرجح، وإن لم يكن مؤكداً، أن أحد تلك الأصنام، هُبل، كان يعبد في بيت الله الحرام (الكعبة) بمكة منذ ما لا يقل عن قرن قبل ولادة محمد، وقد تم شراؤه من قبل التجار المكيين وإحضاره بوساطة قافلة عربية عائدة من مناطق الأنباط حيث كان يعبد على نطاق واسع هناك(١).

كانت طبقة التجار العرب تدرك أيضاً مصالح القوى الإمبريالية ومكائدها فيما يتعلق بالجزيرة العربية، وأجبرت كذلك المخاوف الأمنية والاقتصادية القوى الإمبريالية على الانتباه إلى مصالحها هناك. كانت المزارع والمدن المتاخمة لشبه الجزيرة العربية في كلتا الإمبراطوريتين تتعرض للمداهمة منذ فترة طويلة من قبل قبائل البدو الذين كانوا يغيرون بسرعة ثم يتسللون إلى القفار الصحراوية حيث لا يمكن أن تلحقهم القوات الفارسية أو البيزنطية. كانت كلتا القوتين منخرطة بعمق في السياسات القبلية للمناطق الحدودية لكل منهما، للبحث عن حلفاء عرب موثوقين لاستخدامهم في مراقبة حدود الإمبراطورية والدفاع عنها ضد هؤلاء المهاجمين الصحراويين. ومع ذلك، تجاوزت الطموحات الإمبراطورية أمن الحدود، فكثيراً ما دعمت بلاد فارس

---

(١) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Routledge, 2001), p. 142.

يقول إن الصنم كان من أصل نبطي. انظر أيضاً الصفحة ١٥٦ من الكتاب نفسه للاطلاع على وصف ابن هشام للصنم والطقوس المستخدمة في الكعبة. يشير حتّي إلى أن المعبود ربما كان من أصل مؤابي، والذي كان قريباً بدرجة كافية من النبطيين لتفسير التباين في الأصل. انظر: Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002), p. 100.

وفقاً لكثير من المرويات فقد كان هناك أكثر من ألف صنم حوالي الكعبة أيام محمد.

بعض القبائل العربية في عمق الصحراء كطريقة لزيادة نفوذها في تجارة التوابل الغنية، وتركزت الطموحات الفارسية في الغالب في الجنوب، اليمن، حيث رعت بلاد فارس اضطرابات هدفها إقامة نظام موالٍ هناك. واجه البيزنطيون هذه الطموحات باستخدام الحبشة كجبهة استراتيجية يمكن من خلالها إطلاق جيوش الحلفاء في شبه الجزيرة العربية لمواجهة النفوذ الفارسي.

بدعم من البيزنطيين، غزا الجيش الحبشي شبه الجزيرة العربية وهاجم مكة عام ٥٧٠ بعد الميلاد، وهو عام ميلاد محمد. عُرف هذا الحدث في الذاكرة العربية باسم «عام الفيل»؛ إذ لم يُرَ فيل من قبل في مكة، وكان ظهور واحد على رأس جيش غاز قد أذهل المكيين. لم تكن هناك قوة مكية قادرة على المقاومة، وبدت الهزيمة مؤكدة، ولكن ما حدث بعد ذلك غير واضح. تشير النصوص العربية إلى سرب كبير من الطيور سادت السماء وهي تحلق فوق العدو وتلقي الحجارة على وجوههم بينما كان الجنود ينظرون إلى أعلى. ضربات هذه الحصى كانت قوية لدرجة أنها تركت آثاراً وبثوراً في أجسام الغزاة. انسحب الجيش الحبشي الجريح والنازف وأُنقذت مكة(٢). بدلاً من المعجزة، من المرجح أن الغزاة عانوا من تفشي مرض كالجدري، دمر الجيش الحبشي وأجبره على الانسحاب.

كان الطرفان الأساسيان في اللعبة الكبرى لسياسة القوة في شبه الجزيرة العربية وأماكن أخرى في بداية القرن السابع الميلادي هما الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية. لأكثر من خمسمئة عام؛ تقاسمت هاتان الدولتان القويتان حدوداً مشتركة خلقت مشاكل أمن إمبراطوري، حيث كانت كل واحدة تمثّل صورة معكوسة للأخرى. وكان يُنظر إلى زيادة قوة إحداهما بالضرورة على أنه تهديد للأخرى، وغالباً ما أثبت ضعف إحداهما أنه مغرٍ للآخر بافتراسه. أنتج هذا التقارب تنافساً سياسياً وتجارياً وعسكرياً مستمراً ولّد حروباً واشتباكات عسكرية كبيرة. على الرغم من وجود أكثر من نصف قرن من التنافس والحروب، ظلت الحدود بين القوتين العظميين من دون تغيير تقريباً، ولم يكتسب أي من الجانبين أكثر من تميّز تكتيكي قصير المدى.

---

(٢) John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 50.

أدى انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب على أيدي الغزاة البرابرة إلى فقدان السيطرة الإمبراطورية على المقاطعات الغربية كإيطاليا وبلاد الغال وإسبانيا وبريطانيا، والكثير مما هو شرق أوروبا الآن، وتحول مركز الحكومة الإمبراطورية إلى العاصمة الرومانية الشرقية القسطنطينية. وعلى الرغم من الضربة المدمرة التي تلقتها الإمبراطورية الغربية، عاشت روما من خلال القسطنطينية لألف سنة أخرى حتى لقيت حتفها أخيراً جراء الهزيمة العسكرية على يد العثمانيين في ١٤٥٣م(٣). في وقت ولادة النبي محمد كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية لا تزال قوة عظمى تضم اليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وأراضي كبيرة على طول الساحل الشمال أفريقي. شكّلت هذه المقاطعات قوساً دفاعياً مستمراً على حدود شرق البحر الأبيض المتوسط، والذي كانت تسيطر عليه البحرية البيزنطية. إلى الجنوب مباشرة تقع صحراء شبه الجزيرة العربية، وكانت الغارات التي تعرضت لها الحدود الجنوبية لعدة قرون مصدر إزعاج أكثر من كونها تهديداً استراتيجياً. جاء أخطر تهديد للأمن البيزنطي كعادته دائماً، من بلاد فارس.

شلّت خسارة الغرب الروماني أباطرة القسطنطينية عن العمل لأكثر من خمسين عاماً، وخلال هذا التقاعس لم تُبذل خلالها أي محاولة جدية لإعادة السيطرة الرومانية على المقاطعات المفقودة. عندما أصبح جستنيان إمبراطوراً (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) شرع في تغيير السياسة الرومانية وقام بحملة عسكرية لاستعادة الأراضي الغربية. تمكن الرومان الشرقيون بقيادة القائد الميداني العظيم بيليساريوس من استعادة السيطرة على مساحات شاسعة من شمال أفريقيا وأجزاء من إيطاليا، لكن الصعوبة كانت في حساسية توازن القوة العسكرية على الحدود الفارسية ـ الرومانية، وعدم استقرار التوازن حتى في أحسن الأحوال، وذلك لأن ميزة القوة البشرية والخطوط الداخلية كانت عادة لصالح الفُرس. كان على جستنيان لشن حملته في الغرب تجريد الدفاعات الحدودية الفارسية من الكثير من قوتها البشرية ومواردها، تاركاً الحدود

---

(٣) للاطلاع على تاريخ الانهيار العسكري للقسطنطينية عام ١٤٥٣، انظر الفصل المعنون: "Byzantines and Ottomans," in: Richard A. Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, 3 vols. (Westport, Conn.: Greenwood, 2005), vol. 3: *From the Medieval Realm to the Ottoman Empire*, pp. 987-1030.

مفتوحة لهجوم فارسي. وبالفعل لم يستطع الفُرس مقاومة الإغراء الكبير، ووقعت سلسلة من الاشتباكات العسكرية واسعة النطاق على طول الحدود. أدرك جستنيان، وكان دوماً قائداً واقعياً استراتيجياً، خطر الغزو الفارسي وتحرك لإحباطه من خلال التفاوض والتنازلات، فتفاوض على سلام مع الفُرس لإزالة تهديد الغزو. لا شك في أن المعاهدة كان ينظر إليها على أنها مؤقتة من قبل الجانبين، ومع هذا فقد سلّم الرومان بعض البلدات والأراضي الحدودية ووعدوا بدفع مبالغ مالية لإبقاء الفُرس بعيداً، وفي المقابل تراجعت الجيوش الفارسية.

كانت أراضي الإمبراطورية الفارسية شاسعة، وتمتد من أفغانستان لنهر أوكسوس ثم إلى أقصى حدود إقليم كردستان الحديث. كانت تحكمها سلالة ساسانية تقع عاصمتها المدائن حيث يقترب نهرا دجلة والفرات جنوب بغداد الحديثة. استمر سلام القسطنطينية المضطرب مع فارس حتى وفاة جستنيان عام ٥٦٥م. ثم سقطت الإمبراطورية البيزنطية في أزمات طاحنة لفترة من الزمن جراء تسلط سلسلة من ضعاف الحكام عليها، والتي أدت إلى ثورة عسكرية في ٦٠٢م أنتجت مزيداً من الارتباك والضعف. بقي الإمبراطور الفارسي، كسرى الثاني، طامعاً بالمدن الرومانية الغنية، وفي العام نفسه شن هجوماً عليها. في عام ٦١٣م استولت الجيوش الفارسية على دمشق، وبعد عام سقطت القدس، وحُمل الصليب الأصلي، أقدس بقايا العالم النصراني، من قبل الفُرس، وكانوا هم أنفسهم نصارى نسطوريين. وفي ٦١٦م احتلت الجيوش الفارسية مصر وأجزاء كبيرة من آسيا الصغرى. بدت الإمبراطورية البيزنطية على وشك الانهيار والتفكك، وغير قادرة على إيقاف هزائمها العسكرية.

أدت هذه المجموعة الخطيرة من الظروف إلى تمرد عناصر من الجيش الروماني في الشرق ضد حكام العاصمة الفاسدين، وهو تمرد أثبت في النهاية أنه خلاص روما. أصبح أحد قادة التمرد، هرقل (٥٧٥ ـ ٦٤١م)، أحد أعظم أباطرة الإمبراطورية، وكان قد أطاح بالإمبراطور البيزنطي، فوكاس، وتولى السلطة في عام ٦١٠م، في الوقت الذي كانت جميع المقاطعات الشرقية تقريباً في أيدي الفُرس. شرع هرقل في استعادة الأراضي المحتلة وتدمير الجيوش الفارسية، وتمّ له ذلك في أربع معارك كبرى ـ إيسوس (٦٢٢م)، ونهر هاليس (٦٢٣م)، ونهر ساروس (٦٢٥م)،

ونينوى (٦٢٧م) - قطّع هرقل أوصال الجيوش الفارسية، وغزا بلاد فارس نفسها ودمّر ما تبقى من قوتها العسكرية، وانتهت بهذه الهزائم الحرب[٤]. في عام ٦٢٨ اغتيل كسرى وسقطت الإمبراطورية الفارسية في فوضى عارمة وصراع سلالات. أقام خليفة كسرى، كافاد الثاني، سلاماً مع الرومان بعد حرب استمرت لستة وعشرين عاماً واستنزفت كلتا القوتين الإمبرياليتين. كانت الحدود المتفق عليها في معاهدة السلام هي نفسها قبل بدء الحرب.

تزامن إنهاك القوى الكبرى مع الفترة التي بدأ فيها محمد تمرده. تكمن أهمية هذه المصادفة في القيود التي فرضها ضعف القوى الإمبريالية على قدرتها في التأثير بأحداث شبه الجزيرة العربية المجاورة. سعت كلتا القوتين إلى تحقيق مصالحهما في شبه الجزيرة لعدة قرون عبر حروب بالوكالة، أحياناً باستخدام تحالفات متنافسة من القبائل العربية، وأحياناً عن طريق الغزو المباشر. باءت كل هذه الجهود بالفشل بحلول الوقت الذي بدأ فيه محمد تمرده، وتضاءلت بشكل خطير قدرة القوى العظمى نفسها والقلة التي بقيت من وكلائها على التأثير في الأحداث في شبه الجزيرة العربية. كانت النتيجة المهمة هي عدم وجود قوة قادرة على إيقاف تمرد محمد.

كانت الروابط بين القوى العظمى ووكلائها متجذرة في الانتماء الديني، وبشكل خاص في العالم البيزنطي حيث كانت النصرانية الأوثوذكسية هي الدين الرسمي للدولة، وحيث وصل اضطهاد الطوائف النصرانية المهرطقة إلى أوجه. تبنّى الفُرس النصرانية النسطورية بعد أن أعلنها الأباطرة البيزنطيون مهرطقة، ولجأ أتباعها المضطهدون إلى فارس. أما السوريون والفلسطينيون والمصريون فكانوا في الغالب نصارى يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهي طائفة أخرى اعتبرها الحكام البيزنطيون هرطقة، وجميع هذه الطوائف ارتبطت بطريقة أو بأخرى بطموحات إمبراطورية. حققت النصرانية بعض التغلغل المحدود في شبه الجزيرة العربية، وغالباً ما كانت القبائل تتبنى عقيدة حلفائها الإمبرياليين. بحلول وقت محمد، أدى ضعف القوى الإمبريالية أيضاً إلى التخفيف من روابطها مع حلفائها العرب، ما أدى إلى فقدان أي

---

(٤) للحصول على وصف موجز لحياة هرقل ومعاركه انظر: R. Ernest Dupuy and Trevor N. Dupuy, *The Encyclopedia of Military History* (New York: Harper and Row,1986) p. 329.

تأثير ديني، وعادت القبائل لعبادة الأوثان التقليدية. من دون دعم إمبراطوري، لم يكن لدى أيٍّ من الطوائف النصرانية أو حلفائها في شبه الجزيرة العربية القوة أو الميل إلى رؤية حركة محمد الدينية على أنها طائفة مهرطقة خطيرة لا بد من قمعها، ولم تكن هناك معارضة «دينية» منظمة في أي مكان في شبه الجزيرة العربية لعقيدة محمد الجديدة. فلو حاول محمد أن يؤسس الإسلام داخل حدود أي من المجالين الإمبراطوريين لواجه معارضة شديدة من الطبقات الكهنوتية وحلفائهم، وربما أدى ذلك إلى قمع الدين الجديد وإعدام زعيمه المخلّص أو سجنه.

كان الحلفاء العرب عنصراً مهماً في استراتيجية القوى العظمى لحماية حدودها من غارات البدو. شكّلت كلتا الإمبراطوريتين تحالفات متينة من القبائل العربية بقيادة زعماء أقوياء لحماية الحدود الإمبراطورية، ودفعت لهم رواتب ومنحتهم هدايا سخية وألقاباً رسمية لرفع مكانتهم مع باقي زعماء عشائرهم الذين اعتمدوا عليهم في الرعاية المطلوبة للحفاظ على ولاء عشائرهم. لو كانت القوى الإمبريالية قادرة أو تميل إلى معارضة محمد باعتباره تهديداً للنصرانية، لكان بإمكانها استخدام هؤلاء الحلفاء القبليين للقيام بذلك؛ بل إن الكثير من الحلفاء العرب قد تنصروا، وكان من الممكن توظيفهم لسحق محمد وتمرده بحجة الهرطقة، ولربما استطاعوا فعل ذلك بسهولة نسبية.

استُؤجرت عائلة بني غسان العربية، أو الغساسنة، من قبل الرومان لحماية الحدود الجنوبية لسوريا والأردن من البدو. كان الغساسنة نصارى من أتباع الطبيعة الواحدة للمسيح، وهي حقيقة تعمّد حكام القسطنطينية الأوثوذكس تجاهلها لكي يؤمّنوا خدماتهم كحرس حدود. إلى الشرق اتبع الفُرس سياسة الاستعانة نفسها بحلفاء عرب لحماية حدودهم مع شبه الجزيرة العربية؛ فكانت القبائل النسطورية النصرانية اللخمية حليفة للفُرس، وكانت حدود الصحراء آمنة نسبياً من المغيرين العرب ما دامت هذه الائتلافات القبلية موالية لمرؤوسيها، كما كانت هذه القبائل العربية الموالية أيضاً خط الدفاع «الاستراتيجي» الأول ضد أي محاولة غزو كبير من الصحراء، وهو غزو نجحت الجيوش الإسلامية في تنفيذه بعد وقت قصير من وفاة محمد. كانت هذه التحالفات الإمبراطورية مع التحالفات القبلية العربية هي الأساس الناجح للدفاع الإمبراطوري عن الحدود لأكثر من مئة عام قبل ولادة محمد.

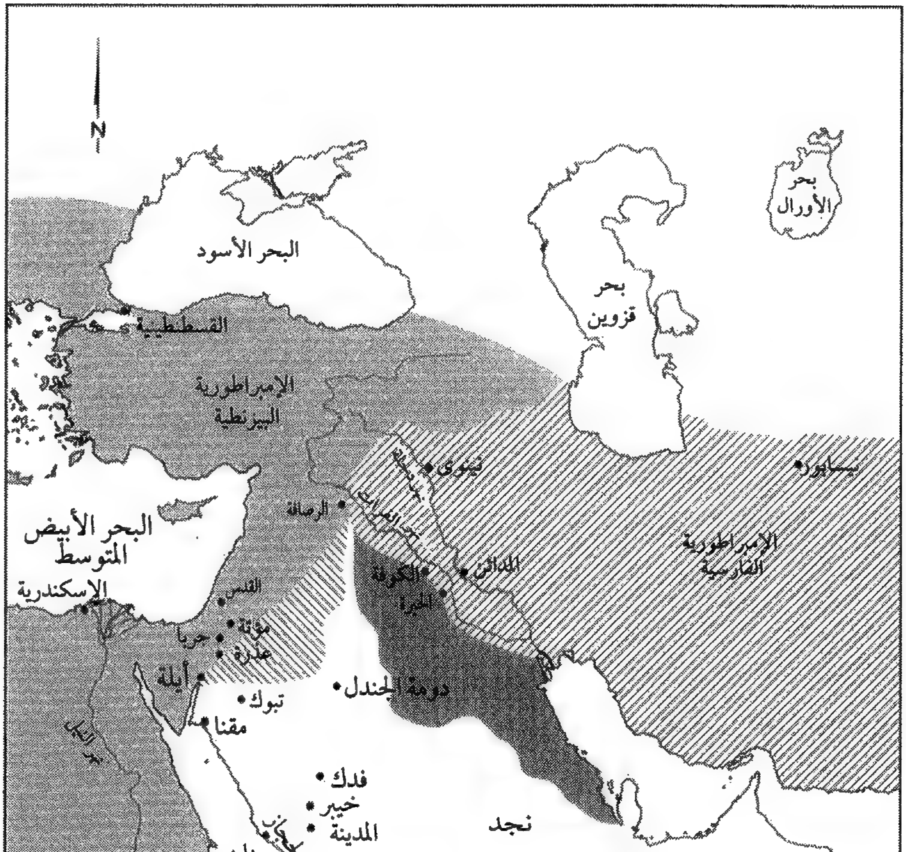

الخريطة ٣: النطاق الاستراتيجي خلال حياة محمد ٥٧٠ ـ ٦٣٢م

لأسباب غير واضحة، ارتكبت كلتا القوتين العظيمتين الخطأ الاستراتيجي نفسه الذي أدى إلى تعريض كل منهما لجناحه الصحراوي للغازي نفسه. في عام ٥٨١م، سُجن زعيم الغساسنة باعتباره مهرطقاً لإيمانه بالطبيعة الواحدة للمسيح، وأدى ذلك إلى تمرد مفتوح من قبل الغساسنة الذين أصبحوا هم أنفسهم الغزاة. في عام ٦٠٥م اختلف الإمبراطور الفارسي مع زعيم اللخميين وألغى أعطياته ومنصبه وامتيازاته. ثار اللخميون ونهبوا البلدات على طول الحدود الفارسية العربية. كانت نتيجة هذه الإجراءات قصيرة النظر تجريد الحدود الإمبراطورية لكلتا القوتين العظيمتين من قوات الحماية العسكرية الخاصة بهما وتعريضهما لهجوم عربي.

ومع ذلك، لم يكن الخطر الاستراتيجي واضحاً على الفور. كان محمد في خضم تمرده، وكان الإسلام في مهده، ولم يكن هناك حتى الآن جيش عربي قادر على مهاجمة القوى العظمى. في المستقبل المنظور، ظلت مشكلة أمن الحدود تتعلق بالدفاع ضد غارات صغيرة ومتفرقة للبدو. لحظة وفاة محمد عام ٦٣٢م، تغير الوضع الاستراتيجي بشكل كبير؛ إذ كان من أعظم ما أورثه هو وجود قوة عسكرية كبيرة ومدربة وذات قيادة جيدة مدفوعة بحماسة دينية ومستعدة لاستغلال المصدر الوحيد للغنائم والمكسب المتاح للعرب، الذين نهى دينهم الجديد عن غزو بعضهم بعضاً. كانت جيوش الإسلام على استعداد للوصول إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية، وحمل الدين الإسلامي الجديد إلى الشرق والغرب في أعقابهم. بعد أن استُنفدوا وأفلسوا بسبب سنوات من الحرب التي لا طائل من ورائها، وجد الفُرس والبيزنطيون أنفسهم فجأة في مواجهة تهديد عسكري خطير من الجزيرة العربية نفسها.

كانت هذه الظروف الخاصة بالوضع الاستراتيجي والديني والاجتماعي هي التي شكلت الخلفية لحياة محمد ونبوّته وزادت من احتمالات نجاحه. كانت الحركة نحو التوحيد النصراني داخل الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد اخترقت شبه الجزيرة العربية قبل وقت طويل من ولادة محمد. كانت فكرة

وجود إله واحد، وحتى مجيء نبي جديد، منتشرة على نطاق واسع في وقت تمرده. إن الاضطهاد الديني الذي مارسه البيزنطيون بشدة، وبدرجة أقل من قبل الفُرس ضد ما يسمى بالطوائف المهرطقة، وأحياناً ضد حلفائهم العرب، جعل من المستحيل على القوى العظمى إظهار القوة ضد العقيدة الجديدة للإسلام، ما أطلق يد محمد ليبدأ تمرده ويؤسس ديناً جديداً بعيداً من التدخل الخارجي. في الوقت نفسه، أدى التواصل التجاري المنتظم بين التجار العرب والأسواق الإمبراطورية إلى نشر حكايات عن الثروة العظيمة للإمبراطوريتين، ما جعل بلدات الإمبراطوريتين ومدنهما أهدافاً مغرية للنهب، عندما يحين الوقت. أما الغارات التقليدية ضد إخوانهم العرب، والتي أغرت وأغنت العرب لقرون، فقد أصبحت الآن محرمة إسلامياً. تحولت الجيوش العربية المتحدة إلى الخارج ضد البيزنطيين والفُرس لمنافذ جديدة لممارسة الفروسية في الحرب، ومصادر الغنائم اللازمة.

هاجمت جيوش الإسلام المقاطعات الحدودية للإمبراطورية البيزنطية في شتاء العام ٦٣٣ ـ ٦٣٤م. انطلقت من المدينة ثلاث كتائب لغزو فلسطين وسوريا، وأخذت الحاميات الحدودية البيزنطية الصغيرة على حين غرة وهزمتها. وفي الوقت نفسه هاجم جيش عربي آخر دمشق، وهوجمت وأجبرت على الانسحاب قوة إغاثة بيزنطية قادمة لمساعدة المدينة. تُركت كل فلسطين بلا حماية من الغارات العربية، وبعد عام سقطت دمشق في أيدي العرب. تحركت القبائل اللخمية إلى العراق شرقاً على نهر الفرات واستولت على مدينة الحيرة التجارية المهمة. في ٢٦ آب/أغسطس ٦٣٦م، تعرضت آخر قوة بيزنطية متبقية في سوريا لهزيمة ساحقة على ضفاف نهر اليرموك، وسقطت سوريا بأكملها حتى جبال طوروس في أيدي الغزاة العرب. بعد عامين من معركة نهر اليرموك، استسلمت القدس ومدينة قيسارية. في ٦٤٠م هاجمت الجيوش العربية مصر وهزمت البيزنطيين مرة أخرى. بحلول أيلول/ سبتمبر ٦٤٢م اكتمل احتلال مصر، وفي ٦٤٦م تم القضاء على آخر بقايا الحكم البيزنطي في بلاد ما بين النهرين، ما أدى إلى إنهاء وحدة عالم البحر الأبيض المتوسط القديم إلى الأبد.

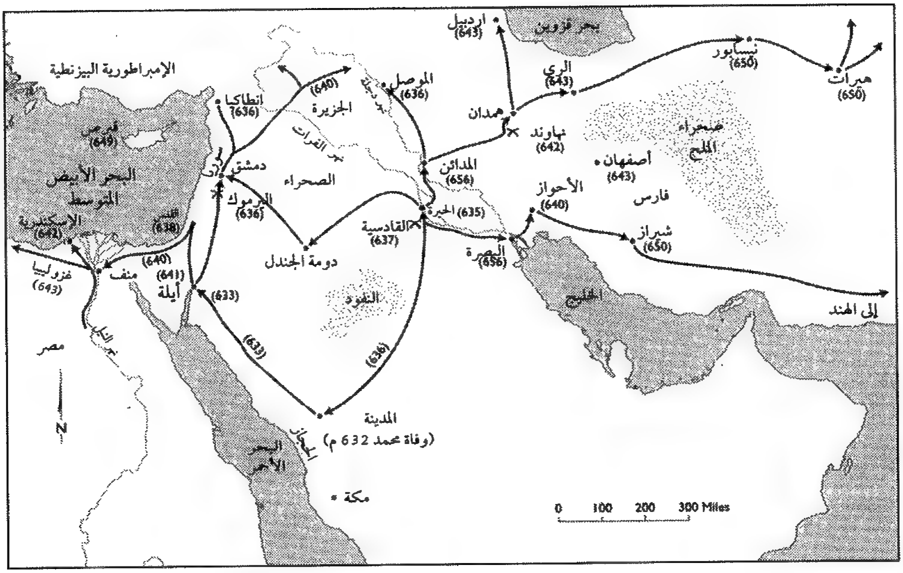

الخريطة ٤: الفتح العربي بعد وفاة محمد ٦٣٢ ـ ٦٥٢م

أدت سلسلة من الانتصارات العربية إلى نهاية الإمبراطورية الساسانية الفارسية. تعرض الفُرس للهجوم عام ٦٣٤م، وفي غضون ثلاث سنوات توغلت الجيوش العربية في أطراف العراق. انسحب الفُرس إلى ما وراء جبال زاغروس تاركين الباب مفتوحاً لغزو العراق. بعد عام، وفي شباط/فبراير ٦٣٧م، دُمّر جيش فارسي كبير جنوب الحيرة في معركة القادسية. في غضون بضعة أشهر سقط العراق كله في يد العرب بما في ذلك العاصمة الإمبراطورية في المدائن. في العام نفسه هُزم جيش فارسي في نهاوند. بحلول عام ٦٤٢م، تقدم العرب عبر نهر دجلة، وخلال ثماني سنوات كانت جميع بلاد فارس تحت الحكم العربي. استعدت الجيوش العربية للتقدم شرقاً عبر نهر أوكسوس، لتصل في النهاية إلى الهند. في أقصى الغرب، أصبحت الإسكندرية في مصر قاعدة بحرية عربية رئيسة، وامتد نفوذ الإسلام إلى البحر المتوسط. مع صعود الأمويين تحوّل الهجوم العربي غرباً مرة أخرى في عام ٦٦١م محتلاً تونس وساحل المغرب، وفي نهاية القرن السابع عبرت الجيوش العربية إلى إسبانيا. في أقل من أربعين عاماً نمت الجيوش العربية من مجرد تحالفات قبلية إلى قيادة إمبراطورية واسعة النطاق.

داخل الجزيرة العربية نفسها، لم ينتج الدين التقليدي لعبادة الأوثان أبداً

طبقة كهنوتية ومؤسسات دولة لربما كانت قادرة على الدفاع عن دينهم القديم ضد تحدي الإسلام. لو كان هناك شكل من أشكال المقاومة الدينية المؤسساتية مثل التي واجهتها الطوائف النصرانية المهرطقة في أراضي الإمبراطوريات، وبعقوبات قتل غالباً، فمن غير المرجح أن ينجح الإسلام بالسهولة نفسها التي نجح بها داخل شبه الجزيرة العربية. إن عدم قدرة الطوائف الدينية خارج شبه الجزيرة العربية على إبراز نفوذها ومعارضة محمد زاد من تسهيل نجاح الإسلام، كما ساهمت ظروف أخرى. أتاحت الاضطرابات الاجتماعية داخل المدينة الفرصة لمحمد للانتقال إليها، وسرعان ما أصبح الشخصية المؤثرة، وهو أمر لم يكن ليحدث أبداً في المسار الطبيعي للعادات القبلية لو لم يكن الإرهاق والخوف من الحرب المستمرة يغلبان على المدينة في ذلك الوقت. بشّر محمد بالحاجة إلى مجتمع جديد، «الأمة»، في وقت انهيار نظام الالتزامات والحماية القبلية في التاريخ العربي. كانت الثروة والمنافسة الاقتصادية للمجتمع التجاري الصاعد تقوضان الأسس التقليدية للمكانة والالتزامات الاجتماعية. لم يكن من قبيل المصادفة أن الكثير من أتباع محمد الأوائل كانوا أولئك الذين حرمتهم أو اضطهدتهم الظروف الجديدة.

إلا أنه يجب ألا يُنظر إلى التركيز هنا على القوى الكبرى التي شكّلت شبه الجزيرة في زمن تمرد محمد كإشارة إلى أن نجاح محمد كان حتمياً أو أن أي شخص غيره كان بإمكانه تحقيقه، ولا شيء في هذا التحليل ينتقص من ذكائه في التعرف على هذه القوى واستخدامها لصالحه. في النهاية، إن أكبر إجلال للثوري الناجح هو قدرته على استشعار تيار بناء التاريخ الصاعد إلى ذروته، واعتلائه تلك الموجة حتى تحمله وقضيته إلى النصر. كما سيوضح التحليل الآتي، لم يكن محمد نبياً «بالمصادفة»، لقد كان مناضلاً ثورياً لامعاً فَهِم طبيعة البيئة التي حارب فيها واستخدمها لصالحه في كل منعطف.

الفصل الثالث

الحرب العربية

عادة ما يعكس سلوك الحرب قيم المجتمع، على الأقل بقدر ما تعكسه قدراتها العسكرية. والتاريخ مملوء بأمثلة على محدودية استخدام القوة الفتاكة للأسلحة، أو إطلاق فاعليتها الكاملة، وذلك اعتماداً على القيم التي استخدمها المجتمع الموجّه لسلوكه في الحرب. فكانت جيوش الهند القديمة، مثلاً، تحكمها عشرات القواعد التي تحظر قتل الأسرى وتعامل المدنيين بإنسانية، وهذا أدى إلى الحد من وحشية الحرب(١). أما اليابانيون فقد أمروا بتدمير الأسلحة النارية التي استوردها اليسوعيون وحظروا تصنيع البنادق للحفاظ على الدور التقليدي لمحارب **البوشي**(*) في الحرب(٢). من ناحية أخرى، كانت عادة الجيوش السويسرية في القرن الرابع عشر الإجهاز على الجرحى والأسرى ـ وهي ممارسات أقنعت البابا بتوظيف مرتزقة سويسريين كحراس شخصيين له(٣). كذلك كانت جيوش بني إسرائيل في العهد القديم؛ إذ كانت شريعتهم تأمر بـ «قتل كل من يتنفس» في غزوهم للكنعانيين(٤).

---

(١) "Ancient India," in: Richard A. Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, 3 vols. (Westport, Conn.: Greenwood, 2005), vol. 1: *From Sumer to the Persian Empire*, pp. 235-52.

(*) كان البوشي أو الساموراي هم محاربو اليابان في فترة ما قبل العصور الحديثة، وشكلوا فيما بعد الطبقة العسكرية الحاكمة التي أصبحت في نهاية المطاف الطبقة الاجتماعية الأعلى مرتبة في فترة إيدو (١٦٠٣ ـ ١٨٦٧). استخدم الساموراي مجموعة من الأسلحة مثل الأقواس والسهام والرماح والبنادق، لكن سلاحهم الرئيس ورمزهم كان السيف (المترجم).

(٢) "Japanese Way of War," in: Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, vol. 3: *From the Medieval Realm to the Ottoman Empire*, pp. 837-872.

(٣) "Rediscovery of Infantry," in: Gabriel, Ibid., vol. 3: *From the Medieval Realm to the Ottoman Empire*, pp. 915-944.

(٤) Richard A. Gabriel, *The Military History of Ancient Israel* (Westport, Conn.: Praeger, 2003), p. 118.

للاقتباس الكامل، انظر: **الكتاب المقدس**، «سفر التثنية،» الآيتان ١٦ ـ ١٧.

فقيم المجتمع هي الحاكمة لسلوكه في الحرب، أكثر من أي شيء آخر.

الأساس الأخلاقي للحرب العربية

ما ذكر آنفاً ينطبق على المجتمع العربي الذي ولد فيه محمد. لطالما كان للفروسية فضيلة مركزية في الفكر العربي، تعكسها مفردات كالمروءة والعِرض. ويُفهم العِرض على أنه الشرف، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتزام الثأر من أي عدوان يُرتكب في حق الرجل شخصياً، أو في حق عشيرته ولأي شخص آخر قدم له حمايته. أما المروءة فتعني حرفياً الرجولة أو الفحولة. وفي حين أن قِرى الضيوف وحماية الضعفاء كانت جميعها فضائل عربية مهمة أيضاً، إلا أنها لا تعلو شجاعة الرجل في الحرب(٥).

ليس متوقعاً أن يتنازل العربي المُهان عن ثأره، بل يسعى للثأر أو لعوض مالي إذ لو تنازل لتعرض للازدراء والاستضعاف والعار. أما تنازل المرء عن ثأره أو وصف الثأر بأنه غير أخلاقي، فهي فكرة أتت في الغالب من النصرانية. تشبه النظرة العربية للثأر نظرة الإغريق الذين كانوا يؤمنون بأنه من واجب الرجل الصالح «أن يكون رحيماً مع الأصدقاء وشديداً على الأعداء، يكرم الأول ويقسو على الثاني»(٦). إن الفضيلة العسكرية المركزية للرجل العربي هو استعداده لبذل نفسه دون عرضه. يتلقى فتيان العرب تدريبات عسكرية ويتعلمون القانون الأخلاقي للمحارب. انتقل قانون الشجاعة العسكرية هذا في الدفاع عن شرف المحارب إلى الغرب في أثناء الحروب العربية مع الفرنجة، وأصبح لاحقاً جزءاً من قانون الفروسية لفرسان العصور الوسطى(٧).

أدى التركيز العربي على صلابة المحارب في بعض الأحيان إلى سوء فهم حالة الجزيرة العربية، وأنها أرضٌ متعطشة للدماء وتغلي بالحروب والصراعات، وأن الشدة البالغة التي أظهرتها أحياناً جيوش الفتوحات العربية

---

(٥) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002), p. 95.

(٦) John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 27.

(٧) "Charlemagne and the Franks," in: Richard A. Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, 3 vols. (Westport, Conn.: Greenwood, 2005), vol. 2: *From Carthage to the Normans*, pp. 659-700.

لم تكن سوى امتداد طبيعي لهذه الظروف العنيفة. هذه وجهة نظر خاطئة، ولربما كانت نتيجة الدعاية الغربية التي ولّدتها ما يقرب من أربعمئة عام من المواجهات بين الجيوش الغربية وجيوش الإسلام. إن أي فحص منصف لسلوك الجيوش الغربية والعربية في أثناء الحروب الصليبية من المرجح أن يخلُص إلى أن وحشية الجيوش الغربية كانت على الأقل مساوية بكل المقاييس لوحشية أعدائها العرب، وربما أكثر وحشية. وعلى سبيل المثال، فقد سفك ريتشارد قلب الأسد(*) دماء سجناء ونساء وأطفالٍ مسلمين، وكانت لديه عادة بشعة في تعليق الرؤوس المقطوعة المتعفنة لضحاياه العرب على سرجه. بالمقابل، ذُهِل صلاح الدين، الجنرال المسلم العظيم، من سلوك الفرسان النصارى بعد أن قتل ريتشارد ٢٢٠٠ سجين مسلم في عكا(٨). والحقيقة هي أن الجزيرة العربية قبل زمن محمد لم تكن أرضاً تمزقها الحروب، ولا هي مسكونة بمحاربين معتادين على قتل بعضهم لأدنى ذريعة.

تجلت شجاعة المحارب العربي وشرفه بوضوح من خلال أدائه في الغزو؛ حيث كانت مجموعة من البدو تهاجم عشيرة أخرى لسرقة قطعانهم أو جمالهم أو نسائهم. لم تكن هذه «حرباً» بالمعنى الحقيقي للكلمة، لأن الهدف من الغزو هو السلب وليس القتل. تنتهي الغارة عادة بسرعة بمجرد إطلاق صيحات الإنذار وتحرك المدافعين لحماية قطعانهم، وفي كثير من الأحيان كان الطرفان يكتفيان بالصراخ وإطلاق كلمات نابية على بعضهم البعض. لم تتكرر تلك الغارات كثيراً وذلك بسبب المسافات الكبيرة التي كان على البدو قطعها، ولم يشارك فيها سوى عدد قليل من الرجال من كل جانب. كما أن إراقة الدماء، فضلاً عن القتل الفعلي، كان أمراً نادراً. وبالنظر إلى التضاريس الصحراوية وندرة البضائع بشكل عام، حتى التي تسلب من خلال غارة ناجحة، كانت هذه «الحروب» العربية رياضة قاسية

(*) قلب الأسد هو ريتشارد الأول، ١١٥٧ ـ ١١٩٩، وكان ملك إنكلترا لعشرة أعوام من ١١٨٩ إلى وفاته. اشتهر بإقدامه وأسلوبه القتالي الجامح والدموي ولكان لقيادته للحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ ـ ١١٩٢) أن شهرته في عصره ونسجت حوله أساطير لا حصر لها. إلا أن تقييم المؤرخين المعاصرين كان أكثر واقعية واعترافاً بالجانب المشين من سيرته (المترجم).

(٨) "The Crusades," in: Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, vol. 3: *From the Medieval Realm to the Ottoman Empire*, pp. 791-836.

ترفيهية أكثر من كونها قتالاً حقيقياً، ولم تختلف عن «الحروب» التي خاضتها قبائل الأمريكيين الأصليين والتي كانت الغاية فيها سرقة خيول العدو وبضائعه ونسائه.

في تلك الحالات التي اقتتلت فيها بعضُ العشائر العربية بأعداد أكبر، لم يكن مصطلح «حرب» ولا كلمة «جيش» مناسبين؛ حيث إن مصطلح الجيش يعني شكلاً من أشكال التنظيم الدائم بهيكل قيادي رسمي يقاتل كوحدة وقادر على التطبيق التكتيكي، وعليه فلم تكن هناك جيوش على هذا النحو؛ بل كانت «الجيوش» العربية عبارة عن مجموعات من المحاربين الأفراد الذين يقاتلون من أجل شرفهم وفرصة الحصول على الغنائم، ولم يكونوا مختلفين عن تجمعات الفرسان المحاربين التي تكونت منها جيوش أوروبا في العصور الوسطى. كانت المعارك بين العشائر العربية تدور عادة على أرضية متفق عليها، ويتواجه الجانبان على أرض مفتوحة، وينازل الأبطال المتنافسون خصومهم في مبارزات فردية. وغالباً ما كان قتل الزعيم أو عدد قليل من الرجال الأقل مكانة كافياً لإنهاء القتال؛ حيث ينسحب المهزوم من الميدان من دون أن يُلاحق. كما تجلت الطبيعة الرسمية للمعارك العربية في اصطحاب نساء العشيرة للعزف على الآلات الموسيقية وغناء الأغاني التي تشجّع رجالهنَّ على القتال. في بعض الأحيان، بالطبع، تخرج الأمور عن السيطرة، فيطول القتال حتى ينسحب أحد الطرفين. ومع ذلك كانت الخسائر طفيفة، في معظم الحالات.

نادراً ما طالت «الحروب» العربية في فترة ما قبل الإسلام، ولم تشنّ أبداً من أجل ما نسميه اليوم أهدافاً استراتيجية، مثل استعباد أو تدمير قبيلة منافسة أو احتلال أراضيها، والتي، على أي حال، ستكون بلا معنى في مجتمع بدوي تتغير فيه قيمة الأرض مع تغير المناخ. كانت الحروب العربية بدائية بمعايير الحرب التي كانت تمارس في ذلك الوقت خارج شبه الجزيرة العربية، وكذلك من حيث الحجم والتكتيكات واللوجستيات ومستوى الخسائر. كانت هذه «المعارك» اشتباكات تكتيكية فقط، ولم تكن الحرب لأغراض سوى إظهار الشرف والشجاعة، ولم يُقصد تحقيق نصر استراتيجي. وهكذا كانت الحروب العربية في فترة ما قبل الإسلام ذات طابع طقوسي

ورمزي إلى حد كبير، وتفتقر إلى أي بُعد أيديولوجي أو ديني أو عِرقي أو استراتيجي.

ارتبطت سمعة العرب بالحرب الدموية حتى في فترة ما قبل الإسلام من الخلط بين الحرب العربية في حد ذاتها والسلوك المرتبط والمسموح به أخلاقياً عندما تنخرط عشيرتان في نزاع ثأر دموي. في هذه الحالة، يجب أن تثأر القبيلة المتضررة أو المُهانة من الأخرى. يجب أن نتذكر أنه في شبه الجزيرة العربية قبل محمد لم تكن هناك مؤسسات حكومية أو مدنية أو قانون أو قوات شرطة أو محاكم لحماية الضعفاء أو تحقيق العدالة لهم. اعتمد العربي فقط على أقاربه وعشيرته وقبيلته لحمايته، ولهذا طُبّق المثل العربي القديم، وهو أن «عشيرة الرجل مخالبه». كانت العشائر ديمقراطية من حيث تساوي جميع أعضائها فيها، وحماية بعضهم لبعض. ويتعرض الفرد إلى خطر كبير بمجرد انفصاله عن عشيرته أو قبيلته. ولو لم يكن هناك ثأر دموي لما كانت هناك آلية اجتماعية لتحقيق العدالة، وإن كانت قاسية، في عالم العرب، ولكان من السهل قَتل أو استعباد الضعفاء أو العاجزين. كان الثأر رادعاً ضد هذا السلوك من خلال منح أي فرد من العشيرة الحق في قَتل القاتل أو أي فرد من أفراد عائلته. وينتهي الثأر الدموي عندما تُوافق أسرة الضحية على قبول تعويض مالي، غالباً ما يكون عدداً من الجمال أو غيرها من البضائع. إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق، يستمر الخلاف إذا لزم الأمر حتى قتل الجاني نفسه. وبهذه الطريقة يتم إحقاق عدالة قاسية للنزاعات العربية في غياب أي مؤسسة اجتماعية أخرى لحماية الضعفاء. كان الثأر قضية خطيرة مميتة، وعرّض الجميع على كلا الجانبين للخطر، ويمكن استمراره لفترة طويلة جداً، وأحياناً لأجيال. ولذا، كان على المرء أن يفكر ملياً قبل أن يَقتل رجلاً لأن العواقب قد تكون فادحة لجميع المعنيين.

بخلاف الثأر، كانت هناك قواعد للفروسية في الحروب العربية، ويمتلك فيها الخصم التقدير والمكانة الأخلاقية نفسهما. لا يجهز المحارب على الجرحى، أو يقتل ببشاعة أو بلا داعٍ. كما أن التقليد العربي القديم في افتداء الأسرى حدَّ من القتل لأن المحاربَ المنتصر كان سيكسب الكثير من خلال حسن معاملة الجرحى وإبقائهم أحياء ليتم افتداؤهم. كانت نتيجة هذه

القيم أن الحرب العربية في عصر ما قبل الإسلام كانت محدودة الحدوث والحجم والوحشية. على النقيض من ذلك، لم يعرف الثأر مثل هذه القواعد أو القيود. لم توضع قيود على كيف ومتى يمكن أن يُقتل الرجل ـ في أثناء نومه أو بالسم أو غيلة. في النزاع الثأري، لم يُمنح العدو أي قيمة أخلاقية، وغالباً ما مورس التعذيب والقسوة والوحشية. حتى في ظل هذه الظروف، كان الثأر يستهدف الفرد المُدان، ولم يكن هناك أي تفكير في محاولة قتل العشيرة بأكملها أو حتى أجزاء كبيرة منها، وهي محاولة من شأنها أن تخلق بالتأكيد نزاعاً دموياً جديداً بين الضحايا والمعتدين السابقين. كان هدف الثأر هو الاقتصاص «للعين بالعين»، وليس المبالغة في الانتقام.

لو بقي الأساس الأخلاقي للحرب العربية على حاله لما أنتجت الجزيرة العربية غالباً جيوشاً كبيرة ومنضبطة وذات اندفاع عالٍ كما فعلت في العصر الإسلامي، ما أدى إلى الفتح الإسلامي لجزء كبير من العالم القديم. لقد كان محمد هو الذي غيّر الأساس الأخلاقي التقليدي للحرب العربية، وأزال القيود التقليدية على القتل، وجلب إلى الجزيرة تصوراً أخلاقياً للحرب وطريقة حديثة حقاً.

على عكس قدامى محاربي العشائر، لم يكن المحاربون المسلمون مدفوعين بشكل أساسي بالمنافسات العشائرية أو الرغبة في النهب، على الرغم من أن كلتيهما أدت دوراً بالتأكيد. كان هدف محمد هو تدمير النظام الاجتماعي العربي القديم القائم على العشيرة والأقارب واستبداله بنوع جديد من المجتمع، وهو الأمة، يتكون من جماعة المؤمنين. لم يكن نموذج المجتمع الجديد هو العشيرة في حد ذاتها، بل كان العشيرة **عندما تنخرط في نزاع ثأر دموي**. أي إن قواعد السلوك الأخلاقي تنطبق فقط على مجتمع المؤمنين، أما من هم خارج الأمة فلا يتمتعون بأي حصانة، ويمكن قتلهم أو استعبادهم من دون عواقب أخلاقية. في مجتمع المؤمنين، يقاتل المحاربون المسلمون لأن الله أمرهم بذلك أو فوضهم لمحاربة أعدائه وتدميرهم. وفي حين أن الخلاف الثأري الدموي قضى بأن تُقتل نفسٌ بنفس، أعاد محمد تعريف القتل الأخلاقي على أنه نفسٌ تُقتل لأغراض سياسية. فقد كانت فكرة إبادة بلدة أو قبيلة بأكملها خارجة عن خيال أولئك المتورطين في

الثارات، فأصبحت ممارسة شائعة في عهد محمد(*). حتى القتل أصبح مقبولاً بموجب القواعد الجديدة، بشرط أن تكون الضحية إما غير مؤمنة أو عدوة للدين. حدث القتل، بالطبع، في شبه الجزيرة العربية قبل محمد، ولكن ليس لأسباب أيديولوجية أو دينية أو لأسباب تتعلق بالدولة. باختصار، الاغتيالات والمجازر لم تكن الأدوات المعتادة للصراع السياسي العربي. الفرق بين النظرة العربية التقليدية للقتل ووجهة النظر الإسلامية الجديدة جليٌّ في جميع روايات حياة الرسول، فلا يوجد ذكر لأي شخص آخر غير محمد يُرسل شخصاً لقتل آخر[٩]. من ناحية أخرى، «كان لدى محمد عدد من الأتباع الشباب المتعصبين الذين كانوا مستعدين فعلياً تصفية أي معارض كلما لزم الأمر»[١٠].

أدى الأساس الأخلاقي الجديد للحرب إلى شكل أكثر عنفاً من الحرب - حرب سياسية/أيديولوجية - جرت على نطاق أوسع مع عدد متزايد من الضحايا أكثر بكثير مما استهلكته الحرب العربية التقليدية. في بعض الأحيان حاولت وحققت الدمار الشامل للعشائر والقبائل المتنافسة، كما حدث عندما أنهى محمد وجود إحدى القبائل اليهودية في المدينة بشكل كامل. لقد كان محمد هو الذي أدخل العلاقة بين التكتيكات والاستراتيجيات للحرب العربية؛ أي الصلة بين استخدام العنف كوسيلة وتحقيق أهداف سياسية دينية أكبر. سعى محمد إلى إنهاء التبعية الكاملة للمجتمع التقليدي القائم على العشيرة، والذي عرفه العرب منذ زمن بعيد، واستبدال به مجتمع جديد قائم على المعتقد الديني المغيّر للعلاقة الأخلاقية للفرد بالقبيلة والعشيرة بشكل جذري. وكان لهذه الأهداف الاستراتيجية أن فرضت تكتيكات عنيفة استخدمها تمرد محمد ثم تبنتها الجيوش العربية بعد وفاته.

كان اعتماد محمد لقانون الثأر كأساس لأخلاق الحرب الجديدة قراراً بالغ الأهمية، وبرّر استخدام العنف ضد غير المؤمنين ضمن مستوى منظم لم

(*) يبالغ المؤلف في وصف الغزوات في عهد الرسول ﷺ بأنها احتوت على إبادة بلدات أو قبائل بأكملها، أو أنه أمر المسلمين بذلك. أما ما حدث لبني قريظة فسيذكر في الفصل الثامن.

(٩) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 220.

(١٠) Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002), pp. 223-224.

يسبق له مثيل في الحروب العربية أو في حياة العرب الاجتماعية. كما أنه صوّر القوى الإسلامية على أنها غير إنسانية في إدارتها للحرب، وهو الأمر الذي سارع أعداء الإسلام في الغرب إلى استغلاله لتصوير المسلمين على أنهم برابرة متعطشون للدماء(١١). لكن تبني محمد لقانون الثأر يصبح مفهوماً عندما ندرك أنه لم يرَ نفسه قط كجنرال تقليدي يقود جيشاً تقليدياً. كان محمد أولاً وقبل كل شيء ثورياً دينياً، وقائداً لتمرد لم يقم بعد بإنشاء قوة عسكرية يمكنه من خلالها إحياء نظامه الاجتماعي الجديد. كان لا بد من تغيير قواعد الحرب القديمة لأنها كانت غير فعالة في تحقيق الأهداف الثورية التي وضعها لنفسه. إذا أراد محمد إنشاء مجتمع جديد تحكمه مبادئ أخلاقية جديدة، فإن الأمر يتطلب آلية عسكرية جديدة تخدم غاياته الاستراتيجية من خلال توسيع قدراته العسكرية، وتغييراً كاملاً في القيم التقليدية التي حكمت الحرب العربية.

الأسلحة والمعدات

كان المجتمع العربي أيام محمد حربياً يتسلح فيه ويتدرب جميع الذكور على القتال. كانت الأسلحة ذات قيمة عالية، ويفخر الجنود بالحفاظ على أسلحتهم في حالة الاستعداد القتالي. عادة ما كانت العشائر التي استقرت في المدن والواحات تعيش في مجمّعات محصنة، وكانت ترسانة أسلحة العشيرة تحت رعاية زعيمها. غالباً ما كانت هذه الترسانات موجودة في مبان حجرية أو مخازن من الطوب، وكانت تلك الأبنية أيضاً بمثابة آخر موقع دفاعي للعشيرة في حالة تعرضها للغزو. تم الحصول على الأسلحة إما من خلال التصنيع المحلي، أو الغنائم، أو الجزية، أو الشراء. قبل ظهور الإسلام، كانت سوريا والهند أكبر المصادر الخارجية للأسلحة العربية، واقتصر التصنيع المحلي في الغالب على تلك الأسلحة التي تتطلب القليل من المهارة الفنية لصنعها، وشملت الحبال والدروع الجلدية والخناجر والرماح والأقواس والأسهم. أما تلك الأسلحة التي تتطلب تصنيعاً معدنياً ـ كالسيوف والخوذ والتروس المعدنية ونصال الرماح والحِرَاب والدروع الحديدية ـ

(١١) فكرة أن الجنود المسلمين متعصبون متعطشون للدماء لا تزال حية في ذهن الغرب اليوم نتيجة استمرار الحرب في العراق إلى حد كبير.

فتُستورد في الغالب. مارس الصنّاع المحليون مهاراتهم في البلدات والحواضر كالمدينة، التي اشتهرت، على سبيل المثال، بجودة سهامها، وتخصصت إحدى القبائل اليهودية هناك في صناعة الأسلحة المعدنية[١٢]. صُنّعت سهام حديدية في شبه الجزيرة العربية في وقت مبكر من العصور الهلنستية، ويبدو أن بعض صناعة البرونز قد استخدمت في السيوف في وقت مبكر من الألفية الأولى قبل الميلاد[١٣]. تأخرت صناعة المعادن في شبه الجزيرة العربية بشكل كبير عن تطورها في أماكن أخرى، ويبدو أن الأسلحة الفولاذية المصنعة محلياً كانت غائبة تماماً في أيام محمد. لم تصنع الأسلحة الفولاذية «العربية» إلا بعد أن غزا العرب الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، حيث كانت الأسلحة الفولاذية شائعة الاستخدام، وعندها اشتهرت جودة تلك الأسلحة وسميت بال«العربية»[١٤].

كانت الأسلحة الأساسية للمشاة العرب هي القوس والسهم، والسيف، والمقلاع، والحربة، وربما جاءت هذه الأخيرة من المرتزقة السود أو العبيد من الحبشة[١٥]. كان سلاح الفرسان الرئيس هو السيف والرمح الطويل إضافة إلى رمح الطعن القصير الذي يشبه ما استخدمه مشاة جيوش الإسكندر. كان طول الرمح القصير خمس أذرع، أو نحو ستّ أقدام، أما الرمح الطويل فكان بطول ١١ قدماً تقريباً[١٦]. يشار إلى أعمدة رماح الفرسان في الأدب

---

(١٢) Muhammad Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet* (Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939), p. 139.

(١٣) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Routledge, 2001), pp. 188-189.

(١٤) كان عرب شبه الجزيرة العربية شعباً أمياً وغير متطور. جلب غزوهم لجزء كبير من العالم الشرقي القديم القليل له باستثناء اللغة العربية والدين الإسلامي. كانت شعوب الأراضي المحتلة ورثة الفن والعمارة والأدب والعلم في العالم القديم. مع مرور الوقت، تحول السكان المحتلون إلى الإسلام وترجموا نصوصهم القديمة إلى العربية، ثم شقت تلك طريقها إلى الغرب. كانت المعرفة والتكنولوجيا للشعوب المحتلة هي التي غيّرت العرب، وليس العكس. إن العادة الغربية في الإشارة إلى كل الشعوب التي تتحدث العربية وتعتنق الإسلام كعرب هي سوء فهم جسيم للفتوحات الإسلامية والعرب. انظر: "Wars of Arab Conquest," in: Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, vol. 2: *From Carthage to the Normans*, pp. 639-658.

(١٥) Hitti, *History of the Arabs*, 173.

(١٦) David Nicolle and Angus McBride, *The Armies of Islam, 7th-11th Centuries* (London: Osprey, 1982), p. 11.

العربي باسم **خطي**، الذي سمي على **الخط** في ساحل البحرين حيث كان الخيزران يزرع لصنع مقابض الرماح. بحلول زمن محمد، تم استيراد معظم الخيزران من الهند، وإن بقي المصدر القديم لها في الذاكرة العربية(١٧)، كما حمل الفرسان العرب أيضاً السيف للقتال عند الالتحام. وهكذا فإن ما قاله عنترة في معلقته هو وصف دقيق للفرسان عند الهجوم(١٨):

فطعنتُه بالرمحِ ثمَّ علوتُهُ   بمهندٍ صافي الحديدةِ مِخذَمِ

تشير نماذج الأقواس العربية التي بقيت إلى أن بعضها ربما كان مماثلاً لتلك المنحنية الموجودة في التصميم الفارسي. إذا كان هذا النوع من الأقواس نموذجياً، فمن المحتمل أنه تم تصنيعه خارج شبه الجزيرة العربية نظراً إلى ندرة الخشب المطلوب لهذا النوع في الجزيرة العربية، ومن المتوقع أن يكون ثمنه باهظاً للغاية. إلى جانب السيف، كان القوس والسهم من الأسلحة المحلية للجزيرة العربية، وهو شيء لا نتوقع أن نجده إذا كان القوس من صنع أجنبي وذا كلفة كبيرة. من ناحية أخرى، كان من الممكن صنع القوس البسيط محلياً من خشب النخيل أو خشب الطلح، وهي أصناف خشب موجودة في شبه الجزيرة العربية. كان للقوس البسيط نطاق محدود وقوة اختراق أقل من القوس المنحني، ولكن بالنظر إلى الطريقة التي استخدم بها العرب القوس في المعارك عبر إطلاقه بزخّات لا على أهداف فردية، فإن القوس البسيط سيكون له فاعلية كافية. بعد الفتوحات العربية، اتُّبعت الممارسة البيزنطية في طريقة استخدام القوس في البداية، ثم تبنى العرب القوس الفارسي المنحني وتعلموا مهارة إطلاق القوس من ظهور الخيل(١٩).

السيف أغلى ما يملكه المحارب العربي، ويعتبر أرقى أسلحته، وكانت براعته في القتال الفردي هي أعلى مهاراته. ولأن السيف كان يستخدم أيضاً في ذبح الحيوانات لقرى الضيوف للعشاء، أصبح هذا السلاح مرتبطاً بالفضائل الأخلاقية العربية الأخرى كالكرم والضيافة. تشير الأدلة الأثرية إلى

---

(١٧) Hitti, *History of the Arabs*, p. 173, and Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 188,
ويزعم كلا المؤلفين أن أعواد الخيزران كانت تُجمع في البحرين، لكنها لم تزرع هناك.

(١٨) Hoyland, Ibid., p. 189.

(١٩) Nicolle and McBride, *The Armies of Islam, 7th-11th Centuries*, p. 9.

أن السيف ظهر في وقتٍ ما في الألفية الثانية قبل الميلاد عندما كان سلاحاً طويلاً مكوناً من قطعتين (مقبض ونصل منفصلين) مصنوعتين من البرونز. بحلول الألفية الأولى قبل الميلاد، أصبح سيفاً قصيراً مستقيماً من البرونز المصبوب في قطعة واحدة. بحلول الفترتين الرومانية والفارسية، أصبح السيف العربي النموذجي سلاحاً ثقيلاً طويلاً مستقيماً مصنوعاً من الحديد[٢٠]. بحلول زمن محمد استبدلت بهذه الأسلحة الكليلة السيوف الهندية، وهو **الهندي** الشهير المصنوع من الفولاذ الممتاز والمستورد من الهند[٢١]. سُميّت السيوف الهندية **بالمهنّد** لتمييزها عن سيوف **المشرفية** المصنعة في سوريا[٢٢]. كان طول السيف الهندي نحو متر ومستقيم بحافة مزدوجة. تطور السيف بعد الفتوحات العربية وبدأ يكتسب منحنى طفيفاً ليصبح السيف المنحني، وهو المستخدم اليوم. ربما حدث هذا التغيير في التصميم نتيجة لتأثير فرسان آسيا الوسطى الذين قاموا بمضايقة حدود الإمبراطورية الجديدة. كان السيف العربي يُحمل في غمدٍ متدلٍّ على الكتف الأيمن[٢٣].

تصف القصيدة التسلح الدفاعي للمحارب العربي بالعبارات التالية من معلقة عمرو بن كلثوم:

علينا البيضُ واليَلَبُ اليماني ... وأسيافٌ يَقُمنَ وينحنينا

علينا كلُّ سابغةٍ دلاصٍ ... ترى فوقَ النطاقِ لها غُضُونا

كانت الخوذ مصنوعة من الحديد المطروق أو البرونز المصبوب وهي إما بيزنطية أو فارسية التصميم، وكانت مستوردة بلا شك. أما الخوذات المعدنية فكانت باهظة الثمن وفي متناول الأثرياء فقط[٢٤]. أما أولئك الأقل مكانة فعادة ما يكون لديهم عمامة قماشية سميكة لحماية الرأس. في وقت

(٢٠) Hoyland, Ibid., p. 189.

(٢١) Nicolle and McBride, Ibid., p. 8.

(٢٢) Hitti, *History of the Arabs*, p. 147,
ويشير إلى أن السبب الحقيقي لغزوة مؤتة هو أن سيوف المشرفية كانت تصنع هناك.

(٢٣) المصدر نفسه، ص١٧٣.

(٢٤) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 189.

لاحق، أصبح من المعتاد للعربي لف عمامة من القماش حول خوذته المعدنية التي يرتديها تحتها. ويبدو أن محمداً نفسه كان دائم الارتداء لخوذة في المعركة. كانت الدروع تصنع في الغالب من الجلد المُمدّد فوق إطار خشبي ويحملها كلٌّ من المشاة وسلاح الفرسان. غالباً ما كان للجنود الفقراء دروع مصنوعة من جلد الإبل، وكانت الدروع العربية صغيرة ومستديرة وخفيفة وسهلة للمناورة، وتُستخدم في القتال اليدوي لصدّ ضربات السيف وتفاديها بينما يستخدم الذراع الآخر للسيف.

كانت أهم المعدات الدفاعية هي الدرع المصنوعة من حلقات معدنية متسلسلة ومثبتة بشكل وثيق ومربوطة بالمسامير لجعلها عصيّة الاختراق من رمية أو طعنة. كانت سترات الدروع العربية واسعة وفضفاضة وغالباً أطول من تلك البيزنطية أو الفارسية. في وقت لاحق، اعتمدت الدروع القصيرة عندما أصبحت الخيول أداة أساسية في الحرب العربية، وهكذا أصبح ركوب وقيادة الحيوان أسهل. كانت فاعلية الدروع أوضح ضد القوس العربي البسيط والسهام ذات الرؤوس الحديدية. أما السهام البيزنطية أو الفارسية ذات الرؤوس الفولاذية والتي تطلق من أقواس معقوفة فكانت أقوى بكثير، وأكثر قدرة لاختراق الدروع. كانت الدروع العربية فعالةً في المقام الأول ضد طعنات وضربات السيوف والرماح والسهام والخناجر، وهي الأسلحة المستخدمة بشكل شائع في الحروب العربية حتى وفاة محمد. أشار الشعراء العرب إلى درع المحارب على أنها «مصنوعة من نسج داوود»(*)، في إشارة إلى آية قرآنية مفادها أن النبي داوود كان صانع أسلحة، وأن أفضل الدروع «تبدو متلألئةً كبِركة فضية تهبّ عليها الرياح فتتألق مثل البرق»(٢٥).

(*) ومن ذلك قول كعب بن زهير:

شُمُّ العَرانينِ أبطالٌ لَبوسُهُمُ ... مِن نَسجِ داوُدَ في الهَيجا سَرابيلُ

وقول المتنبي:

لأمَةٌ فاضَةٌ أضَاةٌ دِلاصٌ ... أحْكَمَتْ نَسْجَها يَدَا داوُدِ (المترجم)

(٢٥) المصدر نفسه. الإشارة إلى داوود كصانع للدروع موجودة في «سورة سبأ»، الآيتان ١٠ ـ ١١:
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۞ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾.

تكتيكات

كانت تكتيكات جيوش ما قبل الإسلام بدائية في أحسن الأحوال. عادة ما يصطف محاربو كل عشيرة بعضهم مقابل بعض، وانطلاقاً من الروايات القليلة الموثوقة لهذه الاشتباكات فإنه لا يبدو أن هناك أي اصطفاف معتمد. يصف أحد النصوص التشكيل بأنه «مجموعة متراصة»، ولكن لا يوجد دليل على أنه يشبه تشكيلة «الكتيبة» المرصوصة بإحكام والمعتمدة عند جيوش العصور القديمة، أو التشكيلة المرنة الرومانية للمشاة الحاملين للسيوف. كان السيف العربي الطويل يُصعِّب من تشكيل مجموعة مقاتلة متراصة، على عكس السيف الروماني الأقصر الذي يستخدم كسلاح طعن، وهو تصميمٌ سمح لكل جندي روماني باحتلال خمسة أمتار مربعة من الأرض داخل التشكيلة الخماسية. أما طول السلاح العربي واستخدامه بشكل فعال كسلاح قَطعٍ يتطلب تشكيلاً أكثر مرونة. على الأرجح، كانت تشكيلات المشاة العربية المبكرة هذه مفتوحة وغير متراصة وسمحت بعلاقة تكتيكية ضئيلة بين حاملي السيوف، ويصف عمرو بن كلثوم عملية اشتباك المشاة بقوله:

نُطاعنُ ما تراخى الناسُ عنّا ونضربُ بالسيوفِ إذا غُشينا

بدأت المعارك العربية بإرسال كل طرف أبطاله لمبارزة أفضل المحاربين من الجانب الآخر. هؤلاء الأبطال كانوا في الغالب رؤساء أو وجهاء القبيلة. بمجرد مقتل أو جرح أو أسر عدد قليل من هؤلاء المحاربين، لم يكن مستغرباً أن تنتهي «المعركة» وينسحب المهزوم. في أحيان أخرى، يسعى أحد الأطراف للاستفادة من موقعه المتفوق ويواصل الهجوم. كانت النتيجة اشتباكاً عاماً غير منظم بين أفراد الجنود من دون أن يكون هناك شيء تكتيكي واضح.

ربما أدرك محمد ضعف المشاة العرب التقليديين، وسعى لتنظيمهم بشكل مختلف. قاتلت جيوشه في مجموعات منضبطة من المشاة حاملي السيوف، ربما كانت منظمة حسب العشيرة أو القرابة[٢٦]. من شأن هذا التنظيم أن يزيد بشكل كبير من تماسك الوحدة، ورفع المعنويات، والشعور العام بالاشتراك بمصير واحد. سيكون للتشكيل أيضاً حجم أكبر، مما

---

(٢٦) Nicolle and McBride, *The Armies of Islam, 7th-11th Centuries*, p. 13.

سيصعّب اختراق العدو له. قام محمد أيضاً بتشكيل قوات المشاة الخاصة به في صفوف تلزمهم بطاعة الأوامر على عكس الالتحامات غير المنظمة التي كانت الشكل العربي المعتاد للقتال. ولذا اشتهر سلاح المشاة المحمدي بانضباطه وقدرته على المواجهة المباشرة. في أكثر من مناسبة، بدت مشاته مهزومة، فقط لتتراجع وتلتف وتعود إلى القتال.

كان سلاح الفرسان هو الذراع القتالية لسكان المدن الأثرياء أو البدو بسبب تكاليف شراء الخيول ورعايتها. كانت الخيول باهظة الثمن وأثيرة لدى المحاربين حتى أنهم كرهوا المخاطرة بها في القتال المباشر، خاصةً ضد الرماة الذين يمكنهم بسهولة إصابة أو قتل الحيوان بسهامهم. هناك القليل من الأدلة على وجود تكامل تكتيكي بين سلاح الفرسان والمشاة قبل أن يستطيع محمدٌ فعلَ ذلك بنجاح. تشير الأدلة المستقاة من روايات ما قبل الإسلام إلى أن الفرسان قاتلوا كأبطال فرديين يجولون ويصولون في ساحة المعركة ويضربون الجنود الذين انفصلوا عن وحداتهم، بدلاً من وحدات فرسان تعمل بتناغم. كما هي الحال مع سلاح الفرسان في العالم القديم، فإن عدم وجود سرج وركاب مناسبين وعاليين جعل القتال من ظهور الخيل صعباً، خاصة إذا أدى طعن الضحية بالرمح إلى زعزعة الطاعن عن سرجه. ربما لم يصبح الرِكاب من المعدات العسكرية العربية إلا بعد وفاة محمد بفترة طويلة(*)، ومن المحتمل أنهم استفادوا من استخدام الفُرس له خلال حروب الفتوحات. وحتى في ذلك الوقت، حطّ الشعراء العرب من سمعة الرِكاب باعتباره علامة على ضعفٍ في مهارة الفارس، وذلك لأنه يبدو بعيداً عن الممارسة العربية التقليدية في ركوب الخيل من الخلف أو الجانب بقفزة

(*) من الواضح أن الركاب كان مستخدماً بشكل عام خلال حياة النبي ﷺ، فقد روى النووي وأحمد أنَّ رجلاً سألَ النَّبيَّ ﷺ، وقد وضعَ رجلَهُ في الغرزِ، أيُّ الجِهادِ أفضلُ؟ قالَ: كلمةُ حقٍّ عندَ سلطانٍ جائرٍ. (النووي وأحمد). ومعنى «وضع رجله في الغرز»؛ أي في رِكاب الدابة، وهو الموضع المصنوع من الجلد الذي يُستعان به على ركوبها. وروى أيضا الترمذي حديثاً عن علي بن ربيعة قال: شَهِدتُ عَلِيّاً ﷺ أُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا، فلما وضع رجله في الرِّكَاب قال: «بِسْمِ اللهِ» ثَلاثاً، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا، قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ». ثُمَّ قَالَ: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ... ثُمَّ ضَحِكَ...وقال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَنَعَ كَمَا صَنَعْتُ» (المترجم).

واحدة.(٢٧) تركت هذه الظروف سلاح الفرسان ليؤدي دوراً ضئيلاً في ساحة المعركة ما دام المشاةُ محتفظين بتماسكهم. ولا توجد روايات عربية عن قيام سلاح الفرسان بمهاجمة تشكيل مشاة ثابت في فترة ما قبل الإسلام أو حتى خلال حياة محمد. كان استخدام سلاح الفرسان محدوداً جداً، فهو للاستطلاع أو مهاجمة الجنود الضالين، أو يُستخدَم في المطاردة بمجرد أن يتخلى المشاة في الطرف الآخر عن تشكيلاتهم وينهزموا.

كان كل محارب عربي ماهراً بالقوس والسيف، وغالباً ما أدّى الرماة دوراً مهماً في المعركة. كان الرماة يتصرفون أحياناً كمناوشين أمام خط المعركة الرئيس لرمي العدو ومضايقته قبل بدء الاشتباك. وكان رماة الرمح يؤدون أيضاً دوراً في تلك المناوشات. أما الدور الأكثر شيوعاً للرماة فكان هو الحماية من سلاح فرسان العدو ومنعه من التقدم. وتصف معلقة عنترة دور الرماية التكتيكي:

طَوراً يُجَرَّدُ للطِّعانِ وتارةً يأوي إلى حَصدِ القَسِيِّ عَرَمْرَمِ

في معركة أُحُد، وضع محمد الرماة على تلٍّ يتحكم في محورٍ حَرِجٍ يصل إلى مؤخرة الجيش، مع تعليماتٍ لهم باستخدام السهام لإغلاق هذا الطريق. ترك الرماة موقعهم لنيل الغنائم، وهاجم سلاح الفرسان المكي من خلال الطريق المفتوح وانقضّوا على جيش محمد من الخلف وكادوا يقتلون محمداً. ربما كانت أفضل مزايا القوس هي قدرته على القتل من دون تعريض الرامي لحياته للخطر.

تكوّنت جيوش ما قبل الإسلام من عشائر وقبائل، قاتل كل منها تحت قيادة قادتها ورايتها الخاصة. تُرفع تلك الراية على رمح يحمله أشجع محاربي العشيرة، وهذا ما يجعله مُستهدَفاً في ساحة المعركة. استمر التنظيم العشائري والقبلي في عهد محمد، ولكن بطريقة مختلفة جداً. لأول مرة كان لجيش محمد قائد واحد يمكنه فرض سلطته على القادة المرؤوسين، وانتهت العادات القديمة للعشائر الرافضة للقتال بالانسحاب عشية المعركة، وحتى

(٢٧) Patricia Crone, "The Early Islamic World," in: Kurt Raaflaub and Nathan Rosenstein, eds., *War and Society in the Ancient and Medieval Worlds* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999), p. 311.

الفرار منها بأمر من زعيم عشيرتهم. مع ذلك، احتفظ محمد بالشكل التنظيمي القديم لجيش ما قبل الإسلام، وتم تقسيم الجيوش لقلبٍ وجناحين وطليعة ومؤخرة. استُخدِم هذا التنظيم من قِبل اليمنيين قبل زمن محمد، وقد يُنسب إلى النفوذ الفارسي. في العربية كان يُعرف هذا التكوين بالخميس[٢٨].

تقدم القصيدة الآتية للطفيل بن عوف سرداً لقتالٍ عربيٍّ نموذجيٍّ بين عشيرتين، كما أنها تُصوّر بدقة بعض المناورات العسكرية الأساسية، بخلاف القتال الذي كان شائعاً عند الجيوش العربية في تلك الفترة:

جَلَبْنا مِنَ الأعرافِ أعرافِ غَمرَةٍ   وَأعرافِ لُبنى الخَيلَ يا بُعدَ مَجلَبِ
فَلَمّا بَدا حَزمُ القَنانِ وَصارَةٌ   وَوازَنَّ مِن شَرقِيِّ سَلمى بِمَنكِبِ
أَنَخنا فَسُمناها النِطافَ فَشارِبٌ   قَليلاً وَآبٍ صَدَّ عَن كُلِّ مَشرَبِ
يُرادي عَلى فَأسِ اللِجَامِ كَأَنَّما   يُرادي بِهِ مِرقاةُ جِذعٍ مُشَذَّبِ
وَشَدَّ العَضاريطُ الرِّحالَ وَأُسلِمَتْ   إِلى كُلِّ مِغوارِ الضُّحَى مُتَلَبِّبِ
فَلَم يَرَها الراؤونَ إِلّا فُجاءَةً   بِوادٍ تُناصيهِ العِضاةَ مُصَوَّبِ
فَما بَرِحوا حَتّى رَأَوا في دِيارِهِم   لِواءً كَظِلِّ الطائِرِ المُتَقَلِّبِ
رَمَتْ عَن قِسيِّ الماسِخِيِّ رِجالُنا   بِأَجوَدَ ما يُبتاعُ مِن نَبلِ يَثرِبِ
فَلَمّا فَنا ما في الكَنائِنِ ضارَبوا   عَلى القُرعِ مِن جِلدِ الهِجانِ المُجَوَّبِ

لاحظ، على سبيل المثال، أن الخيول لا تُركب إلى ساحة المعركة ولكنها مقيدة خلف الجمال التي تُركب. لاحظ أيضاً أن الماء ثمين في الحملة ويتم تقديمه للخيول أولاً، ما يوضح القيمة التي يوليها العرب للنفيس منها. تم تنفيذ الغارة في الصباح، فغالباً ما جعلت حرارة النهار الصحراوي السفر خلال ساعات النهار مستحيلاً. عادةً ما كان المغيرون العرب يسافرون ليلاً، ويتحركون إلى مواقع قريبة من معسكر العدو تحت جنح الظلام ويغيرون قبل شروق الشمس. يتحرك المغيرون إلى مواقعهم على طول الوادي، وهو مجرىً جافّ منخفض تحده أشجار الطلح، لإخفاء اقترابهم من العدو، معززين بأقواسٍ تأتي من يثرب، وهو الاسم الأصلي للمدينة،

(٢٨) Hitti, *History of the Arabs*, p. 173.

المشهورة بصناعة الأقواس والسهام. يتم رمي السهام من مسافة بعيدة وفي وابلٍ على أمل أن يكون ذلك كافياً لفرار العدو. فقط عندما تنفد جعبات السهام يبدأ الهجوم بالسيوف. على الطريقة العربية التقليدية، تتجه الغارة لنهب قطعانٍ خلّفها العدو الهارب بدلاً من القتل. وأخيراً، كانت جلود الإبل رخيصة الثمن وحمل المغيرون دروعاً جلدية مصنوعة منها، مما يشير إلى أنهم ليسوا أثرياء. قد يكون الادعاء بأن الدروع الجلدية مصنوعة من «جِلدِ الهِجانِ المُجَوَّبِ» هو محاولة الشاعر لإخفاء المكانة المتدنية للمغيرين.

النقل العسكري

ـ الجمل

كان الجمل والحصان هما الوسيلتين الرئيستين للنقل العسكري في شبه الجزيرة العربية، مع أهمية أكبر للجمل. من المحتمل أن يكون الجمل قد أدخل من الجزيرة العربية إلى الشرق الأوسط في وقتٍ ما نحو الألفية الثانية قبل الميلاد، حيث تم صيده في البرية، ودُجّن في مجموعات، واستُخدم بشكل أساسي للطعام. بحلول عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، تم تدريبه للاستخدام كحيوان نقل وحَمل[٢٩]. ربما أدخل إلى فلسطين وسوريا في زمن غزوات المدينيين (أهل مدين)[*] من نحو ١٢٠٠ ـ ١١٠٠ قبل الميلاد، وعندها سُجلت أول حالة لاستخدامه في تواريخ الحرب. يخبرنا العهد القديم عن معركة يشوع مع العمالقة في رفيديم، وكان العمالقة من البدو الرُحّل الذين ركبوا الجمال وغزوا على ظهورها. كما تحكي قصة جدعون التوراتية عن معاركه ضد المدينيين وجمالهم عندما غزوا إسرائيل في عهد القضاة (١١٥٠ ـ ١٠٥٠ قبل الميلاد)[٣٠] كان أول

---

(٢٩) Arthur Goldschmidt, Jr., *A Concise History of the Middle East* (Boulder, CO: Westview Press, 1988), p. 23.

انظر أيضاً: Richard W. Bulliet, *The Camel and the Wheel* (New York: Columbia University Press, 1990).

(*) قوم مدين أو المدينيون هم قبيلة من العرب القدماء في شمال غرب الجزيرة العربية، وتقع آثار مساكنهم في منطقة تبوك. كانوا رعاة غنم وتجاراً ويغشّون في الأوزان. يروي القرآن أن الله بعث فيهم نبيَّه شُعيباً لحثهم على المتاجرة الشريفة فرفضوا دعوته. وقد ذُكر في الكتب اليهودية بأن قوم مدين كانوا يسكنون في النقب وسيناء (المترجم).

(٣٠) Gabriel, *The Military History of Ancient Israel*, pp. 81-86.

توثيق لاستخدام الإبل في الحرب في عام ٨٢٥ ق.م عندما وصفت السجلات الآشورية جنديبو العربي بأنه قدّم ألف جملٍ وراكبٍ للجيش الآشوري في معركة قرقر[٣١].

الحياة في الصحراء مستحيلة من دون الإبل؛ فهي وسيلة النقل الأساسية له لأماكن لا يستطيع الحصان والحمار قطعها. كما أن لها قيمة تبادلية، فالمهور والديات تحسب بالإبل. أما لبنها فهو شراب البدو الأساسي، كما تطعم ذبيحتها تسعين إلى مئة شخص[٣٢]. أما الثياب العربية فتصنع في الغالب من شعر الإبل، وكذلك الأغطية والخيام التي يأوي إليها البدو من حرارة الصحراء وبردها. كانت فضلات الجمل وقوداً شائعاً في أرضٍ يندر فيها الخشب، كما استخدم بوله كعلاج..[٣٣] ولا عجب أن العرب اعتبروه «هبة من الله».

الجمل العربي هو الجمل ذو السنام الواحد، ويجب عدم الخلط بينه وبين الجمل البكتيري ذي السنامين في سهول آسيا الوسطى. يمكن للجمل أن يستهلك ١٠٦ ليترات من الماء في عشر دقائق ويخزن الماء في جوفه وليس بسنامه كما يُعتقد أحياناً[٣٤]. يتكون سنام البعير من دهون مخزنة يتغذى عليها عند ندرة الطعام. بالمقارنة مع الحيوانات الأخرى يفقد الجمل القليل من الماء نسبياً من خلال التعرق والتبول، ما يسمح له بالسفر لمسافات طويلة بين محطات السقي[٣٥]. يُساعده وَبَره القصير وأقدامه المبطنة في قدرته على تحمل بيئةٍ حارةٍ جداً ومنخفضة الرطوبة كما في الصحراء العربية، ويستطيع السفر عشرين يوماً من دون ماء في حرارة ٥٠ درجة مئوية قبل أن تنفد طاقته[٣٦] كما يمكنه أن يأكل ويهضم أي شيء تقريباً، بما في ذلك النباتات

---

(٣١) Richard A. Gabriel, *Soldiers' Lives through History: The Ancient World* (Westport, Conn.: Greenwood Press, 2006), p. 149.

(٣٢) بحسب رواية ابن إسحاق، استجوب محمد قبل معركة بدر سقاة قريش لمعرفة عدد الجيش، فسأل عن عدد الإبل المذبوحة كل يوم، فأجاب السجين بأنها تسعة أو عشرة جِمال، فقدّر محمد عددهم بين تسعمئة وألف.

(٣٣) Hitti, *History of the Arabs*, pp. 21-22.

(٣٤) Goldschmidt, Jr., *A Concise History of the Middle East*, p. 23.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) Rodinson, *Muhammad*, p. 13.

الشائكة مثل الطلح والأعشاب الجافة التي لا تستطيع الحيوانات الأخرى هضمها، ولا سيما الخيول والبغال. نادراً ما عُلفت الإبل البدوية، حيث كانت تعتمد بشكل شبه كامل على الرعي الطبيعي. أما في سنوات الجفاف عندما كان العلف نادراً، فغالباً ما تصبح الجمال والخيول عديمة الفائدة عسكرياً لأنها لا تقوى على رحلات مضنية[٣٧]. أما في المدن والواحات فكانت الإبل تتغذى أحياناً على الحبوب في الأوقات الصعبة، ويُسحق نوى التمر كطعام للإبل في الواحات. كان بإمكان البدوي بفحص بعر الجمال أن يعرف البيئة القادم منها.

يقال إن اللغة العربية تضم نحو ألف مرادف لاسم للإبل وسلالاتها ووظائفها ومراحل نموها، وهو عدد لا ينافسه سوى عدد مرادفات السيف[٣٨]. الكلمة العامة للإبل هي البعير، ولها أسماء محددة حسب استخدامها كالإبل الناقلة والمركوبة وتلك المستخدمة في جلب الماء[٣٩]. ومن مركزية الجمل في الحياة العربية أن مسافات السفر محسوبة بسير الجمال لا بقطعها مشياً، وهو أمر مستحيل أصلاً. يعتمد مدى سير وسرعة الجمل على مقدار حمولته؛ فيمكن لجمل النقل على سبيل المثال، أن يحمل ما بين مئتين وثلاثمئة كيلو في جانبيه، ومزيداً على ظهره إذا لزم الأمر[٤٠]. لو غُذيّ وسُقي بشكل جيد فيمكنه قطع ستين ميلاً في اليوم مع تلك الحمولة[٤١]. تؤثر التضاريس أيضاً على قدرة الإبل في المشي، فهي لها أخفاف مناسبة ناعمة ولا تجيد السير فوق الأرض الصخرية وتكاد تكون عديمة الفائدة في الجبال. تعتبر سهول الحرّات المميزة للحجاز حواجز فعالة أمام سفر الجمال.

بإمكان جمال البريد قطع سبعين ميلاً في اليوم في رحلة قصيرة. على مدار أسبوع يمكنهم السفر لمسافة ستين ميلاً في اليوم، وبمتوسط خمسين

---

(٣٧) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 225.

(٣٨) Hitti, *History of the Arabs*, p. 22.

(٣٩) Vernon J. Parry and Malcolm E. Yapp, *War, Technology, and Society in the Middle East* (London: Oxford University Press, 1975), p. 32.

(٤٠) Jonathan P. Roth, *The Logistics of the Roman Army at War, 264 BC-AD 235* (Boston, MA: Brill, 1999), p. 207.

(٤١) Rodinson, *Muhammad*, p. 13.

ميلاً في اليوم على مدار أسبوعين، شريطة أن يتغذى الحيوان ويُسقى بشكل دوري[٤٢]. يعتبر الجمل أيضاً خزاناً للمياه في جوفه، وفي حالات الطوارئ يمكن ذبح جمل طاعن تم سقيه خلال الأيام الثلاثة الماضية، وبقر جوفه واستخدام الماء للاستهلاك البشري أو لسقي الخيول. أسلوب آخر هو إدخال عصا في حلوق الإبل لإجبارها على تقيؤ الماء. يقول أحد المصادر: «إذا سقي الجمل خلال يوم أو يومين، يكون الماء صالحاً للشرب»[٤٣] من المهم أن نتذكر أن معدلات الحركة العملية للجمل كانت أبطأ بكثير من تلك المذكورة أعلاه، فغالباً ما كانت العشائر والجيوش العربية تتنقل مع المتاع والزوجات والأطفال والقطعان والخيول. كل قطع مسافة طويلة يجب أن يتم على مراحل من أجل إطعام الحيوانات والبشر وسقيهم بشكل كافٍ. كانت المشكلة اللوجستية الرئيسة هي إبقاء الحيوانات على قيد الحياة، وليس إطعام الجنود. كانت الخيل على وجه الخصوص بمثابة عائق كبير للحركة العسكرية في شبه الجزيرة العربية؛ إذ لم يكن لديها السرعة أو القدرة على التحمل، أو أن تتلاءم مع علف الإبل. كان على الإبل أن تحمل طعام الخيول، وانخفضت معدلات الحركة بسبب ذلك.

كان استخدام الجمل في الحرب يتمثل في المقام الأول بكونه ناقلاً للقوات والإمدادات. وعلى الرغم من ذكر الروايات التاريخية أن حامل لواء قبيلة هوازن في معركة حُنين قاتل برمح على ظهر جمل، فإن ذلك كان حدثاً نادراً. يمنع ارتفاع الجمل عن الأرض وعدم وجود سرج وركاب مناسبين الاستخدام الفعال للرمح الطويل أمراً مستحيلاً؛ إذ لو تمكن الفارس من إصابة هدفه، فمن المحتمل أن قوة الضربة ستطيح به. وكذلك القوس الذي لا يمكن إطلاقه بشكل فعال مع انعدام الثبات على ظهر الحيوان. كانت القيمة الأساسية للجمل هي نقل المشاة بسرعة إلى موقع يسمح لهم باحتلال مواقع ملائمة والدفاع عنها قبل أن يتمكن العدو من الرد. وقد أتاح ذلك للجيوش العربية في فترة الفتوحات ميزة التموقع في جبهات ضيقة وعوائق طبيعية على الجانبين تحمي الأجنحة، ما أجبر العدو على مهاجمة أقوى دفاع

(٤٢) Charles M. Doughty, *Travels in Arabia Deserta* (London: Jonathan Cape, 1936), p. 553.

(٤٣) Hitti, *History of the Arabs*, p. 22.

أمامه بقوات قليلة، كما سمح للقادة العرب باختيار ساحات القتال القريبة من الحدود الصحراوية حيث يمكن لقواتهم الانسحاب على ظهور الإبل من دون ملاحقة مشاة العدو وسلاح الفرسان اللذين لا طاقة لأي منهما بتحمل حرارة الصحراء لفترة طويلة. سمحت القدرة على نقل المشاة بسرعة لمسافات طويلة للجيوش العربية بنصب كمائن في أي مكان تقريباً في مناطق عملياتها، ومكّن استخدام الإبل من تنظيم هجمات خاطفة ضد المدن ومستودعات الإمدادات في عمق أراضي العدو.

إن تفوق الجمل على الحمير أو البغال أو الخيل في حمل الأثقال، وعلى القيام بذلك بسرعة وعلى مسافات طويلة جعلته حيواناً لوجستياً بامتياز. كما يدعم النظام الغذائي العربي البسيط المتمثل بالتمر والماء وحليب الإبل فنقله بسهولة بكميات يدعم مسيرة جيوش لأشهر. بالإمكان أكل البعير نفسه، وأن تستخدم المياه في جوفه لسقي الخيول التي غالباً ما تثقل الجيوش بعدم تحملها حرارة الصحراء. من خلال الاستفادة من الإبل بشكل صحيح كانت مستودعاً لوجستياً متنقلاً يوفر للجيوش العربية خطاً سريعاً ومرناً من الاتصالات والإمداد يسمح لها بالتحرك بسرعة عبر مسافات طويلة خلال تضاريس صعبة حيث لا يمكن للجيوش الفارسية ولا البيزنطية ملاحقتها.

الخيل

ربما وصل الحصان إلى الجزيرة العربية من سوريا في وقتٍ ما خلال القرن الأول الميلادي كأداة حرب. ارتبط الحصان بالعربة الحربية في مصر وسوريا والأناضول وبلاد ما بين النهرين منذ عام ١٧٠٠ قبل الميلاد على الأقل، ولم يروّض للركوب حتى استخدمه الآشوريون لأول مرة بهذه الطريقة في القرن السابع قبل الميلاد[٤٤]. أدى عدم وجود مراعٍ كافية بسبب المناخ الصحراوي، وتكلفة إطعام الحصان على الحبوب داخل شبه الجزيرة، إلى الحد من دورها في الحرب حتى زمن الفتوحات العربية. استطاع أغنى سكان البلدات أو التجار أو زعماء البدو تحمل تكاليف رعاية تلك الحيوانات

(٤٤) Richard A. Gabriel and Donald W. Boose, Jr., *The Great Battles of Antiquity: A Strategic and Tactical Guide to the Great Battles That Shaped the Development of War* (Westport, Conn.: Greenwood Press, 1994), p. 98.

فقط، وكان غرضها العسكري تنفيذ غارات محدودة المسافة. لم تستطع حتى مكة، وهي واحدة من أكبر المدن وأغناها في شبه الجزيرة، أن تؤمن أكثر من مئتي راكب فقط في معاركها ضد محمد(٤٥).

لم يكن الحصان يُركب إلى ساحة المعركة، بل كان يقاد بحبل مربوط بجملٍ يحمل صاحبه. ربما اعتُمدت هذه الممارسة من قبل الأنباط الذين جلبوا خيولهم إلى المعركة عندما هاجموا القدس في عام ٦٧م، بوصفهم حلفاء روما(٤٦). قلّصت حساسية الخيل وحرارة الصحراء إلى حدٍّ كبير قدرتها على التحمل، وأُدُّخِر كلّ جهدٍ لتوفير طاقتها للمعركة نفسها. فاقت متطلبات الحصان من الماء والغذاء تلك الخاصة بالإبل، كما أدى ضعف الحصان على التحمل إلى إبطاء معدل حركة الجيوش إلى حدٍّ كبير، فالخيل تحتاج من اثني عشر إلى ستة عشر رطلاً من العلف الأخضر (العشب أو المراعي الطبيعية الأخرى)، ومن أربعة عشر إلى ستة عشر رطلاً آخرين من العلف الصلب (الحبوب) يومياً. تتكيف الخيول بسرعة مع أنواع معينة من الأعلاف الخضراء وتمرض إذا تم تغيير طعامها. في ظل الظروف المناخية العادية يستهلك الحصان من خمسة عشر إلى ثلاثين لتراً من الماء كل يوم، وأكثر من ذلك في الظروف الحارة والجافة(٤٧). يتطلب إطعام ١٣٠ حصاناً من العشب عشرة آلاف متر مربّع من الأراضي العشبية يومياً(٤٨). على عكس الجمال، لا تدّخر الخيول احتياطياتها الغذائية، ويؤدي عدم إطعام الخيول وسقيها بشكل كافٍ إلى موتها أو مرضها بسرعة.

كانت الخيل دائماً خياراً سيئاً كأداة في الحرب؛ إذ من الأفضل بكثير أن تقوم جيوش العصور القديمة بتجهيز نفسها ببغال أقوى وأكثر ذكاءً(٤٩). على الرغم من محدوديتها، ظلت الخيول أداة الحرب الأساسية منذ عام ١٨٠٠ قبل الميلاد على الأقل وحتى الحرب العالمية الأولى. لماذا كانت

---

(٤٥) Muhammad Ibn Ishaq, *The Life of Muhammad: A Translation of Ibn Ishaq's Life of Muhammad*, translated by Alfred Guillaume (Oxford: Oxford University Press, 1967), p. 373.

(٤٦) Parry and Yapp, *War, Technology, and Society in the Middle East*, p. 36.

(٤٧) Roth, *The Logistics of the Roman Army at War, 264 BC-AD 235*, pp. 61-62.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) يبدو أن بني إسرائيل فقط هم من استخدم البغل حيواناً عسكرياً أساسياً، ويُصوّر داوود على أنه فرّ من القدس على بغلة، ويذكر ابن إسحاق أن محمداً كان أحياناً يمتطي بغلة بيضاء.

هذه هي الحال؟ ربما عُرف الحصان في الشرق الأوسط نحو عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد (وربما قبل ذلك) كجزء من هجرة التشتت الهند ـ أوروبي، والذي جلب هؤلاء السكان إلى المنطقة في ذلك الوقت تقريباً. من ذلك الوقت فصاعداً، أصبحت الخيل مرتبطة بالمكانة العسكرية والغزو. كان الآشوريون أول من استخدم سلاح الفرسان في حملاتهم، وتبعهم الفُرس والإسكندر الأكبر. وكان لانتصار الفرسان البرابرة على جيوش مشاة روما أن دفع البيزنطيين إلى تطوير واستخدام سلاح الفرسان الثقيل على نطاق واسع. كان الفُرس الساسانيون أيضاً من المحاربين بالخيول، مثلهم مثل الفرنجة وفرسان القرون الوسطى والصليبيين والأتراك. سيطر الفارس الممتطي صهوة جواده على ساحات القتال الأوروبية لما يقرب من ألف عام حتى تم إسقاطه من خلال ظهور جيش المشاة المنضبط من قبل السويسريين. وهكذا استمرت الحال حتى مع الدول القومية الحديثة التي جهزت جيوشها بوحدات كبيرة من سلاح الفرسان في مواجهة البارود(٥٠). كانت ثقافة ارتباط الخيل بالقوة العسكرية والغزو على مدى أكثر من ألفي عام، بدلاً من قدرات ذلك الحيوان العسكرية، هما اللذين دفعا الجيوش إلى الاستمرار في استخدامه عندما كان من المفترض أن تؤدي تجربتهم معه إلى استبدال البغال به.

جاء الزمن الذهبي للخيل في الجيوش العربية بمجرد احتلال الأراضي الواقعة خارج شبه الجزيرة العربية. كثرت تربية الخيول في المناطق المسيطر عليها حديثاً، وهو أمر غير ممكن في شبه الجزيرة. كما زودت تلك الأراضي الجديدة مجموعات كبيرة من الجنود العرب بخيول لأول مرة. كان السبب هو توفر المراعي التي أنتجت علفاً كافياً للحيوانات ما رفع من كفاءة الخيول مقارنه بحالها في الصحراء وزادت من قيمتها العسكرية. تم خلال فترة الفتوحات تقسيم سلاح الفرسان العربي إلى مدرعة ثقيلة ومدرّعة خفيفة، مع سلاح فرسان ثقيل يتكوّن من عدد قليل فقط من الوحدات المستخدمة كقوات طليعة، وهو درس تعلموه من البيزنطيين. في الغالب استخدم سلاح الفرسان الخفيف ـ عند عدم استخدامه للمناوشات والاستكشاف ـ للإجهاز على الوحدات غير المنظمة أو المحطمة بالفعل. خلال الفترة الأموية (٦٦١ ـ ٧٥٠م)

---

(٥٠) Gabriel, *Soldiers' Lives through History: The Ancient World*, chap. 12, "Cavalry".

أصبح الجزء الأكبر من سلاح الفرسان العربي مدرعاً، متأثراً بالنموذج البيزنطي في الدروع والأسلحة. دُرّب سلاح الفرسان العربي على التقليد العربي القديم في القتال أولاً على ظهور الخيل ثم الترجّل عنها للقتال على الأقدام(٥١). لم يصبح سلاح الفرسان الذراع الحاسم في الجيوش العربية إلا بعد ذلك بوقت طويل، وظل سلاح المشاة الثقيل لفترة طويلة أهم ذراع قتالي. تم نشر سلاح الفرسان العربي بأمان خلف سلاح المشاة المستعدين لمهاجمة العدو كلما سنحت الفرصة ثم يتراجعون وراء المشاة من أجل الحماية. كان استخدام سلاح الفرسان ضد سلاح الفرسان في القتال المفتوح غير معروف للقادة العرب.

في أيام محمد لم يكن للخيل حضور حاسم في ساحة المعركة. مع نجاح التمرد المحمدي، زاد عدد الفرسان المحاربين الذين كان بالإمكان استخدامهم في الميدان بشكل كبير. ظل المشاة هم الذراع الحاسمة، ولكن زيادة ظهور الحصان أضفى على جيوش محمد مكانة كبيرة، وعوّدت سكان البلدات والواحات على وجود الخيل في ساحة المعركة، ما مهد الطريق لظهور فرق كبيرة من سلاح الفرسان في جيوش الفتح الذي أعقب وفاة محمد. على الرغم من أن الإبل فاقت عدد الخيول بشكل كبير في حياة معظم العرب، إلا أن الحصان العربي كان يحظى بالتبجيل في التفكير العربي، وفاقت الإشارات للخيول في النصوص العربية ذِكر الإبل(٥٢) ويسمى راكب الفرس فارساً نسبة إليه(٥٣).

ينعكس تنظيم سلاح الفرسان لدى محمد على المصطلحات العربية المستخدمة في ذلك الوقت، فالاسم العام لسلاح الفرسان باللغة العربية هو **الخيالة**، ويستخدم بشكل عام لوصف التشكيلات القتالية المستخدمة للخيول. أما **الكتيبة** فهي سرب سلاح الفرسان الذي تم تقسيمه إلى **كراديس** ربما يعادل المفرزة في الجيوش الحديثة. كانت **الطليعة** دورية استطلاعية صغيرة تضم بين الفارس إلى عشرة، كما كانت مرتبطة بمجموعة هجومية. كانت

---

(٥١) Gabriel, "Wars of Arab Conquest," p. 646.

(٥٢) Parry and Yapp, *War, Technology, and Society in the Middle East*, p. 35.

(٥٣) المصدر نفسه.

السرية عبارة عن وحدة صغيرة يتم إرسالها بحثاً عن المرعى. أما **الجريدة** فكانت قوات فرسان متوسطة الحجم، وتعمل بشكل مستقل عن الجسم الرئيس ربما لاستطلاع بعيد المدى أو الإغارة. يمكن أيضاً استخدام سلاح الفرسان كقوة **رابطة**، وهي حامية محمولة تُستخدم كقوة متنقلة أمام بلدة العدو أو تحصيناته لإبقائه محاصراً بداخلها وغير قادر على شن حملات[٥٤]، ولربما استخدمت مواكبةً مع عمليات الحصار. من المحتمل أن تكون وحدات الفرسان التابعة لمحمد قد نظمت على أسس متشابهة وأدت أدواراً متقاربة، على الرغم من أن سلاح الفرسان لم يصبح أبداً ذراعاً قتالياً حاسماً لجيوش محمد.

كانت الحركة التكتيكية والاستراتيجية لكل من الخيل والإبل محكومة بالتضاريس التي كان من المتوقع أن تتحرك فيها. عندما تجاوزت الجيوش العربية الحدود الفارسية خلال فترة الفتح، فُرض عليها التخلي عن الخيل واستبداله بالبغال بسبب التضاريس الجبلية. كانت الصحاري الشاسعة ذات التلال المنحدرة والسهوب الحجرية التي يعمل فيها جيش محمد عادةً أكثر شبهاً بصحاري أريزونا ونيومكسيكو من صحاري الكثبان الرملية، وشكلت عقبات خطيرة أمام الحركة العسكرية. لا تستقر قوائم الخيل والإبل في الحرّات ذات الصخر المتصدع. تحتوي الصحراء على الكثير من الشعاب والخنادق، ويمكن أن تصبح الوديان، التي غالباً ما تستخدم كطرق مختصرة حول التضاريس الوعرة، غير سالكة بسبب المطر. كما أن الوديان معرضة للفيضانات المفاجئة. الصحراء بيئة شرسة من الحرارة والبرودة، تستنزف طاقة أشد الحيوانات وأقوى الجنود. أخيراً، كانت العوائق التي من صنع الإنسان في شكل مجمّعات محصّنة وحدائق مسورة وأبراج وقنوات ري تعمل في كثير من الأحيان على إعاقة قدرة الجيش على المناورة.

ثورة محمد العسكرية

أحدث محمد ثورة في الطريقة التي خاض بها العرب حروبهم منذ القدم، وحوّل جيوشهم إلى أدوات حقيقية لعمليات قتالية واسعة النطاق قادرة

(٥٤) المصدر نفسه.

على تحقيق أهداف استراتيجية بدلاً من الأهداف الصغيرة أو العشائرية أو القبلية أو الشخصية. وبذلك خلق الوسائل والظروف التاريخية التي حوّلت العشائر العربية المتشرذمة إلى كيان وطني حقيقي واع بهويته الفريدة. في ظل هذه الظروف، ازدهر التألق العسكري العربي، ما أدى إلى تهيئة محمد لأعظم قادة الفتح المبكر. لولا حدوث ثورة عسكرية في الحرب العربية لما صمد الإسلام في شبه جزيرة العرب. في غضون عام بعد وفاته ارتدّت الكثير من العشائر التي أقسمت على الولاء للإسلام، ما أدى إلى حروب الردة. لقد كان الألق العسكري لقادته محمد والقدرات القتالية الفائقة لجيشه الجديد هما ما مكّن الإسلام من هزيمة المرتدين وإجبارهم على العودة إلى حظيرة الدين. كان قادة الجيوش العربية الجديدة هؤلاء هم من جعل الفتوحات العربية للإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ممكناً؛ إذ لم تكن لطريقة الحرب العربية القديمة فرصة للانتصار على جيوش أي من هاتين القوتين. بهذا المعنى، كانت ثورة محمد العسكرية حدثاً هز العالم القديم وغيّر تاريخه بخلق الوسائل التي جعلت الفتوحات العربية ممكنة.

إن التحويل المحمدي الناجح للحروب العربية يجعل محمداً أحد أعظم المصلحين العسكريين في العالم القديم، بحيث يقف مع ثلة مميزة من أولئك الذين مكّنت إصلاحاتهم العسكرية من إنشاء إمبراطوريات من قبل خلفائهم. قاد كاموس المصري المعركة ضد المحتلين الهكسوس بإصلاح الجيش المصري، وجعل من الممكن لتحتمس الثالث، المعروف بنابليون مصر، إنشاء الإمبراطورية المصرية المعروفة بالمملكة الجديدة. أما فيليب الثاني المقدوني فقد غيّر طريقة الحرب اليونانية الكلاسيكية تماماً، حيث خلق أداة عسكرية توحّد بها كل اليونانيين واستخدمها ابنه الإسكندر الأكبر لإنشاء الإمبراطورية الهيلينية. وأدت إصلاحات أغسطس قيصر إلى إنشاء الجيش الروماني المحترف، ما أتاح توسّع الإمبراطورية الرومانية إلى أقصى حدٍ جغرافي. وكان محمد هو الذي جدّد طريقة الحروب العربية وصنع الأداة العسكرية التي استخدمها خلفاؤه لتأسيس إمبراطورية الإسلام العظيمة.

التكوين الاجتماعي

غيّر محمد التركيبة الاجتماعية للجيوش العربية من مجموعة من العشائر

والقبائل والأقرباء الموالين لأنفسهم فقط، إلى جيش وطني موالٍ لكيانٍ اجتماعي وطني يسمى الأمة، أو مجتمع المؤمنين بالله. لم تكن الأمة وطناً أو دولةً بالمعنى الحديث، ولكنها مجموعة من المؤمنين المتدينين تحت قيادة محمد وحُكمه. لقد كانت مركزاً للولاء تجاوز العشائر والقبائل وسمح له بتشكيل هوية مشتركة، وطنية النطاق، بين العرب لأول مرة، وتولّى هو قيادة هذا الكيان بأكمله، لا لصالح عشيرة أو قبيلة بعينها. وحّد الولاء للأمة الجيش الوطني بدمج ذراعي القتال التقليديين للمشاة وسلاح الفرسان في قوة عسكرية مشتركة. تاريخياً، كان البدو والحضر ينظر بعضُهم إلى بعض بكثير من الريبة، فكل منهم يعيش أسلوباً مختلفاً تماماً ويخوض أنواعاً مختلفة جداً من المعارك. كان مشاة المقاتلين العرب ينحدرون تقليدياً من الحضر الذين يعيشون في البلدات والحواضر والواحات في شبه جزيرة العرب. ومع وجود عدد كافٍ من الرجال الأثرياء القادرين على شراء الخيول في المدن الكبيرة، كانت وحدات سلاح الفرسان هذه صغيرة وغير فعالة بشكل عام. في المقابل، تم اختيار سلاح الفرسان العربي تقليدياً من العشائر البدوية التي برع محاربوها الرُحّل في الكر المفاجئ والفر السريع، وقد تم شحذ المهارات على مدى أجيال من ممارسة الغزو(٥٥).

تعود أصول هذان النوعان من الجنود إلى خلفيات اجتماعية واقتصادية متباينة، وكان لكل منهما خبرة محدودة في القتال إلى جانب الآخر. كان المشاة العرب مرتبطين بالولاءات العشائرية والعيش في الحواضر، وكانوا متماسكين ويمكن الاعتماد عليهم في الدفاع. شكّل المشاة جوهر جيش محمد طوال حياته، وظل كذلك في جيوش الفتح العربي. لم يكن سلاح الفرسان العربي فعالاً في مواجهة المشاة، وغالباً ما كان ينفلت من القتال للاستيلاء على غنائم سريعة أو هرباً من الأضرار التي قد تلحق بخيله الثمينة. ومع ذلك، كان سلاح الفرسان البدوي بارعاً في الهجوم المفاجئ وحماية أطراف الجيش، وملاحقة المشاة غير المنضبطين. يفتقر كل من المشاة والفرسان لميزة الآخر. قد كان محمد أول قائد لجيش عربي يضم بنجاح كلا السلاحين القتاليين في جيش عربي وطني ويستخدمهما بتناغم في المعركة. لم

---

(٥٥) المصدر نفسه، ص٣٩.

يكن ذلك مجرد إصلاح فني، وإنما نتيجة لخلقه نوعاً جديداً من المجتمع غُمرت فيه الولاءات التقليدية لصالح مجتمع ديني أكبر من المؤمنين، الأمة، والجمع بين طرفيه الأساسيين، الحضر والبدو، في هوية وطنية عربية واحدة. لقد سبق التغيير في التكوين الاجتماعي للجيوش العربية في عهد محمد تغيير في تكوين المجتمع العربي نفسه.

وحدة القيادة

قاتلت الوحدات العسكرية تحت قيادة عشيرتها قبل محمد، وكانت تتجمع أحياناً في تحالف مع عشائر أو قبائل أخرى. أطاعت العشائر رؤساءها، كان لكل منها زعيم عدّ نفسه مساوياً للزعماء الآخرين، ونتيجة لذلك لم يكن هناك قائد عام يصرّف تحركات الجيش ككل. قاتل محاربو العشائر من أجل مصالحهم الخاصة، وغالباً من أجل النهب فقط، ولم يشعروا بأنهم ملزمون بالسعي لتحقيق أهداف عامة. كثيراً ما امتنعوا عن الحضور لساحة المعركة، أو وصلوا متأخرين، أو تركوا القتال ببساطة بمجرد حصولهم على ما يكفي من الغنائم. كان المحاربون والخيول ثمينين، فقاوم زعماء العشائر في كثير من الأحيان أي توجه تكتيكي أفضل قد يعرض رجالهم وحيواناتهم للخطر. في ظل هذه الظروف، لم تكن المعارك العربية في كثير من الأحيان أكثر من مناوشات غير منظّمة تدوم برهة ولا تؤدي إلى نتيجة حاسمة.

لتصحيح هذه النواقص، أنشأ محمد قيادة موحدة لجيوشه، وتركزت القيادة في يديه وحده. لم يكن هناك تمييز داخل **الأمة** بين المواطن والمقاتل، على الأقل إذا اعتبرت المعركة دفاعية؛ إذ كان على الجميع المشاركة في معاركها. كانت جماعة المؤمنين حقاً أمةً مقاتلة يوحدها السلاح، وكل المؤمنين يتبعون أوامر رسول الله محمد. كقائد عام للقوات المسلحة، أرسى محمد مبدأ القيادة الموحدة من خلال تعيين قائد واحد ذي سلطة عامة لتنفيذ العمليات العسكرية. في بعض الأحيان كان يُعَيَّن قائد ثانٍ في القيادة أيضاً. كثيراً ما كان محمد يقود قواته في الميدان بنفسه، وعيّن جميع القادة الآخرين وعملوا تحت سلطته. كمسلمين، كان جميع أفراد الجيش ملتزمين بالقوانين نفسها على حد سواء، وكان جميع أفراد العشائر ورؤسائهم يخضعون لقوانين الانضباط نفسها والعقوبات كباقي المسلمين. عند العمل مع العشائر التي لم

تكن مسلمة، كان دائماً ينتزع قَسَم الشرف من رؤسائهم لإطاعة أوامره خلال المعركة. وقد أعطى إنشاء قيادة عسكرية موحدة لجيوشه مصداقية أكبر في التخطيط والقتال، كما سمحت القيادة الموحدة بدرجة أكبر من التنسيق بين العناصر القتالية المختلفة للجيش واستخدام خطط تكتيكية أكثر تعقيداً تنفذ بثقة أكبر، ومن ثَمّ ارتقت القدرة القتالية للجيش بشكل كبير. لأول مرة أصبحت القوات العربية أداةً لإرادة قائدها التكتيكية.

بعد وفاة محمد وفي أثناء حروب الردة، استبدل خليفته أبو بكر بالكثير من القادة القدامى الذين قاتلوا في عهد محمد ضباطاً جداً تم اختيارهم في الغالب من بين قادة مكة. امتدت، إذاً، وحدة القيادة تلك إلى المستوى الاستراتيجي، ولم تقتصر على المستويات العملياتية والتكتيكية. أصبحت إمكانية استبدال القادة القدامى بقادة كانوا أعداء سابقين، وامتثال القبائل لها، أكبر دليل على نجاح محمد في تأسيس وحدة القيادة كإصلاح مؤسسي كبير في الجيوش العربية.

تماسك الوحدة القتالية

قام الأساس الأخلاقي للحرب عند العرب على قيمة الشجاعة الفردية. ومع إدراك كل محارب أنه جزء من مجموعة أقارب أكبر، إلا أن الحرب العربية لم تركز على قدرة العشيرة على القتال كوحدة واحدة، فقد حارب المقاتل العربي لنفسه ولشرفه ومكانته الاجتماعية داخل الجماعة وليس للعشيرة بحد ذاتها. كانت إحدى النتائج أن الجيوش العربية والوحدات العشائرية داخلها لم تعكس عادةً درجة عالية من التماسك، وهي قدرة المجموعة على البقاء مندمجة والقتال معاً عند احتدام المعارك. على النقيض من ذلك، كانت جيوش محمد شديدة البلاء، وعادة ما تجلّى ذلك في مواجهتها لجيوش تفوقها عدداً. لم يقم محمد بتقوية روابط الدم والقرابة للعشيرة العربية التقليدية فقط، بل ذهب أبعد من ذلك في جعل الأمة مركز الولاء. وهو ولاء يتجاوز العشيرة. من المهم أن نتذكر أن الكثير من السابقين للإسلام قد تركوا عائلاتهم وعشائرهم ليتبعوا النبي، وكان من الشائع التقاء أفراد من العشيرة نفسها والأسرة، وحتى من الآباء والأبناء، يقاتلون على طرفي نقيض في أثناء المعارك المبكرة. تبيّن أن الدين مصدر أكبر للتماسك

من الدم والروابط العشائرية، فالتزامات العقيدة تحل محل واجبات التقاليد وحتى الأسرة وتتغلب عليها. سرعان ما اكتسب جنود محمد سمعة لانضباطهم وشراستهم في المعارك، جنود اعتنوا ببعضهم كإخوة في الدين، وهو ما كانوا عليه بموجب تعاليم الإسلام.

التحفيز

أظهرت جيوش محمد درجة أعلى من التحفّز العسكري مقارنة بالجيوش العربية التقليدية. لطالما اعتُبر كونك محارباً جيداً الجوهر المركزي للقيم العسكرية العربية، لكن محمداً أعلى مكانة المحارب لدرجة أكبر. كان من المقولات الشائعة بين المسلمين أن «الجندية ليس فقط المهنة الأنبل والأكثر إرضاءً لله، ولكنها أيضاً الأكثر ربحاً»[٥٦]. كان لجنود محمد دائماً نصيب في الغنيمة، وبدلاً من الرُّبع المعتاد أخذ محمد لنفسه خُمس الغنيمة باسم الأمة، تاركاً المزيد من الغنائم لتوزيعها على الجنود. بموجب هذه الترتيبات، كان جنود محمد يتقاضون رواتب أفضل من الجنود الفُرس أو البيزنطيين[٥٧].

لم تكن الأجور سوى جزء صغير من دافع جنود الإسلام. يبدو أن فكرة الجندي الذي يقاتل بدافع ديني ويقين امتثالاً لأمر الله واحدة من أهم الابتكارات العسكرية لمحمد[*]. كان هناك، بالطبع، جنود نصارى شعروا بأنهم يؤدون واجبهم الديني حتى عندما هاجموا إخوانهم النصارى الآخرين الذين تم الحكم عليهم بأنهم هراطقة. لكن لم يضع أي جيش قبل محمد الدين مركز الدافع العسكري وتعريف الجندي في المقام الأول على أنه أداة إرادة الله على الأرض. كان جنود الإسلام في العادة متدينين للغاية ويعتبرون أنفسهم يقاتلون بأوامر الله، والنتيجة التي لا تزال تظهر في كثير من الأحيان في المجتمعات الإسلامية هو أن هؤلاء الجنود يتمتعون باحترام وتقدير اجتماعي يفوق ما يتلقاه جنود الغرب.

كان الجزء المركزي من دافع الجندي الإسلامي هو تعاليم إيمانه بأن

---

(٥٦) Hitti, *History of the Arabs*, p. 173.

(٥٧) المصدر نفسه.

(*) لم يكن ذلك ابتكاراً من محمد ﷺ، ولم تنبع أفكار كهذه من مخيلته، بل هي وحي من الله كما يؤمن المسلمون، ونصه جلي في القرآن (المترجم).

الموت ليس شيئاً يُخشى منه؛ بل يجب البحث عنه. كان إعلان محمد أن أولئك الذين قتلوا في المعركة سيخلدون في نعيم مقيم من اللذة والحياة الأبدية لأنهم ماتوا في سبيل الله حافزاً قوياً للأداء الجيد في ميدان المعركة. إن الموت في القتال دفاعاً عن العقيدة (أي الجهاد) يعني أن تصبح شهيداً. كانت الحياة برمتها خاضعة لحاجات الدين، وأن تموت شهيداً هو تحقيق إرادة الله، وكان قتلى الجنود المسلمون يحظون بأعلى درجات الاحترام. احتُفِيَ بأولئك الذين كانوا يموتون في المعركة قبل ذلك تقليدياً كأمثلة على الشجاعة ونكران الذات، إلا أن الموت لم يكن أبداً موضع ترحيب أو حتى ضرورياً للجندي المتميز. غيّرت تعليمات محمد الدينية النظرة العربية التقليدية للتضحية العسكرية وأنتجت جندياً أكثر تفانياً بكثير مما شهدته جيوش العرب من قبل.

الحرب الاستراتيجية

قبل إصلاحات محمد، كانت الحرب العربية عبارة عن عشائر وقبائل تتقاتل من أجل الشرف أو النهب، ولم يهدف أي قائد لاستعباد العدو أو إبادته، ولا احتلال أراضيه. كانت الحرب العربية حرباً تكتيكية لا أكثر، ولم يكن هناك حس استراتيجي فيها كالسعي لنيل أهداف بعيدة المدى وواسعة النطاق والتي يتم توجيه التطبيق التكتيكي نحوها. كان محمد أول من أدخل للعرب مفهوم الحرب من أجل أهداف استراتيجية. كان الهدف النهائي له، وهو تغيير المجتمع العربي من خلال نشر الدين الجديد، استراتيجياً من حيث المفهوم. كان تطبيقه للقوة والعنف، سواء أكان تقليدياً أم غير تقليدي، موجهاً دائماً نحو الهدف الاستراتيجي. على الرغم من أن محمداً بدأ كمتمرد، إلا أنه كان دائماً مثل كلاوزفيتز في تفكيره أن استخدام القوة ليس غاية في حد ذاته، بل كوسيلة تكتيكية لتحقيق الأهداف الاستراتيجية. كان محمد أول قائد عربي يستخدم القوة العسكرية في سياق استراتيجي، ولو لم تُغرس طريقة التفكير الجديدة هذه فإن استخدام الجيوش العربية اللاحقة لتشكيل إمبراطورية عالمية لم يكن مستحيلاً فحسب، بل كان غير وارد أصلاً.

بمجرد تسخير الحرب لتحقيق أهداف استراتيجية، أصبح من الممكن توسيع نطاق تطبيقها لإدخال أبعاد تكتيكية كانت جديدة تماماً على الحرب

العربية التقليدية. استخدم محمد جيوشه بطرائق جديدة تماماً: هاجم القبائل والبلدات والحاميات قبل أن يتمكنوا من تشكيل تحالفات معادية، وعزل أعداءه بقطع شرايين حياتهم الاقتصادية وتعطيل خطوط اتصالاتهم، حاصر مدناً وبلدات، وكان أستاذاً في المفاوضات السياسية، حيث شكل تحالفات مع القبائل الوثنية عندما كان ذلك يخدم مصالحه. كما قدم أيضاً بُعداً جديداً، وهو الحرب النفسية، مستخدماً الترهيب، وحتى العقوبة الجماعية، كوسيلة لإضعاف إرادة أعدائه. تذكر نصوص مختلفة استخدام محمد **المنجنيق** والعربة المغطاة المتحركة، الدبابة، في الحصار[٥٨] على الأرجح، تم الحصول على أجهزة الحصار هذه من اليمن؛ حيث وجدت الحاميات الفارسية أحياناً على مر القرون، ويبدو أن محمداً كان أول قائد عربي يستخدمها في الشمال. عندما كانت الحرب العربية ذات يوم مجرد تكتيك فقط، أتاح إدخال محمد للحرب الاستراتيجية استخدام التكتيكات بالطريقة الصحيحة، باعتبارها وسيلة لتحقيق غايات استراتيجية أكبر. الحرب، في النهاية، ليست غايةً بحدّ ذاتها، بل إنها كما يذكرنا كلاوزفيتز، دائماً وسيلة، وليست هدفاً على الإطلاق.

صف الضباط القتاليين المتمرسين

بصفته يتيماً، كان محمد يفتقر إلى أبسط التدريبات العسكرية التي يقدمها أب عربي لابنه. ربما للتعويض عن هذا النقص، أحاط نفسه بمحاربين ذوي خبرة. كان يطرح باستمرار أسئلة على المحنكين منهم ويأخذ بنصائحهم. وكثيراً ما كان يعيّن أفضل المحاربين من أعدائه السابقين في مناصب قيادية بمجرد اعتناقهم الإسلام. كما سعى كقائد عام للقوات المسلحة لاكتشاف الضباط الجيدين وتطويرهم أينما وجدهم، وعيّن الشباب للقيام بغارات صغيرة من أجل منحهم الخبرة القتالية. في بعض الأحيان كان يختار ضابطاً من الحضر لقيادة غارة بدوية من أجل توسيع خبرة الضابط في استخدام سلاح الفرسان[٥٩] اختار محمد دائماً قادته العسكريين على أساس خبرتهم وقدرتهم المشهود لها، لا على أساس زهدهم أو تفانيهم

---

(٥٨) Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet*, p. 139.

(٥٩) المصدر نفسه، ص١٤٠.

الديني[٦٠]. كان أول من أضفى الطابع المؤسسي على التميز العسكري في تطوير مجموعة ضباط عرب مهنيين، وتم اختيار الجنرالات الذين قادوا جيوش الفتوحات من فيلق ضباط محمد من القادة الميدانيين المدربين وذوي الخبرة. كان كل من خالد بن الوليد (سيف الله) وعمرو بن العاص من قادة العدو المكي السابقين الذين اعتنقوا الإسلام، وعملا كقائدين ميدانيين في جيوش محمد، وأصبح كلاهما جنرالاً عظيماً خلال الفتوحات العربية.

التدريب والانضباط

لدينا إشارات قليلة فقط حول كيفية تدريب محمد لجنوده، ولكنه فعل ذلك بالتأكيد. هناك مراجع واضحة للتدريب المطلوب في السباحة والجري والمصارعة. لقد ترك جنود الإسلام الأوائل ولاءاتهم العشائرية والعائلية وراءهم لينضموا إلى الأمة، وكان من المستحيل إعادة إنشاء الوحدات العسكرية العشائرية التقليدية للحرب العربية داخل جيوش الأمة. كان لا بد من إضفاء طابع اجتماعي جديد على المسلمين الجدد ليقبلوا بولاء عسكري ذي أساس جديد هو الدين، وكان لا بد من إنشاء وحدات عسكرية جديدة تضم جنوداً من عديد العشائر. تشير المراجع في نصوص مختلفة إلى أن محمداً درّب هذه الوحدات بالانضباط والتمرين، وأحياناً شكّل تلك الوحدات شخصياً وخاطبها قبل المعركة، ونشرها للقتال في وحدات منضبطة، وليس كأفراد كما كانت الممارسة الشائعة. يمكن بعد ذلك تدريب وحدات تلك «العشيرة الجديدة» المنضبطة على استخدام مجموعة أوسع من الخطط. كان استخدام محمد لسلاح الفرسان والرماة بالتنسيق مع المشاة أحد النتائج. وبينما استمر الآباء العرب بتدريب أبنائهم على الحرب بعد فترة طويلة من وفاة محمد، أصبح لدى جيوش الفتوحات العربية ثم جيوش الإمبراطورية الإسلامية في وقت لاحق تدريب عسكري رسمي للمجندين بشكل مؤسسي.

اللوجستيات وفرض القوة

يبدو أن لمحمد نفس اهتمام تجار القوافل باللوجستيات والتخطيط،

(٦٠) المصدر نفسه.

وهي الخبرة التي سمحت له بإظهار المنعة وتنفيذ عمليات على مسافات طويلة عبر تضاريس وعرة. كان محمد منظماً للقوافل لمدة خمسة وعشرين عاماً قبل أن يبدأ تمرده، وخلال ذلك الوقت قام بعدة رحلات إلى الشمال على طول طريق التوابل اكتسب خلالها سمعة طيبة في الصدق وكمدير ممتاز ومُنظم للقوافل. يتطلب تخطيط القوافل اهتماماً دقيقاً بالتفاصيل ومعرفة الطرق ومعدلات المسير والمسافات بين المحطات، وأماكن المياه وإطعام الحيوانات، وموقع الآبار، وحالة الطقس، وأماكن الكمائن المحتملة، وما إلى ذلك، وهي معارف خدمته كقائد عسكري. على عكس بعض الجيوش الأخرى التي حاربها، يبدو أنه لم يضطر أبداً إلى تغيير خططه أو التخلي عنها بسبب صعوبات لوجستية طارئة. كان بإمكان جيوش محمد أن تُظهر قوتها على مدى مئات الأميالِ. في عام ٦٣٠م، قاد جيشاً من عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألف رجل (لا تتفق المصادر) على مسافة ٢٥٠ ميلاً من المدينة إلى تبوك في ثمانية عشر إلى عشرين يوماً عبر الصحراء خلال الموسم الأكثر سخونة في السنة. وفقاً للمعايير العربية التقليدية، لم تكن قدرة محمد على عرض قوى بهذا الحجم على هذه المسافات أقل من مذهلة. من دون هذه القدرة، كانت الفتوحات العربية التي أعقبت وفاته مستحيلة.

امتد اهتمام محمد بالخدمات اللوجستية إلى التأكد من تزويد جنوده بأفضل الأسلحة والخيول والجمال والدروع التي يمكن الحصول عليها عن طريق الشراء أو الاستيلاء عليها كفيء أو جزية أو تصنيع. في السنوات الأولى كانت قواته تفتقر في كثير من الأحيان إلى كل ما تحتاج إليه من أسلحة وأدوات نقل. في معركة بدر لم يكن لديه سوى سبعين جملاً وفرسين لنقل ٣١٤ رجلاً لمسافة تزيد على ثمانين ميلاً إلى ساحة المعركة. تناوب الرجال على ركوب الجمال ووصلوا إلى بدر منهكين من الرحلة. في كثير من الأحيان لم يكن لدى جنوده دروع أو خوذات، وكانوا في بعض الأحيان يعانون من نقص الأسلحة. ركّز محمد بشكل كبير على امتلاك ما يكفي من الإبل، لأنها كانت المفتاح لحركة جيشه وتحمله. تُحسب جميع المسافات في الصحراء بالوقت الذي يستغرقه الجمل لقطعها. الحركة سيراً على الأقدام ببساطة غير ممكنة لأي مسافة. وفقاً لنص الروايات، عندما تحرك محمد إلى مكة كان كل رجل في جيشه مجهزاً بكامل الأسلحة والدروع والخوذات

والتروس، ويعتلي فرساً أو جملاً. بالنسبة إلى جيش من عشرة آلاف رجل لم يكن هذا إنجازاً بسيطاً لقائد لم يكن لديه سوى أربعة تابعين قبل عقد من الزمن. كان محمد هو الذي علّم الجيوش العربية كيف تمدّ نفسها لفترات طويلة في الميدان وأن تضمن لنفسها الأسلحة والمعدات الكافية. مرة أخرى، لو لم ينجز ذلك لبقيت الجيوش العربية غير قادرة عسكرياً على تشكيل إمبراطورية.

استنتاج

ما ينبثق من التحليل المقدّم هنا هو أن محمداً أحدث ثورة في إدارة الحرب العربية بطرائق جعلت من الممكن تحوّل الجيوش العربية من كياناتٍ لا تصلح إلا للاشتباكات التكتيكية إلى قوى قادرةٍ على شن حرب على مستوى استراتيجي حيث يمكنها قتالُ الجيوش الكبيرة في عصرها وهزيمتُها. سبق هذا التحول العسكري ثورة على طريقة تفكير العرب الحربية، وهو ما أسميته الأساس الأخلاقي للحرب. تخلى محمد عن قانون الفروسية القديم الذي حدّ من إراقة الدماء واستبدل به روحاً أقل ضبطاً للنفس في الحرب، وهو الثأر الدموي. إن توسيع روح الثأر إلى ما وراء روابط القرابة ليشمل أعضاء المجتمع الجديد من المؤمنين عَمِل حتماً على جعل الحرب العربية أكثر شمولاً ودموية مما كانت عليه.

كان الداعم لكل هذه التحولات هو تغيير في سيكولوجية الحرب التي أدخلتها تعاليم محمد القائلة بأن الجنود الذين يقاتلون دفاعاً عن الإسلام إنما يقومون بتطبيق تعاليم الله على الأرض، وأن الموت في سبيله يُكسب الجندي الخلود في الجنة. تم التخلي عن الشعور المعتاد بالخوف من المخاطرة بحياة المرء والذي كان يقلل العنف في ساحة المعركة، واستبدل بمبدأ نفسي هو خوض الحرب حتى آخر رمق، أو القتال حتى يقتل المرء العدو أو يُقتل دون ذلك، وأصبح هذا هو المثل الأعلى في سلوك الحرب. من جميع النواحي، زادت ثورة محمد العسكرية من حجم وعنف الاشتباكات العسكرية التي أصبحت الجيوش العربية الآن قادرة على خوضها.

الفصل الرابع

محمد

ولد محمد في ٢٠ آب/أغسطس ٥٧٠م في مكة. كان السكان الأصليون لمكة هم قبيلة جُرهم، الذين كانوا، وفقاً للأسطورة، من أقرباء عماليق العهد القديم. في وقتٍ ما، طَردت قبيلة خزاعة المهاجرة شمالاً من اليمن سكان مكة الأصليين وأقامت هناك. قبل نحو قرن من ولادة محمد، طَردت قبيلة قريش بقيادة زعيمها قُصي الخزاعيين من مكة واستقرت هناك. لم يعش الخزاعيون في منازل، بل في خيام محاطة بجدران قصيرة تقيها الريح والرمال. يقال إن قصياً أقنع شعبه بالتخلي عن طرائقه البدوية السابقة وبناء منازل، ولم تكن هذه المنازل أكثر من مجرد أكواخ مصنوعة من حجارة خشنة مثبتة في مكانها بطين ومغطاة بأشجار النخيل أو الأغصان التي توفر بعض الحماية من أشعة الشمس. عاش بعض القبيلة في البلدة بينما عاشت عشائر أخرى، قريش البطحاء، خارج حدودها. كان محمد من أبناء قريش المقيمة في مكة، تزامنت ولادته مع ترسّخ موقع مكة الاستراتيجي كنقطة توقف وتبادل رئيسة لطريق التجارة بين الشمال والجنوب، أي بين مأرب وغزة. نمت طبقة من التجار، وأصبحت مكة مجتمعاً حضرياً يضم الكثير من مجموعات رجال الأعمال والحرفيين. وحتى مع سيطرة قريش على إدارة مكة، لم يكونوا الوحيدين الذين تجب مراعاة مصالحهم.

تقع مكة على بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر في وادٍ صخري قاحل بعرض نصف ميل تقريباً وطول ميل ونصف محصور بين جبال صخرية، وقد وصفه القرآن بأنه واد ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾[1]. كان اسمها في

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة إبراهيم،» الآية ٣٧.

الأصل **بكة**، وهو مشتق من الكلمة الصابئة القديمة «مكوربا» التي تعني «الملاذ»[٢]. وُجد منذ العصور الغابرة في مكة مزار هو **الكعبة**، وقَصَده العرب لتعظيم الأصنام الموجودة هناك. لا يُعرف أي الأوثان عُبد هناك لأول مرة، ولكن لمدة قرن على الأقل قبل ولادة محمد كان الصنم الرئيس في مكة هو هُبل. على الرغم من أن النصرانية واليهودية قد وجدتا بضآلة في شبه الجزيرة، فإن معظم العرب ظلوا وثنيين حتى اعتناقهم الإسلام. كان للبلدات الأخرى أضرحة وأصنام خاصة بها. تَنسب بعض المصادر لقصي، زعيم قريش، الفضل في تنظيم أول رحلة حج سنوية لعبادة هُبل في الكعبة[٣].

يقصد العرب مكة مرة في السنة من أنحاء شبه الجزيرة للعبادة. كان تقديم الخدمات لهؤلاء الحجاج عملاً مجزياً، واستفادت قريش كثيراً منه على الرغم من أن الحج لا يدوم سوى ثلاثة أيام فقط. لكن التجارة تنتعش في الأسابيع التي تسبق الحج؛ حيث تقام الأسواق التجارية حولها، وتحظر جميع أعمال العنف خلالها، ووفرت تلك فرصاً تجارية مربحة لتجار مكة. كانت هناك أرض مقدسة كبيرة تحيط بالكعبة ويحظر فيها القتال وحمل السلاح اسمها **الحرم**. بحلول وقت محمد كانت مكة قد رسّخت مكانتها كأهم مركز تجاري وديني في شبه الجزيرة، وسيطر القرشيون على الكعبة ومعظم التجارة المكية.

كان أحد أحفاد قصي، وهو عبد المطلب (ولد نحو ٤٩٧م)، هو جَدّ محمد، وكان زعيم عشيرة هاشم ومسؤولاً عن البئر القريبة من الكعبة التي توفر الماء للحجاج، وتمتع بنفوذ كبير. لعبد المطلب خمسة أبناء(*)، أحدهم

---

(٢) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002), p. 103.

(٣) John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 64.

وفقاً للأسطورة، كان قصي أيضاً أول محارب ربط لافتة حول رمحه لتمييز نفسه في ساحة المعركة كزعيم للعشيرة، ومن ثمّ جعل نفسه هدفاً.

(*) يذكر المؤرخون أنه كان لعبد المطلب بن هاشم عشرة من الأبناء الذكور، وهم: العباس، وحمزة، وعبد الله، وأبو طالب، والزبير، والحارث، وحجل، والمقوم، وضرار، وأبو لهب. كما كان له ست من البنات، وهنّ: صفية، وأم حكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرّة (المترجم).

عبد الله والد محمد. توفي عبد الله عام ٥٧٠م وترك زوجته حاملاً. كان الطفل الذي تحمله هو محمد، المولود في آب/أغسطس ٥٧٠م. وكان عادة سكان المدن العربية تسليم مواليدهم إلى مرضعة من قبيلة بدوية لرعاية الطفل كأمٍّ حاضنةٍ له. كان معدل وفيات الأطفال بسبب المرض وسوء التغذية في المناطق الحضرية العربية مرتفعاً، وكان يُعتقد أن إرسال الطفل إلى بيئة صحراوية صحية يزيد من فرص الطفل في البقاء(٤). كان من الصعب العثور على مرضعة مستعدة لرعايته كونه يتيماً، إذ سيُقدم قليل من المال مقابل رعايته. في النهاية، قَبلت امرأة من قبيلة بني سعد تعيش خارج مكة أن ترعى محمد. أمضى محمد عامين مع حاضنته قبل إعادته إلى والدته في مكة، حيث عاش معها لأربع سنوات حتى ماتت. كان محمد في السادسة من عمره عندما تيتم، فأخذه جده وتولت جاريةٌ رعايته في بيت جده. بعد ذلك بعامين، عندما كان محمد في الثامنة من عمره، توفي جده، وكفله عمّه أبو طالب، الزعيم الجديد لعشيرة هاشم.

في سن الثانية عشرة، رافق محمد عمَّه في قافلة تجارية إلى دمشق. كانت ثروات عشيرة هاشم في انحسار، وظل محمد يعيش فقيراً. وبصفته يتيماً، لم يكن لديه من يحميه أو يعلّمه أو يمده بالمال والعلاقات ليشق طريقه في العمل. كان محمد يعمل أحياناً كراعٍ للغنم ويقضي وقتاً طويلاً بمفرده. أصبح كثير الترداد على الكعبة، حيث كان يساعد أحياناً في توفير الماء للحجاج وغيرهم. عندما كان في الرابعة عشرة من عمره اندلعت حرب قبلية بين قبيلتي قريش وهوازن، واستمرت خمس سنوات. في واحدة من أولى المعارك في هذه الحرب، ذهب مع أعمامه ليجمع لهم السهام. وبقدر ما تخبرنا النصوص فقد كانت هذه هي التجربة العسكرية الوحيدة لمحمد قبل أن يقود قواته في الحرب اللاحقة ضد قريش. كان العُرف هو توفير التدريب العسكري للذكور العرب من قبل آبائهم أو أعمامهم، وحقيقة أن محمداً لم يتلقَّ أي تدريب عسكري أمر مثير للفضول. يتزايد هذا الاستغراب مع معرفة أن حمزة، أحد أعمامه، كان محارباً مشهوراً عندما كان محمد صبياً. ربما لأن محمداً كان فتى هادئاً يقضي ساعات طويلة في رعاية الماشية أو في

(٤) بقيت ظاهرة الذهاب إلى الصحراء للتأمل ممارسة شائعة بين العرب حتى يومنا هذا.

الكعبة، ولربما استنتج أعمامه أنه يفتقر إلى الكفاءة اللازمة للقتال. لو كان هذا ظنهم فإنهم كانوا جد مخطئين في تقديراتهم.

على مدى العقد التالي حاول محمد أن يعمل في التجارة من دون نجاح ملحوظ، وكان من المفاجئ لو نجح نظراً إلى قلة المال والمعارف الاجتماعية، ومع ذلك فقد اكتسب سمعة الصدق، وربما اكتسب لقب «الأمين»، لكن لا يمكننا التأكد من ذلك[٥]. لما بلغ الخامسة والعشرين أمّن له عمه مكاناً في قافلة أخرى إلى سوريا. خدمته سمعته في الصدق جيداً، وأصبح مسؤولاً عن بيع بعض البضائع وكذلك شراء بعض السلع المرتجعة. كانت القافلة تابعة لأرملة ثرية من قبيلة قريش اسمها خديجة. ترك معدل الوفيات بين الرجال العرب في مكة بسبب المرض والإصابة والثأر عدداً كبيراً من الأرامل، ومن بينهم قلة كخديجة، التي كان لديها ممتلكات وثروة كبيرة. يبدو أن إسناد خديجة لتجارتها إلى محمد كان دليلاً على مهارته وأمانته التجارية.

عند عودة محمد إلى مكة، اقترحت خديجة عليه الزواج. كان محمد في الخامسة والعشرين، وكانت خديجة قد ترملت مرتين، ويقال إنها كانت تبلغ من العمر أربعين عاماً تقريباً، لكنها ربما كانت أصغر لأنها أنجبت له عدة أطفال، أربع فتيات وصبيّين، على الرغم من أن بعض المصادر (سيد حسين نصر) تقول إن محمداً كان لديه ابن واحد فقط[٦]. أتاح الزواج لمحمد فرصاً تجارية كبيرة، ونجح بشكل جيد للغاية. الأهم في هذا كان علاقته بخديجة، إذ أصبحت حبه الحقيقي وصديقه المقرب. لقد وثق بها في كل شيء، ودعمته عندما تنزّل عليه الوحي. كان ابن عم خديجة، ورقة، نصرانياً، وهو الذي أيده أيضاً بعد أن علم من خديجة عن تجربة الوحي، وأكد لها أنها علامات نبوة حقيقية. أحب محمد خديجة إلى يوم وفاتها، ولم يحب محمد امرأة أخرى في أثناء حياتها.

السنوات الخمس عشرة اللاحقة، من ٥٩٥م إلى ٦١٠م، هي «السنوات الخفية» التي صمتت عنها النصوص في الغالب. يبدو أنه كان يتمتع بمهنة تجارية ناجحة وإن كانت متواضعة، وكمنظم للقوافل الكبيرة اكتسب خبرة

---

(٥) المصدر نفسه، ص٧٢.

(٦) W. Montgomery Watt, *Muhammad: Prophet and Statesman* (London: Oxford University Press, 1961), p. 12.

الاختلاف طويل الأمد ولا يمكن حله بشكل نهائي.

كمسؤول لوجستي. ومع ذلك، لسبب ما، ربما لأنه بدأ حياته يتيماً، استبعد من الدائرة الداخلية للتجار الأقوى في مكة. يجب أن يكون محمد قد سافر مع القوافل عدة مرات، وتخبرنا النصوص عن لقاءاته مع رهبان نصارى على طول طريق القوافل. قد نتجاهل روايات الأحداث والمعجزات ونبوءات الرهبان باعتبارها غير تاريخية، كما لا يمكننا تمييز التأثير، إن وجد، لدين هؤلاء الرهبان على تفكير محمد. خلال هذه الفترة مات ابنه الرضيع أو أبناؤه، وتبنّى علياً، وهو ابن عمه أبي طالب الذي كان يشيخ ويعاني من صعوبات اقتصادية. كما تبنّى محمد زيداً، وهو مملوك نصراني أعطاه إياه ابن أخ زوجته في أثناء رحلة إلى سوريا(*). كان كلٌّ من علي وزيد ينظران إلى محمد على أنه والدهما وكانا من بين أوائل الذين اعتنقوا الإسلام.

في وقتٍ ما خلال هذه الفترة، اعتاد محمد الخروج بنفسه وحيداً، وغالباً ما يلجأ إلى كهفٍ لعدة أيام في كل مرة للتأمل. من المؤكد أن حالته المالية كانت جيدة لدرجة أنه كان قادراً على تخصيص وقتٍ للتأمل والتفكير. من الجدير بالذكر أن العرب الآخرين لم يكونوا ليجدوا عادة محمد حدثاً غريباً، حتى مشركو مكة تحولوا أحياناً إلى هذا النوع من الزهد الصحراوي. تُعرف هذه الممارسة في اللغة العربية باسم **التحنث**، وكانت شيئاً يشابه الخلوة الحديثة، وهي انسحاب مؤقت من الشؤون الدنيوية لغرض التأمل الديني[٧]. تروي النصوص أن جد محمد، عبد المطلب، كان يقضي شهر رمضان بأكمله كل عام في كهف في الجبال المحيطة بمكة[٨]. ليس من غير المعقول أن نفترض أن الرجل العجوز ربما عرّف محمداً إلى هذه الممارسة. ولربما لم يكن الأمر أكثر من مصادفة أن يشهد محمد أول وحي له في أثناء إقامته في كهفٍ خلال شهر رمضان.

(*) زيد بن حارثة بن كعب وقومه بني كلب من قضاعة (المتوفى سنة ٨هـ الموافق ٦٢٩م) صحابي وقائد عسكري مسلم، كان مولى للنبي محمد، وكان قد تبناه قبل بعثته، وهو أول الموالي إسلاماً، والوحيد من بين أصحاب النبي الذي ذُكر اسمه في القرآن. تعرض زيد للأسر وهو صغير وبيع في سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، ثم أهدته السيدة خديجة للنبي ﷺ بعد زواجها منه. قتل زيد في غزوة مؤتة وهو قائد جيش المسلمين. لم يعرف عن زيد أنه كان نصرانياً قبل إسلامه، ولربما اعتمد المؤلف على معلومة أن قبيلته كانت نصرانية (المترجم).

(٧) Glubb, Ibid., p. 84.

(٨) المصدر نفسه.

استمر محمد في ممارسة الخلوة في الصحراء طوال حياته(*). وتذكر عائشة، التي تزوجها بعد وفاة حبيبته خديجة عام ٦١٩م، أنه «حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك»[٩]. خلال إحدى هذه الخلوات في شهر رمضان عام ٦١٠، شهد محمد تنزل الوحي الأول، وفسّر هذه الحوادث على أنها تعليمات من الله، واستمرت لبقية حياته. كان يكرر الوحي لأتباعه الذين يحفظونه و/أو يكتبونه. في وقت لاحق جُمعت فيما أصبح يعرف بالقرآن، وأصبح القرآن وتعليماته الأخلاقية أساس الدين الجديد. ليست هناك حاجة إلى الخوض في التعليمات الواردة في القرآن لأن القليل منها فقط له صلة بالحياة العسكرية لمحمد وسيتم تناولها لاحقاً.

انقطع الوحي ثلاث سنوات بعد التنزّل الأول(**)، ثم أمره الوحي الثاني أن يبلّغ رسالة الله. استمرت رسالة محمد من عام ٦١٠م حتى وفاته عام ٦٣٢م، وبدأت مرحلة الجهر بالدعوة في عام ٦١٣م. على الرغم من أن بعض المكيين اعتقدوا أن محمداً مجنون في البداية، إلا أن معظمهم لم يجد مشكلة في وعظه أو سلوكه حتى بدأ يندد بعبادتهم للأوثان. ولّد هذا التنديد بعبادة الأوثان في الكعبة الكثير من الحقد لأن الكعبة كانت هدفاً للحج السنوي إلى مكة وللأسواق التجارية التي جلبت دخلاً كبيراً. ومع ذلك، فإن أكثر تصريحات محمد التي لاقت اعتراضاً هو زعمه أن مصير كل أولئك الذين لا يسلمون قبل وفاتهم هو الجحيم. كان الادعاء بأن غير المسلمين سيكونون في النار هجوماً مباشراً على ذاكرة وسمعة أسلافهم الذين لم يكن لديهم في الواقع فرصة لإنقاذ أنفسهم قبل رسالة محمد. كانت إدانة محمد إهانة خطيرة للشرف العربي في مجتمع يوقّر الأسلاف الذين حُفظت مآثرهم

(*) كانت تلك الخلوات في فترة ما قبل الرسالة، ولم يُعرف في السيرة أن النبي ﷺ عاد إلى التحنث بعد نزول الوحي (المترجم).

(٩) Glubb, Ibid.

(**) اختلف علماء السيرة في مدة انقطاع جبريل عليه السلام عن النبي ﷺ بعد اللقاء الأول في غار حراء، فهناك من قال إنها كانت أياماً، وقيل إنها كانت ستة أشهر، وقيل إن الأقرب إلى الصواب هو ما روي عن ابن عباس أن فترة انقطاع الوحي كانت أربعين يوماً، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنوات أو سنتين ونصفاً فليس بصحيح (المترجم).

في الروايات الشفوية التي أرست مُثُل السلوك الفاضل، وقد تؤدي الإساءة لذكراها إلى نزاعٍ دموي. كان محمد يسير على طريق محفوف بالمخاطر، واشتدت معارضةً مكة له.

على مدى السنوات الست اللاحقة، تعرض محمد وأتباعه القلائل للسخرية والاضطهاد. تقاطعت التحولات إلى الإسلام عبر الخطوط القبلية والعائلية ما أدى إلى اضطهاد المسلمين الجدد في بعض الأحيان من قِبل أقاربهم. عانى الذين أتوا من الطبقات الاجتماعية الدنيا أشد القهر - العبيد والأرامل والأيتام والفقراء الذين لا أُسر لهم أو عشائر تحميهم. يخبرنا ابن إسحاق أن «قريشاً عدوا على من أسلم واتبع رسول الله من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوه منهم يفتنونهم عن دينهم»[١٠]. لم ينسَ محمد أبداً الاضطهاد الذي تعرض له أتباعه الأوائل، وعندما جاء الوقت ردّ بقوة.

في عام ٦١٩م توفيت خديجة الغالية على محمد، ثم بعد ذلك بوقت قصير توفي أبو طالب، زعيم العشيرة وعمه وحاميه في مكة. أصبح الآن وحيداً مع عدم وجود أقارب من عشيرته لحمايته من العنف. واصل المكيون السخرية والمضايقات، لكنهم توقفوا عن أي عنف موجه ضد محمد نفسه. ومع ذلك، بات من الواضح أن الحياة في مكة أصبحت خطرة وأنه عاجلاً أم آجلاً سيحاول شخص ما قتله. لتجنب هذا المصير، سافر إلى الطائف، وهي بلدة تجارية صغيرة على بعد خمسين ميلاً شرق مكة، ليستطلع إمكانية أن يسمح رؤساؤها لأتباعه بالهجرة إليها. قوبل بالسخرية والرفض، وعاد إلى مكة أكثر خوفاً على حياته. في محاولة يائسة بحثاً عن شخصٍ ما لحمايته، تواصل مع ثلاثة زعماء عشائر في مكة طالباً حمايتهم. رفض اثنان، لكنّ واحداً، وهو المطعم بن عدي زعيم عشيرة نوفل في قريش، وافق على حمايته لأسباب غير واضحة تماماً. في اليوم التالي، خرج المطعم مسلحاً مع أبنائه أمام ساحة الكعبة ليعلنوا أن محمداً تحت حمايتهم. لا يمكن الآن أن يُقتل محمد من دون عواقب.

---

(١٠) انظر أيضاً:

Muhammad Ibn Ishaq, *The Life of muhammad: A Translation of Ibn Ishaq's Life of Muhammad*, translated by Alfred Guillaume (oxford: Oxford University Press, 1967), p. 143.

حتى مع حماية المطعم بن عدي، كان محمد لا يزال في خطر إذا استمر في الوعظ بين المكيين الذين اعتبروا أن خطابه إهانة لتراث عائلاتهم وخطر على مصالحهم التجارية. توقّف محمد عن جهوده في مكة نفسها وبدأ يوعظ الحجاج والتجار الذين جاؤوا إلى الأسواق التجارية ونزلوا في ضواحي مكة. في عام ٦٢٠م دعا محمد مجموعة من سبعة حجاج من واحة يثرب (المدينة). في العام اللاحق، عاد هؤلاء السبعة حاملين معهم خمسة آخرين لسماع رسالته. التقى محمد بالمجموعة في وادٍ صغير بين الجبال خارج مكة في مكان يعرفه السكان المحليون باسم العقبة.

هناك اعتنق الحجاج اليثربيون الإسلام. إلى جانب عدد من الثوابت الأخلاقية التي وافقوا على طاعتها، تعهّد المسلمون الجدد بطاعة محمد واعترفوا به كرسول من الله. يُطلق على هذا العهد اسم بيعة العقبة الأولى في تاريخ الإسلام، وتسمى أيضاً ببيعة النساء لأن الحُجاج لم يلتزموا بحمل السلاح دفاعاً عن الإسلام أو استخدام القوة لحماية محمد.

في العام اللاحق، ٦٢١م، وصلت مجموعة أكبر، من ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين من الحجاج، من المدينة والتقت بمحمد في العقبة واعتنقت الإسلام. وهذا ما يسمى ببيعة العقبة الثانية، وهي حدث مهم للغاية في تاريخ الإسلام. على عكس التعهد الأول، أقسم المسلمون الجدد على حماية محمد كما يفعلون مع أفراد عائلاتهم بالقوة إذا لزم الأمر. وأقسم البراء زعيم المجموعة: «والذي بعثك بالحق (نبياً) لنمنعنّك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر»[(١١)]، فقال محمد: «أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»[(١٢)]. كانت بيعة العقبة قسمٌ عربي تقليدي يقضي بالالتزام بالدفاع المشترك. لكن محمداً وعد المسلمين الجدد، المعروفين باسم **الأنصار**، بشيء آخر لا يمكن أن يقدمه أي زعيم عشيرة تقليدي: الحياة الأبدية في الجنة.

يبدو أن مجموعة الحجاج أتت من عشيرة الخزرج بالمدينة. بهذه الوعود نال محمد شيئين: **أولاً**، قام بتوسيع نفوذه ليشمل عشيرة من مكان بعيد،

(١١) المصدر نفسه، ص٢٠٣.

(١٢) المصدر نفسه، ص٢٠٤.

متجاوزاً مكة وقبيلته القرشية. وهنا كانت البداية الجنينية لما أصبح يعرف بالأمة، المجتمع الجديد من المؤمنين الذين تجاوز ولاؤهم العشائر القديمة وولاءات القربى، لكنهم احتفظوا بحصرية التبرير الأخلاقي للثأر. **ثانياً**، حظي محمد بحماية عشيرة تعيش في المدينة، وأتاح هذا ضمانهم لحمايته وأتباعه عند مغادرة مكة والهجرة إلى مكان أقل عدوانية وفي مأمن من الاضطهاد.

قبل بيعة العقبة الثانية، كان الوحي يأمره فقط بدعوة الناس إلى الله. بعد فترة وجيزة من البيعة الثانية، تلقى محمد وحياً آخر سمح له ولأتباعه بالقتال وسفك الدماء. يخبرنا ابن إسحاق أن أول إذنٍ للقتال للمسلمين ورد في سورة الحج من القرآن الكريم، وهو: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠]. يبدو أن المقطع يبرر القتال فقط في حالة الدفاع عن النفس، ووفقاً لابن إسحاق فإن اللجوء إلى القتال قد اتسع بوحي لاحق: «فنزل الله عليه [محمد]: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩]، أي حتى لا يفتن مسلم عن دينه، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] أي ويكون التوحيد خالصاً لله. ويبدو أن الوحي الثاني في وقت لاحق برر القتال إلى ما هو أبعد من الدفاع عن النفس ليشمل القوة الرادعة لمنع أي شخص من أن يكون «فتنة» على طريق الله الحق. تكمن أهمية هذه المقاطع بالنسبة إلى المؤرخ العسكري في أن محمداً قد توقع الحاجة إلى القتال من أجل استمرار رسالته.

لا بد من أن محمداً كان رجلاً يتمتع ببعض القوة الجسدية، والتي أظهرها من خلال ممارسته للمصارعة والسباحة(*)، ومن خلال طرح خصومه على الأرض عندما أغضبوه في أكثر من مناسبة. يبدو أنه كان ينضح بالطاقة الجسدية: «ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت

(*) لا يوجد في السنة ما يدل على أن النبي ﷺ مارس هذه التمارين والألعاب الرياضية المعروفة بصورة منتظمة، أما الثابت فهو مصارعته لركانة قبل إسلامه ومسابقته زوجته عائشة، والرماية. أما السباحة فلا يوجد أثر يدل على أنه مارسها (المترجم).

جميعاً»[١٣]. وضع مارتن لينجز وصفاً معقولاً للرجل من المصادر الأصلية الموجودة:

كان متوسط القامة، ويميل إلى النحافة[*]، رأسه كبير، وكتفاه عريضان، وبقية جسده متناسق تماماً. كان شعره ولحيته كثيفين وأسودين، ولم يكن شعره مستقيماً تماماً بل كان مجعداً قليلاً. وصل شعره إلى ما بين شحمة أذنيه وكتفيه، وكانت لحيته طويلة متطابقة مع طول شعره. كانت جبهته ذات اتساع نبيل، والشكل البيضاوي لعينيه الكبيرتين واسع، مع رموش طويلة بشكل استثنائي وحواجب كثيفة، مقوّسة قليلاً ولكنها غير ملتصقة. في معظم الأوصاف المبكرة قيل إن عينيه كانتا سوداء اللون، ولكن وفقاً لواحد أو اثنين من هذه المصادر المبكرة كانتا بُنيتين أو بنيّة فاتحة. كان أنفه معقوفاً قليلاً وكان فمه عريضاً ودقيق الشكل. دائماً ما كانت وسامته ولطافة محياه واضحة، وعلى الرغم من إطلاقه للحيته إلا أن شعر شاربه لم يعلوا فوق شفته العليا. كانت بشرته بيضاء، وإن لونتها الشمس[١٤].

كان محمد وسيماً بكل المعايير العربية للرجولة والجمال، ووجدته النساء جذاباً للغاية. قال ذات مرة: «حُبّب إليّ من دنياكم الطيب والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[١٥]. حتى بلوغه الخمسين من عمره لم يكن له سوى زوجة واحدة، وهي حبيبته خديجة. بعد وفاتها تزوج اثنتي عشرة زوجة أخرى. كان لديه ستة أطفال من زوجته الأولى، لكن لم يكن له أطفال من الاثنتي عشرة اللاتي جئنَ بعدها، على الرغم من أنهنّ كنّ جميعاً في سن

---

(١٣) W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956), p. 321.

(*) ما يفهم من صفاته في كتاب الشمائل المحمدية للترمذي هو أن النبي ﷺ كان أقرب للطول، كما كان جسده أقرب للامتلاء المعتدل منه إلى النحافة، وذلك بالنظر إلى الوصف المذكور ليديه وصدره (المترجم).

(١٤) Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (Rochester, VT: Inner Traditions International, 1983), p. 35.

المصدر الأصلي لهذا الوصف مستقى من ابن إسحاق.

(١٥) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 238.

[حديث صحيح رواه أحمد والنسائي والبيهقي وأبو يعلى وغيرهم عن أنس بن مالك (المترجم)].

الإنجاب. ومع ذلك، فقد كان والداً لابنٍ من مارية، وهي أَمَةٌ قبطية مصرية أُهديت له، لكنها لم تصبح زوجته[١٦] كانت جميع الزوجات اللاحقات تقريباً أرامل، ولربما فضّل رفقة الناضجات على الفتيات الصغيرات؛ ولعل هؤلاء النساء الأكبر سناً ذكّرنه بخديجة أو بأمه التي ماتت وهو في السادسة.

من الناحية النفسية، لا بد من أن محمداً كان شخصا مركّباً، على الرغم من وجوب النظر إلى أي لمحات نفسية من النصوص التاريخية بأنها غير مكتملة، وربما محفوفة بالأخطاء. بالاعتماد على ملاحظات ابن إسحاق يقدم العالم البارز مونتغمري وات الوصف الآتي للنزعة النفسية العامة لمحمد:

كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة. كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير. لا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها. إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء، جزء لله وجزء لأهله وجزء لنفسه. يعطي كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه. لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه[١٧].

على الرغم من أنه كان يغضب أحياناً، وبشدة، لكن محمداً كان بشكل عام رجلاً هادئاً منفتحاً على اقتراحات ومشورة الآخرين وكان غالباً يتقبلها. لا يوجد دليل على أن أتباعه كانوا يخشون الاقتراب منه وتقديم النصيحة. ومع أنه كان يمتلك موهبة فطرية للشؤون العسكرية على ما يبدو، إلا أنه غالباً ما كان يسعى للحصول على مشورة ضباطه الأكثر خبرة قبل العمليات العسكرية. كان ديمقراطياً على طريقة رؤساء العشائر العربية التقليدية، فظل

---

(١٦) Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002), p. 279.

[عُرفت بعض نساء النبي ﷺ بالسراري، جمع لكلمة سرية، وهي الأمة أو المملوكة، ومنهنّ ريحانة بنت زيد، وكانت من سبي بني قريظة، فأسلمت وتسرّى بها رسول الله ﷺ سنة ستٍّ، وتُوفِّيت بعد أربع سنوات عند مرجعه من حجة الوداع. والثانية المعروفة هي مارية القبطية، وقد أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية، فأسلمت، فتسرّى بها رسول الله ﷺ سنة سبع، وولدت له إبراهيم، وتُوفِّيت في السنة ١٦ للهجرة] (المترجم).

(١٧) Watt, *Muhammad at Medina*, p. 321.

ويبدو أن المقطع مجمّع من رواية طويلة للحسن بن علي عند سؤاله عن وصف النبي، والرواية أوردها البيهقي في **الدلائل** والترمذي في **الشمائل المحمدية** وإن ضعّفها الألباني (المترجم).

متاحاً لأتباعه حتى النهاية. كان لطيفاً مع الفقراء والأرامل والأيتام، وكان محبوباً جداً من قِبل أتباعه، وحتى من بعض أعدائه السابقين في وقت لاحق.

لا شك في أن محمداً كان مؤمناً بعمقٍ وصدقٍ بأنه رسولٌ من عند الله، وبمهمته الرسالية لنشر الدين الجديد. ومع ذلك فقد ظل متوازناً نفسياً. كان يعرف دائماً الفرق بين أفكاره وتلك التي تلقاها من الوحي. على سبيل المثال، عندما كان يرتب قواته قبل معركة بدر اعتقد أحد ضباطه بخطأ هذا الترتيب، وسأله عن مصدر تعليماته أكانت وحياً من الله أو اجتهاد خاص. أجاب محمد أن التعليمات كانت فكرته فقط، فاقترح الضابط تغيير الترتيب لأسباب عسكرية سليمة، ووافقه محمد على ذلك. على الرغم من أن الحديث والتقاليد الشفهية للإسلام مملوءة بروايات عن قيام محمد بإتيان معجزات، إلا أنه لم يزعم أبداً قدرته الإتيان بها، وكان على دراية كاملة ببشريته وحتمية وفاته. وقد انعكس هذا الشعور بالتوازن أيضاً في إدانته للتنسك الديني الذي شهده ذات مرة بين رهبان نصارى يعيشون في الصحراء، وأشار في هذا الصدد إلى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥][١٨]. لقد كان مولعاً بنظافته، وكثيراً ما لوحظ أن وجود طعام عالق بشارب الرجل يثير اشمئزازه. كان يكره الروائح النفاذة، ولا يأكل شيئاً أضيف إليه البصل أو الثوم[١٩].

لم تتغلب أيٌّ من هذه التصرفات تماماً على إحساس محمد الشديد بالاستقامة والغضب والعنف، والذي يمكن أن يُظهره عندما يعتقد أنه ضروري. مثل موسى والمسيح وأخناتون في مصر، كان محمد «رجلاً معلّقاً تماماً بالله»[٢٠]، وكان أيضاً رجلاً ذا شجاعة جسدية ولم يخف الموت أبداً. يسجّل ابن إسحاق حادثةً جاء فيها عمر بن الخطاب، أحد كبار مضطهدي

---

(١٨) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 334.

(١٩) المصدر نفسه، ص٢٢٨.

(٢٠) المصطلح مأخوذ من: James H. Breasted, *The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt* (New York: Harper and Brothers, 1959).

استخدم بريستيد هذه العبارة لوصف الضراوة الدينية للفرعون أخناتون، أول موحّد معروف في العالم القديم. ومع ذلك، فإن أول استخدام لهذه العبارة كان لوصف الفيلسوف الديني الشهير باروخ سبينوزا.

المسلمين في مكة حينئذ، لرؤية محمد. كان عمر شاهراً سيفه، وخشي حراس الرسول أن يحاول عمر قتل النبي. أمر محمد حراسه الشخصيين بالتنحي جانباً والسماح لعمر بدخول المنزل، فنهض «رسول الله ﷺ حين سمع صوت عمر، وليس عليه رداء، حتى أخذ بمجمع قميص عمر ورداءه فقال له: ما أراك منتهياً يا عمر حتى يُنزل الله بك من الرجز ما أنزل بالوليد بن المغيرة». إن مهاجمة عدو مسلح علانية بيديك العاريتين يتطلب درجة من الجرأة لا يمتلكها معظم الناس، لكنّ محمداً كان زعيماً عربياً وكانت الشجاعة سمة مطلوبة، خاصة في محاربٍ في سبيل الله.

قاد إحساس محمد بوظيفته المنزّلة إلى اعتبار العنف وسيلة مقبولة لتحقيق مقاصد الله. وقد ظهر هذا الاتجاه في وقت مبكر خلال فترة اضطهاد أتباعه القلائل من قبل قريش في مكة. ذات يوم كان محمد يقضي بعض الوقت في صحن الكعبة عندما اقتربت منه مجموعة صغيرة من الرجال الذين بدؤوا بمحاولة إهانته ومضايقته. بعد أن تحمل بعض السخرية والتهديدات، التفت إليهم محمد وقال: «أتسمعون يا معشر قريش؟ أمَا والذي نفسُ محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح». بالنسبة إلى رجل بهذه الاستقامة، يبدو أن محمداً كان يمتلك حساسية شديدة تجاه السخرية الشخصية، وكان يكره الشعراء والمغنين الذين كانوا الناشرين الرئيسين للدعاية السياسية والنيل من أعداء الأشخاص الذين وظفوهم. في مجتمع حيث يعني الشرف بقدر ما تعني الحياة، كانت سمعة الرجل مقدّسة، وكان من الخطورة توظيف شاعر للسخرية من رجل. في الوقت نفسه، كان الشاعر عضواً محترماً في المجتمع العربي وعادة لا يتعرض للعنف، على عكس من وظّف ذلك الشاعر. لكن يبدو أن محمداً كان يمقت الشعراء بشدة، ويخبرنا ابن إسحاق أنه عندما رأى محمد أول ظهور له كان خائفاً للغاية وظن أن به مَسّاً أو ما هو أسوأ وهو أن يكون شاعراً وقد قال: «ولم يكن ممن خلق الله أحد بغض إلي من شاعر أو مجنون.» كان محمد خائفاً جداً مما كان يحدث له حتى حدث نفسه بالانتحار(*). كانت كراهية محمد للشعراء غير منطقية في حدتها، وبصفته

(*) هو استنتاج رفضه معظم المحدّثين ومؤرخي السيرة لأن الرواية كانت فيها زيادة من الزهري من حديث عن عائشة نصه: وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ.... فِيمَا بَلَغَنَا حُزْناً غَدَا مِنْهُ مِرَاراً كَيْ =

يتيماً فقيراً لا بد من أنه تعرض بانتظام للاستهزاء من قبل الآخرين عندما كان طفلاً، ومن المحتمل أن كراهيته للشعراء كانت متجذرة في تجربة الطفولة المبكرة هذه. على أي حال، فإن بعض الشعراء والمغنين الذين سخروا منه قُتلوا في وقت لاحق بناءً على أوامره.

أعطى محمد الإذْن لأتباعه المكيين، **المهاجرين**، بالانتقال إلى المدينة بعد وقت قصير من بيعة العقبة الثانية. بقي محمد وعدد قليل من أقرب أتباعه في مكة في انتظار فرصتهم للمغادرة. اجتمع بعض المتهورين المكيين وصاغوا مؤامرة لقتله في فراشه، وتقول الرواية إن الملاك جبريل حذر محمداً من النوم في سريره في تلك الليلة، ونجا من الأذى. اختبأ محمد وأحد أتباعه في كهف بالقرب من مكة لثلاثة أيام بينما تواصل بحث المكيون عنهما. سرعان ما فقد المكيون اهتمامهم، وغادر محمد مكة وشق طريقه بأمان إلى المدينة. يخبرنا ابن إسحاق أن الرسول في ذلك اليوم (عند وصوله المدينة) كان يبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، أي بعد ثلاثة عشر عاماً من الرسالة. تُعرف رحلة محمد إلى المدينة عند العرب **بالهجرة**، وهي السنة الأولى للتقويم العربي الذي تم تأريخ جميع الأحداث اللاحقة به.

= يَتَرَدَّى مِنْ رُؤوس شَوَاهِقِ الْجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقاً، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ؛ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ..».

والزيادة ليست من كلام عائشة، بل هي من كلام الزهري، وهو من التابعين ولم يدرك تلك الحادثة، ولم يذكر هو أن أحداً حدثه بها، ولذا نصَّ على ذلك في الرواية نفسها بقوله: «فيما بلَغنا». ويعتبر علماء الحديث أن «بلاغات» الزهري وغيره لا تُقبل؛ لأنها مقطوعة الإسناد. ومجرد وجودها عند البخاري لا يعني أنها صحيحة عنده. وقد علّق المحدث المعاصر الألباني: «هذا العزو إلى البُخاري خطأ فاحش، ذلك لأنه يوهم أن قصة التردي هذه صحيحة على شرط البخاري وهي ليست كذلك» (المترجم).

الفصل الخامس

تمرّد

كانت المدينة مكاناً مختلفاً تماماً عن مكة، حيث تقع على مسافة ٢٤٠ ميلاً شمال مكة، نحو ١٠٠ ميل من البحر الأحمر و٨٠ ميلاً أو نحو ذلك من طريق القوافل الرئيس الذي يربط مكة بغزة. تحتاج القافلة المسافرة بين البلدتين ما بين عشرة أيام واثني عشرة يوماً لقطع المسافة، وقطعها محمد بتسعةٍ عندما هاجر من مكة. مثل معظم «المدن» العربية، ليست للمدينة أسوار، وكانت في أغلبها سهلاً مفتوحاً تبلغ مساحته نحو سبعة وثلاثين ميلاً مربعاً[١]. على عكس مكة بمناخها الحار والجاف، كانت المدينة واحة جيدة المياه ببيئة سبخية تعشعش فيها الملاريا وغيرها من الأمراض المناخية والمنتقلة بالمياه. كانت المدينة موطناً لقبيلتين عربيتين كبيرتين هما الأوس والخزرج، وثماني عشائر عربية، وثلاث قبائل يهودية هي بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع. تم تقسيم المدينة بشكل عشوائي إلى حدٍّ ما إلى مناطق تعيش فيها العشائر، وتتألف كل منطقة من منازل وأحياء عشائرية وأراضٍ زراعية وبساتين نخيل وحدائق مسوّرة ومراعٍ وآبار ومستنقعات. ربما كان عدد سكان المدينة وقت وصول محمد يقارب عشرة آلاف نسمة[٢].

---

(١) Robert G. Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam* (London: Routledge, 2001), p. 170.

(٢) Muhammad Hamidullah, *Le Prophète de l'Islam* (Paris: J. Vrin 1959).

نقلاً عن: John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (NY: Cooper Square Press, 2001), p. 170.

يبدو تقدير حميد الله صحيحاً. عندما قضى محمد على إحدى القبائل اليهودية في المدينة أعدم تسعمئة ذكر ممن كانوا بسن التجنيد. بحساب عدد الزوجات والأطفال والأقارب المسنين، يمكن بسهولة أن يصل عدد القبيلة اليهودية الكلي إلى ٣٦٠٠. ونظراً إلى وجود قبيلتين يهوديتين وقبيلتين عربيتين رئيستين وثماني عشائر عربية في المدينة في ذلك الوقت فمن المحتمل أن يكون عدد سكان المدينة قد تجاوز عشرة آلاف.

كواحةٍ زراعية، اشتُهرت المدينة بأشجار النخيل ورعي الإبل وزراعة الحبوب، وهي أنشطة جعلت سكانها أثرياء نسبياً وفقاً للمقاييس العربية في ذلك الوقت. ربما استوطن اليهود المكان لأول مرة لدى فرارهم من القمع الروماني خلال الحرب اليهودية أو ثورة باركوخبا في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، ولربما كان هؤلاء اليهود هم من أدخل الزراعة إلى تلك الواحة[٣]. كانت تلك الواحة تسمى يثرب منذ زمن الصابئة، وتحدث اللاجئون اليهود الآرامية وغيروا الاسم إلى الاسم الآرامي مدينتا، أو ببساطة «مدينة». من غير المؤكد متى تم تغيير الاسم إلى العربية «المدينة»، أو «مدينة الرسول»، ولكن ذلك حدث بعد ذلك، وربما حتى بعد وفاة محمد[٤]. كان اليهود راسخين في الواحة قبل وقت طويل من وصول قبيلتي الخزرج والأوس، وكلاهما ربما هاجر من اليمن في وقتٍ ما بعد خراب سد مأرب. في البداية كانت القبائل العربية تحت سلطة القبائل اليهودية، ولكن بحلول زمان محمد انقلبت الأدوار وكانت القبائل العربية في موقع مهيمن؛ حيث انحاز اليهود إلى أحد أطراف الحروب العشائرية المختلفة كتابعين للعرب. باستثناء التزامهم بالديانة اليهودية، كان لا يمكن تمييز القبائل اليهودية في المدينة بأي شكل من الأشكال عن القبائل العربية. كانت قبائل بني النضير وبني قريظة من المزارعين، بينما كانت قبيلة بني قينقاع تجاراً وصاغة ذهب وصانعي دروع.

عاش سكان المدينة في منازل مبنية من الطوب اللبن، قريبة من بعضها ومحاطة بجدار من الطوب والحجر. يعرف هذا البناء **بالقصر**، أو المجمع السكني، وكان لا يزال قيد الاستخدام في القرن التاسع عشر. الوصف الآتي للقصر هو من وقتٍ لاحق على الرغم من أنه ظل من دون تغير في جوهره منذ زمن محمد:

كان القصر ذو الأسوار العالية... عبارة عن مبنى مكون من مربع من

---

(٣) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002), p. 104.

(٤) المصدر نفسه. المصطلح يعني المدينة بمعنى «النطاق المحدّد». لا شك في أن تحديد نطاق المدينة ينبع من حقيقة أن المجتمع العربي كان في الغالب غير حضري بل قبليّ وإقليميّ للغاية. سواء كان المرء في بلدة أو خارجها فإن من المهم للغاية معرفة حدود النطاق الجغرافي لقبيلة ما.

الطين عرضه ستون ذراعاً، مع برج منخفض في الزاوية وبئر في الوسط... (مجصص) بالبناء الجاف، ومراح مزدوج للإبل، وزريبة أبقار وحمير، غرف للأمَة العاملة وابنها، منازل تخزين في الأبراج.... البوابة الوحيدة المؤدية للقصر تغلق عند حلول الظلام. يُعتقد أن مثل هذه المعاقل لا تخترق في الحروب العربية(٥).

كان البرج القوي، الأطم، مبنياً في الجدار بمثابة محمية يمكن للنساء والأطفال اللجوء إليها، وكان بمثابة موقع دفاعي قوي في أثناء التصدي لهجوم. يحتوي المجمع عادةً على أكثر من بئر، وكان يوجد دائماً واحدٌ على الأقل داخل الأطم. قد تعيش عدة عائلات في مجمّع واحد، والكثير من المجمعات ستؤوي عشيرة. غالباً ما كانت المجمعات بالقرب من بعضها وربطت بجدران منخفضة تحمي المسارات بينها. بالقرب منها كانت الحدائق التي غالباً كانت مرتبة وفق نمط متعرج، تحميها جدرانها من الرياح وهبوب الرمال. شكّل هذا المزيج من الجدران المركبة وجدران الممرات والحدائق المسورة التي تتخللها بساتين النخيل وبقع من المستنقعات متاهةً معقدةً خلقت صعوبات لحركة القوات في أي تشكيل باستثناء طابور واحد يسهل للمدافعين نصب كمائن له. قامت هذه المتاهات بتقييد حركة المهاجمين بحيث لا يمكن استخدام الأعداد المتفوقة بشكل فعال داخل المدينة، ما يسمح لأعداد صغيرة من المدافعين صدّ أعداد كبيرة من المهاجمين. حتى وقت محمد كانت الجيوش العربية تفتقر إلى آليات للحصار، وكانت حتى الجدران الواهية توفر للمدافعين ميزة كبيرة. قد يأمل المهاجم في تدمير المحاصيل وتجويع المدافعين لإجبارهم على الخضوع لا أكثر. ومع ذلك، فإن تدمير النخيل كان يعتبر عملاً قاسياً ونادراً ما يحدث. أمر محمد بإتلاف أشجار النخيل في أكثر من مناسبة، وكانت غايته سياسية أكثر منها عسكرية.

غادر محمد ورفاقه الأربعة مكة في حر الصيف إلى المدينة، ووصلوا بعد تسعة أيام في ٢٤ أيلول/ سبتمبر ٦٢٢م. كان الوضع السياسي في المدينة متوتراً؛ إذ انخرطت القبيلتان العربيتان في نزاع دموي مستمر بدأ في عام ٦١٦م. قاتلت قبيلتان يهوديتان مع الأوس، ووقفت القبيلة اليهودية الأخرى

(٥) Hoyland, *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam*, p. 170.

إلى جانب الخزرج. قبل ذلك بعامين، التقت الائتلافات المتنافسة في معركة عرفت باسم يوم بعاث. تضررت كلتا القوتين، وفقد كلُّ جانب عشرات المقاتلين، وكانت النتيجة هدنة غير مستقرة. من المحتمل أن الحجاج الذين التقوا بمحمد في العقبة كانوا في الغالب من العشائر الصغرى ذات الحظوظ الأقل في استمرار الحرب، ولربما كان اهتمامهم يتجاوز دين محمد الجديد. اكتسب محمد سمعة الصدق والنزاهة في تعاملاته التجارية، ومن المحتمل أن أعضاء العشائر الصغرى كانوا مهتمين باستكشاف رغبة محمد في القدوم إلى المدينة ليكون بمثابة حَكم في نزاعات العشائر. كان محايداً بصفته من خارج المدينة، ولم تكن عليه ديات، وبإمكانه العمل كقاضٍ محايد لإنهاء النزاع(٦).

كانت الهجرة إلى مدينة تغلي من نزاع دموي مع ثلّة من الأتباع عملاً محفوفاً بالمخاطر. كان محمد ذكياً، وقد فهم بالتأكيد أن أي محاولة للادعاء بأنه قاضٍ في حرب عشائرية ستعرضه لخطر كبير. لهذا أصرّ على تعهد الحماية من حجاج المدينة عندما التقى بهم في العقبة الثانية. كان أي تدخل أجنبي في موضوع الثارات انتحاراً من دون هذا التعهد. بهذا المعنى، كان مسلمو العقبة الذين تعهدوا بحماية محمد بمثابة حراسه الشخصيين. يذكر ابن إسحاق حادثةً بعد وقت قصير من وصول محمد إلى المدينة، حيث حاول رجل الاقتراب من محمد فواجهه حراس محمد من الفرسان الأنصار الذين ضربوا الرجل برماحهم(٧). حرص محمد على سلامته منذ اليوم الأول لوصوله، ودخل المدينة من الجنوب على حافة الواحة في منطقة تُسمى قباء. في البداية اعتقد أنه قد يستقر هناك، لكنها كانت قريبة جداً من معاقل القبائل

---

(٦) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 143.

(٧) ابن إسحاق. مكان هذه الرواية وزمنها لم يكن كما نقل المؤلف. والرواية كما ذكرها ابن إسحاق هي عن سراقة بن مالك، وكان يقتص الأثر ولحق بالرسول خلال رحلة الهجرة طمعاً في جائزة قريش، فلما اقترب انغرست قدما فرسه في الوحل فطلب منه كتاب أمان مقابل انسحابه وعدم إخبار قريش عن مكانه، فأعطي ذلك. يقول سراقة: «حتى إذا فتح الله على رسوله مكة، وفرغ من حُنين والطائف، خرجت ومعي الكتاب لألقاه، فلقيته بالجِعِرَّانة، فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك، ماذا تريد؟ حتى دَنَوتُ من رسول الله ﷺ، وهو على ناقته... فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يا رسول الله ﷺ، هذا كتابك لي، وأنا سراقة بن مالك، فقال: «هَذَا يوم وفاء وبر، أَدْنِهِ»، «فدنوت منه، فأسلمت» (المترجم).

اليهودية وكذلك بعض معاقل قبيلة الأوس التي لم تكن طرفاً في بيعة العقبة(*)، فانطلق محمد مسافة ميل أو ميلين إلى الشمال لاختيار مكان أقل خطورة لبناء منزل.

ربما كان ذلك بعد وصوله ببضعة أشهر فقط عندما وضع محمد الصحيفة التي أسست القواعد الواجب على المسلمين اتباعها في التعامل مع القبائل اليهودية وغيرهم من عرب المدينة الذين ظلوا مشركين. هذه هي الصيغة الرسمية الأولى للأمة، وهو مجتمع المؤمنين بمحمد والذين تجاوزت ولاءاتهم جميع الالتزامات العشائرية والعائلية التقليدية. كان الأمر المركزي في الانتماء للأمة أن هناك إلهاً واحداً فقط، وهو الله، وأن محمداً هو نبيه. طاعة محمد نفسه كانت واجبة لأنه كان رسولاً من عند الله. شكّلت الأمة بدايات كادر ثوري من المؤمنين مهمته نشر الدين الجديد، واستبعد التزامهم تجاه هذه القضية جميع علاقاتهم الاجتماعية الأخرى. تقدم الصحيفة اللمحة الأولى من النظام الاجتماعي الجديد، ومجتمع المؤمنين المتدينين، والقواعد التي يجب أن تحكمه، وتصور محمد له في المستقبل.

كانت التعليمات المحمدية التي تحكم علاقة أفراد الأمة بالآخرين خارجها ناصعة الوضوح؛ «هم أمة واحدة من دون الناس»[(٨)]. في هذه التعليمات يبدو أن محمداً قسّم العالم بين أفراد المجتمع والآخرين بالطريقة نفسها التي قسمت بها الثقافة العربية التقليدية العالم بين أفراد العشيرة ومن هم خارجها؛ حيث لا يتمتع الأفراد خارجها بالقيمة الأخلاقية نفسها. الفرق، بالطبع، هو في مدى هذا التقسيم: «وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس... وإنّ سلم المؤمنين واحدةٌ لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله»[(٩)].

(*) في بيعة العقبة الأولى كان هناك عشرة من الخزرج واثنان من الأوس. وفي بيعة العقبة الثانية كان هناك أحد عشر رجلاً من الأوس من أصل ٧٣ رجلاً وامرأتان. أما نقباء تلك البيعة فكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (المترجم).

(٨) انظر أيضاً:

Ibn Ishaq, *The Life of muhammad: A Translation of Ibn Ishaq's Life of Muhammad*, translated by Alfred Guillaume (oxford: Oxford University Press, 1967), p. 232.

(٩) المصدر نفسه.

استبدل محمد القانون الأخلاقي التقليدي الذي كان يحكم سلوك الحرب بين العشائر العربية بمفهوم آخر، وهو الحرب الدينية، وهو نوع جديد من الحروب، فهي شاملة لم تعد تطبّق فيها القيود القديمة على العنف. العضوية في المجتمع المؤمن فقط هي التي توفر حدوداً أخلاقية للحرب، وكل من هم خارج المجتمع يفتقرون إلى هذه الحماية. وهكذا، «لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن». إن دور الانتقام من الغرباء هو دور الثأر وليس قانون الحرب التقليدي: «وإن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءَهم في سبيل الله». يتضح قانون الثأر أيضاً في ممارسة دفع الدية كتعويض: «وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قودٌ به إلا أن يرضى وليُّ المقتول». أخيراً، يوضح العهد أن الولاء للأمة، حتى بين المؤمنين أنفسهم، له الأسبقية على أي ولاء للعشيرة أو حتى الأسرة. يأمر محمد أن يكون المؤمنون «على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوانٍ أو فسادٍ بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولدً أحدهِم». كانت هذه العقيدة الصارمة تنطبق على المؤمنين أنفسهم، فقد تلاشت الآن الحدود التي كانت تضعها التقاليد العربية على معاملة الفرد لعائلته أو عشيرته. سيُطلب الآن حتى من الأب أن ينقلب على ابنه والابن على أبيه في الدفاع عن الدين.

أنشأ العهد في المدينة مجتمعاً دينياً ثورياً ممن هم داخل المجموعة مقابل من هم خارجها، حيث كانت العضوية كاملة وغير قابلة للنقض. كان الفرد مغموراً تماماً في المجتمع، حتى لدرجة أن أقرباءه وعائلته كانوا أيضاً خاضعين لهذه المبادئ نفسها. كرسول من عند الله، كانت طاعة محمد نفسه غير مقيّدة ولا مشروطة. تم القضاء تماماً على الجوانب الديمقراطية التقليدية للعشيرة العربية والقيادة القبلية، واستبدل بها السلطوية الدينية التي لا مجال فيها للعصيان أو الرفض أو اللوم. في حين أن الحياة العربية في السابق كانت تعيش في الغالب وفقاً للقواعد الأخلاقية التي وضعت، حتى في الحرب، قيوداً صارمة على العنف والثأر، تم الآن إلغاء هذه القواعد والقيود واستبدال أخلاق أسمى بها مكوّنة من العقوبات الدينية. في حين كانت القواعد القاسية للثأر **جزءاً** فقط من الحياة العربية وكان حدثاً نادراً نسبياً، أصبحت معايير الثأر الآن في **قلب** الحياة الاجتماعية داخل الأمة. وكانت النتيجة القضاء على الحدود العملية والأخلاقية للحرب والعنف عندما يُرتكب ضد غير

المؤمنين في خدمة الدين. لقد ابتكر محمد نوعاً جديداً من المجتمع العربي؛ حيث كانت الأيديولوجية الدينية الثورية التي تسمح بنطاق موسع من العنف العسكري والاجتماعي في خدمة الدين هي المركز.

كقائد لهذا المجتمع الجديد، كان محمد مسؤولاً عن بقاء هذا المجتمع على قيد الحياة. في ذلك الوقت، كان هو وشعبه فقراء وأحياناً على شفا المجاعة، وكان طعامهم التمر والماء خلال الأيام الأولى في المدينة، ولم يكن لديهم المال لشراء الكثير من الأشياء الأخرى. كان المهاجرون من مكة سكاناً حضريين، على دراية بالتجارة وليسوا مزارعين. على أي حال، لم يكن هناك سوى القليل من الأراضي الجديدة لزراعتها من قِبل الوافدين الجدد في مجتمع زراعي متطور بالفعل في المدينة. سيطرت القبائل اليهودية على التجارة المحلية، ما أدى إلى إنهاء أي فرص تجارية جديدة للمهاجرين الجدد. لإبقاء شعبه على قيد الحياة، قسّم محمد أتباعه إلى مهاجرين تبعوه من مكة، وأنصار وهم المتحالفون من المدينة. كان مطلوباً من كل أنصاري أن يتبنى مهاجراً «كأخيه»، وأن يفعل ما في وسعه لإطعامه وإيجاد عمل له. الميزة الوحيدة لهذه الأوقات الصعبة هي أن المعاناة المشتركة ساعدت على تماسك المجتمع الجديد معاً وشجعته على الإيمان بقوة أكبر بأن محمداً هو نبي الله.

من غير الواضح حجم الجالية المسلمة في المدينة في ذلك الوقت. يشير حديث عند البخاري إلى بلوغ عدد الجالية المسلمة نحو ١٥٠٠ شخص بعد ستة أشهر من وصول محمد(١٠). بعض هؤلاء الأتباع، الذين عرفوا بالـ«منافقين»، أعلنوا إسلامهم لكنهم دعموا محمداً في الغالب للحصول على الغنائم. ومع ذلك، كانوا من الناحية العملية أعضاء في المجتمع المسلم في ذلك الوقت وكانوا محسوبين على هذا النحو. في معركة بدر، التي وقعت في آذار/مارس ٦٢٤م، قاد محمد ٣١٤ رجلاً إلى الميدان: ٨٣ مهاجراً و٢٣١ أنصارياً. إن المجتمع الذي يمكن أن يقدم ثلاثمئة رجل في سن التجنيد للمعركة قد يصل تعداده بسهولة إلى ألف وخمسمئة شخص، إذا ما عددنا الزوجات والأطفال والأقارب المسنين لعائلات الجنود. يشير عدد محاربي

---

(١٠) Glubb, Ibid., p. 170.

الأنصار إلى أن محمداً كان قد حقق بعض النجاح في تحويل أعضاء بعض العشائر العربية في المدينة إلى الإسلام.

بعد سبعة أشهر من وصوله إلى المدينة، شنّ محمد أول عملية عسكرية له من خلال مهاجمة القوافل المكية. يجب على المرء أن يسأل: لماذا فعل هذا؟ فهو لم يتعرض وأتباعه لاضطهاد وخطر قريش وهم في المدينة. في بعض الأحيان، قد يصل أب أو عم لمسلم اعتنق الإسلام من مكة لمحاولة إقناع المسلم بالعودة إلى عائلته، عادة من دون جدوى، لكن هذا لا يعد تهديداً. ربما لجأ محمد إلى الممارسة العربية القديمة المتمثلة في الإغارة لحل المشكلة مع شعبه المعدم. على الرغم من أن الغارات قد تكون حلاً قصير المدى لفقر المسلمين، فإنها لم تكن حلاً بعيد المدى للمشكلة لعدد من الأسباب: **أولاً**، كان معظم المسلمين قوماً حضريين أو مزارعين وليسوا من البدو، ولم يعرفوا سوى القليل جداً عن كيفية الإغارة بنجاح على قافلة تجارية. **ثانياً**، كانت الإغارة على قافلة مكية فكرة محفوفة بالمخاطر؛ كانت القوافل دائماً برفقة حرس مسلح، وغالباً ما يكونون محاربين بدواً متمرسين يتم استئجارهم لهذا الغرض. **ثالثاً**، كان الكثير من زعماء البدو يقتاتون من خلال توفير الحماية والماء ومواقع الاستراحة وغيرها من الخدمات للقوافل. إن تعطيل قوافل مكة من قبل متدين طموح وصل مؤخراً إلى المدينة لم يكن موضع ترحيب من قبل هؤلاء الزعماء. قاد الزعماء البدو عدداً من المحاربين ذوي الخبرة الذين قد يستخدمون ضد محمد وأتباعه إذا اقتضت الظروف ذلك. يتساءل المرء عن الدافع الاستراتيجي لهجمات محمد على القوافل المكية، فتنفيذها للتخفيف من مشكلة فقر المسلمين مغامرة متهورة وخطيرة. عندما قرر محمد حمل السلاح ضد المكيين فلا بد من ذلك كان لأهداف استراتيجية أكبر.

علم محمد أن أي هجوم على القوافل المكية لن يكون سوى المناوشة الافتتاحية في حملة طويلة سيحاول فيها المكيون استئصاله. **في المقام الأول**، كان قرار مداهمة أقاربه أمراً يصعب تصوره في عصور ما قبل الإسلام بوصفه فظاعة من أسوأ الأنواع. لم يكن بين العرب خطيئة أعظم من التخلي عن ذويهم أو الإساءة إليهم. في مهاجمة المكيين، كان محمد يدير ظهره للتقاليد

العربية. فلا عجب إذاً أن محمداً قد أكّد أنه أمر إلهي لتفسير أفعاله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠]. **ثانياً**، كانت تجارة القوافل المصدر الرئيس لثروة التجار المكيين، وكان من المتوقع أن يذودوا عنها بكل ما يملكون. إذا نجح محمد، فإن التهديد الاستراتيجي الأكبر للتجار كان أن المدينة ستحل محل مكة كمركز تجاري رئيس في الحجاز. نجاحه في جذب الأتباع في المدينة لا يمكن أن يمر مرور الكرام، وأي نجاح عسكري له لن يؤدي إلا إلى زيادة هيبته وأتباعه. على المدى البعيد، سيهدّد هذا موقع مكة كأبرز مركز ديني في المنطقة، ومعها الفرص التجارية التي يوفّرها الحج والأسواق التجارية. **أخيراً**، يمكن لقادة مكة جمع قوات عسكرية كبيرة بأنفسهم، بما في ذلك سلاح الفرسان، وكان لديهم المال لتوظيف المرتزقة والمحاربين البدو. كانت قوات محمد في المدينة صغيرة مقارنة بقوات المكيين، فضلاً عن مضاهاتها.

كان محمد مفكراً استراتيجياً مميزاً، وما كانت تلك الحقائق لتغيب عنه. ومع ذلك، فقد مضى قدماً في خططه لتحدي المكيين. قد يكون هناك سببان وراء قيامه بذلك: **أولاً** وقبل كل شيء، كان «رجلاً معلقاً بالله»، مؤمناً تماماً بنفسه كرسول الله، ومكلفٌ منه بنشر عقيدة الإسلام بين الكفار. لقد شجع الوحيُ محمداً على استخدام القوة لإتمام المهمة التي أناطه الله بها. إذا كان النضال قد رسمه الله، فكذلك كانت رعايته لنتيجته الناجحة. على غرار الثوار اللاحقين الذين آمنوا بـ «قوى التاريخ الحتمية» لتوجيه أفعالهم، اعتمد محمد على علاقته الشخصية بالله لتوجيهه، وأعلن الحرب على المشركين المكيين لأن الله أراده أن يفعل ذلك. لم تكن الهجمات على القوافل المكية سوى الضربة الأولى في استراتيجيةٍ أكبر لغزو أعدائه وتدميرهم. **ثانياً**، الاستقامة واليقين اللذان غالباً ما يصاحبان مثل هذا التفكير لهما جذور دنيوية في بعض الأحيان. في هذه الحالة، فإن الإهانات والتهكم التي عانى منها محمد عندما كان طفلاً يتيماً في مكة، والاضطهاد القاسي والقاتل أحياناً الذي تعرض له أتباعه الأوائل من قبل المكيين، إضافة إلى سخريتهم منه، ربما سمحت

بسهولة لنفسية الردّ الشخصي بالتأثير في تفكيره. كلا التأثرين، الإيمان العميق بإرادة الله والكراهية الشديدة لمعذبيه، ربما اجتمعا وقادا محمداً إلى الاعتقاد بأنه قادر على التغلب على الحقائق الاستراتيجية التي من الواضح أنها ستؤسس لحرب مع المكيين. لن يبدأ مثل هذه الحرب إلا من اعتقد بحتمية النصر.

إذا كانت الحقائق الاستراتيجية ضد محمد، فقد كان صحيحاً أيضاً أن موقفه التكتيكي منحه عدداً من المزايا. كان لاجئاً في المدينة ولديه قاعدة لعمليات يمكنه من خلالها مهاجمة القوافل المكية. لم يكن من السهل إخضاع المدينة إذا رد المكيون بهجوم مباشر عليها، وهي الواحة المحاطة بحقول ووديان من الحمم البركانية؛ الحرّات. سمحت المدينة بمحور واحد فقط للتقدم إليها من الشمال. توفر الأحياء السكنية والحدائق المحاطة بالأسوار والبساتين الزراعية والمستنقعات والحقول مواقع دفاعية ممتازة إذا لزم الأمر لمقاومة هجوم مكي. بضربه القوافل المكية كان محمد يضرب جذور القوة الاقتصادية والعسكرية في مكة، وهي شريان الحياة التجاري الذي حفظ سيطرة قريش على السياسة المكية. قصد محمد عزل وإضعاف قاعدة القوة الاجتماعية والاقتصادية لعدوه بأسلوب متمرد حقيقي.

كان محمد قد أسس بالفعل أيديولوجية ثورية جذابة لتلك الشريحة من العرب التي تفتقر إلى المكانة والثروة، والحماية للفقراء والضعفاء من الحياة القاسية. توافقت أيديولوجية الإسلام كوسيلة لتجنيد القوى البشرية والأتباع الملتزمين الذين شكلوا نواة الذراع العسكرية للتمرد. كانت جهوده في التجنيد ناجحة بالفعل في المدينة، حيث اجتذب الكثير من عشائر الخزرج الفرعية لقضيته. كان قد بدأ بالفعل في إحاطة نفسه بمجموعة صغيرة من المستشارين المتفانين والرجال الخلّص الذين اعتمد عليهم لتنفيذ كل أوامره من دون تردد. في غضون بضعة أشهر، أنشأ الصُّفة، وهي مكان للدراسة الدينية في المسجد، واختار منها مجموعة من المؤمنين المخلصين والناسكين الحقيقيين الذين يمكن استخدامهم لتأديب أولئك الذين قد يتضعضع ولاؤهم أو ثقتهم بالقضية. من هنا تشكّلت نواة نوع من الشرطة السرية التي استخدمها لترهيب بعض خصومه واغتيالهم. منذ البداية كان محمد يحيط نفسه بحراسٍ شخصيين تم اختيارهم من عشائر الأنصار في المدينة والذين أقسموا اليمين لحمايته في

بيعة العقبة. كل هذه الآليات المميزة لحركة التمرد كانت موجودة إلى حدٍّ ما حتى قبل أن ينفذ أول غارة له على المكيين..

مثل حركات التمرد في العصر الحديث، تكمن قوة الحركة في الغالب في تفاني أتباعها وعبقرية قائدها. كانت إنجازات محمد حتى الآن تقدماً مهماً ولكنها لن تكون في حد ذاتها حاسمة في أي صراع مع المكيين. ومع ذلك، كانت تلك بداية ميمونة بالفعل على يد ثائر موهوب مثله. أدرك محمد أن تمرده يعتمد في النهاية على قاعدة آمنة يعمل من خلالها، واتخذ على الفور خطوات لحماية ظهره من خلال تحييد المعارضة المحتملة داخل المدينة نفسها. كان زعماء القبائل العربية الكبرى ينظرون إلى محمد وحركته بعين الريبة، كما اعتبرته القبائل اليهودية تهديداً مباشراً واعتبرت تعاليمه وادعاءاته إهانة لدينها. عندما وضع محمد وثيقة المدينة لتأسيس القواعد التي تحكم الأمة، كان قد أبرم أيضاً اتفاقية تعاون مشترك مع القبائل اليهودية وضعت قواعد للتعامل. كان الاتفاق ميثاقاً عربياً تقليدياً بين زعماء القبائل، باستثناء التنبيه إلى التزامات المسلمين تجاه اليهود: «وأنهم [أي اليهود] إذا دعوا [المسلمين] إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين»(١١). من غير المحتمل أن يعتبر أي من الطرفين الاتفاقية أنها أكثر من ترتيب مؤقت في انتظار التطورات المستقبلية. لكن في الوقت الحالي، كان محمد حراً في العمل ضد المكيين من دون الحاجة إلى القلق بشأن مهاجمته من قبل القوات العسكرية الكبيرة للقبائل غير المسلمة داخل المدينة..

بعد سبعة أشهر من وصوله إلى المدينة، بدأ محمد الأعمال القتالية ضد مكة من خلال الهجوم على القوافل المكية التي كانت تسلك الطريق بين مكة وغزة. مرّ طريق القوافل على بعد نحو ٨٠ ميلاً إلى الغرب من المدينة، وهي مسافة قصيرة نسبياً لسير طلائع محمد وإعداد الكمائن. كانت المسافة إلى مكة ١٦٠ ميلاً، وهي أبعد من أن يستجيب المكيون بقوة إنقاذ في الوقت المناسب. لشن أي عملية عسكرية ضد محمد سيتطلب من أهل مكة السفر من عشرة إلى اثني عشر يوماً قبل أن يكونوا في وضعٍ يسمح لهم باستخدام القوة،

(١١) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, Ibid., p. 233.

على افتراض أنهم يستطيعون العثور عليه. الميزة التكتيكية كانت بيد محمد.

كانت القوافل تتنقل عادة مع حرس مسلح. أحياناً كان الحراس يبقون مع القافلة من مكة إلى غزة ويعودون معها، وفي أوقات أخرى تبقى حراسة رمزية فقط مع القافلة طوال الرحلة، مدعومة من قبل البدو المستأجرين على طول الطريق الذين يرافقون القافلة لمسافات قصيرة. من تجربته مع القوافل عرف محمد أن عدد حراس القوافل عادة ما يكون قليلاً. ويعني هذا أن غزاة محمد يمكن أن يفوقوا عدد حراس القافلة. كان الانقضاض على القافلة بهجوم مفاجئ في ضوء الفجر الأول قد منح ميزة تكتيكية أخرى. إن تمكن محمد من مداهمة القوافل بنجاح، فإنه يؤمّن لأتباعه مصدر رزق جديد، ويخنق الحركة التجارية في مكة.

كانت سمعة الرجل في المجتمع العربي وشرفه شيئاً واحداً. بعد خروجه من مكة، احتاج محمد إلى تحسين سمعته بين الأصدقاء والأعداء على حد سواء، إن كانت له أي فرصة للنجاح. في هذا الصدد، من المرجح أن يثير استعراض القوة العسكرية إعجاب القبائل الوثنية التي كان يأمل في نهاية المطاف أن تتحول إلى الإسلام، وتلك القبائل كانت حاسمة في استراتيجيته لعزل مكة. لاجتياز الطبيعة العدائية في شبه الجزيرة العربية، تطلّب الأمر من القوافل تأمين مساعدة العشائر البدوية التي عاشت على طول الطريق. تطلّبت القوافل المياه والطعام والسكن والأعلاف لحيواناتها، وخدمات الدعم الأخرى التي قدمها البدو وسكان الواحات مقابل رسوم. ولا يمكن لأي قافلة أن تأمل بإكمال الرحلة بمفردها من دون هذه الخدمات على طول الطريق. كان من الضروري إذاً أن يحافظ التجار المكّيون على علاقات جيدة مع العشائر البدوية التي كانت في وضع يسمح لها بإيقاف القوافل بمجرد رفض تزويدها بالخدمات. علم محمد أنه لا يستطيع إيقاف القوافل المكية بالغزوات وحدها، وكان مفتاح نجاحه هو استمالة البدو وإغراؤهم لتغيير الولاءات من خلال وعود الكسب المادي، وبالدعوة الروحية إلى الدين الجديد، وبإظهار القوة العسكرية والهيبة لكسب احترامهم. كان القصد من غزوات محمد منذ البداية هو تحقيق الهدف السياسي المتمثل في كسب «قلوب وعقول» البدو. لم تكن القيمة العسكرية للغزوات سوى وسيلة لتحقيق هذه الغاية.

ربما لم يستطع محمد حشد أكثر من مئتي رجل أو نحو ذلك للمشاركة

في الغزوات. نفذ المهاجرون معظم السرايا الأولى بالكامل ولم يشارك فيها أكثر من خمسين رجلاً في المرة الواحدة، وغالباً شارك فيها عشرة أو عشرون فقط. مع تقدم الأحداث، تمكّن محمد من إقناع بعض الأنصار بالمشاركة أيضاً. كان هذا إنجازاً مهماً، فقد كان الأنصار قد أقسموا على الدفاع عن محمد، لا على الانخراط في عمل عسكري. زاد استعدادهم للمشاركة في الغزوات من موارد محمد البشرية بشكل كبير، وربما يعكس هذا حقيقة أن معظم عشائر الأنصار قد تحولت بالفعل إلى الإسلام. ومع ذلك، من وقت إلى آخر، جنّد محمد غزاة من بين وثنيي المدينة بوعود المشاركة في الغنائم(*). مع هذا كانت القوة العسكرية المتاحة لمحمد في بداية التمرد صغيرة جداً، ربما لا تزيد على ٣٠٠ إلى ٣٥٠ رجلاً من المهاجرين والأنصار.

في كانون الثاني/يناير ٦٢٣م أرسل محمد سريّة له بقيادة عمه المحارب المتمرس حمزة. كانت السريّة مكونة من ثلاثين رجلاً، جميعهم مهاجرون. لقي حمزة قافلة مكية قرب العيص جنوب ينبع على شاطئ البحر الأحمر، ويبدو أن حمزة فوجئ بحجم حراس القافلة. يخبرنا ابن إسحاق: «لقي [حمزة] أبا جهل [قائد القافلة] بذلك الساحل في ثلاث مئة راكب من أهل مكة»(١٢). لو اختار حمزة الاشتباك، فمن المحتمل أن يهلك جميع المسلمين. لحسن حظهم، تدخل زعيم قبلي محلي ومنع الاشتباك، «فانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال». كان حجم حرس القافلة كبيراً بشكل غير عادي ويتألف بالكامل من المكيين. حقيقة أن القافلة كانت في رحلة العودة إلى مكة عندما حاول حمزة التعرض لها تشير إلى أن الحراس سافروا مع القافلة منذ بداية الرحلة من مكة. كان حجم الحراسة غير معتاد، ويشير بقوة إلى أن المكيين قد استوعبوا خطة محمد لبدء مداهمة القوافل واستعدوا لحمايتها.

إذا كان حجم حراس القافلة قد أثار استغراب حمزة، فإنه لم يثنِ محمداً. بعد شهر، في شباط/فبراير ٦٢٣م، أرسل محمد سرية أخرى قوامها ستون رجلاً لاعتراض قافلة مكية خارج مدينة رابغ الساحلية. تفاصيل المداهمة قليلة، ولكن على الأقل كانت هناك مناوشات بين رجال محمد

(*) لا يوجد دليل ثابت على ذلك، بل الثابت هو رفض الرسول ﷺ مساعدة غير المسلمين (المترجم).

(١٢) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, Ibid.

وحرس القافلة، لأنه من المعروف في تاريخ الإسلام أنه خلال هذه المداهمة رمى سعد بن أبي وقاص جعبة كاملة من السهام ضد المكيين[(١٣)]. لم تقع إصابات ولم يقع قتال. لكن الحدث يُذكر على أنه أول اشتباك للدفاع عن الإسلام، على الرغم من عدم إراقة الدماء من أي من الجانبين.

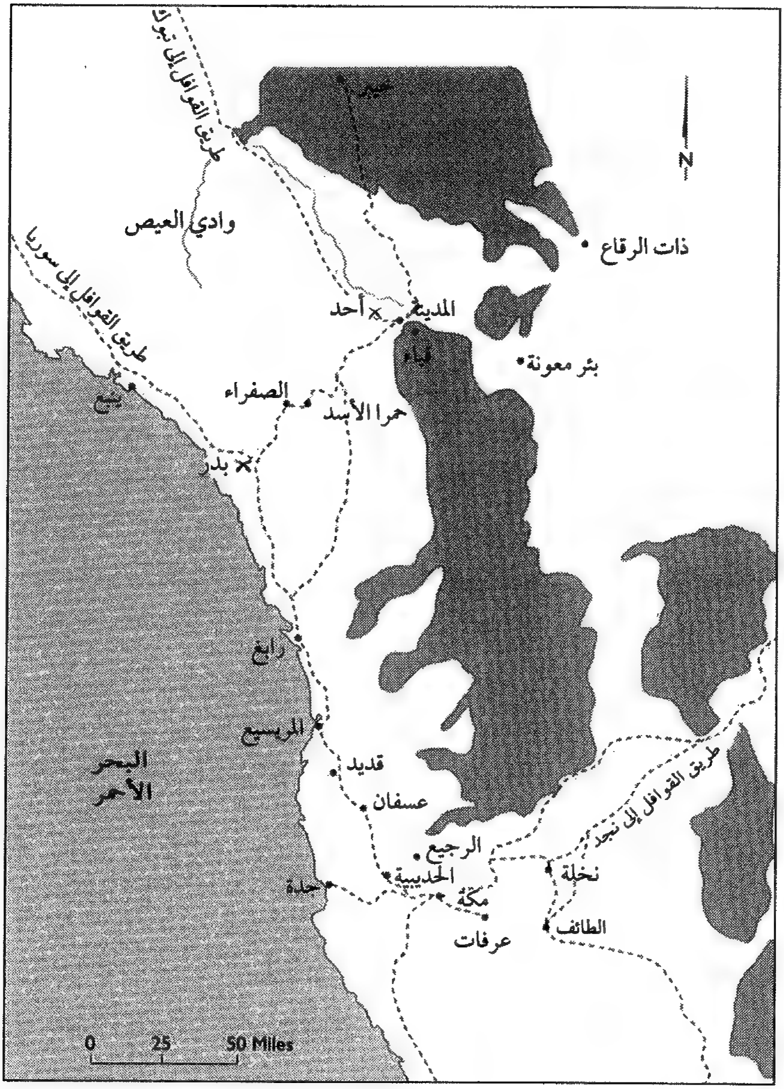

الخريطة ٥: غزوات محمد ٦٢٣م

(١٣) Glubb, Ibid., p.175.

ومع ذلك، فإن الأمر الأكثر أهمية هو الاتجاه والمسافة التي تم خلالها تنفيذ السريّة. حاولت السريّة الأولى اعتراض قافلة عائدة إلى مكة، وحاولت الثانية مهاجمة قافلة منطلقة منها. كما كان المسافة في السريّة الثانية ضعف المسافة التي قطعتها الأولى، وكانت عدد المشاركين ضعف عدد القوة الأولى. لا تخبرنا النصوص لماذا فشلت هذه الثانية، ربما لم يتمكن المهاجمون من التموضع للهجوم قبل شروق الشمس (وقت الهجوم العربي التقليدي)، أو كانت حراسة القافلة قوية جداً، أو بسبب حالة الطقس. ومع ذلك، من منظور سياسي أظهرت الغارة للقبائل البدوية أن محمداً أصبح قوة تستحق الاهتمام. كانت الغارة الأولى قد أرسلت هذه الرسالة إلى القبائل شمال المدينة؛ الثانية وصلت إلى أقصى الجنوب. كان محمد يُظهر قدرته على إبراز القوة بشكل كبير خارج معقله.

من المحتمل أيضاً أن هذه السرايا الأولى عملت على تدريب رجال محمد على كيفية القيام بعمليات في البيئة الصحراوية واكتساب المعرفة بالتضاريس التي كان مطلوباً من المهاجمين المناورة فيها. يجب أن نتذكر أن محمداً وأتباعه، من المهاجرين والأنصار على حد سواء، كانوا حضراً وليسوا من البدو. كانوا في الغالب غير ملمين بالصحراء والسفر والبقاء على قيد الحياة داخلها. حتى عندما هاجر محمد من مكة، كان عليه أن يستأجر بدوياً ليوصله عبر طرق صحراوية إلى المدينة. إضافة إلى الحاجة إلى التعرف على الصحراء، كانت هناك مسألة الخبرة العسكرية. كان أتباع محمد قد تلقوا تدريبات عسكرية أساسية على أيدي آبائهم، لكن هذا لم يكن بمرتبة القدرة على التخطيط والقيام بغارة على قافلة، خاصةً إذا كان يحرسها بدو معروفون بمهارتهم وشراستهم في القتال. ترجّح كل هذه العوامل أن محمداً رأى أن لهذه السرايا الأولى هيبة وقيمة سياسية أكثر من القيمة العسكرية.

في أيار/مايو ٦٢٣م أرسل محمد مجموعة من ثمانية مهاجرين لمحاولة اعتراض قافلة صغيرة على الطريق من مكة إلى سوريا، ولكنهم وصلوا بعد يوم من مرور القافلة. عدة غارات أخرى شُنّت في تتابع سريع عادت خالية الوفاض. ربما كان واضحاً لمحمد بحلول هذا الوقت أن افتقاره إلى جهاز استخبارات يجعل من المستحيل تقريباً تحديد مكان ووقت مرور القافلة. واجه المهاجرون باستمرار صعوبة السير في الصحراء. أصبح من الواضح أنه

ما لم يؤمّن محمد علاقات وثيقة مع القبائل البدوية بالقرب من طريق القوافل فإن كل جهوده لخنق شريان الحياة في مكة ستذهب هباء. سيأتي اليوم، بالطبع، الذي لن يتحرك فيه شيء في الحجاز من دون أن يكتشفه جهاز استخبارات محمد، إلا أنه كان يعمل بندرة معلومات في الوقت الحالي.

ربما لتعزيز الروح المعنوية بعد الكثير من الغزوات الفاشلة، خاض محمد نفسه غزوة خارج المدينة في حزيران/ يونيو ٦٢٣م وتوجه جنوباً. لم يكن لدى محمد خبرة في السفر عبر الصحراء أو في قيادة رجال في المعركة أكبر من أي من القادة السابقين الذين قادوا الغزوات الإسلامية. مثل أتباعه، كان محمد حضرياً طوال حياته، وكان إدارياً بارعاً وخبيراً لوجستياً نتيجةً لخبرته في تنظيم القوافل. لكنه لم يكن جنرالاً ميدانياً أو قائداً لمعارك، على الأقل حتى الآن. لهذه الأسباب، من غير المحتمل أن تكون نية محمد هذه المرة هي مداهمة القوافل المكية. أخذته رحلته هو ورجاله (ليس لدينا أي فكرة عن حجم الفرقة، لكنها ربما كانت صغيرة نسبياً) بعيداً إلى جنوب المدينة، بل وحتى جنوب مكة، إلى أراضي قبيلة بني كنانة. كانت منطقة بني كنانة قريبة من طريق القوافل المؤدي من الموانئ الجنوبية إلى مكة. كان هؤلاء البدو في وضع مثالي لمراقبة حركة المرور على الطريق وكذلك لمعرفة جميع الرحلات الذاهبة والآيبة، والطريق إلى الطائف، وطريق القوافل الرئيس الذي يمتد شمال شرق مكة إلى الحيرة على نهر الفرات. أثمرت زيارة محمد عوائد كبيرة عندما تفاوض على معاهدة صداقة مع عشيرة بني ضمرة من بني كنانة، لم يتم تسجيل تفاصيل الاتفاق. ومع ذلك، فليس من المستبعد موافقة بني ضمرة على إبلاغ محمد بأي تحركات للقوافل المكية.

بين حزيران/ يونيو وتشرين الأول/ أكتوبر٦٢٣م، نُفذت أربع سرايا لم تنجح في نصب كمائن للقوافل المكية. كان أتباع محمد في المدينة لا يزالون فقراء، وربما كانت سلسلة إخفاقاته العسكرية تجعل من الصعب جذب المزيد إلى الإسلام. بدأ الأنصار يتململون وكانوا أقل استعداداً للمشاركة في الغزوات المستقبلية. زادت مشاكله، حيث تعرّض محمد لإهانة واضحة بسبب سرقة مجموعة من البدو المحليين إبله. شكّل مجموعة لمطاردة اللصوص لثلاثة أيام، ولكن من دون جدوى. عاد محمد إلى المدينة أكثر حاجة مما كان عليه عندما غادر، واضطرب وضعه وهيبة مسلمي المدينة.

في أيلول/ سبتمبر ٦٢٣م، شنّ محمد غزوة أخرى قوامها ١٥٠ رجلاً في محاولة لاعتراض قافلة كبيرة متجهة إلى دمشق. اختار مكاناً بالقرب من مدينة ينبع على ساحل البحر الأحمر، على بعد نحو ثمانين ميلاً غرب المدينة، لنصب كمينه. مرة أخرى لم تكن هناك قافلة! أمضت المجموعة عدة أيام وليالٍ في المنطقة، واستغل الوقت لصالحه من خلال التفاوض على اتفاقية صداقة مع قبيلة مدلج التي تعيش بالقرب من ينبع. أصبح لمحمد الآن مصدر استخبارات شمال مكة وكذلك في جنوبها. خدمته الاتفاقيات مع بني ضمرة ومدلج بشكل جيد، وأصبحت قوافل مكة أكثر عرضة للهجمات الناجحة.

لا بد من أنه كان واضحاً لمحمد الآن أن عدم نجاحه في تحديد موقع القوافل المكية ومهاجمتها لم يكن بسبب ضعف استخباراته فقط. يمكن أن يُعزى السبب إلى قدرة المكّيين على معرفة هجماته المخطط لها مسبقاً. لم يكن هناك نقص في الأعداء داخل المدينة ممن كانوا سيفشون تحركات محمد عن طيب خاطر للعملاء المكيين. فالقبائل اليهودية في المدينة اعتقدته مجنوناً وخطيراً ومهرطقاً، وبدأ زعماء الأوس في اعتباره منافساً محتملاً للسلطة(*)، ولم يتحول عدد من عشائر الخزرج إلى العقيدة الجديدة. بدا أن محمداً نفسه لم يلتفت إلى مفهوم الأمن العملياتي، فكلما خطط لشن غارة ذهب إلى المسجد وجمّع كل من كان مهتماً بالمشاركة. كان يجيب عن الأسئلة ثم يختار فريق المداهمة من بين المتطوعين. من المحتمل أنه في كل مرة انطلق فيها محمد لتجميع المهاجمين تم نقل المعلومات إلى المكيين من قبل أعدائه. يمكن أن يقطع الجمل القوي من خمسة وستين إلى سبعين ميلاً في اليوم لمدة أسبوع تقريباً، وهو وقت كافٍ للمكيين لإرسال رسول لتحذير القوافل(١٤).

في تشرين الثاني/ نوفمبر ٦٢٣م، جمّع محمد سريّة صغيرة من ثمانية أفراد تحت قيادة عبد الله بن جحش للقيام بمهمة بعيدة إلى الجنوب بالقرب

(*) لا توجد دلائل ملموسة على ذلك، ولم يذكرها مؤرخو السيرة، ولا تبدو أنها متسقة مع سياق تصريحات وأعمال قادة الأوس الموالية للنبي (المترجم).

(١٤) لمعرفة مدى وسرعة الإبل المركوب، انظر: Charles M. Doughty, *Travels in Arabia Deserta* (London: Jonathan Cape, 1936), p. 553.

من نخلة، وهي بلدة تقع على طول طريق القوافل الشرقي من مكة إلى الحيرة. هذه المرة قام بتحسين أمن عملياته بشكل كبير، ويشير العدد القليل من المهاجمين، وجميعهم من المهاجرين، إلى أن اختيارهم تم من خارج التجمع العام المعتاد في المسجد. إضافة إلى ذلك، لم يتم إخبار المهاجمين ولا قائدهم بطبيعة المهمة أو الهدف منها. تلقى القائد كتاباً مختوماً وأمر ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ولإخفاء هدف السريّة بشكل أكبر، أمر محمد ابن جحش بالسير شرقاً لمدة يومين قبل فتح كتابه. بعد أن فعل هذا، فتح الكتاب الذي أمره بالتوجه جنوباً نحو الصحراء المفتوحة والتوجه إلى نخلة. يسجّل ابن إسحاق تعليمات ابن جحش بالحرف: «إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارِهم». تقع نخلة على بعد أقل من خمسين ميلاً شرق مكة على طريق الحيرة وأكثر من مئتي ميل من المدينة. من غير المرجح أن يكون محمد قد اتخذ مثل هذه الاحتياطات الأمنية لإرسال فريق من ثمانية رجال لمسافة كبيرة فقط لمراقبة حركة مرور القوافل.

لكن لحسن الحظ، جاءت قافلة محلية صغيرة متجهة من الطائف إلى مكة تحمل نبيذاً وزبيباً وسلعاً جلدية مروراً بموقع السرية. كان هناك مزيد من الحظ؛ إذ كانت القافلة مصحوبة بأربعة رجال فقط ومن دون حراسة. يخبرنا ابن إسحاق أن الغزاة تبعوا القافلة حتى توقفت للاستراحة ليلاً، ثم انتقلوا لمواقعهم الخاصة لهجوم الفجر التقليدي. لكن الصعوبة كانت في أن ذلك اليوم كان الأخير من رجب، أحد الأشهر الحرم والهدنة بين العرب، وكان أي عمل من أعمال العنف أو إراقة الدماء في هذا الوقت يُعدّ معصية وإثماً كبيراً. والأسوأ من ذلك أن القافلة أصبحت الآن قريبة جداً من منطقة مكة؛ حيث لا يُسمح بالقتال أبداً. لم تذكر رسالة محمد، على الأقل النسخة التي حفظها لنا التاريخ، طلب أي هجوم على أي قافلة. كان النبي قد أصدر تعليماته للمهاجمين بمراقبة حركة المرور على طول الطريق فقط. بعد بعض النقاش بين المغيرين حول ما كان متوقعاً منهم بالضبط، هاجم المسلمون مرافقي القافلة الأربعة، وقُتِل أحدُهم، وهو عبد الله بن الحضرمي، وأُسر اثنان، وهرب الأخير إلى مكة لإنذارهم. عاد المهاجمون إلى المدينة مع غنائمهم وأبلغوا النبي.

غضب كلٌّ من المسلمين والمشركين في المدينة من أنباء مقتل الحضرمي خلال شهر رجب الحرام ومن محمد، الذي افترض معظمهم أنه أمر بذلك(*). لا يوجد دليل على أن محمداً كان قلقاً بشكل خاص من انتهاك قانون وثني قديم. مثل موسى، الذي اضطر إلى استخدام العنف في أكثر من مناسبة لمنع أتباعه من هَجره(١٥)، ربما كان محمد أكثر قلقاً بشأن اختلال سلطانه على أتباعه. في البداية نفى محمد أنه أمر بالهجوم خلال الشهر الحرام ورفض قبول نصيبه من غنائم السريّة. تبع ذلك الوحي الذي وضع الأمر في منظور ديني أكبر واحتوى على اعتراف ضمني بأمر الهجوم. يخبرنا ابن إسحاق أن الوحي وارد في سورة البقرة، الآية ٢١٧: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

تشير لغة الوحي إلى أن محمداً لم يكن معنياً بانتهاك العُرف العربي القديم بقدر ما كان مهتماً بالحفاظ على السيطرة على أتباعه. تعترف الآية القرآنية بانتهاك أعراف المشركين، وهو أمر قصد محمد هدمه على أي حال. لم تحقق قيادة محمد الكثير لأتباعه حتى الآن، وهي حقيقة جعلته عرضة لثورة من قبل شعبه(**). لقد فشلت غارات القوافل الواحدة تلو الأخرى، ولم ينتج منها أي

(*) يجمع كتّاب السيرة على أن الرسول ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال في الشّهر الحرام» لمّا قدمت السرية عليه، بل أنه أوقف التصرف في العير والأسيرين، ما يدل على عدم رضاه عما حدث، ولم يكن الأمر كما ظن المؤلف (المترجم).

(١٥) ليس من المستبعد أن تكون بعض مذابح موسى بحق شعبه، كتلك التي رويت أنها بسبب انتهاكات الطقوس الدينية أو الأمر الإلهي، كانت محاولات لقمع التمردات من قبل بعض الذين اعتقدوا أن قيادته غير كفؤ. من المحتمل أيضاً أن موسى لم يصل إلى أرض الموعد لأنه قتل في إحدى هذه الثورات وحل محله يشوع. للمزيد حول هذه النظرية انظر: Richard A. Gabriel, *Our Fathers: The Memory of Egypt in Judaism and Christianity* (Westport, Conn.: Greenwood Press, 2002), and Jonathan Kirsch, *Moses: A Life* (New York: Ballantine Books, 1998).

(**) لا يوجد دليل على أي بوادر لثورة أو تمرد ضد النبي كما تصور المؤلف، بل شرح القرآن بطلان حجج المشركين، و«إنّ الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإنّ الحرمات المقدسة قد انتهكت كلّها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله! فما الذي أعاد إلى هذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرّة وشناعة؟ ألم يكن المسلمون مقيمين =

دخل لشعبه الذي ما زال معظمه يعيش في فقر من دون عمل ويعتمد في الغالب على الصدقات. ربما بدأ محمد يخشى اضطراب حتى أولئك الذين كانوا أولَ من آمن بأنه رسول الله وإلا فما سر تعليمات الله التي تشير إلى أن «الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ... ومَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»[١٦]؟ يبدو أن هذا الأمر يهدف إلى تثبيت دعم المسلمين له أكثر من أي شيء آخر.

إذا كان هذا التحليل صحيحاً، فلنا أن نتوقع لماذا أرسل محمد ثمانية رجال لأكثر من مئتي ميل لمراقبة طريق مكة ـ الحيرة في المقام الأول. بالتأكيد لم يكن من المعقول أن تكون مجرد مراقبة مرور القوافل، وهي مهمة ليست لها أي قيمة سياسية أو عسكرية على الإطلاق. ربما كان الأمر أن محمداً أمر قائد المهاجمين في الواقع بمهاجمة قافلة صغيرة في أول فرصة، وإذا لزم الأمر إراقة الدماء خلال الشهر الحرام[١٧]. لقد قَبِل التاريخ العربي أوامر الله لمحمد كمبررٍ كافٍ، وتُذكر الغارة على القافلة في نخلة في التاريخ العربي بأنها المرة الأولى التي سفك فيها المسلمون الدماء. علم محمد بالتأكيد أنه شهر رجب وأن القتل محرم فيه. في الواقع، تم توفير ثغرة مثيرة للاهتمام في كتاب محمد إلى قائد السريّة بتخيير من معه في مواصلة المهمة أو العودة ببساطة إلى المدينة[١٨]. يتضح من رواية ابن إسحاق أن الغزاة أنفسهم علموا أنهم انتهكوا الشهر الحرام وتحدثوا مطولاً بذلك فيما بينهم[١٩]. ولكن لماذا وضع الاستثناء في المشاركة ما لم توجّه التعليمات

= بالبلد الحرام حين تقرّر قتل نبيّهم، وسلب أموالهم؟» من كتاب **فقه السيرة** لمحمد الغزالي (المترجم).

(١٦) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, *the Life of Muhammad.*

(١٧) W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956), p. 7.

ويقول في هذا الشأن: «كان الجزء الأساسي من أوامر محمد المختومة لعبد الله بن جحش هو الذهاب إلى نخلة ونصب كمين لقافلة قريش. من الواضح أن البند الإضافي (في بعض الروايات) هو إضافة لاحقة تهدف إلى إعطاء كلمة «ترصّدوا» معنى «المراقبة» بدلاً من «تحضير كمين». وبهذه الطريقة ستُزال كل مسؤولية عن إراقة الدماء على محمد. ومع ذلك، لا يمكن أن يكون هناك شك في أن محمداً أرسل المغيرين في مهمة أدرك أنها قد تنطوي على موتٍ بين رجاله والعدو».

(١٨) المصدر نفسه، ص٦.

(١٩) المصدر نفسه، ص٢٨٧.

للمغيرين لمهاجمة قافلة وإذا لزم الأمر إراقة الدماء خلال الشهر الحرام في المقام الأول، والسماح لمن اعترض على انتهاك العرف العربي برفض المشاركة، إذا لم يقصد محمد طوال الوقت تعمد إثارة انتهاك العرف العربي؟

إذا كانت هذه هي نية محمد، فماذا كان يأمل أن يكسب من القيام بمثل هذا الخرق؟ لربما كانت هناك بالفعل انشقاقات عن الحركة، ولربما كانت هناك اعتراضات علنية على ادعاء محمد بأنه رسول الله. لعله بحث عن وسيلة لربط أتباعه به بشكل أوثق. كانت إحدى الطرائق هي القيام بفعلٍ بالغ القسوة باسمهم، ثم مطالبتهم باتباعه على الرغم من غضب المشركين، أو الارتداد عن الإسلام والموت على الكفر والعذاب في النار. استخدمت الحركات الثورية الحديثة عنفاً مبالغاً به كوسيلة لتعزيز الولاء الثوري والحماسة. بمجرد الالتزام بهذه الطريقة، يصبح من الصعب جداً على أتباع القضية التخلي عن ولاءاتهم. ارتكب معاصرون فظائع باسم التاريخ والعِرق والأيديولوجيا، أما محمد فبرّر القتل في نخلة باسم الله.

ومع ذلك، ربما لم يفكر محمد كثيراً في رد الفعل العنيف الذي قد يكون لدى المكيين على عمليات القتل. كان مقتل عبد الله بن الحضرمي ينسجم مع القواعد القديمة للثأر. كان الحضرمي تحت حماية عتبة بن ربيعة، وهو عضو مؤثر ومطاع في المجتمع المكي وقد أصبح الآن ملزماً بأعراف الشرف العربي للثأر لموت تابعه. إن لم يفهم المكيون من قبل أن محمداً كان ينوي تدميرهم، فإن حادثة نخلة والوحي الذي يبرر الخرق الكبير للعرف العربي المقدس تركت قليلاً من الشك لديهم. وكانت النتيجة حالة حرب مفتوحة بين محمد ورفاقه السابقين من رجال القبائل، قريش مكة.

الفصل السادس

غزوة بدر

١٥ آذار/مارس ٦٢٤م

بعد أسابيع قليلة من حادثة نخلة، في خريف عام ٦٢٣م، انطلقت قافلة قريش السنوية من مكة إلى سوريا، وسَلكت الطريق المعتاد على طول ساحل البحر الأحمر، والذي يبعد نحو ثمانين ميلاً غرب المدينة. ثمة قافلتان مكيتان كبيرتان خلال السنة، واحدة في الخريف إلى سوريا والأخرى في الربيع إلى العراق. مثّلت القوافل هذه أحداثاً تجارية مهمة، وأسهمت بالجزء الأكبر من الدخل السنوي لمكة، وكان لكل مكي سهم فيها. قافلة الخريف لعام ٦٢٣م تكونت من ألف إبل تحمل سلعاً تجارية باهظة الثمن. إذا تمكن المسلمون من الاستيلاء عليها فسوف ينتقلون من الفقر إلى الثراء بين عشية وضحاها. وسيسمح نصيب محمد من الغنيمة له بشراء الأسلحة التي يفتقر إليها رجاله بشدة. كانت محاولاته السابقة للاستيلاء على قوافل مكة الأصغر سبباً في تيقظ المكيين. كانت القافلة تحت قيادة أبي سفيان بن حرب، وهو تاجر مهم وأحد قادة المعارضة ضد محمد وضابط عسكري متمرس قاد سلاح الفرسان المكي[*]، وكانت القافلة برفقة أربعين حارساً.

لم يحاول محمد مهاجمة القافلة وهي في رحلة الذهاب. هذا مثير للفضول لعدة أسباب: **أولاً**، كانت القافلة محمّلة بالسلع الثمينة من مكة، وقد لا تحمل كمية أو قيمة مماثلة في إيابها. **ثانياً**، كان لمحمد مصدر استخباراتي ممتاز في مكة، هو العباس، أحد أعمامه الذي كان مرابياً مهماً

(*) كانت قيادة الفرسان القرشيين تقع على عاتق بني مخزوم تاريخياً، لا بني أمية والتي ينتمي إليها أبو سفيان (المترجم).

حينئذٍ، وظل على اتصال دائم بمحمد من خلال رسائل متبادلة[١]. جعلت خبرة العباس في الشؤون التجارية المكية منه وكيلاً ممتازاً عندما يتعلق الأمر بإبلاغ محمد عن معلومات سياسية وتجارية قيّمة. كان العباس في وضع يسمح له بالإخبار عن طرق القوافل (ليست سراً على أي حال) ووقت المغادرة، وهي معلومات ستسمح لمحمد بنقل قواته إلى مكانها في وقت مناسب لنصب كمين. ومع هذا، اختار محمد تعيين فريق من «الجواسيس الخاصين» لمتابعة مسار القافلة وتحذيره عندما تبدأ رحلة العودة[٢]. يُفترض أن هذا سيتطلب من الجواسيس تتبع القافلة على طول الطريق إلى دمشق، والبقاء فيها أو بالقرب منها لبضعة أشهر حتى تصبح القافلة جاهزة للقيام برحلة العودة، ثم الإسراع لإعلام محمد بقدومها.

لا معنى لهذه الخطة على أسس عسكرية بحتة. كانت الإبل هي الوسيلة الوحيدة لنقل الرسائل، وكانت المسافات المعنية أطول من جعل التحذير في الوقت المناسب ممكناً. في أحسن الأحوال، لم يكن أمام محمد سوى أيام قليلة للتخطيط لكمينه وتحريك قواته إلى مواقعها، وربما لم يكن هناك وقت كافٍ، وهو وقت أقل بكثير مما كانت عليه الحال لو هاجم القافلة في رحلتها الأولى من مكة. تخبرنا مصادر لاحقة أن الخطة أصبحت بلا جدوى عندما اكتشف أبو سفيان أن جواسيس محمد كانوا يراقبونه وهو في دمشق[٣]. ربما فرضت الظروف السياسية على محمد تلك الخطة، ولربما كان رد الفعل على عمليات القتل في نخلة أسوأ بكثير واستغرق احتواؤها وقتاً وجهداً أكثر مما ورد في المصادر. بهذا الاعتبار، ربما لم يستطع محمد الاعتماد على أعداد كافية من المسلمين لشن هجوم على القافلة المغادرة لمكة ما أجبره على التخلي عن الفرصة التكتيكية الأفضل. في الأشهر الستة التي مرت تقريباً

(١) Muhammad Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet* (Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939), p. 120,
معتمداً على ابن سعد في **الطبقات الكبرى**، حرره إدوارد ساخاو (ليدن: بريل، ١٩٠٤ ـ ١٩٤٠)، ج ٢، ص٤.

(٢) المصدر نفسه، معتمداً على ابن سعد في **الطبقات الكبرى**.

(٣) John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 179.
لم يذكر ابن إسحاق هذا الموضوع.

في أثناء سفر القافلة إلى دمشق وعودتها، كان لدى محمد الوقت لضبط وتنظيم أتباعه والثقة بقدرته على استخدامهم في عملية عسكرية كبيرة.

في ٨ آذار/مارس ٦٢٤م، انطلق محمد من المدينة بقوة قوامها ٣١٤ رجلاً - ٨٣ مهاجراً و٢٣١ أنصارياً. استطاعت القوة الإسلامية حشد سبعين من الإبل وفرسين فقط لنقل الرجال والإمدادات، ما يشير إلى أن الكثير من الأنصار كانوا من الطبقات الاقتصادية الدنيا وكانوا فقراء كالمهاجرين. يفترض المرء أن جواسيس محمد قد أبلغوه أن القافلة المكية قد غادرت دمشق في وقتٍ ما في شهر كانون الثاني/يناير. يجب الافتراض أيضاً أن جواسيس أو كشافة آخرين قد أبلغوا أن القافلة كانت تقترب من الطريق إلى شرق المدينة. غير أن المصادر صمتت عن هذه التفاصيل. مع وجود عدد قليل من الحيوانات التي تستخدم كوسيلة نقل «ركب عليها الرجال بالتناوب»[٤]، تمت تغطية معظم الرحلة سيراً على الأقدام، وهو أمر نادر الحدوث في شبه الجزيرة بسبب الحرارة والتضاريس الصعبة. تحرك رتل محمد في الغالب في أثناء حرارة النهار، وهو أيضاً شيء لم يُفعل عادةً في هذا الوقت من العام. أمر بإزالة الأجراس المعلقة حول أعناق الإبل حتى لا يُكتشف مكانه عندما يتحرك. قد يشير هذا إلى أن الجيش كان يتحرك أحياناً في أثناء الليل في الأوقات التي تصبح فيها حرارة النهار جائرة للغاية. خرج الرتل في شهر رمضان، وبعد اليوم الثاني أعفى محمد رجاله من الصوم المطلوب للحفاظ على قواهم[٥]. كان وقت رد فعل محمد بطيئاً مقارنة بمعدل حركة قافلة أبي سفيان، ولم تكن لديه فرصة للوصول إليها في الوقت المناسب من خلال استخباراته التكتيكية. لا يوجد دليل في المصادر يشير إلى أن محمداً قد أُبلغ في أثناء سيره بموقع القافلة المكية، وهذا يشير إلى أنه لم يقرر بعد أين سيهاجمها.

كان أبو سفيان وحراس قافلته في حالة تأهّب، وأدى اكتشاف

---

(٤) انظر أيضاً:

Ibn Ishaq, *The Life of Muhammad: A Translation of Ibn Ishaq's Life of Muhammad*, translated by Alfred Guillaume (Oxford: Oxford University Press, 1967), p. 293.

(٥) Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet*, p. 45,

معتمداً على رواية الطبري في: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٩ - ١٩٠١).

الجواسيس المسلمين في دمشق إلى توخي الحذر. ربما لاحظ أعداء محمد في المدينة حشده لقوته بالطريقة العامة المعتادة، وكان أعداؤه على أتم الاستعداد لإبلاغ أهل مكة. عندما اقترب من الحجاز أرسل أبو سفيان كشافته لرصد أي نشاط للعدو. استجوب الكشافة كل شخص وراكب واجهوه لمعرفة أخبارٍ عن محمد ورجاله، وفي وقتٍ ما صادفوا بعض البدو الذين أخبروهم أن محمداً قد غادر المدينة وكان في مكان ما في المنطقة، وزعموا أنهم لا يعرفون موقعه بالضبط. قد نفترض، على الرغم من صمت النصوص التاريخية، أن تقارير حركة محمد كانت مصحوبة أيضاً ببعض التقديرات المتعلقة بحجم القوة الإسلامية، والتي كان أبو سفيان بوصفه قائداً متمرساً قد فهم على الفور أنها أكبر بكثير من حراس قافلته المكونين من أربعين رجلاً. قرر أبو سفيان إرسال أحد رجاله على جمل إلى مكة على بعد ثلاثمئة ميل تقريباً إلى الجنوب لدق ناقوس الخطر والطلب من المكيين حشد قوة كبيرة لإدراكه وإحباط هجوم محمد. كان بوسع جملٍ سليم وراكب متمرس قطع المسافة إلى مكة في أقل من أربعة أيام. وقد يستغرق المكيون عدة أيام أخرى على الأقل، ربما حتى أسبوع، لحشد قوة من تسعمئة إلى ألف رجل. إن تحريك قوة بهذا الحجم إلى نواحي المدينة على بعد أكثر من مئتي ميل من شأنه أن يستغرق عشرة إلى اثني عشر يوماً أخرى. من الناحية العملية، كان أبو سفيان بمفرده ولا يمكن أن يتوقع أن تصل المساعدة المكية إليه في الوقت المناسب.

كان طريق محمد إلى بدر، كما وصفه ابن إسحاق، ملتوياً وغير مباشر. يتضح من رواية ابن إسحاق أن محمداً لم يكن على دراية بالمنطقة ويبدو أنه اضطر إلى توظيف بدو على طول الطريق لإرشاده. ربما كان هؤلاء البدو هم الذين أخبروه عن بدر، على الرغم من أن تجربة محمد السابقة مع القوافل ربما جعلته بالفعل على علم بالمكان. كانت بدر قرية متوسطة الحجم فيها آبار كبيرة، وتقع على جانب الطريق الرئيس للقوافل، ومحطة للقوافل، لذلك كان لدى محمد كل التوقعات المعقولة بأن قافلة أبي سفيان ستتوقف عندها. تمر الطريق المؤدية إلى بدر من سوريا بحلقة الجبال التي تحيط بالسهل حيث كانت البلدة في الشمال الغربي. لم يكن محمد على علم بموقع المكيين، وعندما اقترب من شرق بدر أرسل اثنين من رجاله لاستكشاف القرية. دخل الكشافة المسلمون القرية وتوقفوا لسقي جمالهم عند أحد الآبار، هنا سمعوا امرأتين من المنطقة

تتوقعان وصول قافلة مكية من دمشق في اليوم التالي. حقق القرويون أرباحاً جيدة من خلال تزويد القوافل المارة بالمؤن، لذلك لم يكن مستغرباً أن تكون أخبار القافلة قد وصلت بالفعل إلى بدر، ونقل الكشافة الخبر لمحمد.

انطلق محمد ومجموعة صغيرة لاستكشاف المنطقة، وصادفوا بدوياً عجوزاً، كما يخبرنا النص، كان يعلم أن المكيين قد حشدوا وغادروا مكة متجهين شمالاً نحو المدينة. لم يكن محمد قد حدّد موقع القافلة وأصبح عليه الآن أن يتعامل مع قوة الإمداد المكية التي تقترب أيضاً. كانت معرفته بطريق القوافل والمسافات تسمح له بحساب موقع ووقت وصول تلك القوة تقريباً. ويبدو أنه خلُص إلى أن لديه وقتاً كافياً لتنفيذ هجومه على القافلة قبل أن يضطر إلى التعامل مع القوة القادمة من مكة. ومع ذلك، ظلت هناك مشكلة رئيسة، وهي استعداد ٢٣١ من قوات الأنصار للقتال. في بيعة العقبة تعّهد الأنصار بالولاء لمحمد وحمايته. يخبرنا ابن إسحاق أنهم «حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه»[٦]. كانت المشكلة بالنسبة إلى محمد هي هل سيقاتل الأنصار أو يعودون إلى ديارهم؟ والمدد المكي في طريقه إليه، فجمعهم وطرح السؤال عليهم مباشرة، وعندها تعهد زعيمهم بولاء المجموعة قائلاً: «وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء»[٧]. غيّر محمد اتجاهه ليضع نفسه عند رأس الممر التي تعبر من خلالها القوافل إلى سهل بدر من الشمال الغربي، وهنا كان ينوي نصب كمين لأبي سفيان وقافلته.

فشلت كشافة أبي سفيان في تحديد موقع المسلمين. ربما كان محمد ورجاله لا يزالون يقتربون من التلال المحيطة ببدر من الشرق ولم يشقوا طريقهم بعد إلى موقع الكمين. في هذه الأثناء، توقفت القافلة المكية على مسافة قصيرة من المدخل الشمالي؛ حيث تشعّب الطريق. ربما كان أبو سفيان يفضّل التوقف عند بدر، لكنه كان قائداً ميدانياً متمرساً وكان يعلم أن

---

(٦) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, Ibid., p. 294.

(٧) المصدر نفسه.

بدراً كان المكان البدهي للكمين. قرر أبو سفيان استكشاف آبار بدر بنفسه؛ فإذا كانت هناك أي علامة على وجود رجال محمد داخل حلقة التلال التي تحيط ببدر، فسيتحرك أبو سفيان باتجاه الجنوب الغربي على طول الطريق الساحلي ويتجاوز بدر بالكامل.

عند آبار بدر سأل أبو سفيان بعض القرويين عن رؤية أي غرباء، فأخبره رجل عجوز أن اثنين من الجمال توقفا منذ وقت قصير لملء قربهم بالماء. كان هؤلاء، بالطبع، من كشافة محمد الذين وصلوا في وقت سابق من اليوم في مهمة استطلاعية مماثلة. توقيت الحادثين يسمح لنا أن نستنتج أن محمداً كان لا يزال على طريق شرق - غرب المؤدية إلى بدر ولم يبدأ بعد في التحرك نحو موقع الكمين. كان المكيون والمسلمون يبتعدون عن بعضهم مسافة لا تزيد على أميال قليلة، غير قادرين على تحديد موقع بعضهم. مشى أبو سفيان إلى حيث سقى المُسلمان جمليهما «فأتى أبو سفيان مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففتّه، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب»[٨]. تعتاش إبل البدو من الرعي، أما في المدن والواحات (مثل المدينة) فتتغذى على النوى والدقيق. كشفت الأبعار لأبي سفيان أن تلك الإبل تعود إلى رجال محمد. كما أدرك أن القوة المسلمة كانت قريبة وذلك لوجودهم عند آبار بدر قبل ساعات قليلة، ولربما في مكان ما وراء حلقة الجبال المحيطة. عاد أبو سفيان بسرعة إلى حيث أوقف القافلة وأمرها بأخذ مفترق الطرق الغربي والسير على الطريق الساحلي، وحثها على المسير ليومين وليلتين حتى وصل إلى بر الأمان بعيداً جنوب بدر. بعد ابتعاده عن الخطر، أرسل أبو سفيان راكباً لإبلاغ الجيش المكي القادم بأنه قد نجا بالعير ولم يعد من الضروري الاستمرار في التحرك شمالاً، واقترح عليهم أن يرجعوا إلى مكة.

لكن من دون علم أبي سفيان، تحرك الرتل المكي بسرعة أكبر مما كان متوقعاً بحيث مرّت كل مجموعةٍ من المجموعتين - قوة الإغاثة المكية والقافلة - بالأخرى، إحداهما تتجه جنوباً والأخرى شمالاً على طرق متوازية تفصل بينهما نحو خمسة أميال. بحلول الوقت الذي وصل فيه رسول أبي سفيان إلى الجيش المكي كان الجيش بالفعل شمال القافلة وعلى بعد ثلاثة أميال فقط

(٨) المصدر نفسه، ص٢٩٥.

جنوب بدر. وصل محمد الآن إلى موقع الكمين ولكنه حينئذ عَلِمَ أن القافلة قد أفلتت. في الوقت تقريباً نفسه، وصل الجيش المكي إلى مدينة بدر وأُرسل السقاة لتحديد مواقع الآبار وملء قِرب المياه الخاصة بهم. ولأن القافلة بعيدة المنال، وجه محمد انتباهه إلى تحديد موقع الجيش المكي.

أرسل محمد فرقة استطلاع صغيرة إلى بدر، حيث اصطدموا بسقاة قدموا للتزود بالماء، وأخذوا منهم أسيرين. على الرغم من أن النص لا يذكر شيئاً عن ذلك، فإنه يفترض أن السقاة الآخرين قد هربوا للعودة إلى المخيم المكي وقرع ناقوس الخطر بأن المسلمين كانوا بالفعل في بدر. تعرض الأسيران المكيّان للضرب وأبلغا آسريهما أنهما جزء من جيش مكي خارج القرية. ظن المحققون المسلمون بأنهما جزء من قافلة أبي سفيان فقاموا بضربهما مرة أخرى حتى تدخّل محمد فأخبره الأسيران بأن الجيش المكي «وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى والكثيب: العقنقل». سأل محمد عن عدد الرجال المكيين، ولم يستطع الأسيران إلا الإجابة «بالكثير». باستخدام معرفته بالخدمات اللوجستية للقوافل، وسؤاله لهما عن عدد الوحوش [الجمال] التي يذبحونها كل يوم، وإجابتهما بأنها تسعة أو عشرة، استنتج محمد أن القوة المكية «ما بين التسعمئة والألف».

عرف محمد الآن مكانَ القوة المكية وعددها، وسأل الأسرى عن أسيادهم. ذكر السقاة أسماء سبعة عشر من سادة مكة، فلما سمع هذا محمد فرح وقال لجنده: «قد رمتكم مكة بفلذات أكبادها». تشير الاستعارة إلى تضمّن الجيش المكي أهم قادة مكة. قد يتخيل المرء أن محمداً لم يصدق حظه، فقد كان يخوض حرباً سياسية، وهنا حشد العدو أهم قادته في مكان واحد، فلو تمكن من الاشتباك مع المكيين وهزيمتهم في بدر وقتل الكثير من ساداتهم، فإنه سيشلّ قريشاً ويزيل المعارضة الأساسية لحركته. كانت مقولة قديمة لقوات حرب العصابات في فييتنام مفادها أنه «لقتل النمر، عليك أولاً أن تخرجه من مخبئه». وفر الحظ ظروفاً أغرت القيادة المكية بالخروج من معقلها، ما أدى إلى تعرضها لهجوم، وكان محمد مصمماً على استدراجهم إلى المعركة.

وصل رسول أبي سفيان إلى الجيش المكي ليخبرهم بزوال الخطر عن القافلة وعدم الحاجة إلى القتال. كان للكثير من المكيين أقارب وحتى أبناءَ

أسلموا ولم يكونوا ميّالين إلى فكرة قتال أبناء عشيرتهم إذا لم يكن ذلك ضرورياً. كانت النتيجة نقاشاً حاداً بين زعماء العشائر في الجيش المكي؛ حيث رغب البعض في العودة إلى مكة ورغب آخرون في البقاء والقتال. في النهاية رفضت ثلاث عشائر المشاركة في أي قتال مع أقاربها المسلمين وعادت إلى ديارها. بأعداد تقريبية، ربما قلّل هذا من قوة المجموعة المكية بنحو ثلاثمئة رجل، وبقي ما يقرب من ستمئة إلى سبعمئة جندي مقاتل في الميدان. ومع ذلك، كان لدى الكثير من الذين بقوا تحفظات جدية بشأن الحاجة إلى سفك دماء أقاربهم. حتى عتبة وشيبة، ابنا ربيعة الذي قُتل مولاه عبد الله بن الحضرمي في نخلة، اعترضا بشدة على إراقة الدماء. في الواقع، كان أحد أبناء عتبة نفسه في صفوف المسلمين. لكن متطلبات الشرف والثأر كانت قوية جداً، وعندما ذَكّر الآخرون عتبة وشيبة بأن واجب الثأر الواقع على والدهما هو أيضاً دينٌ عليهما ظلّا على مضض مع المكيين.

كانت الدوافع النفسية للجنود المكيين مختلفة عن دوافع المسلمين. دخل الكثير من المكيين المعركة مع تحفظات جدية. كانت إراقة دماء الأقرباء في العشيرة من دون سبب جدي أمراً شائناً. ومع ذلك، فإن عرف الثأر سحبهم في الاتجاه المعاكس. من المعقول أن نستنتج أن روح المكيين القتالية كانت منخفضة حتى قبل بدء المعركة. وفي المقابل، كانت الروح القتالية الإسلامية عالية. تبنّى رجال محمد المجتمع الديني الجديد كبديل عن ولائهم للعشيرة والأقارب، وفعلوا ذلك بحماسة صادقة، وألهب المسلمون إيمانهم بالجنة كمكافأة على جهادهم من أجل الدين. كما كان لديهم القليل من التحفظات حول الاضطرار إلى محاربة أفراد عشيرتهم السابقين الذين، في أذهانهم، كانوا مشركين ومحكوماً عليهم بالجحيم. على المستوى الإنساني، كان لدى الكثير من رجال محمد استياء شديد من رجال قريش؛ لقد أجبروا على الفرار من منازلهم، وتعرض بعضهم للتعذيب، وتحوّل معظمهم إلى الفقر دون أي وسيلة لكسب العيش في المدينة، وفرّق بين بعضهم وزوجاتهم وأطفالهم - كل ذلك بسبب اعتناقهم الإسلام. كان غضب الكثير من المحاربين المسلمين في ساحة الحرب ببدر من معذبيهم المكيين كبيراً وكانوا متحمسين للثأر. عندما حان وقت القتال، أثبتت الروح المعنوية المتفوقة للمسلمين أنها حاسمة في نتيجة المعركة.

جعلت الآبار والمراعي الكافية من قرية بدر مكاناً ممتازاً لتوقف القوافل. أقيم هناك أحد الأسواق التجارية السنوية، وربما كان للقرية معبودٌ صغيرٌ يشبه إلى حدٍّ ما تلك التي كانت حول الكعبة في مكة، ولكن ليس من الذي يُحجّ إليه. كانت القرية نفسها تقع على سهل بيضاوي الشكل يبلغ طوله نحو خمسة أميال ونصف وعرضه أربعة أميال محاطة بالجبال. يتم الوصول إلى سهل بدر من خلال أحد الطرق الثلاثة التي تمر عبر ممرات جبلية؛ ربط **أحدها** مدينة بدر بسوريا وكان من الشمال الغربي، **وآخر** يصلها بالمدينة من الشرق، **والثالث** بمكة من خلال ممر بين الجبال من الجنوب. تبعد بدر عشرة أو اثني عشر ميلاً عن البحر الأحمر، وكان هذا الطريق الممتد بين البحر والجبال المحيطة ببدر على جانبها الغربي هو الذي استخدمه أبو سفيان لتجاوز القرية وتجنب كمين محمد. كانت الأرض حول القرية صخرية تتناثر عليها الحصى، ما جعلها صلبة على أقدام الجمال اللينة(٩). إلى الغرب، بالقرب من الجبل الأسفل، اخترقت الأرض كثبان رملية صعّبت من تحركات الجنود. خيّم المكيون على بعد نحو ثلاثة أميال إلى الجنوب. كان محمد ورجاله يخيمون على طول الطريق الشمالي الغربي عبر الجبال بالقرب من موقع الكمين. الآن عَلِم كل طرف بمكان الآخر.

أخذ محمد زمام المبادرة وتحرك عبر الممر الجبلي ليتحكم بالسهل. تحرك بسرعة إلى وسط السهل واحتل أقرب الآبار وأمر بالتوقف. هنا نرى محمداً عشية المعركة لأول مرة في قيادة مجموعة كبيرة من القوات. كانت معرفته بالتكتيكات قليلة، وبدلاً من التحرك جنوباً والاستيلاء على جميع الآبار، ترك البعيدة منها حيث يمكن استخدامها من قبل المكيين عند وصولهم. الماء هو الحياة في الصحراء، وكانت حاجة الجيش المكي الأكبر حجماً إلى الماء أكثر من حاجة جيش محمد، وكان عدم إدراك هذا خطأً تكتيكياً خطيراً من محمد وعكس حاجته إلى مزيد من الخبرة العسكرية.

---

(٩) Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet*, p. 27, معتمداً على رواية ابن هشام. انظر: أبو محمد عبد الملك بن هشام، **سيرة النبي**، راجع أصولها وضبط غريبها وعلق حواشيها ووضع فهارسها محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ مج (القاهرة: دار التحرير للطباعة والنشر، ١٩٦٣).

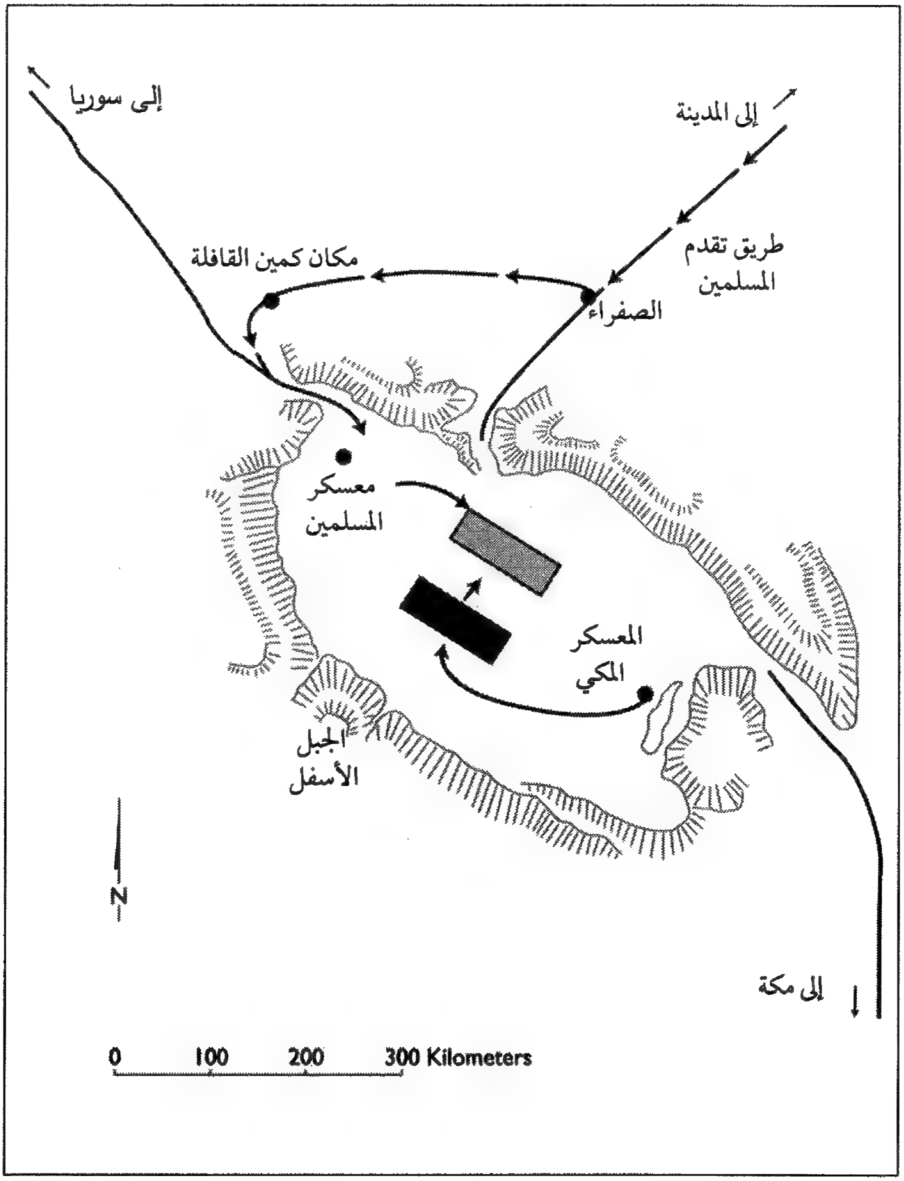

الخريطة ٦: معركة بدر ٦٢٤م

لحسن الحظ، كان أحد القادة العسكريين الأنصار، وهو الحباب بن المنذر، مع الرسول عندما أوقف الجيش ورأى الخطأ على الفور. التفت إلى محمد وسأل: «أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو

الحرب والرأي والمكيدة؟»[١٠] كانت إحدى نقاط قوة محمد كقائد سياسي وعسكري على حد سواء هي استعداده للاستماع إلى أولئك المتمرسين. لا شك في أن محمداً كانت له ثقة مطلقة بحكمه السياسي، إلا أنه كان يدرك بالتأكيد افتقاره إلى الخبرة العسكرية. أجاب محمد أن وضعه للقوات لا علاقة له بالوحي وأن هذا رأيه. اقترح ابن المنذر أنه من الحكمة المضي قدماً والاستيلاء على جميع الآبار. لا بد من أنه كان هناك عدد من الآبار الأصغر أمام موقع المسلمين، فاقترح ابن المنذر دفنها. كان من المقرر تحويل الآبار الأقرب إلى المواقع الإسلامية إلى صهريج كبير يكفي لتوفير المياه لجيش محمد. بعد ذلك، «نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون». أخذ محمد بنصيحة ابن المنذر وحرك قواته إلى الأمام لاحتلال الآبار الواقعة في أقصى الجنوب، وأمر ببناء حوض وإغلاق الآبار المتبقية، ثم قام رجاله بتعبئة القِرب حتى يحصلوا على إمدادات جاهزة من المياه عندما تبدأ المعركة.

تخبرنا النصوص اللاحقة أن محمداً «تجوّل في السهل مع بعض ضباطه»، ربما ليجد مكاناً لتموضع جيشه[١١]. وبصرف النظر عن الغارات والكمائن، كانت معظم المعارك العربية في هذه الفترة أحداثاً ثابتة لم يبذل فيها الطرفان أي جهد لعرقلة انتشار الآخر. اختار محمد موقعاً يواجه فيه رجاله الغرب والجنوب، ما يجبر المكيين على مواجهة الشرق. عادة ما كانت معارك العرب تبدأ في الصباح الباكر عندما لا تكون حرارة النهار في ذروتها بعد. أجبر اختيار محمد للموقع المكيين على القتال وهم يواجهون شروق الشمس الساطعة. كان الجيش المكي قد بدأ بالفعل في التحرك عبر الممر الجنوبي وكان ينتشر عبر السهل أمام مقدمة جيش محمد وخلف الآبار المعطلة حيث أقاموا معسكرهم. لم يقم أي من الجانبين بأي محاولة للتدخل بحركة الآخر. أرسل المكيون بعض الفرسان لاستكشاف قوة المسلمين، بحثوا في أنحاء السهل بحثاً عن تعزيزات مخفية، ولم يجدوا شيئاً، فخلصوا إلى أنهم «ثلاثمئة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون.. أكثر أو أقل بقليل... ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم»[١٢].

---

(١٠) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, *The life of Muhammad*, p. 297.

(١١) Hamidullah, Ibid. p. 33.

(١٢) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, Ibid., pp. 295-296..

في الليل بدأ الجيشان بترتيب أنفسهما للمعركة. غضب أحد الجنود المكيين لتعطيل الآبار، وربما لأن الجيش بدأ يعاني من العطش، وحاول أن يشق طريقه إلى حوض المسلمين ويشرب فلم يستطع وقُتل. جمع محمد رجاله في صفوف، وتشكل الأنصار حسب عشائرهم تحت قيادة زعمائهم. رتّب محمد قواته في وحدات من المهاجرين والأوس والخزرج، ثم قام بتفتيش القوات وصفّهم باستخدام سهم لوخز بطن أي جندي خارج الصف. ليس هناك شك في أن بعض الأنصار، على الرغم من اعتناقهم الدين فعلياً، قد جاؤوا فقط من أجل الحصول على الغنيمة(*)، كان لكل وحدة راية خاصة بها واستخدمت الجيوش العربية كلمات سر ليلاً للسيطرة على عمليات التسلل. كانت كلمات السر هذه مفيدة بالقدر نفسه خلال النهار، فلم يكن لدى الجيوش العربية في هذه الفترة زي رسمي أو معدات مميزة، لذلك كان من الصعب في كثير من الأحيان التمييز بين الصديق والعدو عند التحام المشاة. كان الجنود يصرخون بكلمة سر جيشهم عند مواجهة جندي آخر حتى يتمكن كل منهم من تحديد هوية الآخر(**).

كان أحد الميول التكتيكية لمحمد، وهو اتجاه أظهرته أيضاً الجيوش العربية اللاحقة في فترة الفتح، هو تفضيل التمركز الدفاعي. في بدر وفي معظم المعارك الأخرى التي خاضها، اختار محمد الوصول إلى ساحة المعركة أولاً، واختيار موقع دفاعي متميز، وانتظار وصول العدو إليه. في بدر اختار موقعاً يكون فيه جيشه على الحافة الخلفية لحقل من الكثبان الرملية بينه وبين المكيين حتى يضطر المكيون إلى شق طريقهم فوق الكثبان الرملية قبل الانخراط مع مشاة مقدمة الجيش. ربما كان محمد يأمل أن تُتعب الرمال الناعمة العدو وتُضعفه قبل أن يشتبك مع مشاته المرتاحين. كما اتضح، أمطرت السماء أثناء الليل جاعلةً المعسكر المكي «مستنقعاً»(١٣). ولكن من الصعب تصديق أن مخيم مكة قد تضرر بشدة. من المؤكد أن

(*) تاريخ الأنصار وسلوكهم وتضحياتهم وحضورهم مع قادتهم يثبت عكس ما ذهب إليه المؤلف (المترجم).

(**) كانت الكلمة لدى المسلمين في بدر هي: أحد أحد (المترجم).

(١٣) Hamidullah, Ibid., p. 27,

معتمداً على رواية ابن هشام، المصدر نفسه.

عاصفة ممطرة بهذا الحجم كانت لترد في رواية ابن إسحاق، ولكنه لم يذكرها. والأرجح أن أمطاراً قليلة ثبّتت الأرض تحت أقدام المسلمين على حافة الكثبان الرملية بينما تركت معظم الكثبان بين المسلمين والمكيين ناعمة في الرمال العميقة. إذا كان المكيون قد بدؤوا في المعاناة من العطش، فإن الاضطرار إلى شق طريقهم عبر الكثبان الرملية ربما يكون قد استهلك الكثير من طاقتهم قبل بدء المعركة، تماماً كما قدّر محمد عندما اختار مكانه. يخبر نص لاحق أن محمداً أمر قواته بجمع أكوام الحجارة، قنابل ذلك الزمن، لرميها على العدو. كان إلقاء الحجر سلاحاً مهماً في العصور القديمة، خاصةً بين الجيوش القبلية. يمكن للقوات المدافعة أن تجمع وترمي حجارة أكثر من العدو المتقدم الذي يضطر إلى حمل أسلحته ودروعه، ولا يمكن لأحدهم أن يحمل إلا حجراً واحداً أو اثنين فقط في المرة الواحدة(١٤).

خاطب محمد قواته قبل المعركة. يخبرنا ابن إسحاق فقط أنه قد «أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل». تقول نصوص لاحقة أن النبي خاطب جيشه بتفاصيل أكثر بكثير، وهي على غرار خطب القادة الموجودة في النصوص الكلاسيكية للغرب، حتى إن هذه الروايات جعلت محمداً يعطي تعليمات دقيقة وطويلة منها: «إذ لما اصطفوا أمر جيشه بأن لا يبدؤوا القتال حتى يأمرهم بذلك، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال: «إذا كثبوكم يعني اقتربوا منكم ـ فارموهم، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»(١٥). بالنظر

---

(١٤) Hamidullah, Ibid., p. 37.

معتمداً على رواية الواقدي في: أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، **كتاب المغازي**.

(١٥) Hamidullah, Ibid., p. 36,

معتمداً على رواية ابن هشام، المصدر نفسه.

والواضح أن المؤلف يشير الى الرواية الآتية في الجزء الخامس من **المعجم الكبير** للطبراني: «حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَابَهْرَامَ الْأَيْذَجِيُّ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّاجِ بْنِ حُسَيْنِ بْنِ السَّائِبِ بْنِ أَبِي لُبَابَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: «**كَيْفَ تُقَاتِلُونَ الْقَوْمَ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ؟**» فَقَامَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِذَا كَانَ الْقَوْمُ مِنَّا حَيْثُ يَنَالُهُمُ النَّبْلُ، كَانَتِ الْمُرَامَاةُ بِالنَّبْلِ، فَإِذَا اقْتَرَبُوا حَتَّى يَنَالَنَا وَإِيَّاهُمُ الْحِجَارَةُ، كَانَتِ الْمُرَاضَخَةُ بِالْحِجَارَةِ، فَأَخَذَ ثَلَاثَةَ أَحْجَارٍ فِي يَدِهِ وَحَجَرَيْنِ فِي حِزْمَتِهِ، فَإِذَا اقْتَرَبُوا حَتَّى يَنَالَنَا وَإِيَّاهُمُ الرِّمَاحُ، كَانَتِ الْمُدَاعَسَةُ بِالرِّمَاحِ، فَإِذَا انْقَضَتِ الرِّمَاحُ، =

إلى افتقار محمد إلى الخبرة العسكرية، فمن غير المرجح أنه كان قادراً على مخاطبة قواته بمثل هذه التفاصيل العملية. على الأرجح أن النص الأخير هو نسخة منقولة من الأحداث نفسها لإثبات براعة محمد العسكرية.

نرى قوات محمد تعمل في ظل نظام قيادة موحد في بدر، وقائد ميداني عام يتبعه الجنود ورؤساء العشائر بغض النظر عن ميولهم التكتيكية ورغبتهم في النهب وحتى اعتبارات الشرف الفردي، ففي بدر قاتلت الأمة معاً لأول مرة. كان محمد يحوّل الحرب العربية من كونها رياضة أو انتقام عشائري أو مجد فردي إلى أداةٍ لتحقيق أهداف سياسية. قصد محمد الإطاحة بقريش، لا القتال من أجل الشرف أو النهب. كان من الممكن أن يعود بأمان إلى المدينة بعد أن فشل في نصب كمين لقافلة أبي سفيان. بدلاً من ذلك، بقي في بدر باحثاً عن فرصة لجذب المكيين إلى معركة على أمل قتل قيادتهم بضربة واحدة. وهنا نشهد المثال الأول في الحرب العربية لجيش يظهر توجهاً استراتيجياً ووحدة في القيادة تحت إمرة زعيم واحد.

صعد محمد وحراسه الشخصيون إلى تلةٍ منخفضة تطل على ساحة المعركة خلف مواقع المسلمين. تم بناء عريش صغير مصنوع من سعف النخيل لمحمد. تم تقييد عدد من الجمال في الخارج لاستخدامها لمحمد ورفقائه للانسحاب إذا ساءت الأمور. مثل النبي موسى في معركة رفيديم ضد العماليق، لم يكن القائد العام في ساحة المعركة بل على تل يطل عليها. كان غياب القائد العام عن المعركة الفعلية ممارسة قديمة في الغرب، ربما كان فيليب الثاني المقدوني في معركة تشيرونيا هو أول جنرال ميداني يقود جيشه من موقع بعيد عن القتال الفعلي[١٦]. انتشرت هذه الممارسة بسرعة في صفوف الجيوش المتطورة من الغرب بحيث نجد قيصر وسكيبيو وغيرهما من القادة بالقرب من ساحة المعركة وإن لم يشاركوا في المعركة نفسها. لكن الحرب العربية كانت حرباً قبلية شارك فيها كل رجل سليم البدن. كان هذا

= كَانَتِ الْجِلَادُ بِالسُّيُوفِ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: «بِهَذَا أُنزِلَتِ الْحَرْبُ، مَنْ قَاتَلَ فَلْيُقَاتِلْ قِتَالَ عَاصِمٍ» (المترجم).

(١٦) Richard A. Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, 3 vols. (Westport, Conn., 2005), vol. 1: *From Sumer to the Persian Empire* (Westport, Conn. Greenwood,: Greenwood Press, 2005), p. 296.

صحيحاً بشكل خاص بالنسبة إلى زعماء العشائر وقادة الجيش الذين كان من المتوقع أن يسطّروا معايير الشجاعة والبراعة العسكرية في المعركة. في بدر يبدو أن محمداً قد تبنى الممارسة الغربية المتمثلة في القيادة المبتعدة. كان قد عيّن قادته التكتيكيين، واختار الموقف الدفاعي، وطور خطة تكتيكية، وتفقّد رجاله قبل أن يعود من ساحة المعركة إلى «نوم خفيف» في العريش. في أثناء عملية ماركت غاردن في الحرب العالمية الثانية عاد الجنرال السير برنارد مونتغمري إلى خيمته لينام بعد «بذل كل ما في وسعه» لإعداد جيشه للمعركة. مثل مونتغمري، ترك محمد التحكم بالقتال الفعلي لقادة الوحدات التابعة له.

«سار المكيون عند الفجر» تاركين معسكرهم داخل الممر الجنوبي وانتشروا في مواجهة صفوف المسلمين. بالطريقة العربية التقليدية، أصدر المكيون التحدي المعتاد بأن يرسل المسلمون أفضل رجالهم للانخراط في نزال فردي. تقدم ثلاثة رجال من الأنصار لمواجهة التحدي، لكنّ مكيي قريش رفضوا قبول المنافسين من المدينة، وأرادوا نزال رجال قبيلتهم الذين أسلموا قائلين: «أخرجْ إلينا أكْفاءنا من قومنا». أرسل المكيون عتبة بن ربيعة ابن الرجل الذي عليه دين الدم، والوليد بن عتبة الذي تقدم عن يسار والده، وشيبة بن ربيعة، شقيق عتبة الذي وقف إلى اليمين. أرسل محمد عمه حمزة، المحارب المعروف بالمهارة والبأس، وابن عمه وصهره للتو علي، الذي تزوج فاطمة بنت محمد(*)، والمحارب القديم عبيدة بن الحارث. لم يدم القتال طويلاً، فقد قتل حمزة شيبة وقتل علي الوليد. قام عبيدة وعتبة بطعن بعضهما لبضع دقائق حتى سقط كلاهما على الأرض بضربات شبه قاتلة. اندفع حمزة وعلي نحو عتبة الجريح وقتلاه، ثم حملوا رفيقهم الجريح من الميدان، لكن من دون جدوى. كانت ساق عبيدة مقطوعة بالكامل، ونزفت حتى الموت.

أشرقت الشمس في عيون المكيين الذين رأوا للتو ثلاثة من أفضل محاربيهم يُقتلون أمامهم. لا بد من أن الحر والعطش والخوف قد بدأت في التأثير في الروح القتالية للجيش المكي، الذي لم يكن الكثير من رجاله

(*) ذكر البخاري وغيره أن زواج علي بن أبي طالب ﷺ بفاطمة بنت رسول الله ﷺ كان بعد غزوة بدرٍ بقليل (المترجم).

متحمسين للقتال ذلك اليوم، بينما تعززت معنويات المسلمين بشكل أكبر بانتصار أبطالهم. لا تخبرنا النصوص من الذي هاجم أولاً، لكنها تخبرنا أن التحاماً شرساً من السيوف الوامضة حدث عندما اصطدم كلا الجانبين ببعضهما فقط. لم ينكسر المكيون حتى مع ضعف روحهم القتالية، وتحركت المعركة ذهاباً وإياباً، ولم يكتسب أي من الطرفين ميزة. لم يكن المكيون قادرين على استخدام تفوقهم العددي لفرض الانتصار. والغريب أنه لم يرد ذكر مشاركة سلاح الفرسان المكي الذي كان حاضراً بالتأكيد في بدر واستُخدم في وقت سابق لاستطلاع ساحة المعركة. يذكر الشعر والتقاليد الشفوية للمعركة أن سلاح الفرسان كان حاضراً، في إشارةٍ واحدةٍ إلى الفرار «برأس طِمرّة ولجام»(*)، وفي أخرى حيث يشتكي الشاعر من أن الخيول لم تكن ليُحتمى بها في أثناء القتال. سلاح الفرسان العربي، كما ذكرنا سابقاً، لم يكن ذراعاً عسكرياً حاسماً ولم ينجح في مهاجمة المشاة المنضبطين في تشكيلاتهم. مثل سلاح الفرسان في معظم جيوش العالم القديم، حلّق الفرسان العرب على الأطراف ليلتقطوا الشاردين، وينتظروا انكسار المشاة وهربهم. في هذه الحالة، يستخدم سلاح الفرسان في مطاردة وقتل الأفراد. يشير عدم مشاركة سلاح الفرسان المكي في بدر إلى أن المشاة المسلمين احتفظوا بتماسكهم واستمروا في القتال كوحدة منظّمة، تماماً كما كان محمد يأمل أن يفعل أعضاء أمته، كما يشير إلى نجاح فكرة محمد للقيادة الموحدة للجيوش الإسلامية.

ربما كانت معركة بدر متساوية بعض الشيء، لأن محمداً ترك عريشه على التل بعد احتدام القتال لبعض الوقت (لا نعلم كم من الوقت من خلال أي من النصوص)، وحرّض أتباعه بقوله: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة». كان الوعد بالحياة الأبدية في الفردوس جديداً على الفكر العربي كما كان بالنسبة إلى المصريين الأوائل الذين ربما كانوا أول من تصور الإيمان بالقيامة والخلود، وللنصارى الذين يبدو أنهم تبنوا هذه الأفكار في

(*) من شعر حسان بن ثابت: تركَ الأحبّةَ لم يقاتلْ دونهم ونجا برأسِ طِمرَّةٍ ولجامِ. والطمرة هي الخيل الوثابة، من الطمور وهو الوثوب (المترجم).

عقائدهم[١٧]. ربما لا يقدّر المؤمنون المعاصرون الذين اعتادوا منذ فترة طويلة على هذه الفكرة مقدار جاذبيتها للأشخاص الذين لم يتصوروا شيئاً من هذا القبيل. كان وعد محمد بالجنة جديداً تماماً على العقائد العربية، وكان قوة تحفيزية جبارة لجنوده.

ربما ترك محمد عريشه لحشد قواته لأن الأمور كانت تسير على نحو سيئ أو لأن المسلمين ـ على الرغم من احتفاظهم بمواقعهم ـ تعرضوا لضغوط شديدة بسبب الأعداد المكية الأكثر. يسجل ابن إسحاق أنه بعد أن خاطب محمد قواته تحرك جندي ورمى ما كان معه من التمر (لا بد أن هناك هدوءاً في المعركة) وعاد مرة أخرى إلى القتال، وتخلص آخر من دروعه وانغمس في المعركة وقاتل حتى قُتل. توقف محمد عن الكلام، والتقط حفنة من الحصى وألقى بها على العدو، ثم أمر رجاله بالهجوم. تقول الرواية حينها (لكن النصوص الأصلية لا تدعمها) بأن ريحاً هبّت تدفع الرمال الجافة في وجوه المكيين. صدمة هجوم المسلمين حطمت روح المكيين الذين استداروا وفروا. وصف جندي مكي قاتل في بدر فيما بعد هروب قواته في قصيدة:

وَلَـمّـا أَنْ رَأَيـتُ الْـقَـوْمَ خَـفّـوا ... وَقَـدْ شَـالَـتْ نَـعَـامَـتُـهُـمْ لِـنَـفْـرِ
وَأَنْ تُـرِكَـتْ سَرَاةُ الْقَوْمِ صَرْعَى ... كَـأَنّ خِـيَـارَهُـمْ أَذْبَـاحُ عِـتْـرِ
وَكَـانَـتْ جُـمّـةً وَافَـتْ حِـمَـامـاً ... وَلُـقّـيـنَـا الْـمَـنَـايَـا يَـوْمَ بَـدْرِ(*)

لم يستطع محمد ملاحقة المكيين لعدم وجود سلاح فرسان خاص به، وسمح لبقايا الجيش المكي بالعودة منكسرين إلى معسكرهم من دون مضايقة.

بالنظر الى عدة مصادر، فقدَ المكيون ٤٩ أو ٧٠ رجلاً وأُسر نحو العدد نفسه، أي خسارة خُمس إجمالي القوة. وفقاً لمعايير الضحايا العربية

---

(١٧) لمعرفة المزيد عن المصادر المصرية للعقائد المسيحية عن القيامة والخلود، انظر: Richard A. Gabriel: *Gods of Our Fathers: The Memory of Egypt in Judaism and Christianity* (Westport, Conn.: Greenwood Press, 2002), and *Jesus the Egyptian: The Origins of Christianity and the Psychology of Christ* (New York: iUniverse Press, 2006).

(*) هو من شعر معاوية بن زهير بن الحارث حليف بني مخزوم، وعتر هو الصَّنَمُ الذي يذبح له في رجب (المترجم). انظر أيضاً: Ibn Ishaq, *The life of Muhammad*, p. 355.

التقليدية، كان هذا الرقم هائلاً، ومن الجلي أن المكيين عانوا من هزيمة كبيرة. فَقَد الجيش المحمدي أربعة عشر رجلاً ولم يسجل عدد الجرحى. إذا افترض المرء عدداً متساوياً من الجرحى والقتلى، فإن المسلمين عانوا من خسارة قتالية كليّة بلغت نحو عُشر الجيش. لا شيء يكشف الطبيعة المتغيرة للحرب العربية في بدر أكثر من الطريقة التي عومل بها الأسرى المكيون. كانت الرحمة والفدية التي ميزت الحرب التقليدية في شبه الجزيرة العربية لقرون غائبة تماماً هناك. تم قطع رؤوس عدد من السجناء على أيدي رجال حملوا لهم كُرهاً شخصياً. في إحدى الحالات قطع أب قدم ابنه الذي كان يقاتل مع المكيين(١٨). أعدم سجناء آخرون من دون سبب واضح؛ «فهبروهم بأسيافهم حتى فرغوا»(١٩). تتضح الحماسة الأيديولوجية للمسلمين عندما نتذكر أنهم كانوا يقتلون أفراد عشيرتهم، رجالاً كانوا من الأقرباء وأحياناً أفراد الأسرة. لقد جلب محمد شدةً وفتكاً جديدين إلى الحرب العربية.

مهما كانت القيمة العسكرية لانتصار المسلمين في بدر، فإنه كان بنظر محمد انتصاراً **سياسياً** استراتيجياً أولاً وقبل كل شيء. لقد قَتل كل القادة المكيين الذين سقطوا بين يديه. في إحدى الحالات، أمر محمد بالبحث في ساحة المعركة عن أبي جهل، زعيم عشيرة بني مخزوم، وأحد المعارضين الأوائل له. كان أبو جهل صديق طفولةٍ لمحمد، لكنه انقلب عليه فيما بعد. عُثر على أبي جهل مصاباً بين كومة من الجثث المكية، وعند اقتياده سخر من آسره فقُطعت رأسه على الفور وأحضرت لمحمد. قال الجندي: «يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل»، فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟»، فردّدها ثلاثاً، ثم قال: «الله أكبر، الحمد لله». أمر محمد رجاله بحفر حفرة كبيرة ألقيت فيها جثث المكيين ودُفنت فيها. وبينما كانت الجثث تُلقى في الحفرة، وقف محمد على شفتها وقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً. فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قوماً موتى؟ فقال لهم: لقد علموا أنّ ما وعدهم ربهم حقّ».

في طريق عودته إلى المدينة، انتهز محمد الفرصة للانتهاء من قضايا

---

(١٨) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, Ibid., p. 303.

(١٩) المصدر نفسه.

قديمة أخرى. لم يُقتل كل السجناء، وكان أحد هؤلاء النضر بن الحارث، الذي كان يلاحق محمداً في شوارع مكة يسخر منه ويقول للناس إن لديه قصصاً صحيحة مثل روايات محمد! عندما قيل لمحمد إن الذي كان يسخر منه أصبح الآن أسيره طلب إحضاره أمامه، ثم أمر علياً بقطع رأس الرجل. في وقتٍ لاحق من الرحلة، أُحضِر رجل آخر، وهو عقبة بن أبي معيط، أمام محمد، وحاول النجاة بحياته صارخاً: يا محمد من للصبية؟ أجاب محمد ببرود: النار! يمكن تفسير بعض سلوكيات محمد على أنها ردٌّ خالصٌ على الإهانات الشخصية التي تعرض لها سابقاً. لكن معظم عمليات الإعدام لم تكن إلا قتل سياسي لحرمان المكيين من قيادتهم وإضعافهم استراتيجياً. وقد تم القتل على نحو هادئ ونُفِّذت على أساس الأيديولوجيا والنفع السياسي. يبدو أن محمداً نفسه فهم هذا بالضبط. فعندما دخل جيش المسلمين المدينة، تقدم إليه بعض الناس وهنّؤوه بالنصر في بدر، أبعدهم علي جانباً بقوله: «ما الذي تهنئوننا به؟ والله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعلقة فنحرناها»، فتبسم رسول الله ثم قال: «أي ابن أخي، أولئك الملأ»(*). يكشف هذا الحوار عن فهم محمد الواضح للطبيعة السياسية للحرب كما يقوم بها المتمردون، وهو أمر مختلف تماماً عن الحرب التي اعتادها العرب.

حدثان مهمان أعقبا معركة بدر: **الأول** إصلاح محمد لقوانين الزواج، وهجومه الأول على القبائل اليهودية في المدينة. ربما كان إصلاح قوانين الزواج استجابة للعدد الكبير نسبياً من الذكور المسلمين الذين قتلوا في بدر. لسنا متأكدين إن كان السبب هو أن العدد الأكبر من القتلى قد تحمله المهاجرون، ما يعني ترك عدد كبير من الأرامل والأيتام من دون معيل. بعد فترة وجيزة من معركة بدر أوحي للنبي إصلاح العادات العربية التقليدية التي تحكم الزواج. جاء التقرير في القرآن الكريم في سورة النساء، الآية ٣: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. لم يكن محمد يضع حداً لبعض الممارسات العربية السابقة في تعدد الزوجات غير المحدود كما يُعتقد أحياناً. على العكس من ذلك، كان

(*) الرواية عند ابن هشام، وهي عن سلمة بن سلامة، وليست عن علي ﷺ. ولربما اختلط على المؤلف لفظ «ابن أخي»، وهي من كلام العرب للتحبب لمن هو أقل سناً (المترجم).

يشجع الرجال الذين لديهم زوجة واحدة على الزواج حتى أربع. لم يكن أمر محمد تقييداً لممارسة قديمة، بل كان إدخالاً لممارسة جديدة تماماً[(٢٠)].

كان الحافز الفوري لإصلاحات محمد لقوانين الزواج هو الحاجة إلى إيجاد أزواج وآباء لزوجات وأطفال الرجال الذين قُتلوا في بدر. أدت الخسائر في بدر إلى زيادة حدة المشكلة التي ابتليت بها المجتمعات العربية لعدة قرون. مع وفيات الذكور التي عانت منها المجتمعات في الغارات والمعارك الشخصية، والمرض، ومعدلات بقاء الأطفال الإناث المرتفعة بشكل عام، فمن المرجح أنه كان هناك دائماً فائض من الإناث في الجزيرة العربية. تم كبح الفائض إلى حدٍّ ما من خلال الممارسة البدوية القديمة لوأد الإناث في أوقات المجاعة. ومع ذلك، فإن معضلة كيفية رعاية المرأة بشكل عام والأرامل والأيتام على وجه الخصوص هي مشكلة مزمنة. كان هذا أحد أسباب «تزويج» فتيات قصّر لرجال أكبر سناً وَعدوا برعايتهن. يتزوج الرجال في كثير من الأحيان من الأرامل واليتيمات مقابل مهرهن أو ممتلكاتهن التي تركها الزوج السابق، ثم يعاملوهن بسوء ويسرقون أموالهن، وترك هذا الأرامل والأيتام في حالة أسوأ من ذي قبل[(٢١)]. إصلاحات محمد، التي منعت أيضاً وأد البنات، شرّعت لتصحيح هاتين المشكلتين بالسماح للرجال بأن يكون لهم ما يصل إلى أربع زوجات، ولكن بشرط أن يُعامل جميع الزوجات والأطفال معاملة عادلة ومنصفة. مع ذلك، كانت الخسائر في بدر هي التي دفعته إلى إعلان هذه الإصلاحات.

الحدث الرئيس **الثاني** الذي تلا معركة بدر بسرعة هو هجوم محمد على بني قينقاع، وهم إحدى القبائل اليهودية في المدينة. كانت النتيجة المباشرة لانتصار بدر زيادة هائلة في هيبة المسلمين ومعنوياتهم. لا أحد يستطيع أن ينكر أنهم هزموا المكيين في معركة مفتوحة، ما أسفر عن مقتل الكثير من قياداتها وأخذ الأسلحة والدروع والجمال كغنيمة. المسلمون محقون عندما يعتبرون معركة بدر أهم حدث عسكري في تاريخ دينهم، فلو

---

(٢٠) W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956), p. 274.

(٢١) المصدر نفسه، ص٢٧٥ ـ ٢٧٦.

خسروا في بدر فلربما انهارت الحركة الإسلامية. وهو في نظر المسلمين دليل على رضى الله، ويسمى «يوم الفرقان». ينظر المسلمون إلى النصر في بدر على أنه يعادل تدخل الله لإنقاذ شعبه المختار من خلال شق البحر الأحمر حتى يتمكن موسى وبنو إسرائيل من الهرب من فرعون. بالنسبة إلى الكثيرين في ذلك الوقت، أكد الانتصار في بدر أو «أثبت» ادعاء محمد بأنه رسول الله، ما أدى إلى زيادة اعتناق الإسلام وكثرة أتباعه. كان الأمر الأكثر أهمية لقرار محمد بالتحرك ضد يهود المدينة هو حقيقة أن أعداداً كبيرة من قبائل الأوس والخزرج اعتنقوا الإسلام، ومن ثم تخلوا عن تحالفاتهم السابقة مع القبائل اليهودية.

تحرك محمد بسرعة لتوطيد سلطته في المدينة. اشتهر بكراهيته للشعراء فأمر على الفور بالتخلّص من اثنين هما أسماء بنت مروان المتزوجة ولديها خمسة أطفال، ورجل يدعى أبو عفك، قتلا بأمر من محمد(*). هنا نرى اغتيالات لغايات سياسية. كانت عمليات القتل هذه سياسية نُفِّذت لأسباب أيديولوجية أو للثأر الشخصي. اعتقد محمد أنه كان يقوم بما أراده الله، وكان يجب القضاء على كل من عارضه أو عارض الدين. إن السماح للشعراء أو أي شخص آخر بالسخرية منه أو السخرية من أيديولوجية الإسلام الجديدة كان بمثابة تقويض للسبب الرئيس الذي جعل محمداً يقود التمرد. لكن في الوقت نفسه، وظف محمد شعراءه لنشر دعايته بين القبائل، ومن هؤلاء حسان بن ثابت. عندما سأله محمد عن إمكانية الدفاع عنه من هجوم أعدائه قائلاً: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»، فقال حسان: «أنا لها يا رسول الله»، وأخذ بطرف لسانه، ورد النبي: «والله ما يسرني به مِقْول بين بُصرى وصنعاء»[٢٢].

انقلب محمد الآن على اليهود في المدينة، لقد أصبحوا معادين بشكل متزايد لادعاءاته بأنه نبي، وسخروا منه علانية، وواجهوه بحجج لدحض مزاعمه. كان هناك عدد قليل ممن اعتنق الإسلام من اليهود، وكان بإمكان القبائل اليهودية الثلاث، إن اجتمعت، تشكيل قوة مسلحة هائلة ضده. من

(*) قتل أسماء أو عصماء ورد في حديث موضوع لا يصح (المترجم).

(٢٢) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 196.

بين القبائل اليهودية، وهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع، قيل إن الأخيرة وحدها لديها ثلاثمئة جندي مع دروع وأربعمئة من دون دروع(٢٣). العشيرتان اليهوديتان الأخريان كانتا إما أكبر من حيث الأعداد المطلقة أو كانت لديهما تحالفات أقوى مع قبائل الأوس والخزرج العربيتين، ما جعلهما أقوى من أن يهاجمهما محمد، ويبدو أنه اختار مواجهة أضعف القبائل اليهودية. كان بنو قينقاع صاغة وصانعي دروع ولا يملكون مزارع، وكانت لديهم حصونهم السكنية الخاصة وسوق صغير حيث كانوا يتاجرون ويبيعون بضائعهم.

كان السبب المباشر لقطع الصلة مع اليهود هو مشاجرة حدثت في سوق بني قينقاع وتضمنت نوعاً من البذاءة في حق امرأة مسلمة. تورط كل من حمزة وعلي في الحادثة، وهما من أقرب أصحاب الرسول، ولذا قد يُظن أن الاستفزاز كان متعمداً(*). رد اليهود على التهديد بتسليح رجالهم والانسحاب إلى أحيائهم المحصنة في انتظار هجوم مسلم. كان لدى بني قينقاع تحالفات مع عشائر الأوس والخزرج وتوقعوا منهم المساعدة ضد محمد، لكن معظم عشائر كلتا القبيلتين العربيتين قد تحولت بالفعل إلى الإسلام وأوضحت أن ولاءاتها الجديدة أبطلت تعهداتها السابقة. مع انعزالها وعدم وجود إمكانية مساعدة عسكرية استسلم بنو قينقاع بعد حصار استمر أسبوعين لم يشهد خلاله قتال ولم تقع إصابات في أيٍّ من الجانبين.

السؤال الآن: ماذا سيفعل باليهود؟ توحي رواية ابن إسحاق أن محمداً أراد قتلهم. ذهب إلى محمد زعيم عشيرة خزرجية هو عبد الله بن أبي(**)،

---

(٢٣) Watt, Ibid., p. 195.

(*) لم يذكر مؤرخو السيرة في أسباب تلك الغزوة إلا سببين أساسيين، ذكر المؤلف أحدهما ولم يذكر الآخر، وهو الحالة العامة التي حاول أفراد بنو قينقاع نشرها في المدينة من تقزيم الإنجاز البدري، والاستهتار بعهود موثّقة كانت بينهم وبين النبي ونقضها. يقول ابن الأثير في الجزء الثاني من **الكامل في التاريخ**: «لما عاد رسول الله ﷺ من بدر، أظهرت يهود له الحسد بما فتح عليه، وبغوا ونقضوا العهد، وكان قد وادعهم حين قدم المدينة مهاجراً. فلما بلغه حسدهم جمعهم بسوق بني قينقاع، فقال لهم: احذروا ما نزل بقريش وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل. فقالوا: يا محمد! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة» (المترجم).

(**) هو عبد الله بن أبي بن سلول الأزدي من قبيلة الخزرج وأحد قادتها، ورد في سيرة النبي محمد ﷺ كشخصية معادية للإسلام ومهادنة له ظاهرياً ولذلك لقبه المسلمون بكبير المنافقين، وقيل إنه كان على وشك أن يكون سيد المدينة قبل أن يصلها النبي ﷺ. يجزم المؤرخون المسلمون أنه بموت عبد الله بن أبي انحسرت حركة النفاق بشكل كبير، وتراجع بعض أفرادها فيما بقي البعض الآخر على =

وكان زعيماً مؤثراً في المدينة ورجلاً معروفاً بعقلانيته. كان ابن أبي قد اعتنق الإسلام، وتوسل إلى محمد أن يرحم بني قينقاع الذين كانوا حلفاءه في السابق. في حروب الخزرج مع الأوس، وقف يهود بني قينقاع إلى جانب عشيرته، ولربما أنقذ أحدهم حياة ابن أبي في معركة. قال ابن أبي للرسول: «يا محمد، أحسن في مواليَّ»، فأبطأ عليه رسول الله، فقال: «يا محمد، أحسن في موالي»، فأعرض عنه، فأدخل يده في ثوب رسول الله وجذبه بقوة، فغضب النبي حتى احمر وجهه وقال: «أرسلني»، فقال له: «لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني امرؤ أخشى الدوائر». كلمات عبد الله لمحمد «تحصدهم في غداة واحدة» تشير إلى أن محمداً خطط لإعدام الذكور اليهود. لقد كانوا، في النهاية، أعداء أيديولوجيين له، ولم تكن له أي آمال كبيرة في اعتناق اليهود للإسلام. كان يهود المدينة أعداءه على الدوام، فلماذا لا يقضي عليهم الآن مرة واحدة وإلى الأبد؟ سيأتي الوقت الذي سيقطع فيه محمد رؤوس جميع الذكور من قبيلة يهودية أخرى في الساحة العامة في المدينة. من الواضح أن ابن أبي كان يهدد محمداً عندما قال: «إني امرؤ أخشى الدوائر»، لقد كان زعيماً قوياً لقبيلة الخزرج، وعلى الرغم من كونه مسلماً، إلا أن حديثه ينم على استعدادٍ لدعم حلفائه القدامى ومراعاة الالتزامات القبلية التقليدية بدلاً من التزاماته كمسلم، وكان كَمن يهدد محمداً بحرب أهلية. استوعب محمد حساب المصالح على الفور.

لم يستطع محمد أن يأمل بالنصر ضد تحالف الخزرج واليهود. إذا حاول القيام بذلك فسوف يخاطر بفقدان دعم العشائر العربية الأخرى وحتى بعض عشائر الأوس التي أسلمت وكانت حتى وقت قريب حليفة لليهود. تراجع محمد قائلاً لابن أبي: «هم لك»، ثم خرج.

يبدو أن معارضة محمد ليهود المدينة نشأت من عدة عوامل. أما كون محمد معادياً للسامية كما ادعى البعض فهو سؤال خارج نطاق هذا الكتاب، ولكن بمجرد أن تم التعامل مع يهود المدينة أمر محمد بحماية خاصة لليهود

= الكفر الذي يضمرونه. ويتجاهل المؤلف هذه الظاهرة الثابتة من رواية المؤرخين ويحاول تفسيرها وأحياناً تبريرها كمعارضة سياسية للقيادة المحمدية في المدينة (المترجم).

والنصارى، حتى إنه ذهب إلى حد منع دعوتهم للإسلام. كان محمد، مع ذلك، منظّراً ثورياً ملتزماً. لم يكن هناك شك في أنه لا يمكن السماح لليهود بتقويض ادعاء محمد بأنه رسول الله، وذلك من شأنه أن يقوض السبب الأساسي للتمرد. كانت القبائل اليهودية في المدينة تشكل أيضاً تهديداً عسكرياً هائلاً إذا اختارت استخدام قوتها ضد المسلمين، ولن تكتمل سيطرة محمد على المدينة أبداً ما دام يُسمح لهؤلاء المتنافسين على القوة العسكرية بالاحتفاظ بقواتهم. إضافةً إلى ذلك لا يمكن لمحمد أبداً أن يأمل في توسيع تمرده خارج المدينة أو التحرك بقوة عسكرية ضد مكة ما لم تكن قاعدة عملياته في المدينة آمنة تماماً. لتحقيق ذلك كان عليه أن يقلل من خطر القوات اليهودية في المدينة. أخيراً، يبدو أن حساسية محمد من السخرية الشخصية أدّت دوراً في دوافعه. خلال فترة الخلاف مع بني قينقاع أوحي لمحمد ما يمكن أن يفسر غضبه من اليهود في سورة المائدة، الآية ٥٧: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾. كما هي الحال مع جميع الثوار في الماضي والحاضر، كان يُنظر دائماً إلى المعارضين الأيديولوجيين على أنهم أسوأ الأعداء، خاصة عندما يرتكبون خطأ عدم أخذ المُثل الثورية على محمل الجد.

أُمر يهود بني قينقاع بمغادرة المدينة وترك معظم ممتلكاتهم وثرواتهم. أمر محمد صراحة أن يتركوا أدواتهم ومعداتهم في صناعة المعادن التي يصنعون بها الأسلحة والدروع، أصبح له الآن مصنع أسلحة خاص به. أما منازل بني قينقاع وممتلكاتهم ومزارعهم ودوابهم فقد وزعت بين المسلمين، ما ساعد على انتشالهم من الفقر الذي عانوا منه لفترة طويلة(*)، وهاجر اليهود شمالاً إلى سوريا. لم يكن محمد رجلاً يتغاضى عن التفاصيل، فالتفت إلى مسألة شخصية أخرى. كان الشاعر العربي كعب بن الأشرف يعيش مع قبيلة والدته اليهودية، وكان يُعتقد أنه هو نفسه يهودي. رثى ابن الأشرف موتى المكيين في بدر شعراً، كما اشتبهت مخابرات محمد في أنه كان يسافر

(*) لم يكن لبني قينقاع حقول وزراعة كما ذكر المؤلف سابقاً، بل كانوا صناع دروع، ولذا فهناك مبالغة في مقادير الفيء الجديد، كما أن هناك مبالغة في وصف وضع المسلمين بالفقر المدقع، وحالة أهل الأرض من الأنصار في المدينة لم تكن كذلك قطعاً (المترجم).

بانتظام إلى مكة حيث كان يحث المكيين على الانتقام لقتلى بدر. وعلى حد قول ابن إسحاق، قال محمد لأصحابه: «من لكعب بن الأشرف؟» استخدم الأخ المسلم غير الشقيق للشاعر للإيقاع به ليلاً حيث قُتل(*). أصبح محمد الآن رجلاً مشهوراً بعدم صبره على التعرض للإهانات(**).

(*) يذكر مؤرخو السيرة أن كعب بن الأشرف قام بحملة عدائية ضد المسلمين، وأخذ يحرض قريشاً على الأخذ بثأرها، ورثى بشعره قتلى بدر من المكيين وتغزل بمحاسن نساء الصحابة ببذاءة، وهجا وسبّ النبي ﷺ، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ قولته المشهورة: «مَنْ لكعب بن الأشرف؟، فإنه آذى اللهَ ورسولَه.» فقال محمَّد بن مسلمة ـ رضي الله عنه: «أنا يا رسول الله.» فانتدب بن سلمة لهذه المهمة، بالإضافة إلى عباد بن بشر، وسلكان بن سلامة، وهو أخو كعب من الرضاعة (المترجم).

(**) يفرّق مؤرخو السيرة بين الإهانات التي وجهت إلى الرسول ﷺ، والمقصود منها ازدراء الدين والطعن في الرسالة عبر نشر الأكاذيب والدعاية المضللة، وهذه هي التي تعامل معها النبي بحزم وقوة، وبين الإساءات غير المتعمدة والتي عانى منها الرسول كجلافة بعض الأعراب، وهي التي عرف عنه تعامله معها بحلمه وصبره وتجاوزه المعهود.

الفصل السابع

معركة أُحُد

آذار/مارس ٦٢٥م

قطعت رأس القيادة المكية، وللمرء أن يتخيل صدمة أبي سفيان عندما علم بمقتل الكثير من قادة مكة في بدر. سرعان ما استُبدل بالكثير من الرؤساء القدامى أبناؤهم الأقل خبرة، تاركين أبا سفيان الزعيم القرشي الوحيد صاحب المكانة، والذي أصبح يتولى إدارة الشؤون المدنية والعسكرية. كانت القيادة القديمة منقسمة حول كيفية التعامل مع محمد، حيث تردّد كثيرون في استخدام القوة ضده، لكن الهزيمة المدمّرة في بدر، وصعود الزعماء الأصغر سناً، وغضب أبي سفيان العلني وقسم الانتقام غيّر ذلك، وأصبحت قناعة الكثير من المكيين بأنه لا يمكن التعامل مع محمد إلا بالقوة. في غضون شهر، قام المكيون بحشد من ١٥٠ إلى ٢٠٠ رجل تحت قيادة أبي سفيان لغزو المدينة. يشير الحجم الصغير للمهاجمين إلى أن الغرض منها كان نفسياً في الغالب، وذلك لإعلان أن المكيين لا يزالون قوة لا يستهان بها وأنهم مستعدون للقتال. ربما كان الهدف أيضاً هو إرسال رسالة إلى القبائل البدوية المسيطرة على طرق القوافل والتي اعتمدت عليها التجارة المكية لسفرها الآمن. منذ تلك اللحظة اعتبر المكيون محمداً عدوهم اللدود.

في نيسان/أبريل ٦٢٤م اقترب مقاتلو أبي سفيان من المدينة، وكما هو التقليد العربي فقد استعدوا للهجوم في الصباح الباكر، واستبدلوا الخيول بالجمال. سكت ابن إسحاق عن تفاصيل الغارة، لكن يبدو أنه كان اشتباكاً بسيطاً أدى إلى مقتل عدد قليل كانوا يرعون مزارعهم، وحرق منزلين قبل انسحاب المغيرين. يقع حي قباء حيث وقعت الغارة جنوب المدينة ويقطنه

الكثيرون. صعّبت بيوت الحي وبساتين نخيله والحدائق المحاطة بالأسوار مناورة الفرسان، وحوّلت حركة المغيرين إلى طرق ضيقة. بمجرد إطلاق الإنذار، أوقف المكيون الهجوم وعادوا إلى معسكرهم، وركبوا الخيل عوض الجمال، واتجهوا جنوباً على طول الطريق المؤدي إلى مكة. استغرق الأمر بعض الوقت كي يجمع محمد قوة رد فعل لمطاردتهم. قطع المكيون شوطاً كبيراً ولكنهم تباطؤوا بسبب الحاجة إلى رعاية خيولهم. لا بد من أن المسلمين اقتربوا منهم في وقت ما، فتخلص المكيون من بعض أمتعتهم لتخفيف حملهم وزيادة سرعتهم، بما في ذلك عدة أكياس من الشعير المجفف المستخدم في صنع السويق. عُرفت هذه الغزوة التي قادها أبو سفيان وتراجُعه في المصادر الإسلامية بسخرية باسم «غزوة السويق». أوقف المسلمون مطاردتهم، بعد أن لحقوا بهم في الغالب لحفظ ماء الوجه، لا لإشراك المكيين بقتال.

في أيار/مايو عام ٦٢٤م سعى محمد للاستفادة من الوضع المتفوق الذي منحه انتصاره في بدر من خلال تجميع قوة من مئتي رجل وقيادة غارات ضد قبيلتين بدويتين، غطفان وبني سُليم. عاش بدو غطفان بين المدينة وخيبر، وهي الواحة اليهودية الرئيسة شمال المدينة. بينما عاش بنو سُليم جنوب المدينة، على طول طريق القوافل الرئيس من مكة. لم تحقق هذه المداهمات إلا الاستيلاء على خمسمئة من إبل غطفان، ولم يكن هناك قتال. في حزيران/يونيو عام ٦٢٤م حشد محمد قوةً أكبر قوامها ٤٥٠ رجلاً وشرع في مداهمة غطفان مرة أخرى. اكتشف الغطفانيون تقدّمه وابتعدوا بإيغال في الصحراء لتجنب الاحتكاك. في آب/أغسطس من العام نفسه قاد محمد ثلاثمئة رجل ضد بني سُليم، ولكن مرة أخرى لم يتمكن من العثور عليهم. كشفت تلك الإخفاقات ضعف أداء مخابرات محمد. بالنظر إلى مواقعهم على طول طريق القوافل الرئيس، كان لكل من قبيلتي غطفان وبني سُليم علاقات تجارية طويلة الأمد لتوفير السكن والأعلاف والحماية للقوافل المكية. كانوا، بالطبع، وثنيين أيضاً. لم تكن مهاجمة هذه القبائل بدافع الدين، بل رغبة في إضعاف البنية التحتية للسفر وشملت محطات التجارة، والقبائل الصديقة للمكيين التي سيطرت عليها. كان محمد يحاول خنق مكة وعزلها اقتصادياً وسياسياً.

يبدو أن الاستراتيجية قد حققت بعض النجاح. يخبرنا ابن إسحاق أن «قريشاً خلفوا طريقهم الذي كانوا يسلكون إلى الشام، حيث كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق». وصف الشاعر حسان بن ثابت في وقتٍ لاحق الصعوبة التي واجهها المكيون في تسيير قوافلهم التي قطع محمد طُرقها بالقول:

دعوا فلجات الشام قد حال دونها جلاد كأفواه المخاض الأوارك

تصف المصادر القافلة المكية عام ٦٢٥م بأنها كانت تحمل حمولة وافرة من الفضة وغيرها من البضائع، وهو وصف يوحي بأنها كانت قافلة الربيع السنوية، لكن هذا يبدو غير مرجح. كان عدد الحراس قليلاً جداً بالنسبة إلى قافلة مهمة كهذه، وكان من السهل تحييدهم من قبل قوة إسلامية مكونة من مئة رجل فقط. لو خطط محمد لمهاجمة قافلة الربيع لوضع قوة أكبر بكثير في الميدان للتعامل مع الحرس القوي الذي كان سيرافقها في ضوء هجماته الأخيرة. على الأرجح كانت القافلة صغيرة، وقد تضخمت الأرقام المتعلقة بشحنتها التي تم الاستيلاء عليها من قبل المسلمين لأغراض الدعاية الحربية.

يبدو أن مصدر استخبارات محمد في مكة، عمه العباس، قد زوده بالمعلومات اللازمة لإنجاح الغارة من خلال منح محمد وقتاً كافياً لتجميع قوةٍ ونصب كمين للقافلة[1]. تألفت مجموعة المداهمة من مئة رجل فقط تحت قيادة زيد، المولى السابق لمحمد. تعرضت القافلة للهجوم في أثناء ورودها ماء ذي قَرَد، ففر الحراس وتم الاستيلاء على حمولتها. عاد زيد إلى المدينة مع الغنيمة، ولم تقع إصابات بين المسلمين. وصلت أنباء الاستيلاء على القافلة إلى مكة فأثارت غضباً واسعاً، ويبدو أن القيادة المكية الجديدة قد فهمت أن هجمات محمد أصبحت الآن تهديداً استراتيجياً لعيشهم وبقائهم الاقتصادي. لم يكن هناك بديل سوى كسر حصار محمد بالقوة. تم اختيار أبي سفيان، أبرز رجال مكة المتبقين بعد بدر والقائد العسكري المتمرس، لتكوين جيش لتدمير محمد مرة واحدة إلى الأبد.

---

(١) Muhammad Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet* (Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939), p. 43.

في أواخر كانون الثاني/يناير ٦٢٥م، خرج جيشٌ قوامه ثلاثة آلاف رجل ومئتا حصان من قريش، ومجموعة من القبائل البدوية المتحالفة، وبعض «القوات السوداء» الذين ربما كانوا مرتزقة حبشيين(*)، من مكة باتجاه المدينة لقتال محمد. استغرق وصول الجيش المكي إلى المدينة اثني عشر يوماً. كان طريقهم في المسير يتجه غرباً ثم شمالاً حيث خيموا في مكان يعرف باسم عينين على سهل مفتوح عند سفح نتوء صخري يُسمى جبل أُحُد. كان سبب عدم وصول الجيش مباشرة إلى المدينة من الجنوب هو التضاريس الجغرافية. تقع المدينة على سهل حمم بركانية (حرّات) بعرض نحو عشرة أميال وطول عشرة أميال محاطة من ثلاث جهات بجبال شديدة الانحدار. كان الوصول من وراء الجبال إلى السهل نفسه يمر من خلال ممرات ضيقة يسهل الدفاع عنها. كان الاقتراب من الجنوب عبر قباء، وهي منطقة مكتظة بالسكان بتجمّعات عشائرية وحدائق مسورة وبساتين نخيل، تصعّب حركة وحدات الجيش المنظمة. أما الحرّات في الجنوب الشرقي فكانت تضاريسها غير ملائمة لسلاح الفرسان وعسيرة للمشاة والجمال أيضاً. في الجنوب الشرقي تقع تجمعات القبائل اليهودية، وكانت أيضاً كثيفة بالمزيد من البساتين والحدائق. أي محاولة لتحريك الجيش المكي عبر الممر الجنوبي في قباء ستعرضه لخطر الكمائن.

لا يمكن الاقتراب من المدينة إلا من الشمال عبر أرض مفتوحة خالية من العوائق. كانت معظم الأراضي الواقعة بين المدينة وجبل أحد سبخة وغير صالحة للزراعة(٢). ومع ذلك، بمجرد تجاوز سفح جبل أُحُد، كان هناك بئر جيدة في زغابة ومراع لإطعام الخيول والإبل. كان هناك أيضاً بعض المزارع الصغيرة حيث يمكن للدوابّ المكية أن ترعى، كما كان مجرى النهر القديم الذي يمر عبر المنطقة مملوءة بالرمال الناعمة المريحة لأخفاف الجمال. عسكر الجيش المكي شمال سفح جبل أحد، ولم يكن وصولهم سراً، فأرسل محمد على الفور الكشافة المسلمين لمراقبتهم، ودعا إلى تعبئة عامة لمواجهة هذا التهديد، واستجاب له نحو ألف رجل.

(*) ربما ظن المؤلف أن الأحابيش هم أحباش، والصحيح هو أنهم عشائر من كنانة شكلوا حلفاً وعرفوا بالأحابيش، وهم عرب أقحاح (المترجم).

(٢) المصدر نفسه، ص٤٧ ـ ٤٨.

عرف محمد أن عدد جيش المكيين يفوق عدد جيشه بكثير، وأن خوض معركة في سهل مفتوح من شأنه أن يكون من صالح المكيين. والأسوأ من ذلك هو عدم وجود سلاح فرسان مسلم بينما كان المكيون يمتلكون مئتي فارس تحت قيادة خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، اللذين أصبحا فيما بعد من أشهر الجنرالات المسلمين في حروب الفتح. دعا محمد كبار جنوده للمشورة. كان، كما هي الحال دائماً، يميل إلى الدفاع وأراد جرّ العدو إلى المدينة نفسها في حرب مدن بين المنازل. دعم عبد الله بن أبي، الزعيم الخزرجي والمحارب المتمرس، هذا الرأي بقوله: «يا رسول الله، لا تخرج إليهم، ما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، وما دخل علينا قط إلا أصبناه (كانت إشارة ابن أبي إلى حروب القبائل وليس لأي اشتباكات إسلامية سابقة)، فدعهم يا رسول الله فإنهم إن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، والمدينة مشبَّكة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن، وترمي المرأة والصبي من فوق البيت والحصن، ونُقاتل بأسيافنا في السِّكَك وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً، يا رسول الله أطعني في هذا الأمر واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم فهم كانوا أهل الحرب والتجربة». من الجلي أن عبد الله بن أبي يميل إلى قتال الشوارع كما يخبرنا ابن هشام[٣].

كانت المدينة مملوءة بالعقبات أمام حركة الفرسان والمشاة، كما جعلت بساتين النخيل والينابيع والحدائق المسورة والأحياء المحصنة بأبراجها من استخدام سلاح الفرسان المكي أمراً مستحيلاً، وفي الوقت نفسه صعّبت على المكيين استخدام أعداد المشاة المتفوقة لديهم. ستجبر التضاريس والعقبات الجيش المكي على الانقسام إلى وحدات أصغر، ما يجعلها عرضة للكمائن والاشتباك الجزئي من قبل المسلمين. إضافة إلى ذلك لم يكن لدى المكيين آلية حصار. فلو انسحب المسلمون إلى أحيائهم ورفضوا خوض معركة مفتوحة، فستكون مسألة وقت فقط قبل أن يستهلك الجيش المكي ما كان باقياً في المزارع قبل أن يضطر إلى الانسحاب، كما أنه يفتقر إلى أي طريق إمداد. أظهر كلٌّ من محمد وابن أبي فهماً كبيراً للتكتيكات في تحليلهما لكيفية التعامل مع التهديد المكي.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٠.

مع ذلك، لم يستطع محمد تنفيذ خطته التكتيكية الأصلية. تجمّع حشدٌ من الناس حول منزل محمد وطالبوا بالخروج لمقابلة المكيين في معركة مفتوحة. كان الكثير من الشباب، ربما الذين كانوا يسعون للاستشهاد، مصرّين بشكل خاص على رغبتهم في القتال المفتوح، وربما كانوا يعتقدون أن الله الذي منحهم النصر في بدر سيفعل ذلك مرة أخرى. استمر الجدل ليومين قبل أن يضع محمد حداً له بالموافقة أخيراً على قيادة رجاله إلى المعركة. عاد محمد إلى منزله ولبس درعه ولبس سلاحه، وعندما خرج كان الحشد قد غيّر رأيه وأراد الآن البقاء فِي المدينة للقتال! لكن محمداً كان حازماً في قراره وأمر رجاله بالتجمع في الطريق عند سفح جبل أحد.

عندما لبس المسلمون دروعهم وأسلحتهم من منازلهم وتوجهوا نحو منطقة التجمع، وقع حدثان مثيران للاهتمام. ذكرت بعض المصادر اجتماع نفرٍ من اليهود من القبائل المتبقية لمساعدة محمد لأنهم كانوا حلفاء عبد الله ابن أبي، وقد حضروا للوفاء بالتزاماتهم التقليدية. عندما أُعلم محمد بالخبر رد قائلاً: «إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»[٤]. أما الرواية الأخرى فتقول إن أحد ضباط محمد ـ لا شك أنه فكّر في حقيقة أن عدد المسلمين أقل من المكيين ـ قد سأل محمداً مباشرة: «يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟»، فقال محمد: «لا حاجة لنا فيهم». من غير المحتمل أن تكون النسخة الأولى صحيحة، فقد عرف محمد بالتأكيد أن اليهود ليسوا مشركين ولا يبدو أنه وصفهم على هذا النحو على الرغم من شيوع وصفهم في المصادر الإسلامية اللاحقة بأنهم مشركون. تبدو الرواية الثانية صحيحة ومثيرة للاهتمام من حيث إنها تعكس رؤية محمد للحرب على أنها أيديولوجية وليست قائمة على الالتزامات القبلية التقليدية. من حيث العدد، كان بإمكان محمد بالتأكيد الاستفادة من المحاربين اليهود، ولكنه اختار عدم القيام بذلك على أسس أيديولوجية. كانت الحرب حدثاً يوجه الله به المؤمنين، وليست مجرد نشاط عسكري.

---

(٤) John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 205.

معتمداً على رواية أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، **كتاب المغازي**.

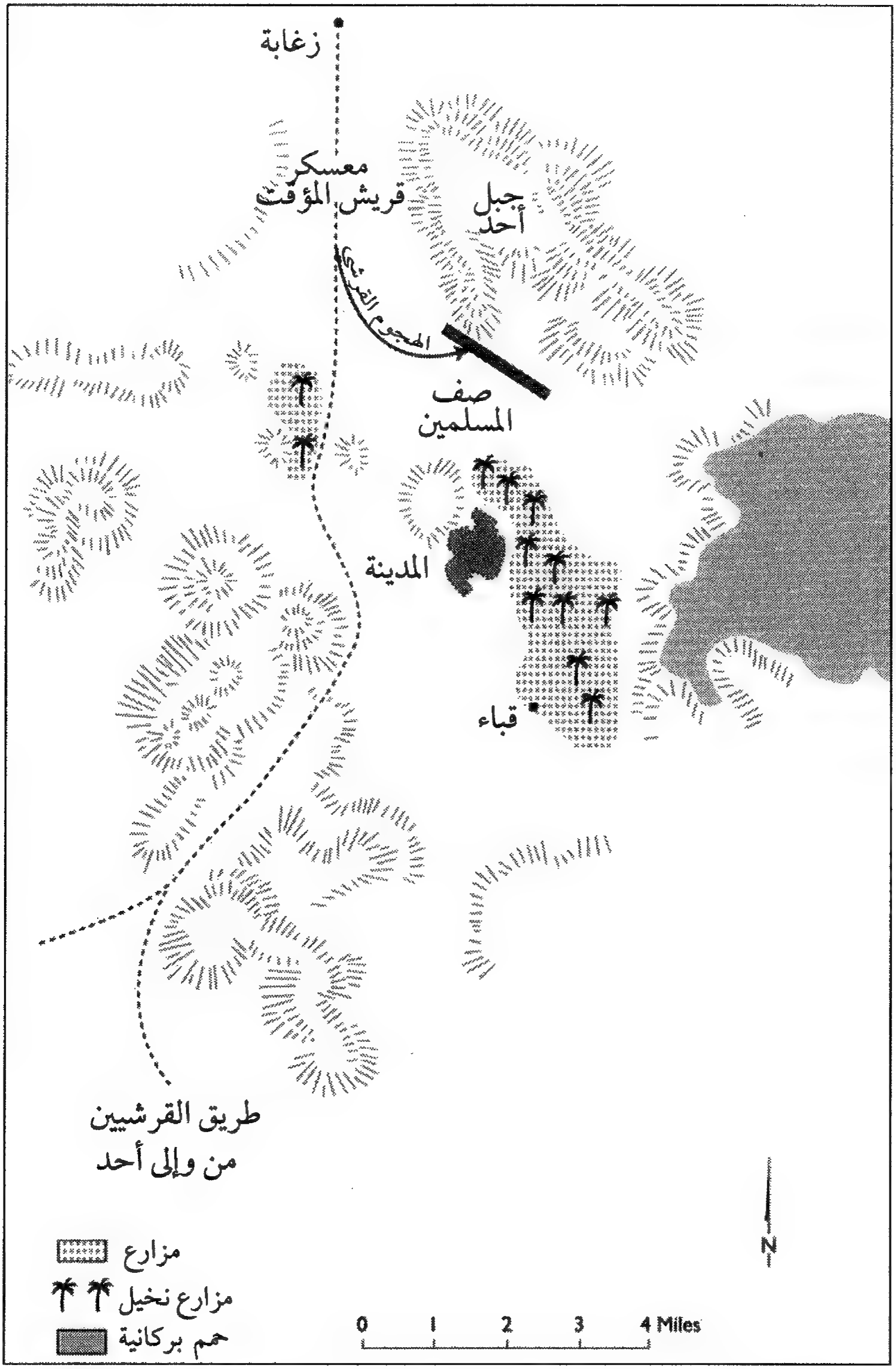

الخريطة ٧: معركة أحد ٦٢٥م

كان من المحتمل أن يكون الحدث الثاني أكثر خطورة. اختلف عبد الله ابن أبي بشدة مع قرار محمد الاشتباك بمعركة في سهل مفتوح بدلاً من القتال بين المنازل في دروب المدينة. انسحب ابن أبي مع مجموعته المكونة من ثلاثمئة خزرجي، وكانوا نحو ثلث الجيش، وعاد إلى المدينة. يبدو أن ابن أبي قد أدرك أن اختيار محمد لمنطقة التجمع عند سفح جبل أُحُد قد جعل المدينة نفسها مكشوفة مما يعرضها لهجوم محتمل. وبالفعل كان لدى الجيش المكي عندما تم تشكيله للمعركة طريق واضح للتقدم نحو المدينة. ربما يكون ابن أبي قدّر أنه إذا انسحب محمد، وهو توقع واقعي في ضوء القوة النسبية للجيوش، فلن يكون هناك ما يَمنع المكيين من الاستيلاء على المدينة ونهبها وإبادتها. اعتقد ابن أبي أن هذه مخاطرة كبيرة للغاية، فعاد مع رجاله إلى أحياء عشيرته حيث استعد للدفاع عنها ضد الهجوم المكي المتوقع في أعقاب هزيمة محمد.

عند وصول المكيين أمر محمد بتشكيل خط ثابت عبر المداخل الشمالية وإجراء دوريات ليلية للتحذير من نشاط العدو، كما أحاط نفسه بمجموعة حراس شخصيين مكونة من خمسين رجلاً. بعد انسحاب قوات ابن أبي أصبح محمد في سبعمئة رجل فقط، مئة من هؤلاء كان لديهم دروع. كان للمكيين ثلاثة آلاف رجل ومئتا فرس، وسبعمئة مدرّع. وفق أي حساب عسكري معقول، كان الجيش المكي أكبر وأفضل تجهيزاً وأكثر خبرة، يقوده ضباط متمرسون من سلاح الفرسان والمشاة. في ظل هذه المعطيات، لن يقوم قائد بالاشتباك مع المكيين، لكن محمداً يعتقد أن الله معه وسينصره؛ إذ كان قراره غريباً من منظور عسكري.

تصوّر الخريطة رقم ٨ ساحة معركة أُحُد والمواقع النسبية للجيوش الإسلامية والمكية. لم يقم محمد بأي محاولة للاستفادة من أي عوائق طبيعية ووَضَعَ قواته لاشتباك مباشر مع المشاة. لقد أدرك أن موقعه الدفاعي قد يعرضه لهجمات سلاح الفرسان المكي على كلا الجانبين وأنه لا بد من إيجاد طريقة ما لتحييده. انتشر سلاح الفرسان المكي في أنحاء الميدان بطريقة غير تقليدية إلى حدٍّ ما. تقدمت قوات يقودها عكرمة بن أبي جهل أمام خط المشاة الرئيس المكي وكان من المحتمل أن يشتبك مع مقدمة الجيش الإسلامي باستخدام الرماح من فوق ظهور الخيل. كان التهديد الأكثر خطورة على موقع محمد هو الفرقة الثانية، والتي ربما كانت أكبر، بقيادة خالد ابن الوليد، التي تمركزت بعيداً على يمين خط المشاة المكي، وكانت مهمتها الانقضاض على جناح جيش محمد.

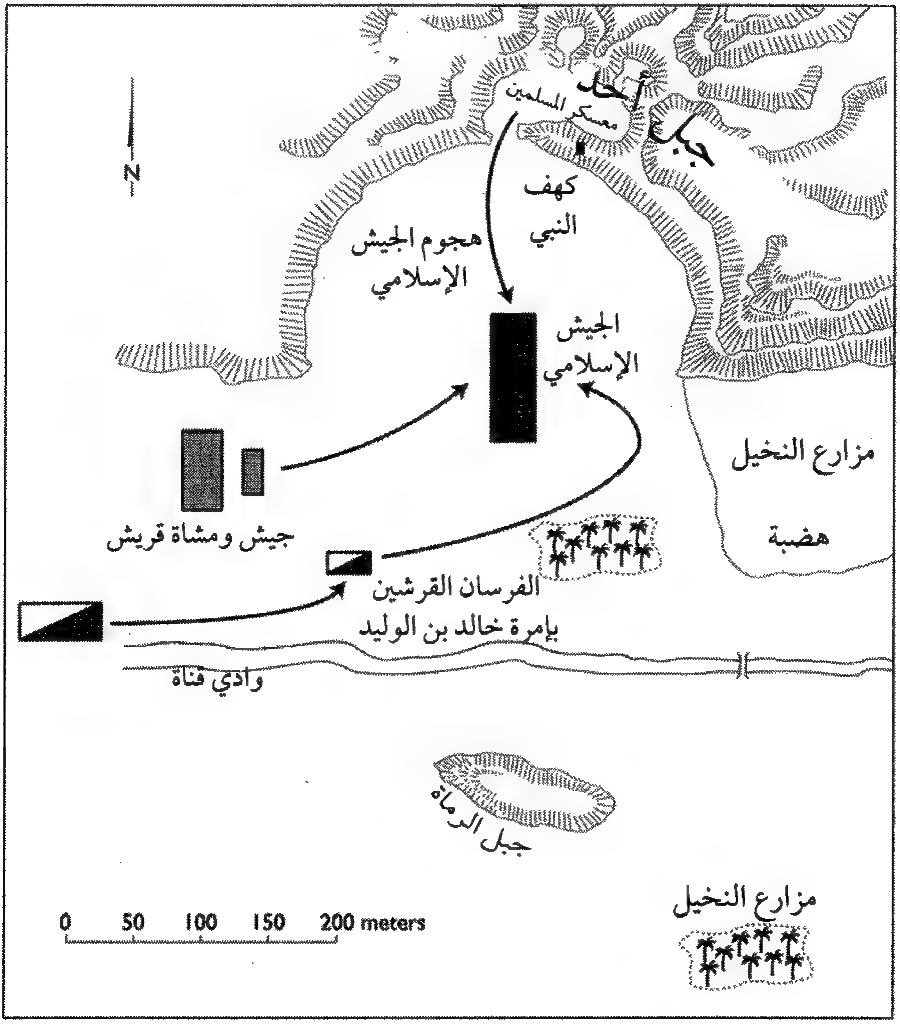

الخريطة ٨: ساحة معركة أحد

تخللت التضاريس على يسار محمد وأمام قوات ابن الوليد بساتين النخيل وحدائق مسوّرة، ولكن لم يكن ذلك كافياً لمنع تحرك الفرسان المكيين. لمنع سلاح الفرسان التابع لابن الوليد من الهجوم على جناحه، نشر محمد خمسين من رماة السهام على تل عينين، والذي أُطلق عليه فيما بعد تل الرماة في تراث المسلمين. تشير النصوص اللاحقة إلى أن محمداً أرسل عدداً قليلاً من الفرسان للمساعدة في سد الفجوة بين التل

والبساتين(٥). ولكن تخبرنا النصوص الأولى بأن محمداً كان لديه حصانان فقط وامتطى أحدهما. وقد وصل بعض الجنود المسلمين متأخرين وربما أحضروا معهم بعض الخيول. على أي حال فقد كانت قوة صغيرة مقارنة بسلاح فرسان خالد. إذا كان محمد سيمنع المكيين من الانقضاض على جناحه، فلا بد من أن يكون ذلك بسهام الرماة المتمركزين على التل.

إن إدراك محمد لأهمية موقف الرماة لفرص نجاحه واضح من التعليمات التي أصدرها إلى قائدهم عبد الله بن جبير. يذكر ابن إسحاق أن محمداً أمر قائده قائلاً: «انضح (أبعد) الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك». باختصار: ابقَ مكانك حتى آخر رجل أو حتى نسمح لك بتركه. تذكر المصادر اللاحقة تعليمات أكثر صرامة: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم». يبدو أن محمداً قد أدرك أنه إذا هوجم جناحه فإن الهزيمة ستكون حتمية، وكما تنبأ عبد الله بن أبي فإن الطريق إلى المدينة سيكون مفتوحاً عندئذ.

يخبرنا ابن إسحاق أنه عندما خرج محمد من بيته بكامل سلاحه «ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين». لا تبدو القصة منطقية بالنسبة إلى درع حديدي مزدوج يزن ما يقرب من سبعين رطلاً(*)، وكان سيجعل الحركة صعبة للغاية. ومع هذا فتخبرنا إحدى النصوص أن الرسول عندما سقط في أثناء المعركة حاول النهوض «فلم يستطع، فأقعد تحته طلحة، فصعد النبي ﷺ حتى استوى على الصخرة»(**). يقول مصدر لاحق إن محمداً لم يرتدِ درعين، بل أعطى درعه لأحد جنوده وهو كعب بن مالك، على ما يبدو لأغراض التنكر

---

(٥) Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet*, p. 52,
معتمداً على رواية أبو محمد عبد الملك بن هشام، **سيرة النبي**، راجع أصولها وضبط غريبها وعلق حواشيها ووضع فهارسها محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ مج (القاهرة: دار التحرير للطباعة والنشر، ١٩٦٣).

(*) أكثر من ٣٠ كيلوغراماً بقليل (المترجم).

(**) يشير إلى حديث الترمذي بإسناده إلى الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: كان على رسول الله ﷺ يوم أحد درعان فنهض إلى الصخرة فلم يستطع، فأقعد تحته طلحة، فصعد النبي ﷺ حتى استوى على الصخرة. قال: فسمعت النبي ﷺ يقول: أوجب طلحة. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب (المترجم).

والأمن يوم المعركة[٦]. هذا تفسير أكثر منطقية، وكما اتضح فيما بعد، فإن تنكر محمد هو الذي أنقذه ذلك اليوم.

استعرض محمد قواته وهو على ظهر فرسه، وحرّكها إلى مواقعها في ساحة المعركة. لا تخبرنا المصادر بالوقت من اليوم الذي بدأت فيه المعركة، لكن لا يبدو أنها في غير الوقت الصباحي المعتاد. اصطف صفّا المشاة يقابل بعضهما البعض، وبدأت المعركة عندما تقدم محارب مكي متحدياً المسلمين لإرسال بطل إلى منازلته في مبارزة فردية. اندفع علي بن أبي طالب من صفوف المسلمين وهاجم المكي وقتله بضربة واحدة من سيفه، فارتفع هتاف عظيم «الله أكبر» من صفوف المسلمين. انطلق شقيق المحارب المقتول من صفوف المكيين لمهاجمة قاتل أخيه، قبل أن يصل إلى علي خطا حمزة بينهما وقتل المكي. تحدى ثلاثة رجال آخرين مكيين حمزة، فقتلهم واحداً تلو الآخر. تحمّس المقاتلون المسلمون لما رأوه من انتصارات حمزة أمام أعينهم، وهجموا على صفوف عدوهم واشتبكوا بقتال شرس بالأيدي «حتى حميت الحرب». قتل الجرحى بلا رحمة. ومع احتدام المعركة، شق جندي مسلم اسمه أبو دجانة طريقه عبر صفوف العدو ليصل إلى المعسكر المكي. كان من الممارسات العربية الشائعة للعشائر إحضار نسائها إلى ساحة المعركة حيث يغنين ويقرعن الدفوف وينشدن القصائد لتشجيع رجالهن على القتال بقوة[*]. اندفع أبو دجانة بسرعة إلى المخيم وشتت النساء اللواتي هربن للنجاة بحياتهن.

في غضون ذلك، جاب حمزة ساحة المعركة بحثاً عن محاربين مكيّين لقتالهم، ويبدو أنه لم يشارك في هجوم المسلمين. مر على مقربة منه أبو نيار[**] وتحداه حمزة للمبارزة قائلاً: «هلم إلي يا ابن مقطعة البظور»[٧].

---

(٦) Hamidullah, Ibid., p. 52,

اعتماداً على كتاب **الاستيعاب** في معرفة الأصحاب للقرطبي.

(*) غنّت المكيات:

إن تقبلوا نعانقْ	ونفرش النمارقْ
أو تدبروا نفارقْ	فراقَ غير وامقْ

(**) هو سباع بن عبد العزى (المترجم).

(٧) الختان بين العرب سبق محمداً بعدة قرون، وربما بألف عام. يبدو أن هذه العادة قد بدأت في =

بدأ المحاربان القتال بينما وقف يراقبهم وحشي، وهو عبدٌ حبشي مسلحٌ بِحربة. وفي حين انشغل حمزة بخصمه، رماه وحشي بحربته، ووصف ذلك بقوله: «دفعتها عليه فوقعت على ثنته حتى خرجت من بين رجليه، وذهب نحوي، فغُلب وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي». ما حدث لحمزة كان حالة تقليدية من الثأر العربي. كان وحشي قد استأجرته امرأة اسمها هند، زوجة أبي سفيان وابنة عتبة بن ربيعة، الذي قتله حمزة في معركة بدر. أقسمت على الانتقام لمقتل أبيها، واستعملت وحشياً ووعدته بإعتاقه إن قتل حمزة. تظهر الطبيعة الشخصية للغاية للحرب العربية بعد أن قام وحشي بقتل حمزة، فقد استعاد سلاحه ثم قال: «رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأُعتق».

نجحت ضراوة هجوم المسلمين في كسر الخط المكي في عدة محاور مما سمح لمجموعات من المسلمين بالاختراق وعزل شرائح من المشاة المكيين والفتك بهم. لفترة من الوقت، سمحت أعداد المكيين المتفوقة بالتماسك، لكنهم في النهاية بدؤوا يترددون ويتراجعون بطريقة شبه منضبطة. في هذه المرحلة، ضغط المسلمون وهاجموا بقوة كبيرة متوغلة بشكل كامل «حتى كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها». انهار الدفاع المكي مع وجود جنود مسلمين خلفهم وفي وسط صفوفهم. مرة أخرى أثبت مشاة محمد المنضبطون أن قوة أصغر ذات دوافع عالية يمكن أن تهزم قوة أكبر أقل تحفزاً للقتال المتلاحم. لو كان للمسلمين ولو فرقة صغيرة من سلاح الفرسان لمهاجمة صفوف المكيين المتناثرة لكانت معركة أحد كارثة على المكيين ونصراً عظيماً لمحمد.

= مصر، ربما كطقس يتم فيه ختان المجندين المصريين كجزء من قسم الولاء للفرعون. بغض النظر عن قصة إبراهيم في سفر التكوين، فإن أول ذكر تاريخي للختان بين بني إسرائيل حدث عندما ختن يشوع كل الذكور في سن التجنيد قبل عبور نهر الأردن وغزو كنعان. كان هذا الاحتفال، أيضاً، ذا طابع عسكري شابه الطقوس المصرية في كونه عهداً بين الجنود ويهوه سابوت، إله الحرب عند بني إسرائيل. قبل فترة طويلة من النصرانية، ربما جلبت القوافل المصرية أو المؤابية هذه العادة إلى شبه الجزيرة العربية، حيث تكون قد ترسخت كطقوس مرتبطة بالبراعة العسكرية للذكور. وجدت هذه العادة الوثنية طريقها إلى الممارسة الإسلامية، والختان غير مذكور في القرآن، وليس له أهمية دينية في الإسلام. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر:

Shari Lowin, "Muslims and Circumcision," *JTS Magazine*, vol. 10, no. 1 (Fall 2000), pp. 18-21.

ما حدث بعد ذلك هو موضوع نقاش. يشير المؤرخون المسلمون اللاحقون إلى أن الفجوة بين يسار محمد وتلة الرماة كانت ضيقة وتتميز بتضاريس غير مستوية وبساتين نخيل جعلت مرور الفرسان صعباً ويمكن تغطيتها بسهولة برمي السهام(٨). هناك إشارة في هذه الروايات اللاحقة إلى أن سلاح الفرسان المكي بقيادة خالد بن الوليد حاول المهاجمة عدة مرات من خلال الثغرة وتم دفعه إلى الخلف بإطلاق السهام. يشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه في مرحلةٍ ما قرر خالد الالتفاف بالكامل حول جبل أحد والهجوم على المسلمين من الخلف. كان من الممكن أن يستغرق هذا التحرك ما لا يقل عن عشرة إلى اثني عشر ميلاً، ويستغرق أكثر من ساعة ليكتمل، وسيصل بخيول غير صالحة للمعركة(٩). الرواية غير قابلة للتصديق على أسس عسكرية وربما تم اختلاقها لتخفيف ما يبدو أنه انهيار في الانضباط الإسلامي، ويجعل محمداً يبدو كأنه لم يولِ الاهتمام اللازم لجناحه الأيسر المهم وتركه من دون دفاع كافٍ.

يبدو أن الرواية السابقة لابن إسحاق أكثر صحة، ويشير فيها إلى أنه حتى بعد أن كان هجوم المسلمين قد كسر الصفوف المكية، لم يكن سلاح الفرسان المكي قد شارك في الاشتباكات على الإطلاق؛ بل وبطريقة نموذجية، كان يحوم بالقرب من الأجنحة مستعداً للهجوم إذا تراجعت صفوف المسلمين، على أمل ملاحقة البقايا الفارين وقتلهم. لكن عندما انشق المكيون عن معسكرهم فَقَدَ هجوم المسلمين زخمه حيث تخلى جنودهم عن القتال والتفتوا لجمع الغنائم(١٠). لما رأى الرماة المسلمون ذلك هرعوا لجمع الغنائم أيضاً وبقيت حفنة فقط منهم بمواقعهم على التلة. عندما رأى خالد الرماة المسلمين يتركون مواقعهم لحيازة ما في المعسكر المكي، حشد سلاح الفرسان وقادهم بسرعة فائقة عبر الفجوة غير المحمية، ما أدى إلى ضرب جناح جيش محمد من الخلف. يقول ابن إسحاق: «وانكشف المسلمون، فأصاب فيهم العدو».

(٨) Hamidullah, *Battlefields of the Prophet*, pp. 55-56.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) حدث الشيء نفسه لرمسيس الثاني في معركة قادش. تخلت قواته عن الهجوم من أجل نهب معسكر الحثيين وكاد يُقتل ويباد جيشه.

ضرب مئتان من الفرسان المكيين مؤخرة جيش المسلمين بقوة أدت إلى توقف هجوم المشاة لديهم. توقف المسلمون عن أخذ الغنائم واستداروا في محاولة لإعادة تنظيم صفوفهم على طول خطوطهم الأولية. وفّر هذا مجالاً للمكيين لإعادة التجمع ومعاودة الهجوم. استمر خالد بن الوليد في إحداث الفوضى في مواقع جنود المسلمين حيث قاد فرسانه حول المؤخرة واقتنصوا أهدافهم برماحهم الطويلة. بدأ المشاة المسلمون يفقدون تماسكهم ويهربون وقُتل الكثير منهم، «وكان يوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة». حينها انهار دفاع المسلمين.

سارت الأحداث من سيئ إلى أسوأ. أصبح محمد وحرّاسه الآن محاطين بالجنود المكيين وهم يهاجمونهم بشدة. عندما حمي الوطيس حول محمد، ضُرب في وجهه بحجر مقلاع كسر إحدى أسنانه وجرح شفته وخده، وأسال الدم على وجهه. تقول رواية أخرى إن حجر مقلاع ضرب صفيحة خوذته بقوة دفعها إلى وجه محمد، وإن قوة الاصطدام أوقعت محمداً، واقترب المكيون من مجموعة صغيرة من الجنود المسلمين الذين يحمون محمداً. في مرحلة ما أصيب رأسه بضربة سيف أسقطت خوذته على عينيه، وسقط محمد على الأرض وهو مغطى بالدماء. قُتل جميع حرّاسه بعد ذلك «فقاتلوا دون رسول الله ﷺ، رجلاً ثم رجل، يقتلون دونه، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فائت فئة من المسلمين، فأجهضوهم عنه». يتخيل المرء كومةً من الجثث والجرحى متناثرة حول محمد الجريح حتى «ترّس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه، يقع النبل في ظهره، وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل». لو استمر الهجوم لفترة أطول فلربما قُتل محمد، ولربما انتهى الإسلام أيضاً حينئذ.

انتشرت فجأة شائعة في ساحة المعركة بأن محمداً قد قُتل. أوقف هتاف المكيين هجومهم احتفالاً، وبدأت المجموعات المسلمة المتبقية بالفرار، معتقدة أن زعيمها قد قضى نحبه. ويبدو أن ما حدث هو أن حامل الراية المسلم، مصعب بن عمير، قُتل على يد مكي، وعندما شوهد مصعب مرتدياً درع محمد ظُنّ أن الرسول نفسه قد قتل(*). لأيٍّ من الأسباب، بدّل محمد

(*) والرواية في الأصل أن مصعباً رضي الله عنه كان شبيهاً بالرسول ﷺ، ولذلك ظُنّ أن الرسول قد قُتل =

درعه مع جندي آخر في وقت سابق من ذلك اليوم. المنطق يقول إنه كان مع مصعب، لكن لا يوجد مصدر يشهد على هذه الحقيقة. على أي حال، فإن خبر وفاة محمد أنهى المعركة. كان محمد بأمان بين كومة من الجثث يحميها عدد قليل من المحاربين المسلمين الأشداء.

كان أبو بكر وعمر وعلي وعدد قليل من الآخرين قريبين ويبحثون عن محمد. أحدهم، وهو كعب بن مالك، قال: «عرفتُ عينيه تزهران(*) من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله». أدرك محمد أنه نجا فقط لأن المكيين لم يعرفوه وأمر ابن مالك أن يسكت. ساعده الرجال على الوقوف وحملوا محمداً عبر المنحدرات الصخرية لجبل أُحُد حيث اختبؤوا في شِعب. «فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ دِرقته ماء من المهراس، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحاً فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: اشتد غضب الله على من دمى وجه نبيه». فيما بعد تم كي جروح محمد[11]، وكان يفترض أن تترك تلك العملية ندبة على وجهه، إلا أنه لا توجد أوصاف مبكرة تشير إلى وجود أي ندب.

ربما يكون المشهد من الشعب محبطاً حتى لمؤمن شديد الإيمان مثل محمد. كان الجيش الإسلامي تحته مبعثراً في أنحاء الميدان، وكان الفرسان المكيون يجولون في ساحة المعركة وهم يطعنون المشاة المسلمين برماحهم. يخبرنا ابن إسحاق أن الناس «انهزموا عن رسول الله ﷺ». وكان المكيون يجهزون على الجرحى. وضع أبو سفيان رمحه في شدق حمزة الميت قائلاً: «ذق عقق»(**). ولكن من ناحية الوحشية الشديدة، لا يقارن أحد بزوجة أبي سفيان،

= عند مقتل مصعب. أم عن كعب بن مالك رضي الله عنه فقد رُوي أنه قال: «عندما انكشفنا يوم أُحُد كنت أول من عرف رسول الله وبشرت به المؤمنين حياً سوياً، وأنا في الشِعب». كما رُوي أن الرسول دعا بلأمته وكانت صفراء، فلبسها وقاتل يومئذٍ قتالاً شديداً. وروى الترمذي بإسناده إلى الزبير رضي الله عنه أنه قال: «كان على رسول الله يوم أحد درعان فنهض إلى الصخرة فلم يستطع فأقعد تحته طلحة، فصعد حتى استوى على الصخرة... فسمعت النبي يقوله: **«أوجب طلحة»**. أي وجبت له الجنة. ولم يرد في المصادر ارتداء مصعب لدرع النبي.

(*) أي تضيئان (المترجم).

(11) Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002), p.183.

(**) ذق عقق، بمعنى يا عاق. وعند ابن إسحاق وابن هشام: كان الحليس بن زبان قد مر بأبي =

هند، في تعطشها للثأر، «ووقعت هند والنسوة اللاتي معها يمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، يجدعن الآذان والأنف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأُنُفهم خدما وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطتها وحشياً. بقرت عن كبد حمزة، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، ثم علت على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها»[١٢]. تبدو محاولة هند لأكل كبد حمزة بقايا غريبة لبعض ممارسات عصور ما قبل التاريخ، حيث يلتهم المرء كبد عدوه على أمل اكتساب قوته. كانت تصرفات هند صادمة حتى بين العرب البدائيين.

أعاد الجيش المكي تشكيل صفوفه وبدأ يتحرك نحو معسكره. صعد أبو سفيان ومجموعة صغيرة من الفرسان إلى مكان مرتفع على جبل أُحُد حيث يراه ويسمعه الباقون من جيش المسلمين المختبئين بالقرب من محمد وفريقه الصغير من أصحابه في الوادي. صرخ أبو سفيان: «أنعمت فعال، وإن الحرب سجال يوم بيوم، أعل هبل»[١٣]. لسبب غير مفهوم، أمر محمد عمر بالوقوف والرد على تفاخر أبي سفيان، مخاطراً بالكشف عن مكان اختبائه. صاح عمر: «الله أعلى وأجل، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». لا بد من أن أبا سفيان قد رأى عمر فنادى إليه ليقترب، وسأله أبو سفيان: «أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟» قال عمر: «اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن». لا بد من أن أبا سفيان علم أن محمداً كان قريباً، وكان بإمكانه بسهولة أن يأمر فرسانه بالبحث عنه لقتله ووضع حدٍّ لتلك الحروب المؤذية، لكن مركزية الشرف في ممارسة الحرب من وجهة نظر أبي سفيان جعلته يعتقد أن قتل محمد في تلك اللحظة بعد انتهاء المعركة وهو جريح بالفعل ليس عملاً شجاعاً يجب القيام به، وهكذا نجا محمد.

كان موقف أبي سفيان الشهم في الحرب واضحاً أيضاً عندما نادى محمداً: «إنه قد كان في قتلاكم مثل، والله ما رضيت، وما سخطت، وما

= سفيان، وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول: ذق عقق، فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون؟ فقال: ويحك! اكتمها عني، فإنها كانت زلة (المترجم).

(١٢) في الإلياذة تعرض هيكوبا أكل كبد أخيل.

(١٣) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 211.

كان هبل المعبود الرئيس لمكة، وكان تفاخر أبي سفيان أن قوة المعبود في المعركة كانت أكبر من قوة إله محمد.

نهيت، وما أمرت». ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: «إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد». كانت المعركة تطبيقاً ومراناً جيداً لمعنى الرجولة في ذلك اليوم بالنسبة إلى المكيين، وسيجتمع الجانبان مرة أخرى العام المقبل لمواصلة ذلك المِران. قُتل في أُحُد أربعة وسبعون مسلماً وثلاثة وعشرون مكياً. كان من بين القتلى المسلمين أربعة أو خمسة فقط من المهاجرين، أما البقية فكانوا أنصاراً.

كشفت هزيمة المسلمين في أُحُد الطريق إلى المدينة. ولو أن المكيين اعتبروا الحرب كما فعل محمد ـ كوسيلة لبلوغ أهداف استراتيجية لتحقيق إرادة الله ـ لكانت الخطوة المنطقية بعد هزيمة القوات الإسلامية في الميدان هي الزحف إلى المدينة وتدميرها. حتى لو لم يقتل كل المسلمين في المدينة، فإن تدمير المدينة كان سيضع حداً على الأقل لقدرة محمد على التعرض لقوافل مكة التجارية، وكانت كارثة كهذه ستضعف النبوّة، ولكان ربما من المعقول أن ينهار الإسلام كحركة دينية اجتماعية بالكامل. وفي المقابل لو انعكست المواقف لكان من المؤكد تقريباً أن محمداً سيهاجم ويدمّر مكة. لكن أبا سفيان كان زعيماً عربياً تقليدياً، ولم يكن زعيماً لتمرد أيديولوجي، وكانت الحرب بالنسبة إليه وسيلة لتسوية النزاعات بين رجال على طريقة الفرسان. وبدلاً من مهاجمة المدينة، أمر أبو سفيان قواته بحزم أمتعتهم والعودة إلى مكة.

لم يكد أبو سفيان ينزل من جبل أحد ويأمر الجيش المكي بالتحرك حتى خرج محمد من مخبئه وأمر عليّاً بتتبع المكيين ومعرفة ما إذا كانوا متجهين إلى المدينة. كان محمد يعلم أنهم إن أرادوا المدينة ـ وهي على بعد أميال قليلة ـ فإنهم سيركبون خيولهم ويقودون جمالهم، أما إذا كانوا يستعدون للرحلة الطويلة إلى مكة، فإنهم سيركبون جمالهم ويقودون خيولهم. تبع علي المكيين لبضعة أميال ثم عاد فرحاً بأن المكيين ركبوا جمالهم عائدين إلى منازلهم. من المثير للدهشة أن محمداً لم يرسل أحداً يتبع المكيين للتأكد من صحة تقرير علي. كان المكيون قد رحلوا على بعد أميال قليلة فقط من ساحة المعركة عندما عاد علي، وكان بإمكانهم تغيير رأيهم بسهولة والتحول لمهاجمة المدينة. كان محمد موفّقاً مرة أخرى.

نزل محمد وضباطه من جبل أُحُد ليجدوا ساحة المعركة مملوءة بالقتلى

والجرحى. فَتّش وعَثر على جثة حمزة، كان قد «بُقر بطنه عن كبده، ومُثّل به، فجدع أنفه وأذناه». ثار غضب محمد وصرخ: «لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثّلن بثلاثين رجلاً منهم. فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثّلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب». لم يكن محمد بوذا، وكان يغضب بشدة ضد أعدائه، ولم يكن التهديد بتشويه أعدائه مجرد تفاخر. لكن في وقت لاحق، أوحى الله إليه يحثه فيه على معاقبة أعدائه بشكل مختلف: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به»، فنهى محمد عن التمثيل. أراد بعض المسلمين حمل قتلاهم ودفنهم في المدينة، لكن محمداً أمر بدفن القتلى حيث سقطوا. في بعض الأحيان تم دفن جثتين أو ثلاث جثث معاً.

كانت معركة أُحُد يوم الجمعة، وفي صباح السبت أمر محمد فلول جيشه بالتجمع. سار من المدينة جنوباً على طول الطريق إلى مكة وتوقّف عند حمراء الأسد، على بعد نحو ثمانية أميال من المدينة. هناك أمر كل رجل بإشعال النار حتى يحدث أثرها في الليل انطباعاً بوجود جيش أكبر بكثير. لم يكن محمد في وضعٍ يسمح له بمطاردة أحد، خاصة المكيين المنتصرين. ما كان يحاول فعله هو خداع المكيين بأنه مستعد للقتال إذا قرروا العودة إلى المدينة. كان خداع محمد منطقياً فقط لو تمكن المكيون من رؤية نيرانه في الليل. وفعلاً كان المكيون في ثالث أيام مسيرتهم، وهذا يعني أنهم لم يكونوا على بعد أكثر من عشرة إلى اثني عشر ميلاً من المدينة، وهي مسافة يمكن قطعها بسهولة إن قرروا الالتفاف ومهاجمتها.

كان لقلق محمد ما يبرره كما تبيّن الأحداث. بدأ المكيون في إعادة التفكير، وكان بعض الزعماء الشباب يؤيدون العودة إلى المدينة وإبادة المسلمين. ثم تدخل القدر بشكل مثير؛ فقد كانت مجموعة من البدو من قبيلة خزاعة في طريقها عندما صادفت مخيم محمد. كان الخزاعيون لا يزالون مشركين، لكنهم عقدوا اتفاقاً سابقاً مع محمد في وقتٍ ما مفاده أنهم «لا يخفون عنه شيئاً». تحدث زعيمهم، وهو معبد بن أبي معبد الخزاعي، مع محمد، وليس هناك شك في أن محمداً فكر في استخدام معبد للخداع.

غادر البدو معسكر محمد متجهين جنوباً حتى واجهوا المكيين ومخيم أبي سفيان. سأل أبو سفيان معبداً عن أخبار محمد والمسلمين الذين مروا بهم. يجب اعتبار ما حدث بعد ذلك أحد أكبر الخدع التكتيكية في التاريخ العسكري القديم. قال معبد لأبي سفيان: «محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ مثله قط... والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل». كانت حكاية معبد مختلقة بالكامل، فقد كانت قوة محمد في أضعف حالاتها العسكرية، ولو استدار المكيون لكان من المحتمل أن يدمروها بالكامل. وللحقيقة فقد كان المكيون قرروا بالفعل العودة ومهاجمة المدينة! رد أبو سفيان على حكاية معبد: «لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم»، فقال معبد: «فإني أنهاك عن ذلك». وكان لتلك الكلمات تأثيرها، «فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه». وساروا إلى مكة. أضاع المكيون بذلك أفضل فرصة لهم حتى الآن لتدمير دعوة محمد.

حرب غير تقليدية

جذبت معركتا بدر وأحد انتباه العشائر البدوية في المدينة ومكة وما حولهما. كان الصراع بين محمد والمكيين حدثاً كبيراً قد يشكل مستقبل أي عشيرة بدوية إذا اغتنمت الفرص المتاحة، أسواء كان ذلك من أجل المصلحة الذاتية، أم الرغبة في النهب، أم الاهتمام الحقيقي بالعقيدة الجديدة الإسلامية، أم فائدة التحالفات القديمة. ولذا أولت العشائر البدوية تلك الأحداث الآن اهتماماً كبيراً. كان الوعي بتمرد محمد ينتشر من البلدات إلى خارجها، وانتظر زعماء العشائر ليروا ما سيحدث، وكيف يمكنهم الاستفادة القصوى منه.

بعد شهرين من معركة أحد، وفي أيار/مايو عام ٦٢٥م، جاءت مجموعة من رجال القبائل من عشيرتي عَضَل والقارة، حلفاء قبيلة هذيل، إلى محمد قائلين إن بعض عشيرتهم قد أسلم بالفعل وإن آخرين يريدون الدخول في الإسلام. وطلبوا من محمد أن يرسل بعض المسلمين لتعليمهم الدين الجديد. رأى محمد في ذلك فرصة لتقوية نفوذه بعشيرة جديدة فوافق

على إرسال ستةٍ من صحابته معهم. في مكان يُسمى الرجيع تعرضت المجموعة المسلمة للغدر من قبل رفقاء الرحلة ونُصب لهم كمين من عشيرة بني لحيان من قبيلة هذيل. من بين المسلمين الستة مات ثلاثة في الاشتباك وأُسر ثلاثة، وقتل أحد هؤلاء فيما بعد وهو يحاول الهرب. ليس من الواضح سبب خيانتهم للمسلمين، وربما كان ذلك بسبب أن هذيل كانت من حلفاء قريش. يشير قربهم من الطائف، على بعد نحو ثلاثين ميلاً فقط من مكة، إلى أن ذلك ربما كان هو حقيقة الوضع. كما أن تسليم الأسرى المسلمين إلى قريش يوحي بوجود تحالف. ليس من الواضح كيف يمكن لهذا أن يغيب عن محمد. لعله علم بذلك ورأى في طلب الدعاة المسلمين فرصة لإضعاف ذلك التحالف. سَلّمت قريش السجينين المسلمين إلى أُسرٍ قُتل أفرادها في معركة أُحُد. صُلب أحد المسلمين على شجرة ثم طعنه الابن الأصغر لرجل قُتل في أُحُد، وقُطع رأس السجين الآخر.

كان محمد غاضباً لمقتل أصحابه واتخذ على الفور خطوات للثأر من هذيل بقتل زعيمها سفيان بن خالد. أرسل محمد عبد الله بن أنيس إلى هذيل حيث اكتسب ثقة الزعيم بانتقاده محمداً. عرض ابن خالد على ابن أنيس أن ينام في خيمته وأثناء الليل قطع ابن أنيس رأس ابن خالد وفر. سافر ابن أنيس ليلاً لتجنب الأسر، وعاد إلى المدينة حيث ألقى رأس ابن خالد عند قدمي محمد[١٤]. سُرّ محمد وأعطى ابن أنيس عصا مكافأة. عندما سأله عن معنى العصا أجاب محمد: «آيةٌ بيني وبينك يوم القيامة، إنّ أقل الناس المتخصرون يومئذ»[١٥]. لم يكن لمحمد أن يكون أكثر وضوحاً: الاغتيال مسموح به في خدمة الدين.

في غياب الانتصار العسكري، أصبح الاغتيال أداة أساسية لمحمد للتأثير في الأحداث. وبالطريقة نفسها أصبح كثير من المتمردين اللاحقين يمارسون القتل السياسي والتفجيرات باعتبارها أدوات أساسية. كانت بالطبع وسيلة الضعفاء، فلو كان محمد قادراً على توجيه ضربة عسكرية قاتلة لخصومه لفعل ذلك بالتأكيد. بعد أن أُضعف عسكرياً، حوّل محمد النضال

---

(١٤) Rodinson, Ibid. p. 189.

(١٥) المصدر نفسه.

إلى أسس سياسية مستخدماً الاغتيال كوسيلة. أرسل محمد رجلين إلى مكة لاغتيال أبي سفيان، زعيم المكيين في أُحُد وخصمه الرئيس هناك(*). تم التعرف إلى القتلة وإحباط المؤامرة، ولكن ليس قبل مقتل اثنين من المكيين. كان استخدام محمد للقتل السياسي ابتكاراً حقيقياً في السياسة العربية، وذهب إلى ما هو أبعد من مجرد الثأر. لم يكن من المعتاد اغتيال الأعداء، وإنما مقابلتهم في القتال. كما يلاحظ جون غلوب: «في جميع الروايات الكثيرة عن حياة النبي، لا يبدو أنه يوجد أي ذكر لأي شخص آخر (غير النبي) أرسل قاتلاً للفتك بآخر»[١٦]. أظهر محمد القيمة العملية للاغتيال، «أصبح للاغتيال تأثير سلبي في المجتمعات الإسلامية، ولطالما كثر القتل السياسي بشكل مأساوي في البلدان الإسلامية»[١٧].

مرة أخرى، وفي حزيران/ يونيو عام ٦٢٥م، قابل زعيمٌ قبلي يُدعى أبا براء محمداً، وكان زعيم عشيرة بني عامر. أخبر محمداً أنه يرغب في الإسلام وأنه وعشيرته كلها سيحولون إلى العقيدة الجديدة، وطلب أن يرسل محمد بعض الدعاة لإرشاد قومه. وبحسب ابن إسحاق، وافق محمد على الطلب «وأرسل أربعين من أصحابه من خيرة المسلمين». تشير بعض المصادر اللاحقة إلى أن عدد المرسلين سبعون[١٨]. في مكان يُدعى بئر معونة على بعد خمسين ميلاً جنوب شرق المدينة، هوجمت الجماعة من قِبل عشيرة بني سُليم بينما كان صحابة الرسول يسقون من البئر. قُتل جميع المسلمين باستثناء واحد. قبل ذلك بعام، قاد محمد غارات على بني سُليم في محاولةٍ لإظهار نفوذه وزعزعة ولائهم للمكيين. في المرتين تجنب بنو سُليم المعركة. ربما تساءل محمد عما إذا كانت غاراته قد حققت النتائج المرجوة. الآن، في بئر معونة، وجد الإجابة.

(*) قال ابن هشام: «ومما لم يذكره ابن إسحاق من بعوث رسول الله ﷺ وسراياه بعث عمرو ابن أمية الضمري فيما حدثني من أثق به من أهل العلم، بعد مقتل خبيب بن عدي وأصحابه، إلى مكة، وأمره أن يقتل أبا سفيان بن حرب» (المترجم).

(١٦) Glubb, Ibid. p. 220.

[كانت هناك محاولتان لقتل النبي ﷺ: **الأولى**: محاولة عمير الجمحي وإسلامه، وكان أرسله صفوان بن أمية. **والثانية** محاولة أبي سفيان بن حرب] (المترجم).

(١٧) المصدر نفسه، ص٢٢١.

(١٨) المصدر نفسه، ص٢٢٢، معتمداً على: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٩ ـ ١٩٠١).

شكلت خسارة أربعين (أو سبعين) من المحاربين المسلمين نكسة كبيرة. في غضون أربعة أشهر، عانى محمد والمسلمون ثلاث نكسات متتالية ـ أُحُد والرجيع وبئر معونة. لم يكن التمرد يسير على ما يرام خارج المدينة، ولم تكن هناك انشقاقات كبيرة لصالح المسلمين. ربما لم يجزع محمد جراء هذه النكسات، لكن من المعقول الشك في أن مكانته بين غير المسلمين قد تزعزعت. كان محمد بحاجة ماسة إلى نجاح، وبعض علامات القوة والقدرة على التأثير في الأحداث، والحفاظ على تماسك شعبه، وإقناع المشركين بأنه لا يزال رجلاً يُخشى منه. مرة أخرى هاجم يهود المدينة.

الهجوم على بني النضير

قابل محمد زعماء قبيلة بني النضير اليهودية بدافع مطالبتهم بجمع أموال لتسوية دية يدين بها أحد المسلمين لقتله اثنين من عشيرة بني عامر. استُقبل بحرارة وطُلب منه الانتظار ريثما يتداول اليهود في تلك القضية. وفقاً لابن إسحاق، خطط اليهود لقتل محمد بإرسال شخص ما إلى سطح المنزل الذي كان محمد ينتظرهم فيه وإلقاء حجر على رأسه. لكن «أتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة». وهناك أخبر أصحابه بخيانة اليهود، «وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم». لكن لو أراد اليهود قتل محمد لكان بإمكانهم فعل ذلك مباشرة، ولم تكن هناك حاجة إلى إخفاء الفعل بإلقاء حجر. إن رواية التحذير من السماء كانت على ما يبدو غير مصحوبة بالأعراض الجسدية المعتادة للوحي، وهذا مثير للتساؤل أيضاً. من المحتمل أن الرواية ربما أضيفت إلى كتاب ابن إسحاق من قِبل من نقّحه لاحقاً لتبرير خطة محمد العملية المتمثلة في جعل اليهود كبش فداء لتعزيز موقفه السياسي[١٩].

كان لليهود في المدينة حلفاء عرب، من بينهم عبد الله بن أبي، الذي دافع عنهم عندما طرد محمد في وقت سابق يهود بني قينقاع. حاول محمد تحييد هذه التحالفات وعزل بني النضير. أرسل بعض حلفائهم الذين أصبحوا مسلمين لإبلاغ اليهود أن «القلوب تغيرت وأن الإسلام قضى على التحالفات

(١٩) هذا ما يذهب إليه غيوم.

القديمة»[٢٠]. ومع ذلك، بدا ابن أبي مستعداً للوفاء بالتزاماته تجاه حلفائه اليهود، وقال لهم: «أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم». وعلى الطريقة التقليدية، تراجع اليهود إلى معاقلهم وانتظروا حصار محمد. لمدة ثلاثة أسابيع، من آب/أغسطس إلى أيلول/سبتمبر ٦٢٥م، حاصر محمد وقواته حصون اليهود، وفي وقت من الأوقات قطّعوا بعض النخيل لإظهار عزمهم. لم يأتِ الحلفاء العرب، بمن فيهم ابن أبي، لمساعدة بني النضير. استسلم اليهود وتوصلوا إلى اتفاق مع محمد سمح لهم بمغادرة المدينة. ذهب الكثيرون إلى خيبر، والبعض الآخر إلى سوريا. سُمح لهم بأخذ ما يمكن أن تحمله جمالهم من ممتلكات، ولكن صودرت دروعهم وأسلحتهم. جَرَد محمد بنفسه المعدات العسكرية؛ جُمع خمسين درعاً وخمسين خوذة و٣٤٠ سيفاً إلى مستودع أسلحة التمرد. وزّع محمد الأرض والمنازل والبساتين وغيرها من الممتلكات على المهاجرين، واحتفظ ببعض الأراضي لزراعة الشعير وبستان نخيل لنفسه(*). لقد انتصر محمد، وتوقفت الانشقاقات، وعاد من كان خارج المدينة إلى الاهتمام بذلك الرجل الموجود فيها.

معركة بدر الآخرة

تحدى أبو سفيان محمداً بعد معركة أُحُد للعودة إلى بدر في غضون عام لخوض معركة أخرى لإنهاء هذا الأمر. في نيسان/أبريل من عام ٦٢٦م، في موسم الربيع التجاري السنوي في بدر، وصل محمد ومعه ١٥٠٠ رجل وعدد صغير من سلاح الفرسان للرد على التحدي المكي. غادر أبو سفيان وقوة مكية قوامها ألفا رجل وخمسون من الفرسان إلى بدر، ولكنهم رجعوا إلى مكة بعد أيام قليلة. كانت تلك سنة جفاف وكانت الدواب ضعيفة مع القليل من العلف لإطعامها. تقول مصادر لاحقة إن المكيين جاؤوا إلى بدر لكنهم

---

(٢٠) Rodinson, *Muhammad*, p. 192.

(*) يشير الماوردي في **الأحكام السلطانية** والبلاذري **في فتوح البلدان** الى تلك الحادثة بأن النبي ﷺ: «حبس الأرض على نفسه، فكانت من صدقاته ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله» (المترجم).

بقوا خارجها[٢١]. إن إجبار الدواب على مسيرة مئتي ميل في أثناء الجفاف كان مخاطرة بموتها، وستكون الخيول عديمة الفائدة في القتال عند وصولها إلى بدر. كان على جيش محمد أن يسافر ثمانين ميلاً فقط من المدينة للوصول إلى بدر على أرضٍ فيها من الأعلاف ما يكفي للمطايا. عندما عاد الجيش إلى مكة قوبلوا بالسخرية، «فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق». حقق محمد نصراً نفسياً وسياسياً مهمّاً في بدر الآخرة، فقد وصل لمواجهة التحدي ولكي يراه الجميع، ولم يظهر المكيون. إضافة إلى ذلك كان عدد جيش المسلمين المؤلف من ١٥٠٠ رجل ضعف حجمه في العام السابق. أياً كانت الانشقاقات التي حدثت فقد تم تعويضها على ما يبدو عن طريق المسلمين الجدد. كان الإسلام أخيراً يكتسب موطئ قدم بين العشائر البدوية خارج المدينة نفسها.

واصل محمد الحرب السياسية. لقد كان قلقاً للغاية من أن يحشد المكيون الدعم بين البدو أو يجمعون تحالفاً كبيراً من القبائل لمهاجمة المدينة. تحرك لاستباق ذلك بحملة اغتيالات ومداهمات. في أيار/مايو ٦٢٦م أرسل محمد مجموعة صغيرة لقتل أبي رافع، أحد زعماء قبيلة بني النضير التي طُردت من المدينة. كان أبو رافع قد ذهب إلى خيبر حيث حاول حشد الدعم لهجوم على المسلمين. كما اغتيل زعيم يهودي آخر في خيبر بعد فترة وجيزة. أرسلَ محمد «وحدة كوماندوز» منتقاة بعناية من ثلاثين مقاتلاً متمرساً إلى خيبر كفريق دبلوماسي رسمي لمقابلة اليهود هناك. حاور المسلمون زعيم اليهود، أسير بن رزام، وأقنعوه بالقدوم إلى المدينة للتفاوض مع محمد. عرض المسلمون ضمان سلامته بمرافقتهم الخاصة المكونة من ثلاثين رجلاً. لا شيء عند العرب أكثر قيمة من كلمة الرجل، وعهده بالأمان والحماية، لذلك شعر ابن رزام بالأمان. في مكانٍ ما على الطريق إلى المدينة، انقض المسلمون على اليهود وقتلوهم جميعاً[*]. وعندما عاد قائد

---

(٢١) المصدر نفسه، ص١٩٥.

(*) وردت هذه الرواية، وإن تصرف بها المؤلف، في عدة كتب للسيرة. وقد أوردها المؤرخون المسلمون للدلالة على غدر زعيم يهود خيبر عندما غيّر رأيه في منتصف الطريق وأراد البطش بالمسلمين. ومع هذا كله فقد ضعّفت الرواية لوهن رواتها وهم محمد بن عمرو بن خالد الحراني (مجهول الحال)، وعبد الله بن لهيعة (ضعيف الحديث، ولا يحتج به كما قال ابن معين)، وعروة بن الزبير (حديثه مُرسل)، والحديث المُرْسَل من أقسام الحديث الضعيف (المترجم).

الكوماندوز إلى المدينة التقى بمحمد وهنأه على عمله[٢٢]. كان محمد يكتسب شهرة بالشدة والقدرة على الأمر بالقتل من مسافة بعيدة، في الوقت نفسه الذي كان حجم جيشه يتزايد وأصبح أقدر على دعم أتباعه اقتصادياً. كانت الرسالة إلى خصومه خارج المدن أنهم أيضاً غير آمنين ما داموا على خلافٍ معه.

في حزيران/ يونيو ٦٢٦م، وجه محمد انتباهه مرة أخرى إلى قبيلة غطفان المهمة وقاد جيشاً قوياً لمهاجمتهم. في ذات الرقاع، الواقعة على بعد ٦٠ ميلاً شمال شرق مكة، واجه هناك غطفان. تقع ذات الرقاع على بعد ١٨٠ ميلاً من المدينة. أصبحت قدرة محمد على إبراز قوته العسكرية على مسافات بعيدة مثيرة للإعجاب. كانت القدرة على إجراء عمليات عسكرية بالقرب من مكة مهمة من الناحية السياسية للقبائل الأخرى أيضاً، وأصبح محمد في وضعية الهجوم الآن. ومع ذلك، لا بد من أن جيش غطفان كان كبيراً، واعتقد الطرفان أنه من الأفضل الانسحاب بدلاً من القتال. ومع هذا فمن الواضح أن محمداً فرض كلمته[٢٣]. بعد شهرين، وفي آب/ أغسطس ٦٢٦م، سار محمد وجيشٌ قوامه ألف رجل لمداهمة واحة دومة الجندل على بعد ٣٥٠ ميلاً شمال المدينة. مرة أخرى واجه القبائل البدوية، ولم يحدث قتال أيضاً. كان الغرض من الغارة سياسياً أكثر منه عسكرياً، واستعراضاً للقوة والإرادة لمنع البدو من الانضمام إلى التحالف المكي. بعد بضعة أشهر، ربما في كانون الأول/ ديسمبر، قاد محمد مجموعة مداهمة كبيرة أخرى ضد بني المصطلق(*) بالقرب من شاطئ البحر الأحمر[٢٤]. هذه المرة ضرب محمد بقوة، وفاجأ العدو عند بئر من الآبار، وسرعان ما دفعهم إلى الفرار، وغنم منهم ألفي جمل وخمسة آلاف رأس من الأغنام

(٢٢) المصدر نفسه، ص٢٤٩.

(٢٣) هناك علّم محمد المسلمين صلاة الخوف، وهي أن يصلي نصف الجنود بينما يقف الآخرون بمواجهة العدو جاهزون للقتال.

(*) سمع رسول الله بتجمع قبيلة بني المصطلق استعداداً لغزو المدينة، فجمع جيشه وانطلق إليهم مسرعاً. وكان خروجه من المدينة في ٢ شعبان سنة ٦هـ وباغتهم عند منطقة تعرف بماء المريسيع (المترجم).

(٢٤) المصدر نفسه، ص١٩٦.

والماعز ومئتي امرأة[٢٥].

أدى طرد القبيلة اليهودية الثانية ودخول الكثير من الخزرج والأوس إلى الإسلام إلى إضعاف نفوذ عبد الله بن أبي داخل المدينة بشكل كبير، ما جعل محمداً أهم زعيم في المدينة، وأصبحت قاعدة عملياته الآن آمنة، ولربما كان للغارات الاستباقية ضد القبائل البدوية المعادية على طول طريق القوافل وبالقرب من مكة بعض التأثير في تقليل القوة البشرية العسكرية التي كانت متاحة للتحالف المكي. تم التخلص من عدد من معارضي محمد المؤثرين بقتلهم، وهو تحذير لأي زعيم بدوي قد يميل إلى جانب المكيين. إذا كان حجم جيش محمد هو المقياس، فيبدو أن الإسلام كان يكتسب أتباعاً بوتيرة سريعة، ما زاد من قاعدة القوة البشرية العسكرية لمحمد. في أقل من عام، عكس محمد الهزيمة في معركة أُحُد، وعاد التمرد إلى النشاط والهجوم مرة أخرى.

لكن ثمّة عاصفة كانت تهب من مكة.

(٢٥) المصدر نفسه، ص١٩٧.

الفصل الثامن

معركة الخندق

آذار/مارس ٦٢٧م

إلى ما يقرب من عام، شنّ المسلمون غزوات واغتيالات ضد القبائل البدوية التي كانت تربطها علاقات تجارية قديمة مع المكيين على أمل ثنيهم عن الانضمام إلى التحالف العسكري المكي. في الوقت نفسه بذل محمد جهوداً لتأمين دعم أو حياد القبائل الأخرى من خلال المفاوضات. كانت السياسة دائماً لها الأسبقية على الدين في هذه الجهود، إذ شكّل محمد الكثير من التحالفات مع قبائل وثنية من دون أن يطالبها بالتحول إلى الإسلام. كما أعاد أيضاً تشكيل قواته العسكرية التي تعرضت للإنهاك الشديد في أُحُد، واستعمل في غاراته قوات أكبر وتجول مسافات أبعد وأطول، وكثيراً ما اقتربت من جنوب مكة.

كانت النتيجة أن محمداً كان قادراً بشكل فعال على قطع طرق القوافل الشمالية والشرقية التي استخدمها المكيون، وأغار حتى على القوافل الصغيرة التي كانت تتحرك من مكة على الطريق الجنوبي الشرقي حول الطائف ونخلة. بعد عامين من معركة أُحُد، ازداد نفوذ محمد وسمعته بشكل كبير ووصل إلى جنوب مكة، وإلى نجد وأقصى الشرق حتى اليمامة. زوّد هذا التحالف الأخير مع زعيم منطقة اليمامة محمداً برافعة اقتصادية قوية ضد مكة؛ إذ كانت اليمامة مخزن الحبوب في الجزيرة العربية والمصدر الرئيس لحبوب مكة[١]. لا تخبرنا المصادر عن ديانة زعيم اليمامة، ولكن نزولاً عند طلب

---

(١) Muhammad Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet* (Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939), p. 80. =

محمد توقفت شحنات الحبوب إلى مكة[٢]. ساعد المناخ أيضاً عندما ضرب الجفاف الشديد المنطقة، وتسبب مع الحصار في نقص غذاء حاد هناك. في مناورة سياسية ذكية أرسل محمد المال إلى مكة لشراء طعام للفقراء والجياع. كان الكرم عند العرب من أهم فضائل الرجل، وساهم كرم محمد تجاه فقراء مكة (على الرغم من أنه كان السبب غير المباشر في معاناتهم في المقام الأول) إلى حد كبير في إقناع الكثير من المكيين بأنه رجل منصف وعادل. كان محمد يعلم بالتأكيد أن كثيرين ممن اعتنقوا الإسلام ينتمون إلى الطبقات الاجتماعية الدنيا في المجتمع العربي، وأن إطعام فقراء مكة سيؤدي إلى زيادة جاذبية الإسلام ودعمه شخصياً. بحلول تشرين الثاني/نوفمبر عام ٦٢٦م تناهى إلى سمع محمد معلومات من مكة تفيد بأن أبا سفيان والمكّيين يخططون لحملة عسكرية كبيرة. ربما كان مصدر هذه المعلومات هو العباس، عم النبي، ووكيله المؤتمن داخل القيادة المكية.

كان محمد بعيداً يقود غزوة عبر أراضي غطفان متجهاً نحو بلدتهم التجارية الرئيسة في دومة الجندل عندما وصلت أنباء إلى المدينة أن المكيين اتخذوا قراراً بتشكيل جيش ومهاجمة قاعدة عملياته[٣]. أُرسل أحد المخبرين على الفور لإبلاغ محمد، والتقى به خارج دومة الجندل. استدار محمد وعاد إلى المدينة في رحلة مدتها خمسة عشر يوماً، حيث بدأ على الفور التخطيط للدفاع[٤]. كان نجاح محمد في إعادة بناء قدراته العسكرية وقطع الطرق التجارية يخنق الاقتصاد المكي، ومن المحتمل الآن أن أبا سفيان أدرك أن تقديره عدم مطاردة محمد وقتله بعد معركة أُحُد كان مكلفاً للغاية. أما الاتهام الذي أطلقه ابن إسحاق وكرره كتّاب لاحقون بأن يهود خيبر كانوا وراء فكرة

= نقلاً عن: أبو محمد عبد الملك بن هشام، **سيرة النبي**، راجع أصولها وضبط غريبها وعلق حواشيها ووضع فهارسها محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ مج (القاهرة: دار التحرير للطباعة والنشر، ١٩٦٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Hamidullah, Ibid., p. 64.

معتمداً على الصالحي الشامي.

(٤) المصدر نفسه، ص٨٤.

الهجوم وأقنعوا قريشاً بتبنيها فلا يبدو أكثر من دعاية إسلامية. كان الوضع الاقتصادي في مكة حرِجاً، وأبو سفيان، وهو نفسه الخصم الرئيس لمحمد منذ البداية، لم يكن بحاجة إلى أن يحثه يهود خيبر كي يقتنع بضرورة إزالة محمد، مصدر مشاكل المكيين.

جَمع المكيون جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل يتكون من أربعة آلاف من المكيين وحلفائهم المحليين، وألفين من بدو غطفان من شمال المدينة، ونحو سبعمئة آخرين من قبيلة بني سُليم التي كانت تحمل ضغينة شخصية ضد محمد. أما البقية فكانوا من قبائل بدوية صغيرة مختلفة، بعضهم يقاتل بأجر، والبعض الآخر اجتذبهم احتمال النهب[٥] كان التحالف يضم ستمئة من الفرسان، مئتان منهم من المكيين تحت قيادة خالد بن الوليد، أما البقية فكانوا من البدو تحت إمرة عشائرهم. وفي المقابل استطاع محمد حشد ثلاثة آلاف راجل وخمسة وثلاثين من الفرسان. على الرغم من أن جيش محمد أصغر من القوة المكية، إلا أنه كان لا يزال أكبر بكثير مما كان في أُحُد، وهذا يشير إلى أن جهوده لإعادة بناء قدراته العسكرية بعد الهزيمة كانت ناجحة جداً. وفق أي معيار عربي تقليدي، كان جيشاً مكوناً من ثلاثة آلاف رجل تحت قيادة زعيم واحد هو رصيد عسكري هائل، وكان أيضاً شاهداً على هيبة قائده.

لم يعد الاشتباك مع المكيين في سهل مفتوح خياراً بعد الهزيمة في أُحُد. وبسبب أعداد الجيش المكي التي كانت ثلاثة أضعاف جيشه، فقد اختار محمد بحكمةٍ الدفاع عن المدينة من خلال الاستفادة القصوى من جغرافيتها وفصل السنة. كان محمد يعلم أن تجنيد الجيش المكي سيستغرق عدة أشهر، ولذا فمن غير المحتمل وصولهم إلى تخوم المدينة قبل فصل الربيع. عاد محمد إلى المدينة على الأرجح في أوائل كانون الأول/ ديسمبر، ما منحه أربعة أشهر تقريباً للاستعداد لذلك الهجوم[٦].

---

(٥) Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002), p. 183, and John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 241.

(٦) Hamidullah, Ibid., p. 68.

بحلول شهر آذار/مارس، كان قد تم بالفعل جمع الحصاد في المدينة وتخزين الشعير والتمور، ولن يكون هناك ما تأكله الخيول والجمال المكية في الحقول القاحلة. احتاج جيش قوامه عشرة آلاف رجل إلى ما يقرب من ستة عشر ألفاً من الإبل لنقل الرجال والإمدادات، فضلاً عن سلاح الفرسان المكي المكون من ستمئة حصان. ستكون الحقول المحيطة بالمدينة خالية من المحاصيل، ولن يتمكن الجيش المكي من الصمود إلا لفترة قصيرة فقط قبل أن تبدأ دوابه في النفوق.

وفّرت التضاريس المحيطة بالمدينة دفاعات جيدة من ثلاث جهات. كانت الحرَات إلى الشرق والغرب غير سالكة في الغالب باستثناء عدد قليل من الوديان التي كانت أضيق من استيعاب تشكيلات عسكرية كبيرة. تمرّ المداخل الجنوبية أيضاً من خلال وديان، وكان أحدها واسعاً بما يكفي لاستيعاب جيش. ومع ذلك، كان هذا المسار في منطقة كثيفة الاستيطان من أحياء عشائرية وحدائق مسوّرة وأبراج محصنة حيث «كانت الممرات بين الحدائق متعرجة وضيقة جداً بحيث لا تستطيع إلا طوابير جيش العدو الطويلة السير فيها.... وبإمكان نقاط صغيرة من المدافعين إيقافها»(٧). كانت مشكلة محمد هي الممر الشمالي، وهناك تنفرج حقول الحرّات عن سهل كبير يوفّر للجيش المكي طريقاً سلساً للمدينة على أرض خالية نسبياً. كانت الفجوة بين «قرون» الحرّة بعرض أربعة أميال تقريباً، وكانت هناك مساحة كبيرة لِانتشار المكيين، وملائمة لمناورات سلاح الفرسان المكي. إذا نشر محمد قواته ضد المكيين في السهل الشمالي، فإن الخطوط المكية المتفوقة عددياً سوف تتداخل بسهولة مع أجنحته مما يترك مساحة كبيرة على كلا الجانبين لفرسان مكة لتطويق الجيش الإسلامي بجهد ضئيل. تحتّم على محمد إيجاد طريقةٍ ما لسدّ الممر الشمالي إن أراد الدفاع عن المدينة.

---

(٧) المصدر نفسه، ص٦٦.

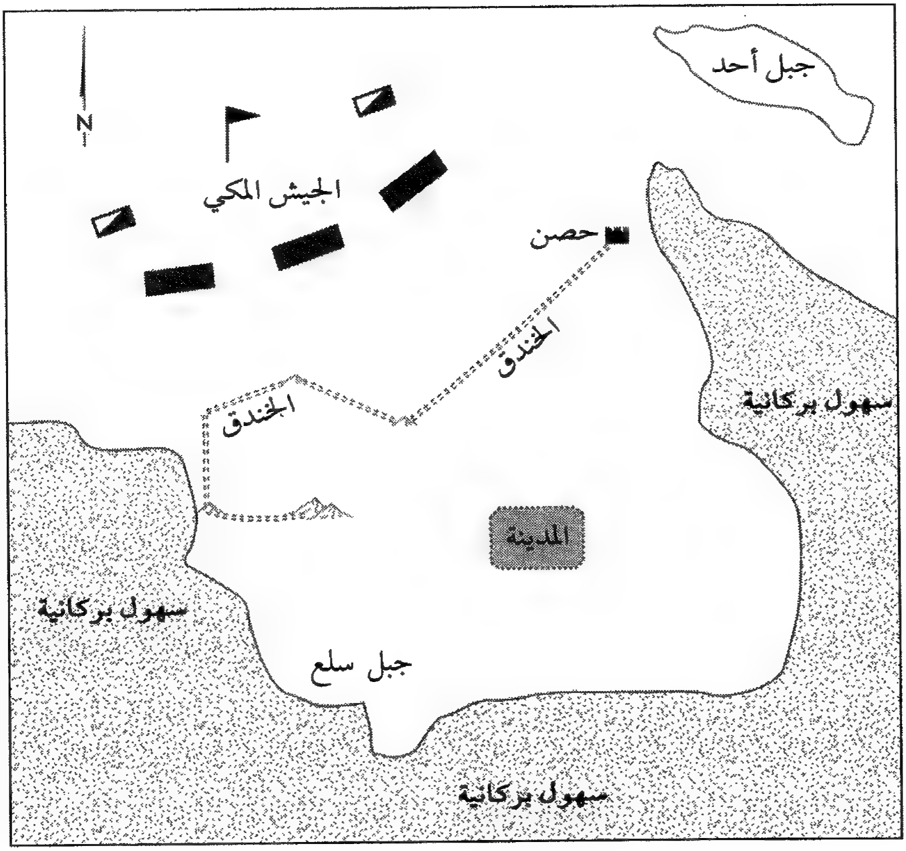

الخريطة ٩: ساحة الخندق ٦٢٧م

لم يكن حفر خندق عبر الممر الشمالي لمنع التقدم المكي فكرة محمد. قال ابن إسحاق إن محمداً سمع حديثاً بين بعض الرجال ذُكرت فيه فكرة الخندق، وينسب المؤرخون المسلمون اللاحقون الفكرة إلى سلمان الفارسي[(٨)]. كان سلمان نجل ثري فارسي، اعتنق النصرانية في طفولته وذهب إلى سوريا لدراسة الدين. عندما توفي أستاذه انطلق سلمان إلى شبه الجزيرة حيث سمع أن نبياً جديداً (ربما إشارة إلى محمد) قد ظهر. في الطريق هوجمت قافلته واقتيد إلى العبودية وبيع ليهودي في المدينة. كما كانت

(٨) المصدر نفسه، معتمداً على الطبري، **تاريخ الرسل والملوك** (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٩ ـ ١٩٠١).

عادته، فقد ساعد محمدٌ سلمانَ في جمع أموال كافية لشراء حريته بعد أن أسلم. يصرّ المؤرخون المسلمون على أن استخدام الخندق كتحصين دفاعي كان شيئاً جديداً في شبه الجزيرة العربية في زمن محمد. إذا كان الأمر كذلك، فمن الممكن أن تكون إقامة سلمان في بلاد فارس وسوريا قد أطلعته، ولو بشكل عام، على هذا النوع من التحصين لأنه كان مألوفاً لدى الجيوش الفارسية والبيزنطية. حقيقة أن الروايات الإسلامية تسميه باسمه الفارسي: **خندق**، تشير إلى صحة الرواية أن الخندق كان فكرة سلمان.

يختلف أمر حفر خندق طويل تماماً عن حفره بطريقة تجعله عقبة عسكرية لكل من سلاح الفرسان والمشاة. لتغطية الفجوة الشمالية بين قرون الحمم البركانية، تطّلب الأمر وجود خندق يبلغ طوله ثلاثة أميال ونصف على الأقل على شكل حرف N تقريباً لدمج بعض العوائق الطبيعية في مساره[٩]. لا توجد إشارات في المصادر الأصلية فيما يتعلق بعرضه وعمقه، سوى ذكرهم أن بمقدرة الرجل حفر حفرة «طولها وعمقها خمسة أذرع» في اليوم[١٠]. كان هدف المدافعين أن يكون الخندق عميقاً وواسعاً بما يكفي لمنع الفرسان من عبوره بقفزة واحدة. المفتاح هو العلاقة بين عُمق الخندق وعرضه؛ فالحصان المدرّب يستطيع بالكاد القفز فوق خندق يبلغ عرضه ستة أمتار، وفي ذلك الزمن كان سلاح الفرسان التقليدي يستطيع بالكاد القفز خمسة أمتار بنجاح. إذا كان الخندق عريضاً وبعمق متر فقط، يمكن للحصان القفز في الخندق ثم القفز إلى الجانب الآخر، أما إذا تصورنا خندقاً عرضه خمسة أمتار فسيبدو مناسباً، خاصةً إذا تم استخدام التراب المأخوذ من الخندق لبناء حاجز بطول متر تقريباً على الجانب البعيد، ما يجبر الحصان على القفز صعوداً، كما أن العمق الذي يزيد على مترين سيصعّب على الحصان القفز داخل الحفرة والخروج منها[١١]. من الواضح أن خندقاً بهذه الأبعاد سيشكل في الوقت نفسه عقبة هائلة أمام هجوم المشاة، وسيتمتع المدافعون من خلف حاجز الخندق بميزة الارتفاع والانحدار التي تمكّنهم

(٩) المصدر نفسه، ص٦٨. لم يذكر ابن إسحاق شيئاً عن طول الخندق.

(١٠) المصدر نفسه، عن الواقدي.

(١١) أنا ممتن للفارسة البارعة أليسون جاجليادري للمعلومات المتعلقة بقدرات حصان القفز.

من إلقاء الحجارة والسهام على المهاجمين بينما يظلون في مأمن إلى حدٍّ ما من الهجمات المضادة. في ظل هذه الظروف، ستنخفض الميزة العددية للمشاة المكيين بشكل كبير.

استغرق بناء الخندق أربعة أشهر تقريباً(*) بعمل الجميع في المدينة بمن فيهم محمد. ومن المثير للاهتمام أن المصادر تخبرنا أن يهود قبيلة بني قريظة، آخر قبيلة يهودية متبقية في المدينة، قدموا أيضاً يد العون في الحفر(١٢)، كما لاحظ المؤرخون العرب اللاحقون أن المسلمين استعاروا من اليهود «أدوات حفر»(١٣). قد يبدو أن عرض اليهود مساعدة محمد بعد طرد القبيلتين اليهوديتين الأخريين من المدينة أمر غريب في هذا الصدد، ولكن يجب أن نتذكر أن القبائل اليهودية في شبه الجزيرة العربية لم يكن ممكناً تمييزها عن القبائل العربية في قيمها وعاداتها من جميع النواحي باستثناء الدين. كانت قبيلة بني قريظة اليهودية حلفاء للأوس المتحالفين مع محمد، وقد وفّوا بالتزاماتهم بأمانة تجاه محمد حتى عندما تم طرد إخوانهم اليهود، الذين لم يكن لديهم مثل هذه الالتزامات. تدعم جميع الأدلة الرأي القائل بأن بني قريظة قد احترموا واجباتهم تجاه محمد ولم يرتكبوا أي فعل مريب. في الواقع، لو كان لدى محمد أي مخاوف من هذا القبيل لاتخذ بالتأكيد خطوات ضدها **قبل** وصول المكيين. على الرغم من صعوبة الطرق الجنوبية للمدينة، إلا أنها كانت معاقل اليهود. إضافةً إلى ذلك كان بإمكان اليهود تجنيد ألف رجل للقتال. لو كان لدى محمد أي سبب للشك في بني قريظة، لما سمح لهم بالبقاء وراء دفاعاته وهو يستعد لمحاربة المكيين.

عشية المعركة كان محمد وقواته في حالة جيدة. وضع محمد مركز قيادته على منحدر منخفض على جبل سلع، وهي الأرض المرتفعة الوحيدة في السهل، والتي أشرف من خلالها بنظره على ساحة المعركة. أُنجز الخندق

(*) وردت الروايات أن المسلمين عملوا في الخندق حتى تم أحكامه في ستة أيام وفقاً للواقدي وابن سعد. وزعمت روايات أخرى أنها كانت عشرين يوماً أو أربعة وعشرين يوماً، وهو الرأي الأرجح عند معظم محققي السنة (المترجم).

(١٢) Rodinson, *Muhammad*, p. 210.

(١٣) Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet*, p. 71, اعتماداً على الواقدي.

في الوقت المحدد، وحيّد بامتياز التفوق المكي في سلاحي المشاة والفرسان. كما كان لدى جيش محمد إمدادات كافية من الطعام والماء بينما كان لدى المكيين إمدادات محدودة لقواتهم ودوابهم. كانت الحقول جرداء بحيث «لم تجد خيول العدو شيئاً سوى ما جلبه أصحابها معهم»(١٤). كان لمحمد أيضاً ميزة خطوط الجيش الداخلية، ما أتاح له القدرة المهمة في تحويل الأعداد لمواجهة تمركز القوة المكية أينما تجمعوا على طول الخندق. منح هذا محمداً السيطرة على نقاط التركيز الحاسمة على طول خط المعركة بأكمله والقدرة على تحييد التفوق العددي المكي. في وقتٍ ما في آذار/مارس ٦٢٧م وصل الجيش المكي إلى خارج المدينة. بعد المسار نفسه الذي سلكوه في معركة أُحُد، تجنّب المكيون الطرق الجنوبية، ومروا غرب المدينة ثم عسكروا في موقعين في السهل شمالها.

لا بد من أن أبا سفيان استشاط غضبه عندما سُدّ طريقه بخندق محمد. لقد جاء مستعداً لمعركة عربية تقليدية من مشاة وخيول على أرض مفتوحة، في تكرار لمعركة أُحُد. وكان يخطط لإطعام جيشه ودوابه على العلف والمحاصيل حول المدينة. لا بد من أنه أدرك خطأه الفادح مع خلو الحقول. كانت مسألة وقت فقط، ربما أسبوعين أو ثلاثة، قبل أن تبدأ جماله وخيوله بالهزال من الجوع ثم الموت. إضافةً إلى ذلك، تكوّن الجيش المكي من تحالفات، ولم تكن بعض وحداته مدفوعة بالثأر أو برعاية مصالح التجارة المكية. أصبح من الواضح أنه مع عدم وجود غنائم - واحتمالية نفوق الدواب إن لم يُعتنَ بها - فقد تبدأ بعض هذه الوحدات في الانسحاب بعيداً. كان عامل الوقت ضد أبي سفيان والمكّيين.

كما أشرنا سابقاً، كانت الحرب العربية قبل إصلاحات محمد بدائية في تطبيقاتها، وغالباً ما كان جدار بسيط من بضع أقدام كافياً لعرقلة التقدم العسكري. في حين أن جيشاً بيزنطياً أو فارسياً (أو أي جيش آخر من العصور القديمة)(١٥) قد يستطيع عبور الخندق بسهولة، ثبت أنه عقبة كأداء

(١٤) Hamdidullah, Ibid., p. 72,
معتمداً على الصالحي الشامي في **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد.**

(١٥) للاطلاع على قدرات الجيوش الرئيسة في العصور القديمة من ٤٠٠٠ إلى ١٤٥٣ قبل الميلاد =

أمام المكيين. حرس المسلمون الخندق ليل نهار بجماعات مسلحة للرد على أي محاولة اختراق، وإن لم يكن لديهم سوى خمسة وثلاثين من الفرسان للقيام بدوريات على طول الخندق[١٦]. قام المكيون من حين إلى آخر بمحاولاتٍ للتغلب على العقبة من خلال القفز فوقها بسلاح الفرسان، ويبدو أن معظمها كان لا طائل من ورائها سوى التبجح الفردي، وباءت جميعها بالفشل. لم يحاول المكيون القيام بهجوم متزامن على نقاط مختلفة على طول الخندق، وهو الحل التكتيكي الأكثر بداهةً للمعضلة. قامت مجموعات صغيرة من المشاة ببضع محاولات متواضعة لشق طريقها خلاله وانتهت بكارثة، ولم تتم محاولة شن هجمات مشاة واسعة النطاق. بعد ثلاثة أسابيع، استمر الطرفان في مواقعهما يتبادلون الشتائم. يلاحظ حميد الله أنه «لم تكن هناك معركة ضارية قط، ولكن تم اللجوء إلى تراشق السهام فقط من كلا الجانبين من وقت لآخر»[١٧]. بعد انقضاء شهر أسفر الحصار عن مقتل ثلاثة مكيين وخمسة مسلمين فقط[١٨].

في وقت لاحق حدث أمر حاسم. كان بعض اليهود الذين طردهم محمد في وقت سابق من المدينة قد استقروا في واحة خيبر شمال المدينة، وعندما بدأ مخزون المكيين من الطعام ينفد بشكل خطير وصلت قافلة إمداد من خيبر محملة بعشرين حمولة بعير من الشعير، وتمور للقوات، وقشور للدواب. أفادت مصادر لاحقة أن رجال محمد استولوا على القافلة على الرغم من عدم ذكر الكيفية[١٩]. التحول المهم أنه بسبب دعم يهود خيبر للمكيين، بدأ

= انظر: Richard A. Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, 3 vols. (Westport, Conn.: Greenwood, 2005).

(١٦) Hamidullah, Ibid.
معتمداً على الواقدي.

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) Rodinson, *Muhammad*, p. 210.

(١٩) Hamidullah, Ibid., p. 74.
نقلاً عن الصالحي الشامي. من شبه المؤكد أن القصة ملفقة. قافلة خيبر كانت قادمة من الشمال إلى مؤخرة المواقع المكية. كانت قوات محمد مختبئة خلف الخندق ومحاطة بقرون السهل. من غير المعقول أن تكون قوة كبيرة بما يكفي للاستيلاء على قافلة خيبر قد انسلت بطريقة ما خارج المدينة ومرّت عبر المواقع المكية من دون أن تُكتشف، ثم نصبت كميناً للقافلة، ثم عادت إلى مواقع المسلمين مع الغنائم.

محمد يشك في أن يهود بني قريظة الذين كانوا في ظهره قد تحالفوا مع أقربائهم في خيبر ويستعدون لمهاجمته. لم يفعل محمد شيئاً حينئذ، لكن خوفه من هجوم مفاجئ من قبل اليهود قد علق بذهنه.

استمر حصار المدينة لمدة أسبوع آخر ولم تظهر نتائج لأي من الجانبين. حتى الآن أمضت الجيوش أكثر من شهر في الميدان، وكان بإمكان محمد أن يستثمر مرور الوقت وتأثيره الحتمي في حالة إمداد أهل مكة، لكنه لم يكن أبداً من يتفاعل مع الأحداث بعد حدوثها إذا كان بمقدوره تشكيلها، وكان عقله السياسي والاستراتيجي يعمل على إيجاد طرائق لتعطيل التماسك السياسي للتحالف المكي. تخبرنا مصادر لاحقة أن محمداً بدأ مفاوضات مع زعماء قبيلة غطفان التي يبلغ عدد كتيبتها ألفي رجل. باستخدام «عملاء سريين» حاول محمد التفاوض على سلامٍ منفصلٍ مع غطفان، ونجحت المحادثات في التوصل إلى اتفاق وعدهم فيه محمد بثلث محصول تمور المدينة إذا ما انشقّوا عن المكيين وعادوا إلى ديارهم[٢٠]. ولكن عندما جمع محمد «أصحاب النخل» في المدينة، لم يتمكن من إقناعهم بأن الاتفاق في مصلحتهم، وأسقط الأمر[٢١].

يبدو معقولاً أن أبا سفيان قد توصل إلى النتيجة نفسها التي توصل إليها محمد بأن الحل العسكري للمأزق الحاصل أمر غير مرجح. ومن ثَمّ، حاول المكيون إيجاد حل سياسي خاص بهم. كانوا على علم بتاريخ محمد مع يهود المدينة وكانوا يعرفون بالتأكيد أن محمداً كان على علم بمحاولة يهود خيبر إرسال الإمدادات إلى الجيش المكي. لذلك كان تخميناً معقولاً أن يهود المدينة قد يقتنعون بمهاجمة محمد انطلاقاً من مجمعاتهم الواقعة خلف مواقع المسلمين. تواصل المكيون مع بني قريظة على الأرجح باستخدام يهود خيبر كوسطاء. يقول ابن إسحاق إن حيي بن أخطب، زعيم قبيلة بني النضير، كان هو ذلك الوسيط. إلا أن التواصل فشل، وكل الأدلة تشير إلى أن اليهود رفضوا عروض المكيين وبقوا على الحياد[٢٢].

---

(٢٠) Hamidullah, Ibid., p. 76.
اعتماداً على ابن هشام والطبري.

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) Rodinson, *Muhammad*, p. 210.

يبدو أن أخبار التواصل مع بني قريظة قد وصلت إلى محمد، وبات يستبعد الوثوق ببني قريظة للبقاء خارج القتال. لقد فَهِم محمد بالتأكيد أن بني قريظة كانوا مفتاح النصر أو الهزيمة، فإنهم إذا انضموا إلى المكيين فقد انتهى أمره. نظراً إلى خطورة التهديد، لا يمكن لوم محمد لمحاولته التأكد من أن بني قريظة لن يتحالفوا مع المكيين، ولهذه الغاية أرسل نعيم بن مسعود، الغطفاني الذي أسلم حديثاً، إلى بني قريظة. كان ابن مسعود معروفاً عند اليهود «في الجاهلية» بأنه رجل مؤتمن[٢٣]، فحذّر اليهود من أن يثقوا بالمكيين، وقال إن اليهود سيخسرون أكثر بكثير من المكيين الذين يمكن أن يعودوا إلى وطنهم إذا ساءت الأمور، تاركين اليهود وحدهم لمواجهة غضب المسلمين. فاقترح ابن مسعود: «لا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه». ثم ذهب ابن مسعود إلى زعماء غطفان وأخبرهم أن اليهود سيقفون إلى جانب محمد، وأنهم كانوا يخططون لتسليم محمد زعماء من قريش لإقناعه بولائهم، وحذر ابن مسعود من أنه إذا «بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.» وهكذا كان أن «خذَّل الله بينهم». أصبح أيُّ عمل مشترك مستحيلاً الآن، وبات ظهر محمد بأمان.

استمر الحصار الآن لأكثر من شهر، وكانت بعض الخيول والجمال المكية تموت بسبب نقص العلف، كما كانت حصص غذاء الجيش تنفد. كان حليب النوق والتمر لا يزالان متاحين، لكن الشعير كان على وشك النفاد. قلقت بعض العشائر البدوية من غيابها الطويل عن قطعانها ونسائها، وانتاب الجنود شعورٌ بالضيق العام حيث أصبح من الواضح الآن للجميع استحالة التغلب على الخندق، واختفت فرص النهب والمجد. يخبرنا ابن إسحاق أن المكيين لم يكن لديهم معسكر دائم، مما يعني عدم محاولة بناء مخازن لتوفير الطعام. كانت هذه هي الحالة الاعتيادية للجيوش العربية القائمة على العشائر، كل عشيرة وجنودها يعولون أنفسهم. توقع المكيون معركة ضارية سريعة على سهل مفتوح ولم يكونوا مستعدين لحصار طويل. يبقى اللغز هو

---

(٢٣) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, *The life of Muhammad*, p. 458..

لماذا لم يفكر أحد المكيين بمهاجمة المدينة من الجنوب. على الرغم من أن التضاريس هناك كانت ستجعل الهجوم صعباً إلا أنه لم يكن مساراً مستحيلاً وبالتأكيد أفضل من مشاهدة ضمور الجيش المكي كل يوم.

بدت أحوال الطقس كأنها تقف في مواجهة المكيين، وتعرضوا باستمرار لعوامل جوية قاسية بعد أن أضعفهم نقص الغذاء. ذات ليلة ضربت عاصفة عنيفة المنطقة. أطاحت الرياح خيام أهل مكة وأطفأت نيران المخيم، ونثرت أواني الطهي. ربما تسبب المطر والبرد المفاجئان في خسائر فادحة في الدواب الضعيفة المقيدة بالفعل؛ إذ مات كثير منها. كان الطقس قاسياً لدرجة أنه عندما طلب محمد متطوعاً لعبور الخندق واستكشاف المواقع المكية، «فما قام رجل من القوم، من شدة الخوف وشدة الجوع، وشدة البرد»، حتى وعد محمد المتطوع بأن «يكون رفيقي في الجنة». أخيراً، أمر محمد رجلاً بالذهاب.

تحطمت معنويات الجيش المكي أخيراً بسبب الطقس العنيف، وخاطب أبو سفيان نفسه قواته: «يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل»، ثم ركب جمله وذهب. إلى جانب الانزعاج العام والفشل العسكري، كان موسم الحج السنوي في مكة على بعد شهر واحد فقط وكان هناك أعمال يتعين القيام بها وجني أموال. بمجرد رحيل المكيين، تفكك التحالف بسرعة وعادت العشائر من حيث أتت.

مذبحة بني قريظة

تجلت صلابة الفكر السياسي لمحمد فيما حدث بعد ذلك؛ ففي اليوم نفسه الذي بدأ فيه الجيش المكي الانسحاب تحرّك ضد آخر قبيلة يهودية متبقية في المدينة. في وقت ما من الظهيرة قيل إن محمداً قابل الملاك جبرائيل الذي أخبره أن الملائكة لم يلقوا أسلحتهم بعد، وقال: «إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة»[٢٤]. أصدر محمد على الفور أوامر لجيشه

---

(٢٤) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 249.

بالتجمع عند حصون بني قريظة. كانت الضرورة الملحة لأمره واضحةً بأن لا يصلين أحدٌ صلاة العصر إلا في بني قريظة[٢٥]. قصد محمد الآن أن يفرغ من يهود المدينة مرة وإلى الأبد.

كان قرار محمد بإبادة بني قريظة سياسياً بلا رحمة. لا يبرر ابن إسحاق، وهو المصدر الأول لهذه الأحداث، عمل محمد سوى أن الله أمره أن «يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم»[*]. تدّعي الروايات اللاحقة أن التخابر المكي مع بني قريظة لمهاجمة محمد من الخلف قد نجح في الواقع وأن عدداً قليلاً من اليهود، الذين يُقال في الرواية إنهم أحد عشر رجلاً، قاموا بالفعل بعمل عدائي ضد محمد[٢٦]. لا يوجد دليل على حدوث هذا الهجوم، وربما يكون رودنسون محقاً في قوله إن «هذه الرواية كان لديها كل الحافز للمبالغة في الحادث كذريعة للمذبحة التي تلت ذلك»[٢٧]. في الواقع، قاوم اليهود الاقتراح المكي لمهاجمة محمد وظلوا في مجمّعاتهم ملتزمين بالتزاماتهم تجاه حلفائهم الأوس، والذين كانوا أيضاً حلفاء محمد. لم يذكر ابن إسحاق أي عملٍ عدائي يهودي ضد محمد، وهو أمر كان سيذكره لو حدث. كما أن المؤرخ حميد الله، مستشهداً بالروايات العربية اللاحقة، لم يذكر أيضاً أي خيانة يهودية لمحمد[**]. على العكس من ذلك،

(٢٥) المصدر نفسه.

(*) الرواية عند ابن إسحاق هي: ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بالصَّوْرَيْن قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا: يا رسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبيّ، على بغلة بيضاء عليها رحالة، عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله ﷺ: ذلك جبريل، بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم (المترجم).

(٢٦) Rodinson, *Muhammad*, p. 211.

(٢٧) المصدر نفسه.

(**) يؤكد الواقدي وابن كثير ومعظم كتاب السيرة أن بني قريظة نقضوا عهودهم مع النبي، ومن المعاصرين يذكر أكرم ضياء العمري في كتابه **السيرة النبوية الصحيحة**: «وقد اشتد الخطب على المسلمين عندما بلغهم أن حلفاءهم يهود بني قريظة قد نكثوا العهد وغدروا بهم، وكانت ديار بني قريظة في العوالي في الجنوب الشرقي للمدينة... فكان موقعهم يمكنهم من إيقاع ضربة بالمسلمين من الخلف. وقد أرسل الرسول ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فمضيا إلى بني قريظة فوجداها قد نقضت العهد ومزقت الصحيفة، إلا بني سعنة فإنهم خرجوا من الحصون إلى المسلمين وفاء بالعهد. وكان ذلك على أثر سفارة حيي بن أخطب النضري الذي أقنع كعب بن أسد القرظي بنقض العهد مع المسلمين مبيناً له قوة الأحزاب وأنهم قادرون على القضاء على المسلمين...

فأعلنت قريظة نقض العهد، وشاع الخبر بين المسلمين، فخافوا على نسائهم وأطفالهم من بني =

أشار إلى أن أحد أسباب ثقة محمد بنجاح الخندق هو أن المكيين لن يتمكنوا من مهاجمته عبر المناطق اليهودية خلفه لأن «العلاقات معهم [قريظة] كانت حسنة في ذلك الوقت»[٢٨].

في غياب أي رواية موثوقة عن الخيانة اليهودية، قد نستنتج بشكل معقول أن محمداً قرر إبادة بني قريظة لأن الفرصة قد أتيحت أخيراً لتخليص المدينة من منافس رئيس، ولأنها خطوة ستقوّي التمرد سياسياً. كان محمد على يقين من أن بني قريظة لن يصبحوا مسلمين أبداً، ويجب التعامل معهم عاجلاً أم آجلاً كغيرهم من القبائل والعشائر غير المسلمة. كانت قوتهم العسكرية كبيرة وتمثل تهديداً لأمن المسلمين داخل قاعدة عمليات محمد. كان اليهود المنفيون سابقاً قد حوّلوا خيبر إلى بؤرة للنشاط المناهض للمسلمين، وكان بعض الزعماء اليهود هناك قد أيدوا الهجوم المكي على المدينة. إذا سُمح لبني قريظة بالمغادرة، فسيستقر الكثيرون في خيبر وسيزداد مصدر المعارضة هذا قوة. يبدو أن محمداً قرر أن الأموات فقط لن يعودوا لإزعاجه، وأن ذبح بني قريظة سيساعد أيضاً في تخويف يهود خيبر والأعداء الآخرين. سيعزز ذلك أيضاً الصيت الكبير لمحمد بالشدة بين القبائل البدوية التي كان يعرف أنها العامل الحاسم في تحقيق النصر النهائي. من الناحية السياسية، كانت مذبحة يهود المدينة حلاً ممتازاً لواحدة من أكثر مشاكل محمد خطورة.

فرض محمد حصاراً على الحصون اليهودية لمدة خمسة وعشرين يوماً، حيث وقعت مناوشات قليلة فقط بين الرماة. يخبرنا ابن إسحاق أن حيي بن أخطب، زعيم يهود بني النضير في خيبر، والشخص الذي ربما استخدمه المكيون للاقتراب من يهود المدينة والإيحاء بخيانتهم لمحمد، كان لا يزال في حصون بني قريظة عندما حاصرهم محمد وأصحابه. بمجرد أن انكشفت نية محمد، بيّن ابن أخطب لليهود البدائل الثلاثة لمأزقهم

= قريظة. وقد وصف القرآن الكريم البلاء الذي أصاب المسلمين في الآية ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ فالأحزاب جاءوا فوقهم وبنو قريظة من أسفل منهم والمنافقون ظنوا بالله الظنونا» (المترجم).

(٢٨) Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet*, p. 66.

الحالي(*): **الأول**: كان أن تعتنق بنو قريظة الإسلام «فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم». **والثاني**: «فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد». بعد رفض الخيارين قال ابن أخطب **الثالث**: «فإن أبيتم عليّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نُصيب من محمد وأصحابه غرة». رُفض هذا الاقتراح أيضاً. مع استمرار الحصار وعدم وجود فرصة حقيقية لرفعه، سعى بنو قريظة للتصالح مع محمد، وطلبوا منه أن يرسل أبا لبابة من قبيلة الأوس. كان الأوس من الناحية النظرية حلفاء لبني قريظة، وكان اليهود يثقون بأبي لبابة الذي كان لهم تعاملات سابقة معه.

التقى شيوخ بني قريظة بأبي لبابة وسألوا: «أترى أن ننزل على حكم محمد؟». كان أبو لبابة قد اعتنق الإسلام، لكنه كان تقليدياً في نظرته وظل مخلصاً لالتزاماته السابقة تجاه حلفائه اليهود الذين قاتلوا إلى جانب الأوس في معاركهم ضد الخزرج. أجاب أبو لبابة بـ «نعم» عن السؤال، لكنه مرر إصبعه في الوقت نفسه على حلقه مشيراً إلى أنهم إذا استسلموا فسوف يُذبحون(٢٩). من المهم أن نلاحظ أن كلاً من المصادر المبكرة والكثير من المصادر اللاحقة تتفق على أساسيات القصة؛ أن أبا لبابة مرّر إصبعه على حلقه. فكيف لنا إذاً أن نفسر قصة أبي لبابة إن لم نشكّ في أن مصير اليهود قد تقرر بالفعل، وأن كل من هم حول محمد يعلم ذلك؟ تشير الأدلة إلى أن محمداً خطط طوال الوقت لقتلهم(**). عندما اختار بنو قريظة عدم القتال واستسلموا لمحمد في اليوم التالي، كانوا قد حسموا مصيرهم. استمر الحصار خمسة وعشرين يوماً.

على الرغم من إسلام الأوس، إلا أن بعض زعمائهم شعروا بالولاء

(*) يذكر ابن هشام أن الذي خيّر قومه بين البدائل الثلاثة هو زعيم قريظة كعب بن أسد (المترجم).

(٢٩) من رواية ابن إسحاق، وذكرها كل من رودنسون وغلوب من روايات أخرى. انظر: Rodinson, *Muhammad*, p. 212, and Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 250.

(**) لم يظهر النبي ﷺ أي نية للبطش ببني قريظة الا بعد خيانتهم له، وأوفد زعيمي الأنصار للتأكد. وهذا يدل على أن النية لم تكن معقودة حتى نقض القرظيين عهودهم (المترجم).

لرفاقهم القدامى في السلاح وناشدوا محمداً إظهار الرحمة ببني قريظة. ربما توقع محمد أن الأوس سيحاولون ذلك، وقد ناور للتعامل مع اعتراضاتهم، فسألهم: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟»، وافق الأوس وكان لمحمد المرشح المناسب لتلك المهمة، وهو سعد بن معاذ. كان سعد واحداً من القلائل غير المحظوظين الذين أصيبوا خلال الحصار؛ أصابه سهم في ذراعه وكان الجرح حينها في حالة متقدمة من السوء. كان معاذ مسلماً ورعاً وكان يعاني من الحمى وشارف على الموت عندما طلب منه رسول الله أن يحكم على اليهود. من الواضح أنه نوى أن يموت مسلماً مطيعاً، وسيموت شهيداً أيضاً بعد أن أصيب في المعركة. همس له أحد الأوس بالتساهل مع اليهود، أخبرنا ابن إسحاق أنه أجاب: «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم». لكن الدليل الأكثر إدانة يأتي من الرواية التاريخية الإسلامية التي تقول إن سعداً قد دعا بدعاء قبل أن يحكم على اليهود حيث قال: «اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، ولا تمتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة»(٣٠).

لا دليل من النصوص على أن محمداً أشار إلى معاذ بكيفية إصدار الحكم. ومع ذلك، تشير حادثة أبي لبابة إلى أن رغبة محمد في التخلص من اليهود كانت معروفة بين المسلمين. لم يكن من قبيل المصادفة اختيار مسلم جريح يقرّبه جرحه من الموت، وكان يرغب في دخول الجنة، لكي يصدر حكماً على اليهود. ربما كانت رؤية محمد ترقب حُكم التاريخ على قراره، لكنه بلغ مراده من إدانة اليهود وربط مسؤولية ذلك القرار بشخص آخر يبدو محايداً.

أصدر سعد بن معاذ حكمه بعد أن سأل قومه: «عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم لمَا حكمت؟»، قال الأوس: نعم، فقال: «فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء»(٣١). «ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث... ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم،

---

(٣٠) ابن إسحاق، وكذلك رودنسون (Rodinson, Ibid., p. 214) معتمداً على ابن هشام في ذكره لدعاء سعد.

(٣١) انظر أيضاً: Ibn Ishaq, *The life of Muhammad*, p. 464.

فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً»[٣٢]. استناداً إلى ظاهر رواية ابن إسحاق يبدو أن محمداً نفسه شارك في قطع رؤوس الضحايا، وإذا ثبت ذلك، فهذا هو الموضع الأول في المرويات العربية من سيرته التي تذكر أن محمداً قتل شخصاً بيده. «وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثِّر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة... فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ». قُتل في ذلك اليوم كل ذكر بالغ من قبيلة بني قريظة اليهودية، ووزعت أملاكهم على المسلمين وبيعت النساء والأطفال، وقسّمت الأموال أو استعملت لشراء السلاح. وهكذا تم استئصال بني قريظة من المدينة. أعجب محمد بجمال فتاة يهودية تدعى ريحانة واصطفاها لنفسه. أحبها الرسول وعرض عليها أن يتزوجها ويلزمها الحجاب، ولكنها «قد كانت حين سباها قد تعصّت بالإسلام، وأبت إلا اليهودية، فقالت: يا رسول الله، بل تتركني في ملكك، فهو أخف علي وعليك، فتركها».

لا يمكن المبالغة في تأثير انتصار محمد في المدينة، لقد كان انتصاراً سياسياً وعسكرياً عظيماً. كانت الجزيرة العربية كلها تراقب الأحداث في المدينة، خاصة تلك القبائل التي لم تلتزم بعد بالتحالف مع أي من الجانبين. لقد فشل تحالف قوي قوامه عشرة آلاف جندي في هزيمة محمد، وربما لن يستطيع أي جيش ذلك، فلعل محمداً كان رسول الله حقاً. زادت هيبة محمد وهالة شرعيته السياسية بشكل كبير، وانتشرت حكايات النصر في معركة الخندق في جميع أنحاء الحجاز. أثبتت الدولة الإسلامية في المدينة وقائدها اللامع أنهما قوة لا يستهان بهما.

أدرك محمد أن هزيمة المكيين ستضعف قدرتهم على الاحتفاظ بولاء حلفائهم وتزيد من فرصه في جذبهم إلى جانبه. في العام التالي، وجّه محمد انتباهه إلى حرب استنزافٍ سياسية في محاولة لكسب ولاء تلك القبائل على طول طرق القوافل وعلى مقربة من مكة. أولئك الذين لم يستطع إقناعهم هددهم بالاغتيالات والمواجهة لفرض كلمته. بعد فترة وجيزة من الانتصار في المدينة، أرسل مجموعة إلى خيبر لقتل سلام بن أبي الحقيق، أحد الزعماء اليهود الذين ساعدوا في إقناع بعض القبائل القريبة من واحته بدعم الهجوم المكي على

---

(٣٢) المصدر نفسه.

المدينة. كان محمد بالتأكيد شخصاً لا ينسى من أضرّ به، فاستخدم القتل وتعذيب أسيرٍ لنيل غاياته[٣٣]. ومع ذلك، وكغيره من الثوار الناجحين من بعده، كان استخدامه للعنف في العادة لخدمة أهداف سياسية وليس مجرد سادية.

كانت السنة التي أعقبت الانتصار في المدينة ناجحة بالنسبة إلى محمد وللقضية الإسلامية. في غضون أسابيع قليلة من انسحاب المكيين، تحول إلى الهجوم مرة أخرى. تم إرسال قوة قوامها سبعمئة رجل بقيادة عبد الرحمن ابن عوف لمداهمة دومة الجندل، المركز التجاري الكبير على الطريق المؤدي إلى سوريا حيث أقيم سوق تجاري سنوي مهم[٣٤]، والذي حاول محمد الإغارة عليه قبل أكثر من عام عندما جرّب منع غطفان من الانضمام إلى المكيين. كانت دومة الجندل منطقة قبيلة كلب النصرانية، لكنها كانت مركزاً تجارياً رئيساً لبدو غطفان. لم يرَ الزعماء النصرانيون أي مصلحة في معارضة محمد الذي لم يطلب من النصارى أن يصبحوا مسلمين، كما فعل في كثير من الأحيان عندما كان ذلك لصالحه. كانت القيم القبلية القديمة لا تزال سارية إلى حدٍّ كبير، وأبرم الزعيم النصراني تحالفاً مع المسلمين وأعطى ابنته لعبد الرحمن بن عوف لإبرام الصفقة[٣٥]. بعد شهرين، أُرسل زيد، ابن محمد بالتبني، في غارة إلى الشمال مع ١٧٠ رجلاً ونجح في الاستيلاء على قافلة مكية عائدة من سوريا[٣٦]. استمر محمد في تشكيل

---

(٣٣) Rodinson, Ibid., p. 249.

انظر أيضاً رواية ابن إسحاق عن أمر محمد بتعذيب زعيم في خيبر لم يكشف عن مكان خزانة المدينة، ونقل حميد الله عن المقريزي رواية عن الحادثة نفسها تؤكد استخدام التعذيب.

المترجم: وردت القصة عند ابن إسحاق: «وأُتي رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله ﷺ رجل من اليهود فقال: إني رأيت كنانة يطوف بهذه الخربة كل غداة. فقال رسول الله ﷺ لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال: نعم. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤديه، فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام فقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده. وكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.

يميل أكرم ضياء العمري في كتابه **السيرة النبوية الصحيحة** إلى تضعيف الرواية؛ فقد ذكرها ابن إسحق دون إسناد، أما إسناد ابن سعد ففيه محمد بن أبي ليلى وهو صدوق سيئ الحفظ جداً.

(٣٤) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 248

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) المصدر نفسه.

تحالفات مع العشائر الأقرب إلى المدينة على ما يبدو من دون مطالبتهم باعتناق الإسلام. احترم محمد شروط هذه التحالفات حرفياً وتوقّع من الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه. عندما لم يفعلوا ذلك، كما حدث عندما انتهكت أراضيه أو عندما هوجمت قطعان إبل المسلمين، رد محمد بسرعة وبقوة. في إحدى هذه الغارات، أرسل علياً إلى بني سعد، وغنم منهم خمسمئة من الإبل وألفي شاة[٣٧].

بعد ستة أشهر من أحداث المدينة، شرع محمد في مهاجمة بني لحيان، وهي القبيلة التي قَتلت في وقت سابق أصحابه وسلمت اثنين منهم إلى قريش. حتى الآن، أدرك محمد الحاجة إلى الأمن العملياتي، وشن هذه الغارة في الخفاء. أسلم الكثير من البدو وعملوا كمرشدين في الصحراء، بحيث تحسنت قدرة محمد على تحريك القوات لمسافات طويلة من دون أن يتم اكتشافه. أعلن أن نيته كانت التقدم شمالاً ومهاجمة سوريا، فالمدينة لا تزال مملوءة بالجواسيس للإبلاغ عن تحركاته. على بعد نحو عشرين ميلاً إلى الشمال من المدينة، استدار يساراً واتجه جنوباً على أمل اللحاق ببني لحيان على حين غرة حيث كانوا يخيّمون بالقرب من عسفان. لكن تم تحذير بني لحيان من قدوم محمد «فوجدهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال»، حيث استعدوا للمقاومة. كان محبطاً، قطع كل هذا الطريق من دون الظفر بهم. ولكنّ محمداً استفاد من الرحلة فأرسل مئتي راكب إلى الأمام للاقتراب من ضواحي عسفان. يخبرنا ابن إسحاق أن محمداً قال: «لو أنّا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنّا قد جئنا مكة». قام محمد باستعراض القوة لإبقاء المكيين في حالة ترقب. حتى إنه أرسل مجموعة صغيرة من الفرسان على طول الطريق إلى مكة للإيهام بأنهم يستكشفون طريق هجوم وشيك من قِبل قواته. ثم استدار وعاد إلى المدينة.

كل هذا النشاط كان يغير تدريجياً ميزان الولاء بين القبائل البدوية لصالح محمد. ليس لدينا طريقة لتقدير معدل تحول هذه القبائل، على الرغم من أنه من الواضح أن بعضهم أسلم وأن تحولهم كان حقيقياً. كان من الأهمية العسكرية إسلام اثنين من القادة الميدانيين المكيين ذوي الخبرة،

---

(٣٧) المصدر نفسه، ص٢٤٩.

خالد بن الوليد وعمرو بن العاص. كان هجوم فرسان خالد الجريء عبر فجوة تلة الرماة في أُحُد هي التي قلبت المعركة لصالح المكيين وكادت تنجح في قتل محمد، وكان بالفعل قائداً شجاعاً ذا معرفة كبيرة بالاستراتيجية والتكتيكات، وسرعان ما ارتقى في صفوف القادة المسلمين، وانتصر في الكثير من المعارك الحاسمة خلال حروب الردة بعد وفاة محمد، والتي حفظت الإسلام في تلك الحرب الأهلية الشرسة. كما كان خالد قد هزم البيزنطيين فيما بعد وغزا سوريا وحصل على لقب سيف الله. كان عمرو ابن العاص أيضاً في معركة أُحُد، قاتل هو أيضاً بشجاعة خلال الحرب الأهلية [حروب الردة]، ثم قاد الفتح العربي لمصر فيما بعد. أضاف انضمام هذين القائدين الشيء الكبير إلى خبرة محمد العسكرية وقدرته.

في وقتٍ ما في كانون الثاني/يناير عام ٦٢٨م حصلت استخبارات محمد على معلومات تفيد بأن بني المصطلق كانوا يخططون لشن غارة على المسلمين. فاجأهم المسلمون في مكان للري في المريسيع بالقرب من شاطئ البحر[٣٨]، ووقع قتال قصير تفاجأ فيه البدو وقُتل عدد منهم. أسر محمد عدداً كبيراً من نسائهم وأطفالهم وقطعانهم. إحدى النساء، جويرية، كانت ابنة زعيم بني المصطلق، وذهبت إلى محمد للمطالبة بإطلاق سراحها قائلة إن والدها سيدفع عن طيب خاطر أي فدية ستُطلب منه. يخبرنا ابن إسحاق أن جويرية «حلوة مُلّاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه». لقد أُعجب محمد بجمالها حتى إنه عرض عليها الزواج على الفور! وقَبِلت. حالما انتشر الخبر أن محمداً قد تزوج ابنة الزعيم وأن بني المصطلق أصبحوا الآن أقاربه، أطلق المسلمون سراح أسراهم. يخبرنا ابن إسحاق أنه «أُعتق بتزوجيه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق». مع هذا الزواج الدبلوماسي، أصبح أعداء محمد وحلفاء المكيين السابقون جميعاً مسلمين، ونال ولاء قبيلة كبيرة من دون تكلفة عالية.

وفي وقت ما من شهر آذار/مارس من عام ٦٢٨م، رأى محمد نفسه في المنام معتمراً إلى مكة(*). لم يكن هذا وحياً لمحمد، لذا من الواضح أن

---

(٣٨) المصدر نفسه، ص٢٦٢.

(*) اتفق علماء المسلمين على أن رؤيا الأنبياء وحي، وتدخل في مفهوم الآية: =

العمرة كانت فكرة محمد وليس أمراً إلهياً. هذا مثير للاهتمام بقدر ما يوحي بأن محمداً ربما قام بالعمرة إلى مكة ليس بدافع اللحظة كما تشير قصة الحلم، ولكن كجزء من استراتيجيته لإضعاف المكيين. أظهرت معركة أُحُد وحصار المدينة أن محمداً لا يمكن قهره بالقوة العسكرية. في الوقت نفسه، لم يستطع محمد حتى تلك اللحظة تكوين جيش كبير بما يكفي لهزيمة المكيين. كان هناك طريق مسدود بعيد الأمد ما لم يتم عمل شيء لتغيير علاقة القوة بين الجانبين. منذ البداية شن محمد تمرداً كان العامل الأهم فيه هو كسب قلوب عامة الناس وعقولهم، واستخدم حرب العصابات وغارات الكر والفر لعزل مكة وإضعافها اقتصادياً. كما هي الحال دائماً، كان الصراع في الأساس صراعاً سياسياً تستخدم فيه الأيديولوجيا والعمليات العسكرية لخدمة أهداف سياسية. إنه تخمين معقول أن محمداً ربما استنتج أن الوقت قد حان للضغط على مكة في الجبهة السياسية. مثل قادة المتمردين الآخرين الذين جاؤوا من بعده، ربما اعتقد محمد أن الوقت قد حان لمواجهة العدو على أرضه، ولم يكن معتمداً على القوة العسكرية ولكن على الجاذبية الأيديولوجية للعقيدة الجديدة لإنتاج موجة من الدعم الشعبي داخل معقل العدو لإقناعهم بعدم جدوى المزيد من المقاومة. كان ذلك هو الافتراض الاستراتيجي نفسه الذي افترضه ماو تسي تونغ عندما تنبأ بأن المدن ستقع في يديه مثل الفاكهة الناضجة، والذي ظنه الفيتكونغ خلال هجوم تيت عام ١٩٦٨، أو فيدل كاسترو عندما قام بأولى مسيراته إلى هافانا. ثبت أن كلها كانت خاطئة بالقدر نفسه.

في أوائل شهر نيسان/أبريل، انطلق محمد إلى مكة بقوة قوامها سبعمئة رجل[٣٩]. كانت المجموعة غير مسلحة تقريباً باستثناء السلاح الدفاعي التقليدي المسموح به في رحلة كهذه وهو السيف المغمد. كان الحج الوثني

= ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]. يقول ابن القيم: «ورؤيا الأنبياء وحي، فإنها معصومة من الشيطان وهذا باتفاق الأمة». وأما عن رؤية النبي لنفسه في المنام انه يطوف بالبيت، فقد ورد في القرآن: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] (المترجم).

(٣٩) ينقل ابن إسحاق عن آخرين زعموا أنهم شاركوا في السير أن عددهم كان ١٤٠٠.

(والإسلامي لاحقاً) إلى مكة من نوعين: الحج الأكبر، والذي يتم في يوم محدد من السنة، والعمرة، أو الحج الأصغر، والتي يمكن القيام بها في أي وقت. كانت العمرة هي ما حاول محمد القيام به عام ٦٢٨م. ارتدى محمد الزي التقليدي للحاج «وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له»، وأحضر معه سبعين من الإبل أعناقها مقلدة للهدي كما جرت العادة لتذبح عند الكعبة.

لقد كان رهاناً جريئاً وخطيراً، وسيكون من السذاجة الاعتقاد بأن هدف محمد كان تبجيل المعبد المكي الذي كان فعلياً الرمز الأساسي لعبادة الأصنام التي كان يحتقرها. كانت رهاناته أكبر بكثير. سرعان ما وصل خبر اقترابه من مكة وأرسل المكيون مئتي فارس لاعتراض طريقه. لم يكن سلاح الفرسان سوى أداةٍ لاختبار نوايا محمد، وكان عددها من القوة التي تُمكّن محمداً من إزاحتها جانباً بسهولة إذا اختار خوض معركة يسعى إلى تجنبها. لا بد من أنه قد تلقى أخباراً عن الفرسان المكيين قبل فترة طويلة من تحديدهم لموقعه، لأن ابن إسحاق يخبرنا أنه عندما التفّ محمد حول الطريق الرئيس لم يعرف قائد الفرسان المكي هذا إلا من خلال رؤية سحابة الغبار التي خلفتها مجموعة محمد. باستخدام بدوي محلي كدليل، شقّ المسلمون طريقهم عبر ممر ضيق كان على مرمى البصر من سلاح الفرسان المكي الذي أعاد انتشاره لإغلاق الطريق البديل. توقف محمد على أرض مستوية في مكان يسمى الحديبية، على بعد تسعة أو عشرة أميال شمال غرب مكة. هنا أمر جيشه بنصب الخيم وسقي الدواب[٤٠]. تقع الحديبية على طرف الأرض الحرام حول مكة حيث كان القتال محظوراً.

صلح الحديبية

أحياناً ما يكون التاريخ قاسياً في عرض الظروف التي يجب أن يتعامل معها محرّكو ذلك التاريخ. كان أبو سفيان غائباً بشكل مثير للريبة عن مكة في وقت عمرة محمد، وقد حرم ذلك القيادة المكية من صوتها الأكثر حسماً وحزماً في مشاوراتها. كان أبو سفيان قد عارض محمداً منذ البداية، وكان

---

(٤٠) Rodinson, Ibid. p. 253.

من الممكن توقع إصراره على معارضة محمد بقوة. بدلاً من ذلك، انقسم قادة مكة بين من أرادوا مهاجمة محمد وأولئك الذين فضّلوا التصالح معه. تحولت العمرة إلى مكة عام ٦٢٨م لواحدة من أهم الأحداث في تاريخ الإسلام. لم يتمكن المكيون من هزيمة محمد في الميدان، لكنه الآن على بعد ثمانية أميال فقط من مكة، تحميه قوة صغيرة لا تمتلك خط رجعة. بدا أن محمداً قد سلم نفسه لأيدي أعدائه وقدم للمكيين فرصة لا تقدر بثمن لقتله، وربما حتى تدمير الإسلام. بدلاً من ذلك، ومن دون مشورة أبي سفيان، اختار قادة مكة التفاوض معه.

هناك بعض الأدلة الأولية على أن محمداً ربما كان يعلم أن أبا سفيان سيكون غائباً عن مكة في هذا الوقت، لكنها مجرد تكهنات. كان العباس المؤتمن لا يزال يعمل كوكيل لمحمد داخل القيادة المكية، وكان زعيم عشيرة خزاعة الذي كان يحظى بثقة المكيين وشارك في النقاش أيضاً مصدر استخبارات دقيق لمحمد، «وكانت خزاعة عَيبَة نُصح رسول الله ﷺ، مسلمها ومشركها، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة». التفاصيل المتعلقة بسير المفاوضات ليست مهمة. ومع ذلك، يبدو أنه في مرحلةٍ ما أصبح كلا الجانبين مقتنعاً بأن الآخر كان على وشك الهجوم. لم تحدث «الانتفاضة العفوية» التي ربما كان محمد يأمل في حدوثها بدخوله الجريء إلى مكة، وبقي في وضع عسكري ضعيف. وكانت النتيجة أن الكثير من القضايا العالقة بين الطرفين تم حلها بسرعة، وتم التوصل إلى اتفاق أصبح يعرف بصلح الحديبية.

يجب اعتبار هدنة الحديبية من أعظم الانتصارات السياسية لمحمد في حملته لتدمير أعدائه وترسيخ الإسلام على أنه دين الرجل العربي الفاضل. يخبرنا ابن إسحاق أنه «ما فتح على الإسلام فتح كان أعظم منه». دعت الاتفاقية إلى هدنة بين قريش والمسلمين لمدة عشر سنوات. لم يكن لمحمد حقاً فرصة لهزيمة المكيين عسكرياً، والهدنة منعت المكيين، الذين يمتلكون بالتأكيد القدرة العسكرية على تدمير محمد (حتى عندما تم تطبيقها بشكل سيئ حتى الآن)، من محاولة القيام بذلك. بضربة واحدة أزال محمد التهديد العسكري عن تمرده. بالنسبة إلى المكيين، كان وقف الأعمال العدائية يعني أيضاً إعادة فتح طرق القوافل واستئناف التجارة من دون مضايقة من

المسلمين. كما سنرى، لم يكن هذا ما كان يدور بخلد محمد. هناك بند ثانٍ يقضي بإعادة أي فرد من قريش ذهب إلى المدينة ليصبح مسلماً من دون إذن أسرته. كان للمرتدين من المسلمين الحرية في العودة إلى مكة ولا يتعين إعادتهم قسراً. اعتقد بعض مستشاري محمد أن هذا الحكم مهين، لكن محمداً اعتبره ثمناً مقبولاً مقابل تعامل أهل مكة معه على قدم المساواة والاعتراف بمكانته كزعيم للإسلام. أخيراً، حصل محمد على المكانة والتقدير اللذين كان يرغب فيهما ويحتاج إليهما إذا أراد إقناع الزعماء الآخرين بالانضمام إليه.

يشترط بند ثالث على المسلمين مغادرة مكة في الحال، لكنه سمح لهم بأداء العمرة في العام التالي والبقاء فيها لثلاثة أيام. كان على المسلمين التسلح فقط بسيف الحاج التقليدي، وطُلب من قريش الانسحاب خلالها. كان هذا الحكم الذي بدا هامشياً تحولاً دعائياً كبيراً كما رآه محمد. لطالما جادل المكيون بأن محمداً كان خطراً لأنه سعى لتدمير الكعبة وموسم الحج إليها، وهي أفعال من شأنها أن تسبب ضرراً اقتصادياً كبيراً. أوضح طلب محمد السماح له بالعبادة في الكعبة لسكان مكة وتجّارها أنه لا يقصد شيئاً من هذا القبيل، وأن المصالح الاقتصادية لمكة لا يخشى عليها من محمد وأصحابه. حيّد هذا الحكم أحد أسلحة الدعاية الرئيسة لخصومه المكيين، ما جعل الكثيرين مستعدين الآن لينصتوا بتجرّد لمحمد بشأن الإسلام. يخبرنا ابن إسحاق أنه «دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر».

كان البند الأخير في صلح الحديبية هو الأهم وأعطى محمداً أكبر انتصار. أتاح الاتفاق لجميع قبائل المنطقة حرية إقامة تحالفات مع أي من الجانبين. هذا يعني، كما رآه محمد، أن جميع التحالفات السابقة لم تعد سارية، أو على الأقل أن القبائل أصبحت الآن حرة في تغيير تحالفها أو البقاء على الحياد. إذا انضموا إلى تحالف، فإن الهدنة العامة تنطبق عليهم لمدة عشر سنوات. في الماضي كان محمد ناجحاً إلى حدٍّ ما في كسب القبائل غير الموالية إلى جانبه، لكنه كان أقل نجاحاً في جذب تلك القبائل التي كانت متحالفة بالفعل مع مكة والتي دافعت عن التزاماتها واعتبرت تغيير المواقف أمراً يطعن بالشرف. الآن تم إنهاء جميع التزامات التحالفات السابقة.

بضربة واحدة، غيّر محمد ميزان القوى السياسية في المنطقة. من خلال الهدنة تم حل التحالف القوي بين قريش والقبائل اليهودية في خيبر والقبائل البدوية الكبيرة من غطفان وفزارة رسمياً، وهذا التحالف كان قد أعاق محمداً بشكل فعال. يمكن لمحمد الآن التعامل مع كل خصم على حدة من دون قلق من أن يساعد الحلفاءُ غيرَهم. كانت استراتيجية فرِّقْ تسُدْ قد وفرّت لمحمد فرصةً طال انتظارها، فتحرك بسرعة للهجوم على يهود خيبر.

الفصل التاسع

معركتا خيبر عام ٦٢٨م
ومؤتة عام ٦٢٩م

بقي محمد في المدينة لأقل من شهر بعد صلح الحديبية، جمع خلالها جيشاً قوامه ألف وأربعمئة رجل ومئتا فارس لهجومه على خيبر[١]. كان محمد حريصاً على الاستفادة من الارتباك السياسي الذي صاحب تفكك التحالفات القبلية القديمة بعد الحديبية، وكان مصمماً على الإقدام قبل تشكيل تحالف جديد لمعارضته. كانت خيبر واحة زراعية كبيرة تقع على بعد نحو ثمانين ميلاً شمال المدينة، واشتهرت بأنها بؤرة للملاريا، وكانت القوافل تتجنبها تماماً لهذا السبب أحياناً[٢]. كانت الواحة موطناً لعدد من العشائر اليهودية التي من المحتمل أن يكون أسلافها قد أدخلوا زراعة التمور وغيرها إليها[٣]. كان حجم زراعة التمور ضخماً، ويشير وصفٌ قديم لخيبر إلى أن مزرعة واحدة فقط كانت تحوي اثني عشر ألف نخلة. يذكر مصدر آخر لاحق أن الكتيبة، وهي الأكبر، كانت تحوي ما لا يقل عن أربعين ألف نخلة[٤]. وقد جعلت الزراعة بهذا الحجم قبائل خيبر من بين أغنى القبائل في المنطقة.

كانت خيبر محاطة بعدد من القبائل العربية، يعتبر أكبرها وأقواها قبائل

---

(١) ابن إسحاق، و Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002), p. 253.

(٢) Muhammad Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet* (Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939), p. 109.

(٣) Rodinson, Ibid., p. 253.

(٤) Hamidullah, Ibid., p. 109.

نقلاً عن: أحمد بن علي المقريزي، **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، ج ١، ص٣٢٠.

غطفان[٥]. اعتاد يهود خيبر منذ فترة طويلة على دفع رشىً لهذه القبائل المحلية لمنع الغارات عليهم. اتخذت أموال الحماية هذه شكل هدايا، وجعلت التفاهم على شكل تحالفٍ وافقت بموجبه غطفان القوية على حماية حلفائها اليهود. كانت قبيلة بني النضير قد ذهبت إلى خيبر بعد أن أجبرها محمد على مغادرة المدينة، وكانت حريصة على الانتقام منه، وكان لها دور فعال في استخدام ثروتها ونفوذها لدعم المكيين في جمع التحالف الذي حاصر المدينة، خصوصاً بإقناع غطفان بالانضمام إلى التحالف المكي. أدرك محمد ذلك، وكان مقتنعاً بأنه لا يمكن تحييد خيبر أبداً من خلال توافق سياسي، وإنما بالقوة. كان وجود خيبر في ظهر محمد على القدر نفسه من الأهمية، حيث تطلبت أي محاولة للتحرك ضد مكة التحييد الأولي لهذه القاعدة المعادية المملوءة بالقوات والإمدادات.

في أيار/مايو من عام ٦٢٨م، غادر محمد وجيشه المدينة عبر طريق ملتوية باتجاه خيبر. كان جهاز مخابرات محمد يعمل بكفاءة وعَلم أن غطفان تنوي مساعدة يهود خيبر. كان عملاء محمد نشيطين بين القبائل القريبة من خيبر، وربما نتيجة لعطايا المسلمين فلم يبقَ أي من القبائل باستثناء غطفان موالياً لحلفائهم السابقين في خيبر[٦]، ويوضح هذا أن عطايا محمد المالية قد أضعفت خصمه بشكل كبير. ووفقاً لمصادر لاحقة، زجت غطفان وفزارة بأربعة آلاف رجل إلى خيبر حيث أشرفوا على مواقع في بعض الحصون اليهودية[٧]. ولكن يبدو هذا غير مرجح، لأننا لا نقرأ شيئاً عن هؤلاء المقاتلين من ابن إسحاق ولم يتم ذكر مشاركتهم في المعارك فيما بعد. والأرجح هو أنه بعد اكتشاف تحركات بعض وحدات غطفان في طريقها لتعزيز خيبر، غيّر محمد اتجاهه ليضع جيشه عبر طريق سير الغطفانيين مانعاً بذلك سبيلهم إلى الواحة.

يخبرنا ابن إسحاق أن محمداً «أقبل... بجيشه، حتى نزل بوادٍ يقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر».

(٥) Hamidullah, Ibid., p. 111.
(٦) Rodinson, *Muhammad*, p. 253.
(٧) Hamidullah, Ibid., p. 111.

ربما كانت وحدات غطفان مجرد وحدة استكشاف وأضعف من مواجهة النبي عند الرجيع. على أية حال، عاد الغطفانيون إلى معسكرهم. ثم اتجهت القوة الرئيسة لمحمد نحو خيبر. لكن يبدو أن محمداً خشي من استمرار غطفان محاولة مساعدة حلفائها إذا أتيحت لهم الفرصة. لمنع هذا قام محمد بتوجيه عدة وحدات، على الأرجح سلاح فرسان، ليقطعوا المسافة بسرعة إلى غطفان لإبداء النية بمهاجمة مناطقهم وأسر نسائهم وأطفالهم. يبدو أن هذا هو جوهر القصة كما رواها ابن إسحاق، وهو أنه بعد مواجهة الرجيع خرج الغطفانيون لمساعدة اليهود ضد النبي، لكن شائعة قد بلغتهم بعد رحلة يوم واحد عن احتمال أخذ ممتلكاتهم وعائلاتهم، وظنوا أن مناطقهم تعرضت للهجوم في أثناء غيابهم، «فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر». من المحتمل أن تكون هذه الشائعة نتيجة للحركة والمضايقات في مؤخرة جيش غطفان من قبل فرسان محمد. باتباع ما سيُعرف لاحقاً بنصيحة نابليون للجنرال غوتشي في معركة وترلو بـ «إبق السيف في ظهر عدوك، ولا تبتعد عنه، وامنعه من العودة إلى ساحة المعركة»، استمر قائد سلاح الفرسان التابع لمحمد (أياً كان) بملاحقة غطفان حتى توغلوا في عمق الصحراء، حيث لا يستطيعون العودة لدعم حلفائهم في خيبر[٨]. في تطبيق رائع للتكتيكات، عزل محمد هدفه عن أي مساعدة خارجية وكان مستعداً للهجوم متى شاء.

لكن خيبر لم تكن هدفاً سهل المنال، فهي تقع في وادٍ عميق محاط بأرض مرتفعة وهضبة. كان الوادي أسفل الهضبة ضيقاً، وعرضه أقل من ميل واحد، وامتد لمسافة عدة أميال. كانت المنطقة بأكملها ـ الوادي والهضبة ـ محاطة بتلال تمنع الوصول إلى الأراضي الخصبة إلا عبر عدد قليل من الممرات المنحدرة الضيقة التي يمكن الدفاع عنها بسهولة والتي لا يمكن لأي جيش أن يخترقها بهجوم واحد. كانت الطرق الممكنة للتقدم داخل الوادي نفسه محروسةً من قبل حصون العشائر وبساتين التمور الكثيفة والحدائق المحاطة بأسوار متعرجة، وكلها أعاقت الحركة العسكرية السريعة. يقول ابن إسحاق إنه كانت هناك حصون وتجمّعات صغيرة لا حصر لها على

(٨) المصدر نفسه، ص١١٢.

الهضبة وفي الوادي، بينما تؤكد مصادر لاحقة وجود سبعة حصون فقط في خيبر[٩]. وقد نقل حميد الله عن المصادر نفسها أن المنطقة بأكملها قد تم تقسيمها إلى سبع مناطق عسكرية، وقد نخمن أنه يعني سبعة تجمّعات عشائرية متكاملة. حجم القوات الدفاعية في خيبر غير مؤكد، ولا يذكر ابن إسحاق شيئاً عن الأمر، فيما تقول مصادر لاحقة إن عدد المدافعين كان بين عشرة آلاف وعشرين ألف مقاتل[١٠]. هذه الأرقام مبالغ فيها، ولربما تشير إلى مجموع سكان خيبر عوض عدد المقاتلين المتاح. لن يكون مجموع سكان يبلغ عشرين ألف نسمة ببعيد عن المنطق في خيبر. لكن هؤلاء السكان لن يكونوا قادرين إلا على تجنيد ما بين خمسة آلاف وستة آلاف جندي، وهي لا تزال قوة كبيرة وأكبر بكثير من جيش محمد المكون من ألفٍ وأربعمئة رجل (مئتان من سلاح الفرسان غير متاحين الآن). إضافةً إلى ذلك كان يهود خيبر يتمتعون بميزة الدفاع.

انطلق محمد من الرجيع وقاد جنوده في مسار ضيق شديد الانحدار يقترب من قاع الوادي من الشرق. كان الممر شديد الانحدار لدرجة أن أقدام الفارس كانت تلامس أقدام الفارس أمامه[*]. كان هناك تجمّع محاط بسور وبرج محصن حيث التقاء الممر بأرض الوادي يسمى حصن ناعم[١١]. اقتضت خطة محمد أن يعسكر هناك ثم ينقل قوته الرئيسة إلى الوادي من حيث يمكنه اقتحام كل حصن على حدة. احتاج جيشه عشرة أيام لإخضاع حصن ناعم، ومع انفتاح الطريق أخيراً قاد محمد قوته الرئيسة في الوادي وبدأ في مهاجمة المواقع المحصنة الأخرى.

كان التقدم صعباً. أصيب في إحدى الاشتباكات خمسون جندياً مسلماً في يوم واحد[١٢]. قاتل اليهود بجسارة على الطريقة العربية التقليدية، وخرج

---

(٩) المصدر نفسه، ص١٠٨، معتمداً على كتاب ياقوت الحموي، **معجم البلدان**.

(١٠) المصدر نفسه، ص١١٣، ومعتمداً على اليعقوبي الذي يؤكد أن عدد السكان كان ٢٠ ألفاً. أما المقريزي فيقول إنهم ١٠ آلاف.

(*) من رواية ابن إسحاق عن أنس بن مالك: «فركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم رسول الله ﷺ» (المترجم).

(١١) Hamidullah, Ibid.

اعتماداً على رواية المقريزي في **إمتاع الأسماع**.

(١٢) Hamidullah, Ibid.

اعتماداً على رواية المقريزي في **إمتاع الأسماع**، وابن إسحاق.

بعض قادتهم من مواقعهم الدفاعية لتحدي المسلمين لنزال فردي. ثبت أن هذا كان عرضاً متهوراً للشجاعة، وقد قُتل الكثير من زعماء العشائر اليهودية بهذه الطريقة. ومع ذلك، كانت المقاومة شديدة. في حالات عديدة، أُجبر محمد على الأمر بقطع بساتين النخيل لإفساح الطريق أمام قواته للتقدم(١٣). كلما سقط موقع بأيدي المسلمين، كان المدافعون الباقون يرتدون إلى حصن آخر ويواصلون القتال. في بعض الأحيان تركت بعض العشائر نساءها وأطفالها للمهاجمين، وقاتلت أخرى بضراوة، حتى إنها نفّذت عمليات مباغتة ضد المسلمين، بينما قاتل آخرون بضراوة أقل. في إحدى الحالات، تعرض حصنٌ للخيانة من قِبل أحد السكان المحليين الذي كشف عن نفق سري، فدخل محمد إلى ذلك الموقع باستخدام هذا النفق(١٤).

كما هي الحال دائماً مع الجيوش العربية، كانت مشكلة محمد الحقيقية هي الزمن، فهو هناك في الوادي لأكثر من ثلاثة أسابيع وقد بدأ جيشه يعاني من نقص الإمدادات. كان من الصعب الحصول على العلف حتى أمر محمد بقطع أعداد كبيرة من نخيل التمر لإطعام الدواب. كان الجيش أيضاً يعاني من نقص الغذاء، حتى إن جندياً ذهب إلى محمد ليشتكي فأدار محمد رأسه إلى السماء ودعا قائلاً: «اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاماً وودكاً». في اليوم التالي، تم الاستيلاء على حصن عشيرة الصعب بن معاذ، «وما بخيبر حصنٌ كان أكثر طعاماً وودكاً منه».

تسبب نقص الغذاء في حادثة غريبة. صادفت القوات المسلمة قطيعاً من الحمر الإنسية، وبدؤوا في ذبحها وطهيها. صادف ذلك أن محمداً مرّ بإحدى نيران الطهي ورأى ما يحدث، فنهاهم على الفور عن أكلها. يخبرنا ابن إسحاق: «أتانا نهي رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الإنسية، والقدور تفور بها، فكفأناها على وجوهها». ومن المثير للاهتمام أنه «عندما نهى الرسول عن لحم الحمر، أذن لهم في أكل لحوم الخيل». لا بد من أن الأمر فاجأ الجيش، ولا سيما الفرسان، فكانت الخيول باهظة الثمن وذات

---

(١٣) المقريزي.

(١٤) Hamidullah, Ibid., p. 112.

اعتبار عالٍ، ولم تؤكل عادة في معظم الظروف. إن أمره لقواته بأكل خيولهم كان غريباً على أقل تقدير، كما لم يكن له أي معنى عسكري لأنه سيقلل من عدد مطايا الجيش(١٥).

استغرق هجوم المسلمين على خيبر أكثر من شهر قبل السيطرة على آخر موضع هناك. ومع هذا خرج أحد القادة اليهود من الحصن حاملاً سلاحه وتحدى المسلمين للمبارزة. تم الرد على التحدي وقُتل اليهودي. لقد كانت معركة طويلة صعبة، لكن المسلمين نجحوا في الاستيلاء على البلدة التي كانت في المرتبة الثانية بعد مكة في قوة معارضتها لمحمد. ساهمت عدة عوامل في انتصار المسلمين: **أولاً**، وربما الأهم، فشل اليهود في استغلال ميزة قوتهم العددية. حسب التقديرات المتحفظة، كانت نسبة عدد يهود خيبر إلى عدد المسلمين هي أربعة إلى واحد. لو اختاروا مواجهة محمد في معركة مفتوحة عبر الوادي الضيق لمنحوا أنفسهم ميزة عددية هائلة. بدلاً من ذلك اختاروا تقسيم قواتهم إلى مجموعات منعزلة، تنتشر كلٌّ منها في حصون العشيرة وحولها. هذا يعني أن جيش محمد تفوّق عددياً ضد كل موقف دفاعي وأخضعه واحداً تلو الآخر. أعطى الانتشار التكتيكي اليهودي لمحمد ميزة تكثيف القوة عند النقاط الحاسمة في كل اشتباك. **ثانياً**، يتطلب الدفاع من داخل الحصون العشائرية جمع إمدادات كافية من الطعام والأعلاف والماء لفترة طويلة. لسبب من الأسباب، لم يتم تحقيق ذلك بشكل منتظم بحيث كان المدافعون في كثير من الأحيان يعانون من نقص الإمداد نفسه الذي عاناه المهاجمون، وقد استسلمت بعضها للمسلمين لأن طعامهم نفد. **ثالثاً**، لم يقم المدافعون عن خيبر بالدفاع تحت قيادة موحدة. على الرغم من أن جميع العشائر كانت يهودية، خاضت كل عشيرة معركتها الخاصة من أجل حصنها الخاص مع القليل أو من دون تنسيق مع العشائر الأخرى. لعدة قرون، عانت الجيوش العربية غياب قيادة موحدة وكان إنشاء مثل هذه القيادة أحد أهم الإصلاحات التي أدخلها محمد على مجال الحرب العربية، وكان

---

(١٥) قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مكحول أن رسول الله ﷺ نهاهم يومئذ عن أربع: إتيان الحبالى من السبايا، وعن أكل الحمار الأهلي، وعن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسّم.

غياب القيادة الموحدة لأهل خيبر كارثة حلت بالمدافعين. **رابعاً**، بينما يبدو أن كلا الجانبين قد حارب بشجاعة، بقي هناك استنتاج مفاده أن المسلمين كانوا أفضل في القتال وأكثر حماساً من المدافعين. كانت نسبة القتل سبعة إلى واحد لصالح قوات محمد مع مقتل خمسة عشر مسلماً فقط بينما لقي ثلاثة وتسعون مدافعاً يهودياً حتفهم.

كانت خيبر واحة غنية جداً ولا بد من أن الغنائم التي تم الحصول عليها كانت هائلة. يخبرنا المقريزي أنه غُنم ألف رمح وخمسمئة قوس وأربعمئة سيف ومئة درع من حصن الكتيبة لوحده، الذي استغرق إخضاعه أسبوعين من القتال العنيف[١٦]. يقول المصدر نفسه إن المسلمين استولوا في إحدى الحصون على منجنيق وفي أخرى على عدة عربات مغطاة (دبابة) أو عربات تستخدم في عمليات الحصار. كانت آلات الحصار هذه معروفة بشكل كبير في اليمن، حيث كانت بقايا سنوات طويلة من الوجود والنفوذ الفارسيين، لكنها كانت نادرة نسبياً في بقية غرب شبه جزيرة العرب، وربما اشتراها زعماء خيبر الأثرياء لاستخدامها في الدفاع عن حصونهم. هناك بعض الأدلة الأولية على أن المنجنيق الذي تم الاستيلاء عليه استخدمه بعد ذلك المسلمون لمهاجمة الحصون الأخرى.

من المهم أن نلاحظ أن محمداً لم يخطط أبداً لقتل يهود خيبر. تتفق جميع المصادر على أن الخطة الأولى للتعامل مع سكان البلدة كانت طردهم، «ودفعوا إليه الأموال من الذهب والفضة والحلقة والثياب إلا ثوباً على إنسان». دليل إضافي على هذا المعنى هو أن محمداً على ما يبدو أعاد جميع نسخ الكتب المقدسة العبرية التي تم الاستيلاء عليها في القتال إلى يهود خيبر بمجرد انتهاء المعركة[١٧]. سُمح لسكان خيبر بالاحتفاظ بمزارعهم وبساتين التمور بشرط تسليم نصف محاصيلهم للمسلمين كل عام. أعطي نصيب الأسد من الغنائم للجنود الذين كانوا مع محمد في الحديبية، وحصل

(١٦) Hamidullah, Ibid., p. 115,
عن المقريزي في كتابه **الإمتاع**.

(١٧) Hamidullah, Ibid., p. 113,
عن المقريزي في كتابه **الإمتاع**.

المئتان من الفرسان على نصيب مضاعف[18].

بعد أيام قليلة، استعد محمد للتحرك ضد وادي القرى، واحة يهودية أخرى في المنطقة، والتي استسلمت من دون مقاومة بشروط خيبر نفسها، كما وافقت واحتان يهوديتان كبيرتان أخريان، فدك وتيماء بعد وقت قصير على الشروط ذاتها. تشير الأحداث التي أحاطت بمعاملة اليهود في هذه الواحات بقوة إلى أن ذبح محمد ليهود بني قريظة في المدينة قد نُفذ لأسباب أمنية، أي لإزالة تهديد محتمل لقاعدة عملياته الأساسية؛ إذ كان بإمكانه قتل يهود خيبر أو بيعهم كعبيد، ولكن بدلاً من ذلك توصّل إلى تسوية عربية تقليدية معهم: السلام والحماية مقابل مال أو نصيب من الحصاد. كان محمد بالتأكيد قادراً على قتل أيٍّ من أعدائه بسهولة، لكن يبدو أنه لم يكن لديه أي عداء خاص ضد اليهود. مع هذا التساكن مع يهود خيبر، يبدو أن محمداً قد حل «مشكلته اليهودية» بشكل نهائي.

عاد محمد إلى المدينة، حيث أمضى بقية العام في تنفيذ سلسلة من الغارات الصغيرة ضد مختلف العشائر حول المدينة ومكة لإثبات مركزه وقوته. كان محمد يذكر العشائر التي عارضته بأنه قوة لا يستهان بها، خاصة منذ انتصاره في خيبر. خلال هذه الفترة، فاوض محمد عدداً من العشائر المختلفة؛ حيث كان يحاول حشد دعمهم أو أن يسلموا أو أن يكونوا على الحياد. كان فهمه للوقائع السياسية الاستراتيجية واضحاً في أنه نادراً ما طالب بأن تتحول عشيرة إلى الإسلام كثمن لاتفاق، بل رضي بالشكل التقليدي للالتزام العربي. كما هي الحال دائماً، كانت جهوده الدبلوماسية تهدف إلى كسب السيطرة على محيط المدينة أو تحييده كعنصر أساسي في مسيرته المستمرة لتثبيت التمرد الإسلامي.

في شباط/ فبراير عام ٦٢٩م، بعد عام من الاتفاق في الحديبية، انطلق محمد من المدينة ليؤدي عمرته الموعودة إلى مكة ويختبر صدق خصومه القرشيين وقوتهم. في المرة الأخيرة التي حاول فيها أداء فريضة العمرة كان قد ذهب من دون سلاح، مما عرضه لخطر كبير. انطلق هذه المرة إلى مكة

(١٨) من رواية ابن إسحاق: «وكان لكل فرس سهمان، ولفارسه سهم، وكان لكل راجل سهم».

مع حرس بلغوا ألفي جندي وكمية كبيرة من الأسلحة. كانت الأسلحة مخبأة ومحروسة بالقرب من حدود مكة خارج الحرم مباشرة. اقترب الحجاج المسلمون من الكعبة مسلحين فقط بسيوفهم المغمدة. قاد محمد جماعة من الرجال وهو على ناقة يحيط به أصحابه الخلّص: أبو بكر وعمر وعلي[١٩]، كما تم إحضار ستين ناقة مهيأة للذبح[٢٠]. حتى هذا اليوم لم يكن محمد قد رأى مكة التي ولد فيها بعد غياب لسبع سنوات.

كما وعدوا في الحديبية، انسحب المكيون من البلدة نفسها، وخيّموا على التلال المحيطة يشاهدون الأحداث في الأسفل. «طاف محمد حول الكعبة سبع مرات، وبعد ذلك انتقل إلى سفح تل الصفا الصغير، وسعى ذهاباً وإياباً بينها وبين تل المروة سبع دورات، ثم اقتيدت الأضاحي وضحّى بجمل وحلق رأسه... وهذا أكمل شعائر الحج الأصغر»[٢١]. وكان يصدح وراء محمد أتباعه: «لبيك اللهم لبيك»[٢٢]. في أثناء وجوده في مكة، تزوج محمد من فتاة في السابعة والعشرين من عمرها، وهي ميمونة. عندما جاء إليه المكيون وذكروه بأن اتفاقهم معه ينص على بقاء محمد وأتباعه بمكة مدة ثلاثة أيام فقط، أجاب أنه سيقيم وليمة زفاف ويدعو الجميع لها إذا استطاع البقاء بضعة أيام أخرى[٢٣] رفض المكيون هذا الطلب وأمر محمد رجاله بالخروج من مكة بحلول الليل.

كانت عودة محمد إلى مكة انتصاراً سياسياً آخر على غرار انتصاره السياسي في الحديبية. مرة أخرى، اضطرت القيادة المكية إلى معاملة محمد على قدم المساواة، وعلى أنه رجل يتمتع بسلطة وسمعة تفرض التعامل معه وفقاً لذلك. كان وصول محمد إلى مكة مع ألفين من أتباعه بمثابة استعراض

---

(١٩) Hamidullah, Ibid., p. 286.

(٢٠) Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (Rochester, VT: Inner Traditions International, 1983), p. 146.

ويقول لينغز إنهم كانوا سبعين.

(٢١) المصدر نفسه، ص٢٨١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٢٨٠.

(٢٣) من رواية ابن إسحاق: «فقال النبي ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه، قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا. فخرج رسول الله ﷺ».

للقوة العسكرية أظهر امتلاكه الوسائل لحماية نفسه وحركته. ولعل الأهم من هذين العنصرين هو مراعاة محمد لشعائر العبادة التقليدية في الكعبة، ما وضع حداً لاتهام خصومه المكيين بأن الإسلام سيدمر البيت العتيق والعوائد الاقتصادية التي عاشت مكة في كنفها. قبل سنوات، حدّد محمد اتجاه القبلة، وهو الاتجاه الذي يقابله المسلمون عند الصلاة. في الماضي طلب من المسلمين الاتجاه نحو القدس. بعد الصعوبات الأولية التي واجهها مع يهود المدينة، قام بتغيير اتجاه القبلة بحيث أصبح المسلمون يتجهون إلى مكة عندما يصلون[٢٤]. لقد قطع أداء محمد في الحج الأصغر شوطاً طويلاً في محاولته تهدئة مخاوف المكيين على الصعيدين الاقتصادي والديني. كان الأداء مقنعاً لدرجة أنه في غضون بضعة أشهر تحول بعض القادة المكيين البارزين إلى الإسلام وذهبوا إلى محمد، وكان من أهم هؤلاء خالد ابن الوليد، القائد الميداني الموهوب، والذي مضى ليصبح أحد أعظم القادة العسكريين. كما أسلم عمرو بن العاص، الذي تميّز في معركة أُحُد وكان أيضاً من أبرز قادة المعارضة ضد محمد في مكة، وعثمان بن طلحة حامل مفاتيح باب الكعبة بالوراثة. من المحتمل أن تحول هؤلاء وغيرهم من الأشخاص المهمين في مكة قد أقنع كثيرين آخرين بأن حركة محمد كانت هي وجهة المستقبل[٢٥].

معركة مؤتة

في أيلول/ سبتمبر عام ٦٢٩م، بعد ستة أشهر من عُمرة القضاء إلى مكة، وقع أول اشتباك عسكري بين المسلمين وجيوش خارج شبه الجزيرة من قوات الإمبراطورية البيزنطية في بلدة مؤتة الصغيرة الواقعة جنوب شرق البحر الميت في الأردن الحديث. كان هذا أول اختراق لحدود الإمبراطورية البيزنطية من قِبل جيش مسلم، ولأول مرة في التاريخ يمكن الحصول على معلومات عن محمد من مصدر آخر غير مسلم، إذ سجّل المؤرخ البيزنطي

(٢٤) W. Montgomery Watt, *Muhammad: Prophet and Statesman* (London: Oxford University Press, 1961), p. 99.

(٢٥) John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 288.

ثيوفان الأحداث التي وقعت في مؤتة[٢٦]. غادر المدينة جيشٌ مسلمٌ قوامه ثلاثة آلاف رجل في أوائل أيلول/ سبتمبر وشق طريقه باتجاه الحدود السورية. أعطيت قيادة الجيش لابن محمد بالتبني، زيد بن حارثة، مع تعليمات بأنه إذا قُتل فسيؤول الأمر لجعفر بن أبي طالب، شقيق علي، وإن قُتلا يتولى القيادة الأنصاري عبد الله بن رواحة. كان هؤلاء الأشخاص البارزون مقرّبين من الرسول نفسه، ويشير وجودهم إلى أن محمداً أولى أهمية كبيرة للغارة على سوريا.

رواية ما حدث في مؤتة هي واحدة من أكثر الروايات غموضاً في المصادر الإسلامية، ولا يزال من غير الواضح لماذا أمر بها محمد في المقام الأول. توجد ثلاثة احتمالات. **الأول**، وفقاً للروايات الإسلامية، أرسل محمد ست رسائل إلى كبار قادة العالم خارج شبه الجزيرة، بمن في ذلك الأباطرة الفارسيون والبيزنطيون، لحثهم على الاعتراف بنبوته وبالدين الجديد وأن يسلموا. وكان من بين متلقي هذه الرسائل زعيم قبيلة بني غسان (الغساسنة)، وهي التي خدمت البيزنطيين كحلفاء لأكثر من قرن في حراسة الحدود السورية من الغارات العربية. لا توجد معلومات موثوقة حول محتوى الرسالة، ولا نعرف ما إذا كان قد تم تسليمها، أو حتى إذا كان هناك رد. المعروف أن رسول محمد قُتل، وهو حدثٌ نسبه محمد إلى زعيم الغساسنة نفسه أو إلى إحدى عشائر قبيلته[٢٧]. لطالما اعتُبر مقتل مبعوث يأتي حاملاً رسالة سلام جريمة مروعة في العُرف العربي. من الممكن أن يكون محمد قد قرر الثأر بغارة عقابية على أراضي الجناة. يبدو الجيش المحمدي الذي تكون من ثلاثة آلاف رجل مناسباً لهذه المهمة.

السبب الثاني للغارة على سوريا قدمه العالم الشهير فيليب حتي، وهو أقل تعقيداً. يشير حتي إلى أن الهدف من الهجوم كان مداهمة مؤتة نفسها، لأنها احتوت على مستودعٍ تُصنَّع فيه السيوف **المشرفية** الشهيرة، وأراد محمد

---

(٢٦) Rodinson, *Muhammad*, p. 256.

(٢٧) Glubb, Ibid., p. 289.

يسكت ابن إسحاق عن كل ما يتعلق بموضوع الرسالة، ومن الممكن أن تكون القصة اختراعاً لاحقاً.

الحصول على كمية كبيرة من هذه الأسلحة الممتازة لتجهيز جيشه للهجوم المخطط له على مكة، كما كان إهداء سيوف ثمينة كهذه أداةً للحصول على دعم القبائل البدوية التي اجتهد محمد في حثها على تكوين جيش كبير يكفي لمهاجمة مكة(٢٨).

قد يكون سبب آخر هو أن نجاح محمد في مكة خلال العمرة ربما أقنعه بأن مكة سوف تنضم إليه في نهاية المطاف، وأن فترة التغاضي عنها كانت أفضل سياسة في الوقت الحالي. بموازاة ذلك، استمرت المفاوضات مع القبائل البدوية في منطقة الحجاز بنجاح، ولربما صرف محمد انتباهه إلى الشمال لسببين: **أولاً**، كانت المنطقة الشمالية من خيبر إلى الحدود السورية لا تزال في أيدي قبيلة غطفان القوية وحلفائها. ربما اعتقد محمد أن حملة عسكرية سيكون لها أثر من خلال إظهار قدرته المرور عبر أراضيهم كلما أراد. **ثانياً**، لا يوجد دليل على أن محمداً قصد يوماً أن تقتصر حركته على منطقة الحجاز أو مدنها الرئيسة: المدينة ومكة والطائف. كان من المفترض أن يكون الإسلام لعرب كل شبه الجزيرة وشمل ذلك أولئك الذين يعيشون على حدود الإمبراطوريتين العظيمتين(٢٩) وإضافةً إلى ذلك فَقَدَ زعماء الغساسنة كثيراً من قوتهم ونفوذهم مع الإمبراطورية البيزنطية نتيجة لاعتناقهم مذهب النصرانية المؤمنة بالطبيعة الواحدة للمسيح، على عكس اعتقاد البيزنطيين، وضعفت سلطتهم على العشائر الأصغر من بني غسان. من غير المحتمل أن محمداً لم يكن على علم بهذه الأحداث، ولربما كانت هذه الرحلة الاستكشافية إلى سوريا، والتي سبقتها رسالة إلى حاكم المنطقة تحثه على اعتناق الإسلام، بمثابة حملة دعوية لنشر الدين. لا يستبعد أن يكون محمد قد وضع كل هذه الأسباب في اعتباره عندما أرسل جيشه إلى الشمال.

كما حدث في كثير من الأحيان مع حملات محمد العسكرية، تم اكتشاف هذه الحملة أيضاً قبل وقت طويل من وصولها إلى هدفها. مع

---

(٢٨) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002), p. 147.

(٢٩) Elias S. Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, Arab Institute for Research and Publishing, 1973), p. 66.

اقتراب الجيش الإسلامي من الحدود السورية، قام مسؤول بيزنطي محلي يُدعى ثيودور الكاهن بتشكيل جيش من العرب للوقوف ضد المسلمين. كان هؤلاء المساندون عرباً وثنيين ونصارى يعيشون جنوب شرق البحر الميت في أرض أدوم التوراتية القديمة(٣٠). تجمّع الجيش على بعد أميال قليلة إلى الشرق بالقرب من مدينة الكرك الحالية، والتي كان يسميها عرب ذلك اليوم مؤاب(٣١). يقول ابن إسحاق إنه عندما وصل المسلمون إلى مؤاب على بعد نحو خمسين ميلاً جنوب مؤتة، وصلتهم الأخبار أن هرقل نفسه، الإمبراطور البيزنطي، كان «في مائة ألف من الروم» معسكرين في مؤتة. من الواضح أن الأرقام مبالَغ فيها، والادعاء بحضور هرقل نفسه كان خاطئاً تماماً، فالتضاريس والصحراء وإمدادات المياه لا تسمح بمثل هذه الأعداد الكبيرة، وبالتأكيد ليس رداً على غارة حدودية بسيطة. والأرجح أن القوة البيزنطية كانت صغيرة نسبياً، وربما تتألف من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف من رجال القبائل العرب مدعومين بفوج أو اثنين من النظاميين البيزنطيين أو حتى المساعدين المحليين بجيش مشترك عدده خمسة آلاف إلى ستة آلاف رجل على الأكثر(٣٢).

اقترب المسلمون من بلدة معان حيث بلغتهم أنباء انتشار القوة البيزنطية أمامهم. بدأ حوار بين القادة حول ما يجب القيام به، وأراد البعض إرسال رسولٍ إلى المدينة وطلب النصح من النبي. ثم هجرت الفكرة لبُعد المسافة البالغة قرابة ستمئة ميل. وقف أحد القادة المسلمين، الأنصاري المتحمس عبد الله بن رواحة، وقال للآخرين: «ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة». اتفق بقية القادة والجنود على أن ابن رواحة على حق، «ثم التقى الناس واقتتلوا» مع البيزنطيين.

---

(٣٠) Rodinson, *Muhammad*, p. 256.

(٣١) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 290

كما يذكرها ابن إسحاق بـ «مآب».

(٣٢) Glubb, Ibid. p. 290.

كان غلوب نفسه جندياً محترفاً أمضى أكثر من ثلاثة عقود في الخدمة مع وحدات عربية في الشرق الأوسط، ويستحق تقديره الكثير من الثقة بصحته.

يُرجّح أن وحدات المسلمين المتقدمة اشتبكت أولاً. انسحبت الوحدات البيزنطية شمالاً بعد مناوشات قصيرة باتجاه مؤتة، تبعها الجيش الإسلامي بحذر، فالتضاريس بين معان ومؤتة وعرة، وضيقة في بعض الأماكن، وفيها وديان وشُعَب، تفتقر إلى أماكن لاستيعاب معركة مفتوحة حتى مع جيش صغير قوامه ثلاثة آلاف رجل. لكن مؤتة نفسها كانت تقع على سهل مفتوح، وكبير بما يكفي لاستيعاب جيش المسلمين الذي عسكر هناك. تحركت وحدات الاستطلاع الإسلامية شمالاً للبحث عن جيش البيزنطيين الرئيس. في وقتٍ ما تقدم البيزنطيون إلى مؤتة. يخبرنا ابن إسحاق: «ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون [يعني وحدات الاستطلاع المتقدمة، التي ربما كانت ذات قوة بعض الشيء ويظن خطأً أنها وحدات من الجيش الرئيس نفسه] إلى قرية يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لها المسلمون، فجعلوا على [قيادة] ميمنتهم رجلاً من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عباية بن مالك».

تعتبر تفاصيل الاشتباك بسيطة، والمحيّر فيها هو مقتل جميع القادة المسلمين الثلاثة، ما يشير إلى أن القتال ربما كان عنيفاً وقريباً جداً. لكن ابن إسحاق والمؤرخين اللاحقين سجلوا مقتل ثمانية مسلمين آخرين فقط، ما يشير أيضاً إلى اشتباك حاد لمدة قصيرة حيث انسحب الجانب العربي وتراجع. يمكن تفسير موت القادة المسلمين من رواية ابن إسحاق. كان زيد، ابن النبي بالتبني، أول من قاتل وقُتل، تلاه جعفر بن أبي طالب شقيق علي، وأخيراً عبد الله بن رواحة، الذي كان ينشد أبياتاً قبل الدخول في المعركة. ذهبت القيادة العليا للمسلمين في غضون دقائق، ولربما قُتلوا بالطريقة العربية التقليدية في مبارزات فردية. ليس من المستبعد أن تنكسر صفوف المسلمين بعد أن قُتل قادتهم أمام أعينهم عندما انقض عليهم البيزنطيون. أما فيما يتعلق بأرقام الضحايا، فقد كان الجيش يحتوي في جزء كبير منه على البدو الذين أسلموا حديثاً، وبعضهم تم تجنيده على طول الطريق من خلال وعدهم بالغنائم، وربما اعتبروا غير مهمين لكي يذكروا. ذُكر المقاتلون المسلمون المشهورون من المدينة فقط، وكانوا ثمانية.

لا مجال للشك في أن الجيش الإسلامي انكسر وتراجع. تفككت

الوحدات الإسلامية ببساطة في حالة من الارتباك العام في ساحة المعركة مع مقتل قادتهم. يخبرنا ابن إسحاق أن خالد بن الوليد، قائد سلاح الفرسان المكي الذي كاد يقتل محمداً في أُحُد لكنه أصبح مسلماً الآن، أنقذ الموقف من خلال حشد القوات وإجراء انسحابٍ منظّم. وكما يروي ابن إسحاق: «ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم... فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد؛ فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس». بعد أن أصاب البيزنطيون المغيرين المسلمين لم يعتقدوا أنه من الضروري ملاحقتهم وسمحوا بانسحابهم من دون مزيد قتال.

كانت مؤتة فشلاً استراتيجياً وتكتيكياً، إضافة إلى كونها مأساة شخصية لمحمد الذي فقد ابنه بالتبني في المعركة. وصلت أنباء الهزيمة إلى المدينة قبل عودة الجيش، واستقبلهم السكان بصيحات السخرية، وألقوا التراب على الجنود لانسحابهم من المعركة. في نظرة دينية للعالم ترى الاستشهاد في المعركة أكثر قيمة حتى من النصر، يصعب فيها فهم نجاة جندي من الهزيمة. يبدو أن الهزيمة في مؤتة شجعت بعض القبائل الشمالية الأخرى التي حاولت تشكيل تحالف لمهاجمة المدينة. بعد شهر واحد فقط من مؤتة (تشرين الأول/أكتوبر ٦٢٩م)، أُجبر محمد على إرسال حملة ضد قبيلتين شماليتين، هما بلي وقضاعة[٣٣]. كانت كلتا القبيلتين جزءاً من تحالف الغساسنة الدفاعي عن الحدود وشاركتا في القتال في مؤتة، وكان نشاطهما الآن منصبّاً على تشكيل تحالف قبائل منافس لمهاجمة محمد. من المحتمل أن تكون أنشطة محمد قد لفتت انتباه السلطات البيزنطية أخيراً، وربما قررت استخدام حلفائها العرب لمهاجمة المدينة وإزالة إمكانية أي غارات مستقبلية على طول الحدود. عَلم محمد بالوضع في الشمال وأرسل قوة بقيادة عمرو بن العاص لمهاجمة بلي وقضاعة. وقد تجلت أهمية هذه الغزوة في إرسال قوة ثانية لتعزيز الأولى، وكان في الثانية أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، وهم ثلاثة من

---

(٣٣) W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956), p. 55.

أقرب الصحابة للنبي[٣٤]. تفاصيل هذا الاشتباك مفقودة تماماً، ولكن يبدو أن الحملة قد نجحت في تشتيت التحالف الذي مثّل تهديداً.

في العامين الماضيين منذ توقيع محمد والمكيين على صلح الحديبية (آذار/مارس ٦٢٨م)، ذكرت المرويات الإسلامية سبع عشرة حملة عسكرية نفّذها محمد، وكانت على ثلاثة أنواع: **الأولى** هي حملات ضد القبائل التي عارضت محمداً علانية في شمال وشرق المدينة. أخفقت بعضها، كتلك التي استهدفت فدكاً وغطفان، وقُتل فيها عدد كبير من المسلمين، بينما حقق البعض الآخر، كخيبر، نجاحات كبيرة. **الثانية** كانت ضد عشائر هوازن القوية، والمسيطرة على المنطقة المحيطة بمكة. كانت هوازن متحالفة مع المكيين ومعادية لمحمد بشكل علني. أدت هذه الغزوات أخيراً إلى إحدى أهم المعارك في حياة محمد، وهي حُنين. **الثالثة** كانت حملات استكشافية ضد الولايات البيزنطية إلى الشمال، وكان أبرزها هزيمة مؤتة. خلال كل هذه الفترة، كان محمد مقتنعاً بترك مكة من دون مضايقات، وذلك لأسباب واضحة وهي أن سيطرته على أراضيه وموارده الاستراتيجية لم تكتمل بعد وأن جيشه لم يكن كبيراً أو مجهزاً بما يكفي لمواجهة المكيين وحلفائهم البدو. بعد مؤتة حوّل محمد أنظاره مرة أخرى إلى مكة.

---

(٣٤) Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia*, p. 39.

الفصل العاشر

فتح مكة

١١ كانون الثاني/يناير ٦٣٠م

منذ الاتفاق على صلح الحديبية، ركّز محمد على بناء تحالفاته مع البدو، ونجحت هذه الجهود بين قبائل وعشائر الحجاز، بينما بقيت قبائل أقصى الشمال معادية، ولم تتأثر قبائل جنوب مكة واليمن إلى حد كبير بحركة محمد حتى وفاته. دفعت قوة وسمعة الحجاز المتزايدة الكثير من زعماء العشائر إلى السعي للحصول على دعم الرسول ضد منافسين محليين، ما أدى في بعض الأحيان إلى جعله طرفاً في خلافات محلية. بقي زعماء آخرون، بعضهم من أنصار مكة سابقاً، على الحياد خوفاً من أن ينتهي بهم الأمر ضمن الطرف المنهزم عندما يصل الصدام بين محمد ومكة إلى نهايته. غالباً ما سمح ذكاء محمد السياسي ومهاراته التفاوضية وسمعته كقاضٍ نزيه بتسوية النزاعات المحلية لصالحه، مع إعلان كلا الجانبين ولاءهما له. بعد عامين من صلح الحديبية، نمت قوة محمد إلى درجة أن المكيين لم يعودوا نداً له[١]. فشل المكيون ـ وعلى مدى عقد من الزمن منذ إدراكهم لتهديد محمد ـ في تطوير استراتيجية ثابتة لمعارضته. أدى التناحر الداخلي والغيرة الشخصية إلى استحالة تولي أي شخص القيادة الفعالة لمعارضة محمد. كان الأرستقراطيون المكيون ذات يوم مؤثرين في جميع أنحاء المنطقة، وأصبح محمد الآن فقط من يمتلك السمعة والقوة الكافية للمطالبة بقيادة الحجاز. كان محمد قد انتظر بصبرٍ متناهٍ، وحان الآن الوقت للسير إلى مكة.

كان عمر صلح الحديبية ستة أشهر فقط عندما وجد محمد طريقة

---

(١) Elias S. Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, Arab Institute for Research and Publishing, 1973), p. 22.

للالتفاف على أحد بنوده المركزية. قضى الصلح ألا يُهاجم محمد بعد الآن القوافل المكية التي تتحرك عبر الطريق الشمالي إلى سوريا. عاشت مكة على التجارة، وكان انقطاع شريان حياتها الاقتصادي يهدد وجودها. خلال الأشهر الستة الأولى بعد الحديبية، لم تشن أي غارات ضد قوافل الطريق الشمالي، ثم حدثت سلسلة غريبة من الأحداث أدت إلى الشك في أن محمداً قد ابتكر مرة أخرى حِيَلاً رائعة سمحت له بالالتزام بالهدنة وفي الوقت نفسه تنفيذ غارات على القوافل المكية، ومن ثَمّ تجديد الضغط الاقتصادي على مكة الذي كان فاعلاً في إضعاف قوتها وتأثيرها.

نصّ صلح الحديبية أن على محمد أن يعيد إلى مكة كل من أسلم وانتقل إلى المدينة من دون إذن أهله أو أولياء أمره. ذات يوم وصل رجل يُدعى أبو بصير، وهو عتبة بن أسيد، إلى المدينة ليعلن إسلامه. كان قد احتجزه أقاربه في مكة بسبب تعاطفه مع المسلمين لكنه هرب وشق طريقه إلى المدينة بحثاً عن ملاذ. أوفى محمد بالتزامه وسلّم أبا بصير إلى المبعوثين اللذين وصلا إلى المدينة طلباً لعودته. في طريق العودة إلى مكة، حصل أبو بصير بطريقة ما على سيف أحد خاطفيه وقتله ثم فر عائداً إلى المدينة. تبعه المبعوث الآخر إلى المدينة حيث طلب مرة أخرى من محمد تسليمه. عرض محمد أن يضع أبا بصير في عهدة المبعوث كما هو مطلوب بموجب الصلح، لكن المبعوث كان مرعوباً من احتمال أن يضطر إلى مرافقة أبي بصير طوال الطريق إلى مكة منفرداً ورفض عرض محمد. بعد أن امتثل مرتين لالتزاماته بموجب الهدنة، نفض محمد يديه من الموضوع برمته. إضافة إلى ذلك فإن أبا بصير من الناحية النظرية لم يكن من جماعة المسلمين عندما سُلّم لأول مرة للمكيين، ولذا فإن محمداً لا يتحمل أي مسؤولية عن إراقة الدماء التي حدثت(٢).

لكن كيف يصنع بأبي بصير؟ كان محمد يعلم أن التزامه الحرفي والقانوني ببنود الهدنة سيغضب المكيين ويستفزهم أكثر. لم يكن محمد مستعداً بعد للمواجهة مع مكة، وفي الوقت نفسه قد يستثمر ولاء أبي بصير

(٢) W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956), p. 61.

اعتماداً على مصادر ابن هشام والواقدي. من اللافت عدم ذكر ابن إسحاق لهذه الحادثة المهمة.

لمحمد وغضب المكيين عليه بشكل جيد. على الرغم من أن أبا بصير يعتبر الآن مسلماً بسبب وجوده في المدينة، إلا أن محمداً طلب منه أمراً غريباً، وهو أن يغادر المدينة[٣]. غادرها أبو بصير وذهب إلى مكان قريب من ساحل البحر يطلّ على طريق القوافل المكية إلى سوريا. هناك جَمَع نحو سبعين رجلاً آخر حوله، ويفترض أنهم كانوا مكيين مثله أسلموا ورفضوا العودة إلى مكة[٤]. اتجهت عصبة أبي بصير إلى مهاجمة القوافل المكية بضراوة وقتل كل من وقع بأيديهم، وكانت النتيجة أن محمداً كان قادراً جزئياً على إعادة العقوبات الاقتصادية ضد مكة من دون انتهاكٍ لنص الهدنة. لم يكن المغيرون أعضاء رسميين في مجتمع المدينة المسلم، لذلك لم يكن محمد مسؤولاً عن غاراتهم. كان المكيون، بالطبع، أحراراً في مهاجمتهم، لكن الكمائن وقعت بعيداً عن مكة، وكانت المسافة أبعد من القدرة على شن عمليات عسكرية فعّالة ضدهم. بعد بضعة أشهر ناشد المكيون محمداً في يأس لضمّ المغيرين إلى مجتمعه ووقف الهجمات. يبدو أن محمداً وافق على فعل ذلك، ولكن بعد تأخير كبير. عندما وصل كتابه أخيراً إلى معسكر أبي بصير يأمره بوقف عملياته كان أبو بصير نفسه قد مات، ولم توضح المصادر ما إذا كانت الهجمات قد انتهت أم أنها استمرت مع قائد جديد. في جميع الأحوال نجح محمد مرة أخرى في التغلب على أعدائه بمناورة بارعة. على الرغم من أن سلوك محمد كان صحيحاً وفقاً لبنود الصلح الصارمة، كان هناك غضبٌ عارم في مكة مما حدث، واستنتاج مفاده أن صلح الحديبية كان خطأ، وما أرادوه الآن هو البحث عن ذريعة لخرق الهدنة والانتقام من محمد. نشأت الفرصة للقيام بكلا الأمرين في تشرين الثاني/نوفمبر عام ٦٢٩م.

بدأ ما سمّاه ابن إسحاق «الأسباب الموجبة للسير إلى مكة» في تشرين الثاني/نوفمبر من عام ٦٢٩م عندما نصب بنو بكر، حلفاء قريش البدو، كميناً وهاجموا قبيلة خزاعة في أثناء استراحتهم في بئر بالقرب من مكة[٥]. كان

(٣) المصدر نفسه.

(٤) هناك شك بأن محمداً قد زود أبا بصير ببعض الرجال. من غير المحتمل أن يتجول عدد كاف من المسلمين المكيين في أنحاء الصحراء للانضمام إلى أبي بصير من دون ذكرهم في مصادر أخرى.

(٥) من رواية ابن إسحاق: «إن بني بكر بن عبد مناة بن كنانة عدَتْ على خزاعة، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له: الوتير».

بنو بكر وخزاعة أعداء لسنوات وتناوشا عدة مرات قبل صلح الحديبية. كان بنو بكر حلفاء قدامى لقريش، بينما أعلنت خزاعة ولاءها لمحمد بعد فترة وجيزة من توقيع الصلح. ويبدو أنه بإلحاح من بعض القرشيين الذين زودوهم بالسلاح هاجم بنو بكر خزاعة من دون سابق إنذار وقتلوا اثنين منهم[٦]. تراجع باقي الخزاعيين إلى منطقة الحرم المحيطة بالكعبة، ولجؤوا إلى منزلين، فحاصرهم بنو بكر وقتلوا عشرين منهم[٧]. كان هذا عملاً شنيعاً للغاية وفقاً للأعراف العربية، ومن المؤكد أنه سيؤدي إلى مزيد من العداوة بين المكيين ومحمد. جاء زعيم من قبيلة خزاعة إلى المدينة وسأل عما إذا كان محمد ينوي الوفاء بتعهده كحليف وتقديم المساعدة لخزاعة. لا شيء يمكن أن يخدم غايات محمد أكثر من ذريعةٍ لمهاجمة مكة. يبدو أنه خلُص إلى أن الوقت أصبح مناسباً سياسياً وعسكرياً للتحرك والتخلص من معضلة مكة إلى الأبد. بدأ محمد على الفور في الاستعدادات العسكرية للهجوم.

يبدو أن القيادة المكية قد أدركت أن حادثة خزاعة قد تخاطر بإحداث مشاكل أكبر وأرسلت أبا سفيان، قائد الجيش المكي في أُحُد وأحد المعارضين القدامى لمحمد، إلى المدينة للقائه وتهدئة الأمور من خلال إعادة تأكيد التزامات السلام وفق صلح الحديبية. لكنّ أبا سفيان كان رجلاً عملياً، وأدرك أن الأمور قد تجاوزت بالفعل قدرة أي شخص على السيطرة عليها. ويبدو أيضاً أنه استنتج أن الوقت قد تجاوز القدرة على تدمير محمد وحركته من خلال التأثير السياسي المكي في البدو أو حتى بالقوة العسكرية. بعد وقت قصير من وصوله إلى المدينة، حيث رفض محمد رؤيته، أدرك بالتأكيد أن محمداً كان لديه كامل النية لفتح مكة وإدخالها الإسلام. كان السؤال الوحيد هو ما إذا كان سيتم تحقيق ذلك بشكل سلمي أم من خلال القوة. كان من الواضح لرجل بذكاء أبي سفيان أن الوقت قد حان لتغيير المواقف، وهناك مؤشرات على أن أبا سفيان ومحمداً أبرما اتفاقاً سرياً لتحقيق استسلام سلمي لمكة[٨].

---

(٦) Watt, Ibid., p. 62.
معتمداً على رواية الواقدي.

(٧) Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002), p. 258.

(٨) Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia*, p. 24.

ربما تكون بذور التحول السياسي لأبي سفيان قد زرعت بالفعل قبل عامين، حتى قبل المفاوضات المصاحبة لصلح الحديبية. من الصعب أن نتخيل أن محمداً كان سيفكر في يوم من الأيام بالعمرة إلى قلب أرض العدو من دون أن يطمئن أولاً من أحد الشخصيات القوية في مكة بأنه لن يصيبه أذى. على الأرجح كان أبو سفيان بموقع يسمح له بتقديم هذا الضمان. إضافة إلى ذلك لم يكن أبو سفيان حاضراً في المفاوضات التي أسفرت عن صلح الحديبية، ومن ثَمّ لا يمكن تحميله مسؤولية تنفيذها، وهو عذرٌ سينفعه جيداً عندما يحين وقت التبرُّؤ منها. ومما له أهمية أيضاً هو زواج محمد من ابنة أبي سفيان، أم حبيبة، بعد فترة وجيزة من إبرام صلح الحديبية، وربما أُبرِمت صفقة بين الرجلين اللذين كانا في النهاية من قبيلة قريش نفسها(٩). أخيراً، عندما خُرقت الهدنة بسبب حادثة خزاعة، كان أبو سفيان هو من سافر إلى المدينة للتفاوض مع النبي(١٠). ستبدو الاحداث التي شارك فيها أبو سفيان والتي انتهت بالهجوم على مكة غريبةً إن لم يفترض أن أبا سفيان ومحمداً قد أبرما اتفاقاً سرياً. وبغض النظر عن هذا، فلربما شعر أبو سفيان بالرعب من احتمال نشوب حرب شوارع من أجل السيطرة على مكة، وأدرك أن المقاومة عقيمة، وأن الطريقة الوحيدة لإنقاذ مكة هي تسهيل استسلامها لمحمد من دون قتال.

مهما جرى بين أبي سفيان ومحمد على الجانب السياسي، فقد واصل محمد استعداداته العسكرية للهجوم على مكة. بعد أن تعرضت الكثير من عملياته السابقة للانكشاف، اهتم محمد هذه المرة كثيراً بالحفاظ على الأمن العملياتي مستفيداً بشكل كبير من الخداع، «حتى نبغتها في بلادها». أول شيء فعله محمد هو إغلاق مداخل المدينة ومخارجها لمنع أي شخص من تحذير المكيين، كما لم يُسمح بالسفر خارج المدينة. كان احتياطاً حكيماً، إذ لم يكد ينتشر الحرس حتى حاول حاطب بن أبي بلتعة تحذير المكيين من خلال إرسال رسالة لهم مخبأة في شعر امرأة. «وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب»، وأرسل جنوده تعقباً للمرأة التي قُبض عليها. قام

(٩) المصدر نفسه، ص٢٥، بالاعتماد على البلاذري، وهو مؤرخ متأخر، نحو عام ٩٨٢م.

(١٠) الاستنتاج بأن أبا سفيان ربما كان عميلاً مزدوجاً هو الحجة الرئيسة عند كل من الكاتبين شوفاني ووات.

محمد الآن بعملية تضليلية، وجمّع وحدة صغيرة من الرجال، ربما بضع مئات، وأرسلهم شمالاً نحو سوريا لخداع أي جواسيس لا يزالون يتربصون بالمدينة لتضليلهم بأن الوحدة كانت إما فريقاً متقدماً أو استطلاعياً لتحركٍ أكبر تجاه الشمال، وهَدَف إلى إقناع الجواسيس بأنه ينوي التحرك ضد القبائل الشمالية وليس ضد مكة[١١].

بدأ محمد في جمع جيشه بطريقة مصممة لإخفاء ذلك عن المكيين. من المؤكد أن أي محاولة لتجميع القبائل في المدينة، كما فعل من قبل في بعض الأحيان، كانت ستُكتشف. بدلاً من ذلك، أرسل محمد عملاء موثوقين إلى كل حلفائه البدو يأمرهم بالاستعداد للحرب والانضمام إلى جيشه في أثناء مروره عبر أراضيهم أو بمحطةٍ على طول الطريق نحو مكة. في الأول من كانون الثاني/يناير من عام ٦٣٠م، انطلق محمد من المدينة بجيش ربما لا يزيد على ثلاثة آلاف رجل، وانضم إليه على طول الطريق حلفاؤه من البدو. ببلوغه مشارف مكة، نما جيشه إلى عشرة آلاف[١٢]. الآن، بالطبع، لم يعد من الممكن إخفاء حقيقة أن محمداً قد جمّع جيشاً يسير باتجاه مكة. ومع ذلك، كان لا يزال من الممكن خداع المكيين فيما يتعلق بنواياه، ولهذه الغاية نزل بمكان يُدعى مر الظهران، على بعد يومين من مكة. هنا تتقاطع الطرق، ومن هذا الموقع يمكن لمحمد أن يسير بالقوة نفسها نحو مكة أو الطائف أو أراضي هوازن، وتحتوي جميعها على أعداء كان لمحمد سبب وجيه لغزوهم. ومع ذلك، حتى في هذا الوقت المتأخر بقي المكيون غير متأكدين من أن محمداً كان يخطط لمهاجمتهم، وهو الوضع الذي ساعد في شلّ عملية اتخاذ القرار[١٣]. أخيراً، مع نواياه التي لا تزال مجهولة، قرر محمد الكشف عن قوته في محاولة لبث الرعب بين المكيين، فأمر كل رجل بإيقاد نيرانٍ منفرداً في معسكره عند حلول الظلام -

---

(١١) Watt, *Muhammad at Medina*, p. 66.

اعتماداً على رواية الواقدي.

(١٢) المصدر نفسه، نقلاً عن ابن هشام والواقدي، وهذا الأخير يقدم قائمة جزئية بالقبائل وعدد القوات المنضمّة إلى جيش محمد.

(١٣) يخبرنا ابن إسحاق: «وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم خبر عن رسول ﷺ، ولا يدرون ما هو فاعل».

عشرة آلاف شعلة من نار في المعسكر ـ مما أوحى بأن جيشه أكبر مما كان عليه.

كان المكيون حينها في حالة ذعر بعد أن تيقنوا أن هدف محمد كان مهاجمة مكة. لا يسع المرء إلا أن يتكهن بالدور الذي أدّاه أبو سفيان في إذكاء نيران الخوف بين القيادة المكية، ولكنه إن كان حقاً عميلاً مزدوجاً توصّل إلى تفاهم مع محمد لتسليم المدينة من دون إراقة دماء، فمن المعقول أن نتوقع أن دوره هنا كان مهماً. كان من اللافت أيضاً أن أبا سفيان أُرسل من قبل القيادة المكية للتفاوض مع محمد، وهي حقيقة تشير إلى أنه لم يثر شكوك رفاقه المكيين فيما يتعلق بولائه الحقيقي. كان أبو سفيان قد زار محمداً في المدينة قبل عدة أسابيع، ظاهرياً للتفاوض على إنهاء الأزمة الناجمة عن حادثة خزاعة، لكن تم تجاهله. جاء الآن إلى ذي طوى، على بعد مسيرة يوم من مكة، حيث نقل محمد جيشه استعداداً للهجوم عليها، وعقد اجتماعاً آخر مع النبي. استقبله العباس عم محمد الذي كان عيناً له بين المكيين لما يقرب من عقد من الزمان والذي قد نفترض بشكل معقول أنه قد ظهرت حقيقة موقفه الآن. اصطحب العباس أبا سفيان إلى محمد، حيث اقترح عمر مباشرة قتله على الفور! ربما كان هذا شبيهاً بإخراج مسرحي مرتّب لإقناع أبي سفيان أنه تحت سلطة محمد ولم يكن لديه خيار سوى الموافقة على مطالبه. رفض محمد التحدث إليه وطلب من العباس احضاره في الصباح.

عاد أبو سفيان في صباح اليوم التالي، وشرع الرجلان في العمل. بدأ محمد بسؤاله: «ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟»، نظر أبو سفيان في ثنايا المكان، وهو رجل كبير في السن الآن، ولم يجب. تابع محمد: «ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» هذه المرة أجاب أبو سفيان: «أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً». لا بد من أن محمداً قد فوجئ إلى حدٍّ ما بهذا التحدي الشخصي، لكن العباس هو الذي رد بتهديد أبي سفيان، قال: «ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك». وكما يقول لنا ابن إسحاق: «فشهد شهادة الحق، فأسلم».

القصة بأكملها، على الرغم من كونها درامية، لا تبدو صحيحة، وربما

خُطط لها من قبل محمد وأبي سفيان لحفظ وضع أبي سفيان باعتباره مخلصاً لقومه المكيين وليس وكيلاً لمحمد. على الرغم من كل معارضته السابقة لمحمد، كان أبو سفيان لا يزال قرشياً كما كان محمد. وعندما كان محمد صبياً صغيراً يعنّفه الفتيان الآخرون، لجأ مرة إلى منزل أبي سفيان(*)، كما أنه الآن أيضاً والد زوجة محمد. لم يعارض أبو سفيان صلح الحديبية، وربما كان أبو سفيان هو من ضَمِن سلامة محمد عندما قام بالعمرة. الآن كان على محمد أن يستغل أبا سفيان على أفضل وجه من خلال تقديم عفوٍ للمكيين إذا سلّموا مدينتهم من دون قتال. لو أن اتفاق أبي سفيان السابق مع محمد أصبح معروفاً حتى لأقرب مستشاري محمد، فضلاً عن المكيين، لانعدمت قدرة أبي سفيان على إقناع المكيين بالاستسلام.

أخبر محمد أبا سفيان أنه مستعد لإعلان عفو عام، ولن يكون هناك سفك دماء إذا سلّم المكيون مدينتهم، وأن كل من بقي في منزله ولم يحمل السلاح سيكون آمناً. أي شخص يبحث عن الأمان في فناء الكعبة سيُترك بلا مضايقة. كان على استعداد كذلك لإعلان منزل أبي سفيان مكاناً للجوء **(جوار)** يضمن فيه عدم تعرض أي شخص دخله للأذى. كان إعلان منزل أبي سفيان مكاناً للّجوء تشريفاً له، لكنه بالتأكيد من شأنه أن يضرّ بأبي سفيان في عيون المكيين. ربما تم تقديم هذه الميزة لطمأنة أبي سفيان بأن ولاءه سيُكافأ بمجرد سيطرة محمد على مكة، وفي الوقت نفسه يرسل رسالة إلى القيادة المكية بأن أحد أهم قادتهم قد اعتنق الإسلام وأن لديهم فسحة خيارٍ ضيقة: الانضمام إليه أو الموت. عاد أبو سفيان إلى مكة حاملاً عرض محمد.

طبقاً لابن إسحاق، فقد طلب محمد من العباس تأجيل رحيل أبي سفيان من المعسكر عن طريق اصطحابه إلى قمة تل يطل على جزء ضيق من الوادي أدناه «حتى تمر به جنود الله فيراها». مرَّ جيش محمد بالكامل أمامه في عدة

(*) تبدو استنتاجات المؤلف فيما يتعلق بأبي سفيان وإسلامه غريبة ومناقضة لواقع الأحداث وصحيح روايات السيرة. فلو أسلم أبو سفيان قبل الفتح فهذا سيعني انه اقتنع وفهم روح رسالة الإسلام، وهذا لم يكن ظاهرا في حوادث مهمة، ومنها تعليقه على كثرة الجنود عند فتح مكة، وتشبيهه ذلك بالمُلك، ثم تعليقه السلبي على الفوضى الأولية في حُنين. ويكاد يجمع مؤرخو السيرة على تحسّن مواقفه وسلامة سريرته في أواخر حياته، فعينه الرسول على نجران وشهد معركة اليرموك، ثم توفي بالمدينة في خلافة عثمان (المترجم).

القتال الكاملة جاهزاً للحرب. أخيراً، «مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء» (لكثرة الحديد وظهوره فيها)، «فيها المهاجرون والأنصار، ﭫ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد». كانت أعطيات محمد من الأسلحة لحلفائه البدو قد صنعت جيشاً سُلّح معظم وحداته بشكل كامل بخوذ ودروع(١٤). تأثر أبو سفيان على النحو المطلوب ولا شك في أنه اختار الجانب الفائز في اللحظة المناسبة نظراً إلى عظم جيش محمد.

كان لتأخير رحيل أبي سفيان إلى مكة أكثر من غرض نفسي، لأنه من غير المرجح أن يحتاج أبو سفيان إلى مزيد من الإقناع بقوة محمد، وإنما خدم التأخير غرضاً تكتيكياً مهماً. فبحلول الوقت الذي لحق فيه أبو سفيان بالجيش ثم تجاوزه للوصول إلى مكة والإخبار عن مجيء محمد، كان الجيش قد حاصر مكة بالفعل وأغلق المخارج. لن يكون من الممكن بعد الآن الهروب أو البحث عن تعزيزات. حتى لو نجح المكيون في إيصال رسائل لحلفائهم البدو، وهو احتمال مشكوك فيه أصلاً، فإن على التعزيزات أن تخترق جيش محمد للوصول إلى مكة. في مناورة تكتيكية رائعة أخرى، فاق محمد أعداءه ذكاءً وقطع عليهم كل طريق. إن اختار المكيون القتال فسيتعين عليهم القيام بذلك بمفردهم.

عندما وصل أبو سفيان إلى مكة، سرعان ما نَشَر رسالة مفادها أن محمداً آتٍ بقوة، لكن باستطاعة مكة أن تنقذ نفسها من خلال الاستسلام والاستفادة من العفو. كانت ردة الفعل شرسة، وأمسكته زوجته، هند المشهورة بمضغ كبد حمزة في معركة أُحُد، من شاربه وهي تصرخ: «اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم!». قاوم أبو سفيان تلك الردود وأخبرهم أن الجميع سيكونون بأمان إذا بقوا في الداخل أو استغلوا الحرمة الممنوحة لمنزله وللكعبة. تجمع الآن حشد يطالبون بقتل أبي سفيان لخيانته، فأخبرهم أنهم لو بقوا في بيوتهم وأقفلوا أبوابهم فسيكونون أيضاً آمنين، «فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد». تحطمت روح المكّيين المعنوية، وفي غضون ساعات قليلة هُجرت شوارع مكة.

(١٤) John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 307.

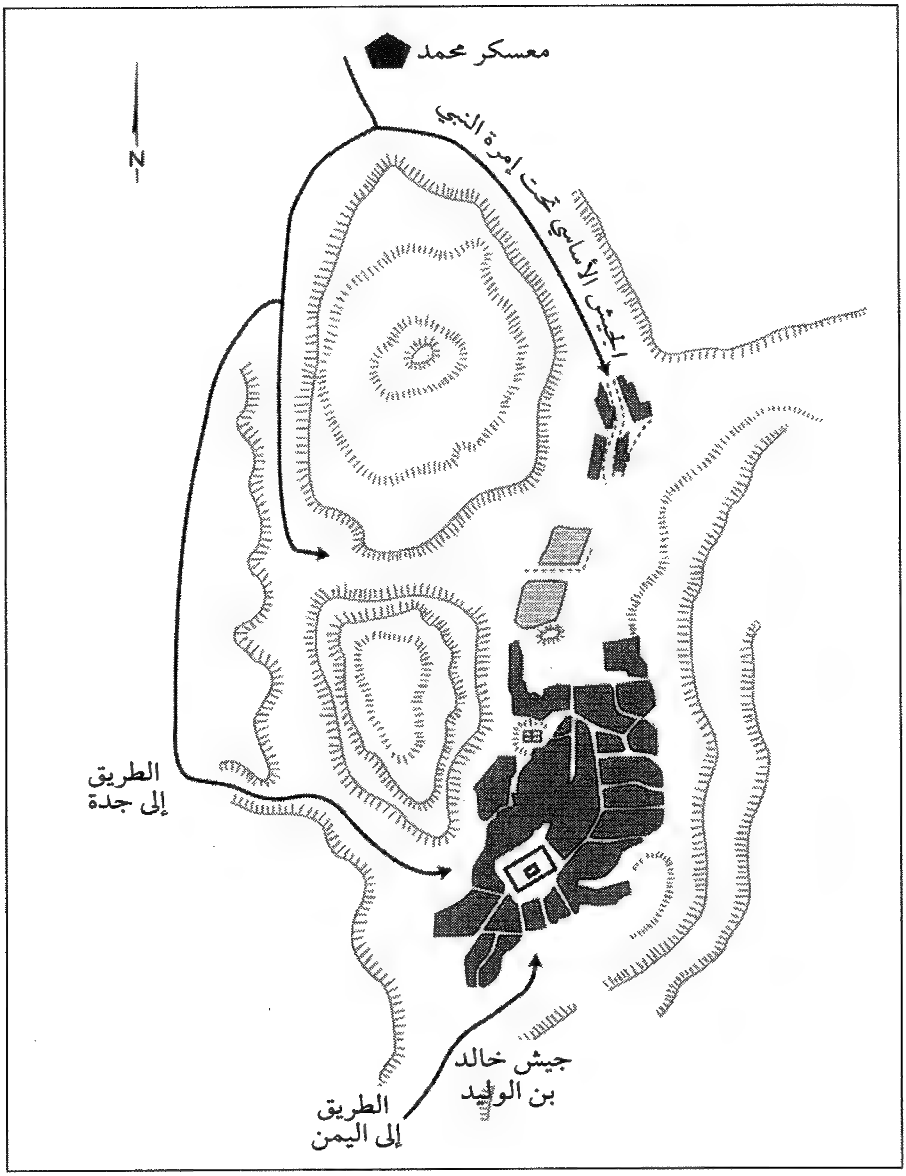

الخريطة ١٠: فتح مكة ٦٣٠م

توضح الخريطة العاشرة أنه لم يكن هناك سوى طريقٍ رئيس واحد من الشمال يمر عبر البلدة بأكملها وينتهي إلى الجانب الآخر. شَقّ طريقان آخران مكة من الشرق والغرب. قسّم محمد جيشه إلى أربعة أرتال، كل منها يقترب

من مكة من اتجاه مختلف. يخبرنا ابن هشام أن حركة الأرتال تم تنسيقها من قبل سلسلة من الرسل على ظهور الخيل الذين حملوا أوامر محمد إلى قادتها. كان هناك مسؤول خاص عن هذه الاتصالات وكان دائماً بجانب محمد لنقل الأوامر[١٥]. الرواية الآتية هي من كتاب حميد الله الذي اعتمد على ابن هشام والطبري[١٦]:

تقدم الجيش المسلم الرئيس ـ مع النبي محمد ـ من الجانب الشمالي الرئيس. كانت هناك بلدة مرتفعة (معلا). وكان الزبير بن العوام يقود مجموعة على طريق كدي، من أجل إغلاق طريق الهروب إلى ساحل البحر عبر وادي فاطمة. دخلت مجموعة كبيرة من الجيش مكة من الطريق الرئيس من الجنوب عبر الليط واحتلت مسفلة أو البلدة المنخفضة. على الرغم من الالتفاف، تزامن وصول مجموعة من سلاح الفرسان إلى المدينة مع وصول الفصائل الأخرى... قاد هذه المجموعة خالد بن الوليد. ودخلت مجموعة أخرى المدينة من طريق حجون وأغلقت طريق الفرار إلى جدة واليمن.

واجه خالد بن الوليد وفرسانه بعض المقاومة من بعض المتعنتين في المدخل الجنوبي، لكن سرعان ما قضوا عليهم. قتل أربعة وعشرون رجلاً من قريش وأربعة من هذيل ولم يقتل أي مسلم[١٧]. يبدو أن مجموعة صغيرة من القوات المسلمة ضلّت الطريق واصطدمت بقوة قرشية وفقدت رجلين، ثم اجتمعت الأرتال المحمدية في وسط مكة في الوقت نفسه تقريباً. منذ ما يقرب من عقد من الزمان، تم إضعاف مكة تدريجياً بسبب الخنق الاقتصادي والمناورة السياسية التي تركتها معزولة بلا قيادة أو عزيمة. كان استعراض محمد للقوة العسكرية ثانوياً لانهيار مكة، فقد سقطت من دون مقاومة.

يعرف غزو محمد لمكة يوم ١١ كانون الثاني/يناير عام ٦٣٠م في التاريخ الإسلامي باسم الفتح، ويُستخدم هذا اللفظ للدلالة على معانٍ

---

(١٥) Muhammad Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet* (Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939), p. 85.

نقلاً عن: ابن هشام.

(١٦) تتفق رواية ابن إسحاق مع هذه الرواية ولكن بتفاصيل أقل.

(١٧) Watt, *Muhammad at Medina*, p. 66.

أخرى، مثل منح الله عطايا للبشر أو إصدار حكم بين المتنافسين[١٨]. حرّم محمد على رجاله نهب مكة، ولذلك لم يكن هناك غنيمة يدفع بها للجيش. لتعويض جنوده، وخاصة البدو، اقترض محمد من المصرفيين المكيين ودفع لرجاله[١٩]. ثم ذهب إلى الكعبة وأمر بتدمير جميع الأصنام هناك ولم يتبقَّ سوى صور إبراهيم وعيسى ومريم العذراء. كما طُلب من جميع المنازل في مكة تدمير أصنامها[٢٠]. لاحقاً، أرسل فرقاً خاصة من المسلمين لتدمير الأصنام الأخرى التي كانت منافسة لتلك الموجودة في مكة. تم تدمير مناة في المشلل (بين مكة والمدينة) والعزى في نخلة مع بعض الأوثان الأخرى[٢١].

مكث محمد في مكة لمدة أسبوعين تقريباً، ألقى خلالها خطاباً ودعا قريشاً إلى الإيمان به. اعتنق الكثير من المكيين الإسلام معترفين بأن محمداً رسول الله. من المثير للاهتمام أن عدداً كبيراً من قادة مكة اعترفوا بالتزاماتهم تجاه محمد بالطريقة العربية التقليدية ولكن من دون أن يسلموا[٢٢]. كان هؤلاء القادة المكيون أشخاصاً مهمين احتاج محمد إلى مواهبهم لإكمال مهمته في أسلمة شبه الجزيرة[٢٣]. كانت مسألة الواقع السياسي مقدّمة على مسائل التحول الديني، على الأقل في الوقت الحالي. وقد لاحظ إلياس شوفاني في هذا الصدد أن «محمداً عرف كيف يوظف المهارات والمواهب المكية في خدمة حركته، وسرعان ما تعلموا [المكيون] بدورهم كيف يستغلون تلك الحركة للنمو خارجياً. كان محمد زعيماً دينياً قبل كل شيء، وكانوا هم مجتمع تجارة، وكانت لهما مصلحة مشتركة في التوسع، فضموا طاقاتهم لتحقيق ذلك»[٢٤].

---

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه، ص٦٧.

(٢٠) W. Montgomery Watt, *Muhammad: Prophet and Statesman* (London: Oxford University Press, 1961), p. 260.

(٢١) Watt, *Muhammad at Medina*, p. 68.

(٢٢) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٢٣) Rodinson, *Muhammad*, p. 262.

أهمية تفوق الاعتبارات السياسية على الانتقام الشخصي يمكن ملاحظتها بحقيقة أن هند ـ زوجة أبي سفيان، والتي دفعت عبداً لقتل حمزة في معركة أحد ثم قامت بتشويه جسده ومضغ كبده ـ لم تقتل.

(٢٤) Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia*, p. 26.

على الرغم من أن محمداً قد حرّم القتل والنهب، إلا أنه لم يَعِد بالتنازل عن الثأر الشخصي. في غضون أيام، بدأت فرق أمنه بتعقب وقتل عدد من الأشخاص الذين وضع محمد أسماءهم في قائمة الموت(*). تخبرنا الجرائم التي تم قتل هؤلاء الأشخاص بسببها شيئاً عن مخاوف محمد وشخصيته. كانت عمليات القتل مزيجاً من: تسوية عداءات قديمة، كما في حالة رجل أهان محمداً خلال الأيام الأولى للرسالة في مكة قبل ثماني سنوات. كما كانت هناك الضرورة السياسية: أمر بقتل عكرمة نجل أبي جهل الذي سار على خطى والده وقاد المعارضة ضد محمد في مكة. والحماسة الأيديولوجية: كما حدث عندما قُتل رجلان كانا قد ارتدا عن الإسلام. والأسباب الشخصية البحتة: حيث أمر محمد بقتل فتاتين(**) محترفتين للغناء لهجائهم الرسول في الأماكن العامة(٢٥). نُفِّذت عمليات الإعدام في العلن، وعندها تخوفت قريش من أنها قد تكون مقدمة لمزيد من عمليات القتل بعد سيطرة محمد الكاملة على مكة، وأرسل قادتها أبا سفيان للحصول من محمد على تطمينات. أوضح محمد أن عمليات القتل كانت محدودة، وأنها ستنتهي في غضون أيام، وكان صادقاً، وحل السلام بمكة. كان فتح محمد لمكة هو الإنجاز الذي أدى في النهاية إلى نجاح الإسلام في كل شبه الجزيرة العربية. وكان المكيون هم من أدّوا دوراً مهماً في هذا النجاح النهائي.

(*) لم تكن أوامر القتل لدوافع شخصية، فقد ذكر ابن عبد البر في **الاستذكار** عن ابن إسحاق أنه قال: «وأما قتل عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي، اشتركا في دمه وهو رجل من بني تيم بن غالب. وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لأنه بعثه مصدقاً وكان مسلماً، وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً، فنزل ابن خطل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له شاة ويصنع له طعاماً، فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً، فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً». قال ابن عبد البر: «فهذا القتل قود من مسلم. ومثل هذا قصة مقيس بن صبابة، قتل مسلماً بعد أخذ الدية، وهو أيضاً ممن هدر رسول الله ﷺ دمه في حين دخوله مكة.» (المترجم).

(**) كان لعبد الله بن خطل جاريتين تُغنيان بسبِّ الرسول ﷺ (المترجم).

(٢٥) Rodinson, Ibid. p. 261.

الفصل الحادي عشر

معركة حُنين

١ شباط/فبراير ٦٣٠م

مباشرة بعد السيطرة على مكة، بدأ محمد في إرسال مجموعات إلى القبائل البدوية المحيطة على أمل الوصول إلى تفاهمات معها. تم إرسال ثلاث سرايا على الأقل لتأمين خضوع القبائل البدوية في المنطقة المحيطة. لم يتم الاحتفاظ بأي معلومات عن هذه الحملات باستثناء السرية الثالثة تحت قيادة خالد بن الوليد ضد عشيرة بني جذيمة من بني كنانة التي تعيش في السهل الساحلي جنوب مكة[1]. كان خالد قائداً عسكرياً مقاتلاً شجاعاً وجريئاً، لكنه كان أيضاً عنيداً ودموياً عندما يتعلق الأمر بالثأر الشخصي. قبل سنوات عديدة، قتل رجالٌ من بني جذيمة عمّ خالد في نزاع. عندما تواصل خالد مع بني جذيمة أخبرهم أنه لم تكن هناك حاجة إلى مزيد من إراقة الدماء منذ انتهاء الحرب مع مكة، «فلما وضعوا السلاح أمر بهم خالد عند ذلك، فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل من قتل منهم». يُفترض أن عدداً قليلاً فقط من زعماء بني جذيمة قتلوا، لكن الرواية غير واضحة عن الأعداد، ومن المحتمل أن عدداً كبيراً قُتلوا(*). حقيقة أن محمداً أنكر القتل

(١) W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956), p. 70.

(*) كان عدد قتلى قبيلة جذيمة نحو ٣٠ رجلاً، وفقاً للواقدي في المغازي، وقد فدى النبي القتلى لأنهم قتلوا بالخطأ وكانوا مسلمين. وقد أخرج البخاري من حديث عبد الله بن عمر: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ». والواضح من سياق الحادثة أن خالد بن الوليد لم يتعمد قتل هؤلاء بعد أن أسلموا، وإنما اجتهد فأخطأ؛ حيث إنهم لم يحسنوا قول «أسلمنا»، وقالوا «صبأنا»، فلم يفهم منها خالد أنهم أسلموا، ولذا عذره النبي ﷺ ولم يعاقبه بالقتل العمد (المترجم).

وبرِئ إلى الله مما فعل خالد قد تُفيد بكثرة عدد القتلى[٢]. لم يُعاقب خالد وسرعان ما تم تكليفه بمهمة التوجه إلى نخلة وتدمير صنم العزى، والذي يبدو أنه أنجزه من دون إراقة دماء[٣].

كانت هذه أحداثاً ثانوية، مقارنة بالمشاكل التي كانت تختمر بين البدو حول مكة والطائف. اعتماداً على المراجع، سلّمت القبائل والعشائر في المنطقة الذين كانوا في السابق حلفاء للمكيين لحكم محمد من دون حوادث تذكر. أما أولئك الذين كانوا أعداء للمكيين فكان لهم رأي آخر. من بين هؤلاء كانت قبيلة هوازن القوية المتمركزة شمال وشرق مكة على الطريق التجاري الرئيس إلى الحيرة في العراق. كانت هوازن متحالفة مع الطائف الواقعة جنوب وشرق مكة، والتي تمر طرقها التجارية عبر أراضي هوازن. كان هذا التحالف يعادي المكيين قبل وقت طويل من ظهور محمد على الساحة، وخاض المكيون عدة حروب معهم، ربما تتعلق بنزاعات تجارية بين الطائف ومكة[٤]. بالنظر إلى هذا التاريخ، رأى زعماء هوازن والطائف أن محمداً هو زعيم قرشي قوي آخر عاد ليطالب بقيادة شعبه. لم يكن زعماء هوازن جاهلين بحملة محمد التي استمرت لما يقرب من عقد من الزمان لتوسيع سلطته ونشر الدين الإسلامي الجديد، وكان توقعاً معقولاً أنه سيواصل جهوده حتى يسيطر على كامل الجزيرة العربية. من وجهة نظر هوازن الاستراتيجية كانت الحرب حتمية، وقررت هوازن فرضها عاجلاً وليس آجلاً[٥].

بدأ مالك بن عوف، زعيم هوازن، بتعبئة قواته للحرب، وهو نشاط اكتشفته عيون محمد على الفور فأرسلهم إلى معسكر هوازن لمراقبة

---

(٢) المصدر نفسه، نقلاً عن الواقدي وابن هشام.

(٣) من رواية ابن إسحاق: «لما انتهى إليها خالد هدمها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ».

(٤) W. Montgomery Watt, *Muhammad: Prophet and Statesman* (London: Oxford University Press, 1961), p. 71.

(٥) Elias S. Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, Arab Institute for Research and Publishing, 1973), p. 26.

ويشير إلى أن مبادرة المعركة جاءت من محمد الذي تعرض لضغوط شديدة من قبل المكيين لخوض المعركة. أما الطريقة التي جرت بها الأحداث العسكرية فتوحي بأن هوازن هم من بادروا بالحرب.

استعدادات العدو وتصرفاته(٦). في نظر محمد، كان لتعبئة هوازن واستعدادهم للقتال وقعٌ جيد؛ إذ كان لمحمد جيش كبير بالفعل في الميدان. يخبرنا ابن إسحاق أن جيش محمد كان يتألف من عشرة آلاف من الصحابة الذين رافقوه إلى مكة وألفي مكي انضموا إليه لمحاربة عدوهم القديم. بلغ العدد الإجمالي للقوة اثني عشر ألفاً، معظمهم مجهزون جيداً وبكامل دروعهم. تم نشر الجيش الإسلامي في مكة وحولها، والتي يمكن استخدامها كقاعدة إمداد وموقع احتياطي جيد للدفاع إذا ساءت الأمور. إضافة إلى ذلك كانت مكة قريبة بما يكفي من الطائف وموطن هوازن لدرجة أنه إذا انتصر في الميدان، فبإمكانه مطاردتهم بسهولة حتى يصل إلى قلب المنطقة الاستراتيجية للعدو.

من وجهة نظر سياسية، كانت لهزيمة هوازن عدة فوائد: سيطرة محمد على جميع طرق القوافل المهمة في الحجاز، ومن شبه المؤكد عندها أن الطائف نفسها، ثالث أكبر مدينة في الحجاز، ستسقط أيضاً. أخيراً، أصبح تعداد الجيش اثني عشر ألف رجل، تحت قيادة قائدٍ واحد، وهذا غير معروف في الحروب العربية آنذاك، وسيرسل الانتصار على هوازن رسالة لا لبس فيها للقبائل الأخرى مفادها أن تمرد محمد لا يمكن إيقافه، وسيضطر الجميع إلى التصالح معه. كما هي الحال دائماً مع محمد، كان استخدام القوة دوماً في خدمة الأهداف السياسية. التقى الجيشان في مكان عرُف تاريخياً باسم وادي حُنين في الأول من شباط/ فبراير عام ٦٣٠.

تضع معركة حُنين بعض الصعوبات أمام المؤرخ. **أولاً**، نحن لا نعرف تحديداً أين تم القتال، يصمت ابن إسحاق عن موقعه، ولكن لدينا مصادر لاحقة لمساعدتنا، وهذه المصادر غير مؤكدة(٧). تخبرنا روايات المعركة أن رجال الطائف تراجعوا إلى مدينتهم الآمنة على بعد مسافة قصيرة من ساحة المعركة. تقع الطائف على بعد ستين ميلاً جنوب شرق مكة. تقول الروايات

---

(٦) من رواية ابن إسحاق: «ولما سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم».

(٧) Muhammad Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet* (Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939), pp. 91-99.

وهو يعتمد على مصادر لاحقة وهي المقريزي وابن حجر والبلاذري وابن سعد.

إن محمداً سار قبل ثلاثة أيام من وصوله إلى ساحة المعركة. إذا كان الأمر كذلك، فإن ساحة المعركة كانت من خمسة وثلاثين إلى خمسة وأربعين ميلاً جنوب شرق مكة[٨]. تكمن الصعوبة في عدم وجود وادٍ واسع بما يكفي لاستيعاب حجم الجيوش المذكورة في الروايات اللاحقة. لذلك، ما زلنا غير متأكدين فيما يتعلق بالموقع الدقيق للمعركة؛ حيث لا يمكننا القول إلا أنه ربما لم يكن أبعد من رحلة يوم واحد، أي نحو خمسة عشر ميلاً من مدينة الطائف نفسها.

الصعوبة **الثانية** تتعلق بعدد القوات المشاركة. يبدو أن تعداد جيش محمد البالغ اثني عشر ألف رجل مؤكد ويثبته ابن إسحاق[٩]. لكن لا يوجد مصدر مبكر للادعاء اللاحق بأن عدد الجيش الآخر بلغ عشرين ألفاً[١٠]. يتكرر هذا الادعاء في جميع الروايات اللاحقة، ولكن يصعب على المرء تصديقه. يخبرنا ابن إسحاق أن جيش العدو كان يتألف من هوازن ورجال الطائف وقليل من العشائر الإضافية[١١]. وبقدر ما كانت قبيلة هوازن كبيرة، فإن من السذاجة الاعتقاد بقدرتها على تجنيد ما يقرب من عشرين ألف رجل حتى بمساعدة عشائر الطائف الذين فرّ الكثير منهم على أي حال. قد تكمن الإجابة في حقيقة أن زعيم هوازن، مالك بن عوف، البالغ من العمر ثلاثين عاماً، اتخذ قراراً بإحضار القبيلة بأكملها إلى ساحة المعركة. كانت هذه ممارسة عربية قديمة، وأساس الفكرة أنه إذا عرف الجنود أن نساءهم وأطفالهم ومتاعهم معرضون للخطر فإنهم سيقاتلون بضراوة أكبر. كان

---

(٨) حميد الله هو المؤرخ المسلم الوحيد الذي أعلم أنه مشى هناك بقدميه في محاولة لتحديد موقع المعركة في وادي حُنين.

[سبقه الواقدي، فعن هارون الفروي، قال: رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة، فقلت: أين تريد؟ قال: أريد أن أمضي إلى حنين، حتى أرى الموضع والوقعة». (ابن عساكر، تاريخ **مدينة دمشق**، ج١١، ص٥) (المترجم)].

(٩) من رواية ابن إسحاق: «ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه... فكانوا اثني عشر ألفاً».

(١٠) Watt, *Muhammad at Medina*, p. 72, معتمداً على رواية الواقدي.

(١١) من رواية ابن إسحاق: «فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نصر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء، وغاب عنها فلم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب».

الخطر، بالطبع، هو أن الهزيمة ستؤدي إلى خسارة كل شيء، بما في ذلك الفناء الكامل للقبيلة. يبدو أن ابن عوف قد نشر نساء القبيلة وأطفالها وقطعانها في أقصى ساحة المعركة حتى إن المسلمين عندما دخلوا الوادي كانوا خائفين من «الكتلة السوداء» لما اعتقدوا أنهم جنود أعداء تجمعوا في أقصى الوادي. من الممكن إذاً أن يكون عدد «جنود» الأعداء البالغ عشرين ألفاً هو إشارة إلى الحجم الإجمالي لقبيلة هوازن، من رجال ونساء وأطفال. إذا كان الأمر كذلك، يمكن لقبيلة من عشرين ألف شخص إرسال نحو أربعة آلاف إلى خمسة آلاف جندي بأقصى جهد(١٢)، إذا صحّ هذا التخمين فمن المحتمل أن تكون المصادر اللاحقة غير صحيحة عندما زعمت أن محمداً حارب وهزم جيشاً أكبر من جيشه. بدلاً من ذلك، كان جيشه يفوق أعداد هوازن بما يقرب من أربعةٍ إلى واحد. كما سنرى، فإن تكتيكات هوازن وسلوك الجيش الإسلامي في وادي حُنين تشير إلى صحة ذلك.

أرسل محمد كشافته لاستطلاع هوازن، فأرسل إليهم «عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم». في الوقت نفسه أرسل مالك بن عوف كشافته للتجسس على المسلمين. لذلك، كان لدى كلا القائدين إدراك جيد عن مواقع الآخر، إضافة إلى فكرة معقولة عن الحجم النسبي لقواته. تشير الأدلة إلى أن محمداً عَلم أن جيشه كان أكبر بكثير من جيش هوازن، وهي معلومات أدت به إلى عدم الاهتمام بالطريقة التي اقترب بها من ساحة المعركة. ثلاثة أحداث تدعم هذا الرأي: **أولاً**، لا شك في أن المسلمين وصلوا إلى وادي حُنين غير مستعدين للمعركة، ولا توجد روايات تفيد بأن الجيش ارتدى

---

(١٢) تم حساب هذا التقدير باستخدام الطريقة الموضحة في كتاب ييغال يادين والتي تفيد بأن عدد الذكور في سن التجنيد في مجتمع قبلي في الشرق الأوسط خلال العصور القديمة كان نحو ٢٠ في المئة من مجموع السكان. انظر: Yigael Yadin, *The Art of Warfare in Biblical Lands in Light of Archaeological Discovery*, 2 vols. (New York: McGraw-Hill, 1964), vol. 1, p. 19.

للحصول على مثال لاستخدام طريقة يادين، انظر كتابي: Richard A. Gabriel, *The Military History of Ancient Israel* (Westport, Conn.: Praeger, 2003) p. 114.

طريقة حساب يادين تدعم زعم غلوب بأن جيش هوازن في حُنين كان بين أربعة وخمسة آلاف رجل. انظر: John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 321.

حتى دروعه، ومحمد نفسه بالتأكيد لم يفعل ذلك. **ثانياً**، عندما هاجمت هوازن، كان محمد لا يزال على «بغلته البيضاء» بعيداً عن الجيش، ولو كان مستعداً للمعركة لكان محمد على ظهر فرسه. أخيراً، كما سنرى، فوجئ المسلمون وهم ما زالوا يسيرون في أرتالهم. باعتماد جميع هذه المعطيات يظهر أن محمداً بالغ في الثقة من غير حذر، ربما نتيجة لتفوق أعداد جيشه.

لا بد من أن مالك بن عوف كان قلقاً للغاية عندما عَلم أن جيش المسلمين كان أكبر بكثير من جيشه. لقد أحضر قبيلته بأكملها بنسائها ومتاعها إلى ساحة المعركة ليكتشف أن عددهم أقل بكثير من جيش عدوه، وحيث واجهها الموت أو العبودية إن هُزمت. إضافة إلى ذلك فإن قصص قتال الجنود المسلمين وشجاعتِهم قد طرقت مسامعه بالتأكيد، ما أقنعه بلا شك بأن الاشتباك المباشر مع المشاة على أرض مفتوحة سيكون كارثياً. كان على مالك بن عوف أن يستخدم التضاريس ببراعة والخداع والمفاجأة إذا أراد أن تكون لديه أي فرصة لهزيمة المسلمين في وادي حُنين.

استفاد زعيم هوازن بشكل كبير من جميع العوامل الثلاثة أثناء استعداده للمعركة واختار وادي حُنين كمكان للقتال. وادي حُنين هو مجرى نهر طويل جاف ذي عرض متواضع، ربما لا يزيد على نصف ميل، محاط بجدران صخرية شديدة الانحدار تجعل النزول إلى الوادي صعباً وبطيئاً. كانت هناك فتحات على طول جدران الوادي في أماكن مختلفة تودي إلى وديان كبيرة بما يكفي لإخفاء وحدات متوسطة الحجم من سلاح الفرسان، كما كانت أرضية الوادي نفسه خالية من النباتات والعوائق، وواسعة ومسطحة بما يكفي لمناورة الفرسان. يصف ابن إسحاق المشهد، نقلاً عن أحد ضباط ابن عوف، بأن التضاريس كانت «نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس»[١٣]. قضى ابن عوف الليلة التي سبقت المعركة بتحريك قواته لمواقع في الوادي.

---

(١٣) ابن إسحاق.

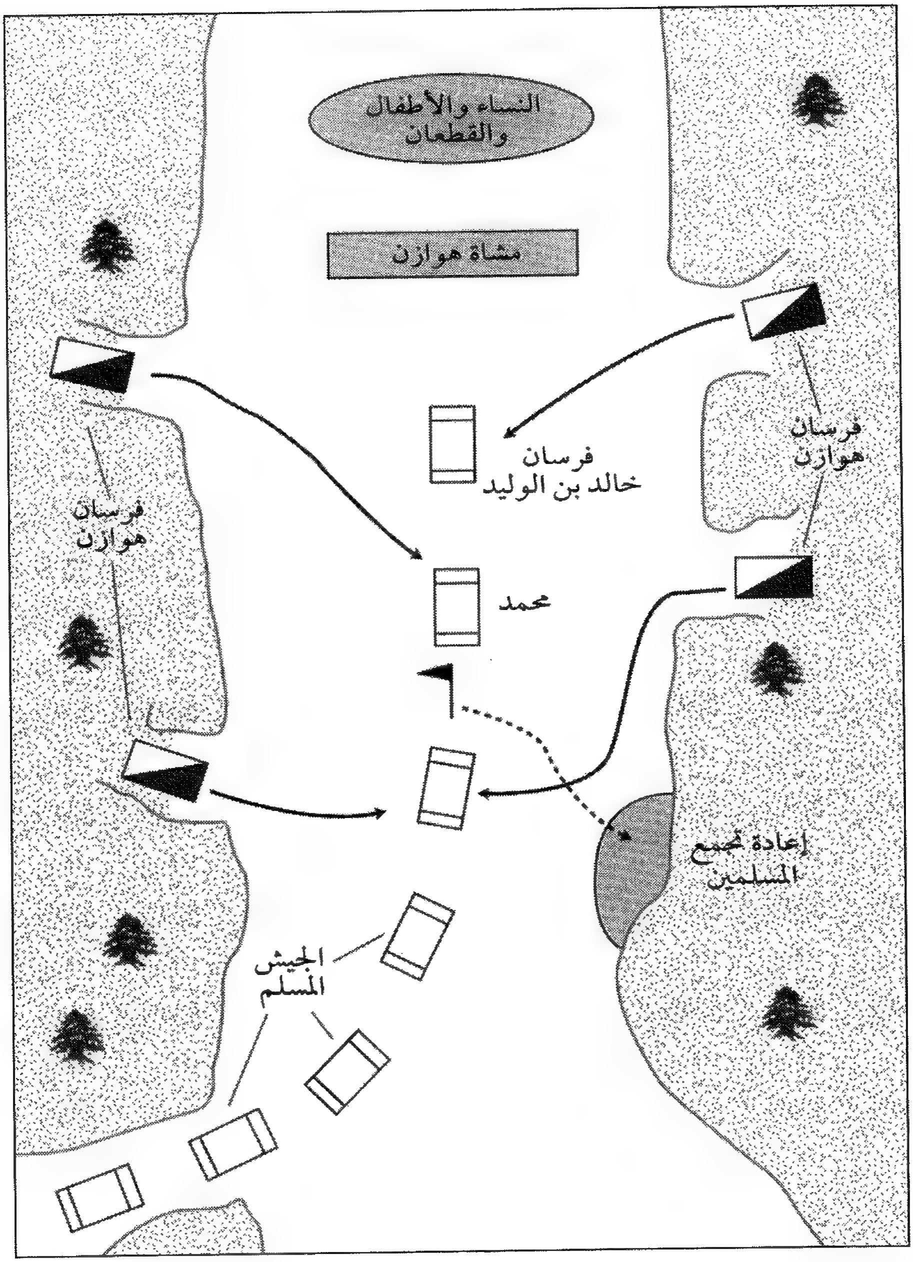

الخريطة ١١: معركة حُنين ٦٣٠م

نشر ابن عوف قواته لإغراء محمد الوقوع في الفخ، وكان الطُعم نساء هوازن ومواشيهم من الغنم والماعز والإبل. وضع ابن عوف هذه الكتلة من

النساء والأطفال والقطيع في أقصى الوادي، ووضع أمامهم حاجزاً رقيقاً للمشاة بحيث إذا شوهد من مسافة ـ حيث توقع ابن عوف أن يدخل محمد إلى الوادي ـ كانت هذه «الكتلة السوداء» (كما تصفها الروايات) تبدو وكأنها القسم الرئيس المجهّز من جيش هوازن لمعركة مشاة. من المؤكد أن معركة المشاة ستعود بالفائدة على محمد من حيث العدد، وربما اعتقد ابن عوف أن محمداً سيفكر على وجه التحديد في ذلك عندما رأى «قوات» هوازن تتجمع في نهاية الوادي البعيدة. إذا كان الأمر كذلك، يمكن أن يتوقع ابن عوف بشكل معقول أن يواصل محمد مسيرته إلى الوادي لنشر قواته ـ من دون استعجال ـ في اشتباك مشاة تقليدي. تحسباً لهذه التطورات، قام ابن عوف بإخفاء فرسانه في الأخاديد على جانبي الوادي. بمجرد أن استولى جيش محمد على أرض الوادي وكان ما زال يسير نحو النهاية البعيدة، خطط ابن عوف لاستخدام سلاح الفرسان لمهاجمة الجيش المسلم من كلا الجانبين، ودفعه إلى الخلف حتى لا يستطيع التحرك. كانت خطة تكتيكية سليمة.

عسكر محمد بالقرب من أحد مداخل الوادي، ولا يوجد دليل على أنه استغل المساء للاستعداد للمعركة، فدخل الوادي راكباً بغلته البيضاء من دون أن يرتدي درعه. كما أنه افتراض معقول أن باقي الجيش لم يلبس دروعه بعد وأنهم كانوا يركبون جمالهم ويقودون خيولهم خلفها. قبل الفجر بقليل، بدأ الجيش المسلم في التحرك في مسار شديد الانحدار إلى أرضية الوادي. يروي ابن إسحاق أن أحد الرجال(١٤) الذين قاتلوا في وادي حُنين قال له: «انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، قال: وفي عماية الصبح». كانت طليعة الجيش سرب فرسان من قبيلة سُليم بقيادة خالد بن الوليد الذي ركّز عند رؤية «الكتلة السوداء» أمامه على ما اعتقد أنه القسم الرئيس لجيش هوازن. لا يبدو أنه كان هناك جنود استطلاع لكشف ما يوجد أمام الجيش المسلم ولا على أطرافه. كان الجيش المسلم يتحرك على طول الوادي مباشرة نحو هوازن، من دون «عيون وآذان». لقد نجحت خطة ابن عوف وابتلع جيش المسلمين الطُعم.

---

(١٤) رواية ابن إسحاق تقول: «فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله».

وصل نحو ثلث الجيش إلى أرض الوادي عندها هجم الهوازنيون. فجأة، اندفع فرسان ابن عوف بقوة من بين الأخاديد على جانبي الوادي مستهدفين جانبي المسلمين. يخبرنا ابن إسحاق أن جابر بن عبد الله قال إنّ «القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد». كُسرت وحدة خالد بن الوليد على الفور جراء الهجوم الشديد وتراجع رجال سُليم(١٥). هوجم الجيش المسلم على طول الأجنحة من قبل سلاح فرسان هوازن، ما أدى إلى فوضى فورية وتقهقر إلى الخلف. صرخ أبو سفيان، الذي كان مع محمد بينما كان الجنود الفارون يتدفقون من أمامهم: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر».

فرّت الكتلة المرتبكة من الجنود المسلمين إلى المؤخرة، واصطدمت بالوحدات الإسلامية الأخرى التي وصلت لتوها إلى أرض الوادي مسببة فوضى عارمة للجميع. تم الضغط على الكتلة الكبيرة من الرجال والدواب معاً بإحكام لدرجة أنه لم يتمكّن أحد من شق الطريق المؤدي من الوادي إلى بر الأمان، كما أدت محاولة باقي الجيش الولوج في الوادي إلى غلق الممرات. نجا محمد ومن معه من موجة الذعر التي اجتاحت الجيش بالاحتماء بتلة صغيرة بالقرب من الجدار الجنوبي للوادي. يُحسب لمحمد ثباته، بل ووقوفه بشجاعة في ركاب بغلته البيضاء على مرأى من العدو داعياً قواته للثبات والتجمع حوله لمواصلة القتال، فاجتمع الرجال واحداً تلو الآخر حوله. أخيراً، «حتى إذا اجتمع إليه منهم مئة، استقبلوا الناس فاقتتلوا...وكانوا صبراً عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون، فقال: الآن حمي الوطيس».

نجحت خطة ابن عوف بشكل مثالي حتى هذه النقطة، إلى أن انقلبت الأوضاع في غير صالحه. فقد أنتج الحجم الهائل للقوة الإسلامية احتشاداً كبيراً من الجنود المترجلين حول المخرج المسدود من الوادي. لو كانوا قادرين على الخروج فلربما استمرت الملاحقة بالفعل إلى البحر. لكن مع

---

(١٥) Watt, *Muhammad at Medina*, p. 72,
معتمداً على رواية ابن هشام.

عدم وجود مكان آخر يذهبون إليه، تحولت القوات الإسلامية لمواجهة العدو فيما كان يمكن أن يصبح وقفة الثبات الأخيرة. إن وجود محمد وشجاعته في ساحة المعركة أعطاهم التأكيد أن النبي لا يزال حياً وأنه معهم. الآن، أُرهِق سلاح فرسان هوازن في خليط من الرجال والدواب المتجمعة وفقدت هجماتهم ضراوتها. كان ابن عوف يأمل أن يكتمل المسار لكنه لم يتوقع أن يوقفه الانسداد. صعّب حجم جيشه الصغير الاحتفاظ بأي قوة احتياطية. باستثناء حاجز المشاة الصغير أمام النساء والدواب في الطرف البعيد من الوادي، لم تكن هناك وحدات متاحة لمهاجمة العدو المتعثر. عندما اجتمع المسلمون معاً لمواصلة القتال، أصبحت المعركة بالضبط ما كان ابن عوف يأمل في تجنبه، وهي معركة مشاة، وكانت الأعداد فيها حاسمة.

بدأ يظهر تفوق المسلمين مع احتدام المعركة، ما أدى إلى إجبار هوازن تدريجياً على التراجع والانكماش من جميع الجوانب. وقف ابن عوف وحارب بنفسه بجانب رايته حتى قُتل حوله سبعون رجلاً قبل أن يغادر الميدان(١٦). بعض رجال الطائف قاتلوا بشجاعة حتى النهاية، والبعض الآخر قاتل لفترة قصيرة قبل الفرار إلى أمان أسوار مدينتهم. في نقطة تحول رئيسة في المعركة وقع حادث غريب. يخبرنا ابن إسحاق عن جبير بن مطعم أنه قال: «لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت، فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، لم أشك أنها الملائكة». في حين أننا لا نستطيع الجزم، ربما كانت هذه إشارة إلى خالد بن الوليد الذي حشد سرب فرسانه من رجال بني سُليم وكان يقود هجوماً شرساً أصاب مؤخرة سلاح فرسان هوازن الذين يقاتلون الآن كمشاة وكسر مقاومتهم(١٧). في مكان آخر، كانت عشيرة بني

---

(١٦) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 323.

(١٧) قد تعكس الإشارة إلى «النمل الأسود» التقليد العربي في ارتداء الجلباب الأسود في الحرب. ربما كان رجال خالد بن الوليد يرتدون أردية سوداء. إضافة إلى ذلك، استاء بنو سُليم دائماً من روايات المعركة التي صُوِّروا فيها على أنهم فروا، ولمواجهة التهمة قام شاعر سُليم بتأليف قصيدة طويلة تؤكد شجاعة قبيلته. تشير إحدى الأبيات بقوة إلى أنهم كانوا الرجال الذين أنقذوا محمداً من خلال المشاركة في هجوم سلاح الفرسان الذي كسر معنويات هوازن. ومن أبياتها:

إنّا وفينا بالذي عاهدتنا ... والخيل تقدع بالكماة وتضرسُ

إذ سال من أفناء بهثة كلها ... جمع تظل به المخارم ترجسُ =

نصر من هوازن قد أقامت ممراً ضيقاً مفتوحاً في أقصى نهاية الوادي حتى يتمكن بعض جنودها من الهروب. يبدو أن مشاة هوازن المنتشرين أمام معسكرهم قاتلوا بشجاعة لحماية نسائهم وأهلهم ومتاعهم(١٨)، ولكن كل ذلك كان بلا جدوى. تم تفريق مقاتلي هوازن أو أسرهم أو قتلهم، وسقطت النساء والأطفال والدواب والمتاع بأيدي جيش محمد. وبينما كانت فلول هوازن تشق طريقها للخروج من الوادي، أرسل محمد وحدات سلاح الفرسان لإبعادهم عن ساحة المعركة حتى لا يتمكنوا من القيام بمحاولة إنقاذ أهاليهم.

كان الانتصار في وادي حُنين نقطة تحول في حملة محمد لتثبيت الإسلام في الجزيرة. كانت تلك المعركة الأكبر في الحجاز في ذاكرة المعاصرين، ونزالاً طال انتظاره بين مسلمي محمد وقبائل البدو، وقد دفع البدو بكل ما في وسعهم ضد محمد وخسروا. فهمت هذا الدرس باقي العشائر البدوية التي لم تكن قد تعهدت بعد بالولاء لمحمد. بقي معظم زعماء عشائر هوازن والطائف على قيد الحياة بعد هزيمتهم، لكن هذا لم يكن ذا شأن. غَنم محمد نساء هوازن وأطفالها وقطعانها، وكانت حياة هوازن بلا معنى من دونهم. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تطلب هوازن السلام من محمد ويعرض هو إعادة أهاليهم إليهم بالطريقة العربية التقليدية للمساومة. لكن في الوقت الحاضر، كان الجيش المسلم في الميدان وكانت حماسته عالية، فبادر محمد بسرعة لحصار الطائف.

كانت الطائف هي المرة الثانية التي حاول فيها محمد إخضاع بلدة محصّنة؛ إذ كانت الأولى خيبر. لم يكن لخيبر أسوار محيطة بها، ولَم يقاتل يهود خيبر تحت قيادة موحدة؛ لذلك تمكن محمد من التغلب على حصونهم واحداً تلو الآخر. إضافة إلى ذلك، لم يكن سكان خيبر مستعدين للحصار، ما أدى إلى شلّ قدرتهم على المقاومة بسبب نقص الغذاء والماء. طرحت

= حتى صبحنا أهل مكة فيلقاً ... شهباء يقدمها الهمام الأشوسُ
من كل أغلب من سُليم فوقه ... بيضاء محكمة الدخال وقونسُ
يروي القناة إذا تجاسر في الوغى ... وتخاله أسداً إذا ما يعبسُ

(١٨) Watt, Ibid., p. 72, معتمداً على رواية الواقدي.

الطائف لمحمد مشاكل أكثر صعوبة بكثير. بداية، كانت مدينة مسوّرة كاملة التحصينات. تزعم رواية أن الطائف قد شُيدت عندما سيطر الفُرس على اليمن، وأن المرزبان(*) الفارسي أرسل مهندسين إلى الطائف لبناء أسوارها وتحصيناتها كهدية لتلك المدينة(١٩). واسم الطائف يعني «المحمية بسور حولها»(٢٠). كان في البلدة الكثير من الآبار والحدائق والمزارع الصغيرة. ربما كان الأهم أن الحصار جاء بعد أن خسر محمد عدداً كبيراً من رجاله في حُنين(٢١)، وقد استعدت الطائف للمقاومة والقتال حتى الموت تحت قيادة موحدة. كل هذه الظروف حدّت من خيارات محمد في إنهاء الحصار بسرعة.

روايات الحصار مختصرة ومبهمة، ومن الصعب الحصول إلا على لمحة عامة عن أحداث الطائف. تقول مصادر لاحقة إن محمداً كان لديه منجنيق ودبابة مغطاة لاستخدامها ضد الجدران ولحماية جنوده الذين يقومون بالحفر. وحيث إن محمداً سار مباشرة إلى الطائف بعد الاشتباك في وادي حُنين، فمن الصعب معرفة من أين حصل على هذه المعدات، على الرغم من أنه من الممكن أن يكون قد حازها من مكان ما في مدينة الطائف نفسها. يخبرنا ابن إسحاق أن اثنين من زعماء الطائف كانا في جرش يتعلمان استخدام الدبابات والمجانيق(٢٢) صُنعت هذه الآلات في بلدة قريبة من اليمن؛ حيث كان التأثير الفارسي أكثر وضوحاً مما كان يعتقد من قبل.

في البداية قام محمد بمحاولة شرسة للسيطرة على الطائف بالقوة، لكن رجاله أُمطروا بالسهام. عندما حاول حفر أسفل الجدران، ألقى المدافعون «سكك الحديد محماة بالنار» عليهم فأحرقت السقف الجلدي للمنصات ذات

(*) حاكم إقليمي فارسي (المترجم).

(١٩) Hamidullah, *The Battlefields of the Prophet*, p. 96,

معتمداً على رواية في كتاب **الأغاني**.

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) يقول ابن إسحاق أن قتلى الطائف كانوا سبعين، وقد يكونوا هم أنفسهم الذين قتلوا حول مالك بن عوف وهم يدافعون عن الراية.

(٢٢) رواية ابن إسحاق: «ولم يشهد حُنيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور».

العجلات التي تحميهم. كما تم صد هجوم على البوابة الرئيسة مع وقوع إصابات كبيرة بين المسلمين(٢٣). كان إطلاق السهام من أعلى الجدران مؤثراً بشكل كبير. يبدو أن محمداً قد اخطأ عندما عسكر بالقرب من الأسوار وداخل مرمى سهام المدافعين. يقول مصدر لاحق: «فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً كأنه رِجْل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة»(٢٤). أمر محمد ببناء الخشاب، أو سياج خشبي حول المخيم لحماية قواته(٢٥). وفي وقت ما أمر محمد «بنثر الحَسَك سقبَين من عيدان حول الحصن» من أجل «منع دخول جميع المؤن والرجال والمعدات»(٢٦). ومع ذلك، من الممكن أن تكون هذه العوائق قد صممت أيضاً لمنع المدافعين من شن هجمات معاكسة ضد المهاجمين. في مرحلة ما، شعر محمد بالإحباط الشديد بسبب تأخر التقدم، لدرجة أنه أمر بتدمير كروم العنب الشهيرة والثمينة في الطائف(٢٧).

استمر الحصار نحو ثلاثة أسابيع قبل أن يفكّه محمد ويتراجع(٢٨). ظل تصميم الطائف قوياً، وبدأت خسائر المسلمين تزداد. لو استمر الحصار لفترة أطول من دون نتائج، فقد تضعف معنويات الجيش وقد تعود العشائر إلى مواطنها. كما قد تتضاءل هيبة الانتصار الإسلامي في وادي حُنين أيضاً إذا استمر الجمود لفترة طويلة، مقزّمةً بذلك صورة المسلمين وبراعتهم العسكرية. لا بد من أن مشكلة إمداد الجيش بالطعام والأعلاف أيضاً كانت أحد الأسباب وإن لم يذكرها أحد؛ فقد خاض الجيش معركة كبرى قبل أيام قليلة فقط من محاصرة الطائف، ومن المفترض أن يكون علف الدواب قد بدأ

---

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) Hamidullah, Ibid., p. 99.
معتمداً على رواية للبلاذري في **أنساب الأشراف**.

(٢٥) Hamidullah, Ibid., p. 99,
معتمداً على رواية ابن سعد في **الطبقات الكبرى**.

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) من رواية ابن إسحاق: «فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون».

(٢٨) Watt, *Muhammad at Medina*, p. 73.
انظر أيضاً: Hamidullah, Ibid., p. 99,
معتمداً على ابن سعد الذي يقول إن الحصار دام أربعين يوماً.

بالنفاد. أخيراً، لم يكن هدف محمد أبداً تدمير الطائف، بل أراد تحويلها إلى الإسلام، ولهذه الغاية كلما قلّت إراقة الدماء كان ذلك أفضل. مع هزيمة هوازن، تم عزل عشائر الطائف، وعاجلاً أم آجلاً لن يكون لديهم خيار سوى الوصول إلى تسوية مع محمد.

تراجع محمد والجيش إلى مكان يسمى الجعرانة لتقسيم غنائم حُنين. أُسر ستة آلاف امرأة وطفل من هوازن مع آلاف الجمال والأغنام وغيرها من الدواب، وهو عدد يكفي لإعطاء كل رجل في الجيش المسلم أربعة جمال أو ما يعادلها[٢٩]. أعلن محمد نيّته تقسيم الغنائم لإرسال رسالة إلى هوازن أنه ما لم يأتوا إلى التفاوض قريباً، فسيتم توزيع نسائهم وأطفالهم كغنائم[٣٠]. في هذه الأثناء جاءت امرأة عجوز إلى النبي اسمها شيماء[*] ادعت أنها المرأة التي أرضعت محمداً في صغره عندما أرسل إلى الصحراء. سألها محمد عما إذا كان لديها أي دليل، فأظهرت له العضّة التي عضّها النبي عندما حملته على ظهرها. كانت المرأة من بني سعد وهي من عشائر هوازن، وطلبت من محمد أن يحسن معاملة «أقاربه»[٣١]. وافق محمد وعرض إعادة النساء والأطفال إلى هوازن، وقد أقسموا بدورهم على الولاء لمحمد.

أدى تحول هوازن إلى الإسلام إلى حرمان الطائف من آخر حليف مهم لها. إضافةً إلى ذلك فإن الانتصار في وادي حُنين قد أقنع العشائر الأخرى حول الطائف بأن مستقبلهم يكمن في الإسلام، واصطف عدد كبير منهم إلى جانب محمد. أدى هذا التحول في الولاء البدوي إلى عزل الطائف تماماً عن سوق مكة وتعريض طرق قوافلها إلى العراق للإغارات. مع عدم وجود خيارات متبقية، أرسلت الطائف وفداً إلى محمد يطلب التفاوض. سأل محمد عن مكان مالك بن عوف، أمير هوازن، وأُخبر أنه لجأ إلى الطائف. وعد محمد ابن عوف بالسلامة إن جاءه. وصل ابن عوف إلى معسكر المسلمين بعد أيام قليلة ليُرحَّب به باحترام، وأعاد محمد قطعانه وأهله إليه. ومع ذلك،

---

(٢٩) Watt, *Muhammad at Medina*, 73.

(٣٠) المصدر نفسه نقلاً عن الواقدي.

(*) هي الشيماء بنت الحارث السعدية، وهي أخت الرسول ﷺ من الرضاعة وابنة حليمة، وقيل هي أختها. وقد أسلمت (المترجم).

(٣١) Glubb, *The Life and Times of Muhammad*, p. 324.

كان ثمن التسوية هو تدمير صنمي العُزى واللات في الطائف وأن يتحول السكان إلى الإسلام. بعد عام سافر وفد من الطائف إلى المدينة ووافق على شروط محمد.

مكث محمد في الجعرانة من ٢٤ شباط/ فبراير إلى ٩ آذار/ مارس، وفي ذلك الوقت غادر وعاد إلى مكة لأداء عمرة أخرى[٣٢]. وأثناء وجوده في مكة أجزل الأعطيات لزعمائها، حيث قدّم عدة مئات من الإبل لتهدئة مخاوفهم وجعلهم حلفاء مخلصين. أثار هذا غضب بعض المسلمين، خاصة الأنصار الذين أخبرنا ابن إسحاق أنهم لم يصيبوا شيئاً من الغنائم. كان الأمر المثير للغضب هو أن الكثير من القادة المكيين ظلوا وثنيين! ولم يطالبهم محمد بالإسلام، في إشارة واضحة إلى الأهمية التي يعلّقها على دعمهم. قبل أن يغادر مكة للعودة إلى المدينة، عين محمد شاباً دون الثلاثين لينوب عنه في تدبير شؤون مكة، وهو عتاب بن أسيد، أحد أفراد عشيرة أبي سفيان الأموية، وهو دليل على أنه على الرغم من أن محمداً أراد دعم القيادة القديمة لمكة عامةً، إلا أن المستقبل الواعد هو لحليفه المسلم المخلص، أبي سفيان، وعشيرته[٣٣].

كانت معركة حُنين ضد أكبر وأقوى تحالف بدوي في المنطقة أهم نجاح عسكري لمحمد، وكانت أول إنجاز مشترك لمحمد وحلفائه المكيين الجدد. من وجهة نظر بعض المؤرخين العرب كان الانتصار والتحالف بمثابة البداية الحقيقية للفتوحات العربية التي ستشهد في النهاية غزو الجيوش العربية للإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية[٣٤]. مع سيطرة محمد أخيراً على مكة والمدينة والطائف، وهم مدن الحجاز الثلاث الرئيسة، بالإضافة إلى خيبر والواحات الأخرى في الشمال، ومع قبول شرائح كبيرة من سكانها للإسلام، فقدت القبائل البدوية الواقعة بالقرب منها قدرتها على المناورة السياسية. كان هناك زعيم واحد ذو سلطة في جميع أنحاء الحجاز، وهو محمد. لن تأمل قبيلة واحدة أو تحالف قبائل في الحجاز بمقاومة محمد

(٣٢) Watt, Ibid., p. 75.

(٣٣) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٣٤) Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia*, p. 27.

ومسلميه بقوة السلاح، ولم يكن هناك خيار واقعي سوى التسليم، فسلّم بدو الحجاز وانضموا إلى الدولة الإسلامية، وأصبحوا الآن يعرفون بالإسلام ومدمجين فيه لدرجة أنه لم يتم تسجيل تاريخ منفصل لهم من دونه(٣٥). إذا كان الانتصار في وادي حُنين لمحمد هو أعظم إنجازاته العسكرية، فإن انتقال المكيين إلى جانبه كان بالتأكيد أعظم إنجازاته السياسية. في إحدى التحولات التاريخية المثيرة، كان المكيون هم من أدّى الدور المركزي في غزو بقية شبه جزيرة العرب، وفي وقت لاحق في الفتح العربي للشرق الأوسط بأكمله.

---

(٣٥) Watt, Ibid., p. 87, and Bernard Lewis, *The Arabs in History* (London: Grey Arrow, 1958), p. 51.

الفصل الثاني عشر

تبوك ووفاة محمد

٦٣٠ - ٦٣٢م

من أيلول/ سبتمبر إلى تشرين الأول/ أكتوبر من عام ٦٣٠م، وبعد عشرة أشهر من سقوط مكة، بدأ محمد في التحضير لحملة عسكرية كبيرة نحو الشمال. إذا صدّقنا المصادر، فقد حشد ما بين عشرين ألفاً وثلاثين ألف رجل للغزوة[١]، وتكوّن الجيش من قوات من المدينة ومكة والقبائل البدوية في المناطق المجاورة[٢]. على الرغم من نجاحه السابق، لم يمتد تأثير محمد إلى أبعد بكثير من المنطقة التي جاءت منها هذه القوات. على عكس عملياته العسكرية السابقة، اتخذ خطوة غير عادية بالإعلان عن مكان الحملة، وهو المحافظات الحدودية الغنية لسوريا البيزنطية[٣]. لكن تصريحات محمد العلنية لم توضح سبب اختياره القيام بهذه الحملة في هذا الوقت من العام عندما كان واضحاً أن الحملة ضد البيزنطيين ليس لها أي معنى عسكري.

جميع المصادر، باستثناء ابن إسحاق، غامضة فيما يتعلق بدوافع محمد وراء الحملة[*]. يعتبر الكثيرون تصرفاته بمثابة طاعة لأمر إلهي، ويخبرنا

(١) Elias S. Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, Arab Institute for Research and Publishing, 1973), p. 42.
معتمداً على الواقدي وابن سعد. وعدد هذا الجيش المكون من ٣٠ ألف رجل يجعله أكبر جيش قاده محمد، ويؤكد ذلك: Maxime Rodinson, *Muhammad* (New York: New Press, 2002), p. 275.

(٢) Leone Caetani, *Annali dell'Islam*, 10 vols. (Milan: Hoepli, 1905-1926), vol. 2.
يعتبر كتاب كايتاني المكون من عشرة مجلدات واحداً من أهم الكتب الغربية عن تاريخ الإسلام والتي تعتمد على المصادر الأصلية.

(٣) يقول ابن إسحاق إن هذا كان الاستثناء الوحيد.

(*) حاول مؤرخو السيرة أن يجدوا سبباً مباشراً لغزوة تبوك، فذكر ابن سعد أن هرقل جمع جموعاً من الروم وقبائل العرب الموالية، وأن المسلمين علموا بخبرهم فخرجوا إلى تبوك. =

ابن عباس أن الرسول بقي في المدينة بعد ستة أشهر من عودته من الطائف، ثم أمره الله بغزو تبوك[٤]. تقول مصادر أخرى إن الشائعات وصلت إلى المدينة عن غزو وشيك من هرقل للجزيرة العربية، والذي قيل إنه يحشد جيشاً كبيراً لهذا الغرض[٥]. كان هرقل خارجاً للتو من انتصار ساحق على الفُرس، وقد أدرك محمد بالتأكيد أن جيشه لم يكن يضاهي جيوش البيزنطيين الذين يقاتلون من وراء دفاعاتهم الحدودية الكبيرة. تم تجميع جيش هرقل في إميسا (حمص) وفي وضع مثالي للدفاع عن الحدود السورية ضد هجوم محمد، على الرغم من أنه غير مؤكد معرفة محمد بهذه المعطيات. كانت الرحلة من المدينة إلى تبوك أكثر من ٢٥٠ ميلاً وبعدها مسيرة مئتي ميل أخرى معظمها في صحراء مفتوحة للوصول إلى أقرب حامية بيزنطية. جعلت التضاريس والمسافة من مهاجمة المدينة من قبل قوة نظامية من البيزنطيين أو حلفائهم العرب الغساسنة أمراً غير وارد، بل مستحيلاً في أوقات معينة من العام. إضافة إلى ذلك بحلول وقت غزوة تبوك، كان التحالف البيزنطي مع الغساسنة قد انهار تقريباً بسبب الاضطهاد الديني وسجن البيزنطيين لبعض زعماء الغساسنة بسبب إيمانهم الهرطقي. ليس لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كان محمد ومستشاروه قد أدركوا تلك الحقائق، لكن أي تقييم دقيق لهذه العوامل كان سيؤدي إلى استنتاج مفاده أن الهجوم على المقاطعات البيزنطية نتيجته الفشل غالباً.

الأمر المحير بالقدر نفسه ـ من وجهة النظر العسكرية ـ هو سبب اختيار محمد لشن حملة شمالية في تشرين الأول/ أكتوبر. الطقس في شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت من العام حار وجاف جداً، ما يجعل المسيرة الطويلة لما يقرب من خمسمئة ميل إلى الحدود السورية صعبة للغاية، ومحفوفة

= وذكر اليعقوبي أن الثأر لجعفر هو سبب الغزوة، ولكن الصحيح أنها استجابة لفريضة الجهاد وقد نبه على ذلك ابن كثير بقوله: «فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله.» العمري، **السيرة النبوية الصحيحة** (المترجم).

(٤) Shoufani, Ibid., p. 40.
نقلاً عن ابن عباس، وذكرها أيضاً: W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956), p. 180.

(٥) Shoufani, Ibid., p. 40,
معتمداً على ابن سعد.

بالمخاطر. لو تأخرت المسيرة لشهرين لكان الطقس أبرد، أما في تشرين الأول/أكتوبر، فلن يكون هناك ما يكفي من الرعي والمياه للرجال والدواب. كان ذلك الشهر أيضاً هو الذي تم فيه حصاد محصول التمور، وقد اعتمدت المدينة والواحات الأخرى على ذلك المحصول في عيشها، ومثّلت حملة محمد بسحب قوة بشرية كبيرة مطلوبة لجني التمور خطراً عليها. أخيراً، ارتاع البدو من أن رحلة شاقة في ظل هذه الظروف المناخية القاسية قد تفتك بخيولهم وجمالهم، ما يؤدي إلى خسارة كبيرة لثرواتهم الشخصية. إذا كان الأمر يتعلق فقط بالطقس والتضاريس، فإن رحلة محمد الشمالية كانت هدفاً مشكوكاً بنجاحه للغاية. لم يكن عبثاً أن عُرفت العملية في التاريخ العربي باسم جيش العُسرة(٦).

كانت هناك معارضة كبيرة للحملة داخل المدينة(*)، واعتذر الكثير لتجنب الذهاب. كان العذر الأكثر شيوعاً هو معاناة الجمال بسبب الجفاف وأنها لن تنجو من قسوة المسيرة. توسّل آخرون بسبب الحر الشديد، وعندها دعا محمد المسلمين الأكثر ثراءً إلى توفير المال لشراء مطايا بديلة لأي جمال أو خيول مفقودة. ولكن حتى تاريخ المغادرة، تخلّف عدد من الأفراد أو رفضوا التجمع. كانت الصعوبات المرتبطة بتنظيم الغزوة موضوع وحي في سورة التوبة، حيث وبّخ الله بعض المسلمين لعدم ثقتهم به وعدم استعدادهم لتحمل المصاعب لوجهه. تقول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]. أصدر الوحي تهديداً خطيراً: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ﴾ [التوبة: ٣٩].

حتى مع التهديد بالانتقام الإلهي استمرت الأمور في السوء. أقام محمد في الليلة التي سبقت مغادرته للمدينة معسكراً في ثنية الوداع، وهو ممر يطل

---

(٦) اعتماداً على الواقدي وابن سعد. Shoufani, Ibid., p. 39.

(*) يضخّم المؤلف حجم من أحجموا عن الالتحاق بجيش النبي ﷺ، والصحيح أن عددهم كان صغيراً، وكما ذكر العمري في **السيرة الصحيحة**، فقد «تخلف الأعراب والمنافقون وعدد يسير من الصحابة رضوان الله عليهم من أصحاب الأعذار سوى ثلاثة لم يكن لهم عذر عن شهود هذه الغزوة» (المترجم).

على المدينة كان قد انطلق منه في السابق في حملات عسكرية أخرى. نصب تحته عبد الله بن أبي وفرقة الأنصار التابعة له معسكرهم. تقول عدة مصادر أن معسكر ابن أبي كان أكبر من معسكر محمد(*)، مما يشير إلى أن الادعاء بأن جيش محمد كان يبلغ ثلاثين ألف رجل قد يكون نوعاً من المبالغة. فلما خرج محمد والجيش في صباح اليوم التالي لم يتبعه ابن أبي، وعاد إلى المدينة حيث بقي مع «المنافقين وأهل الريبة». لكن يبدو أن معظم أنصار المدينة رافقوا محمداً على أمل الحصول على نصيبهم من الغنائم.

في ظل هذه الظروف لا بد من أن محمداً كان لديه سبب مُلحّ لمواصلة الغزوة، ومن غير المرجح أن يكون السبب عسكرياً. من اللافت أن محمداً أمر علياً، أشهر جنوده، بالبقاء في المدينة. كان الانتصار في وادي حُنين نجاحاً عسكرياً، لكنه لم يترجم سياسياً. من أجل تأمين ولاء المكيين، أغدق محمد عليهم كثيراً من غنائم هوازن. ولكن لتشجيع هوازن على إعلان ولائهم له، أعاد الغنائم المتبقية. غضب الأنصار بالفعل من ذلك وظنوا أنها كانت معاملة تفضيلية لأهله القرشيين. عبد الله بن أبي، الزعيم الأنصاري في المدينة، لم يقبل قيادة محمد على الرغم من إسلامه الشكلي، وكان متوقعاً منه استخدام استياء بعض الأنصار لاستعادة بعض نفوذه المفقود بين عشائر المدينة. كان رفضه مرافقة محمد في الرحلة تهديداً ينذر بالسوء لتقويض سلطة محمد في أثناء وجوده بعيداً، ربما عن طريق الاعتداء على عائلات المسلمين وممتلكاتهم أو حتى قيادة ثورة. قد يكون قرار محمد بترك علي وراءه بمثابة إجراء احترازي ضد طموحات ابن أبي وقمع أي تمرد قد يندلع. بعض هؤلاء الأنصار، إذاً، هم الذين يشار إليهم بالمنافقين، والذين عاقبهم محمد عند عودته.

جلبت الانتصارات في مكة ووادي حُنين أعداداً كبيرة من المؤيدين

(*) كانت أعداد المتخلفين ضئيلة إذا ما قورنت بعدد الجيش المسلم، وقد أحصاهم مؤرخو السيرة: «كما تخلف عنه بضعة وثمانون رجلاً آخرون، وقد ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار، وأن المعذّرين من الأعراب كانوا أيضا اثنين وثمانين رجلاً من بني غفار وغيرهم، وأن عبد الله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عدد كثيراً. وكان من يختلف يظن أن لا أحد يفطن لتخلفه لكثرة الجيش». **السيرة النبوية الصحيحة** (المترجم).

الذين تدفقوا إلى المدينة ليصبحوا مسلمين، ويشار إلى هؤلاء في المصادر بـ «أصحاب الصُّفة»، أي الفقراء الذين عاشوا على مساهمات المسلمين والرسول والذين اعتاد المسلمون على اصطحابهم في الغزوات حتى يحصلوا على الغنائم[٧]. نشأ من هؤلاء الفقراء الذين اعتنقوا الإسلام «الصعاليك»[*]، وهم مجموعات من قطاع الطرق يلتفون حول زعيم من بينهم ويعيشون على النهب[٨]. لم يكن لدى محمد الموارد اللازمة لدعم العدد الكبير من الفقراء الذين توافدوا على الإسلام بعد سقوط مكة، والأكثر إثارة للقلق هو احتمال لجوء الصعاليك إلى العنف ضده إذا لم يتم تلبية احتياجاتهم لفترة طويلة. كان محمد في خطر فقدان قبضته على أهم قاعدة لأي تمرد، وهي قاعدة دعمه الشعبية، من خلال معارضة الأنصار وآخرين في المدينة. يمكن قياس مدى المعارضة حتى داخل جيش محمد من خلال قراره زرع عيون في صفوفه للإبلاغ عن «همهمات» الجنود[٩].

كانت المشاكل التي واجهت محمداً خطيرة وتهدد مستقبل التمرد. ولحلها، قرر مهاجمة المحافظات الحدودية البيزنطية والقبائل العربية في البادية السورية. إذا نجحت الحملة، فستنتج ما يكفي من الغنائم لتزويد أصحاب الصفة باحتياجاتهم، وتعويض الأنصار عن جهودهم السابقة في مكة ووادي حُنين التي لم يتلقوا شيئاً إثرها، وإرضاء قريش التي اضطربت بخسارتها التجارة والتمويل الذي نضب في مكة[١٠]. وكانت مغامرة جريئة،

---

(٧) Shoufani, Ibid. p. 40.

(*) يخلط المؤلف بين أهل الصفة، وقد ذُكر حالهم في هامش سابق، وبين الصعاليك الذين عاشوا في الجاهلية وبعدها. كما أنه يخطئ في محاولته لإيجاد رابط وهمي بين فقراء المسلمين ممن اضطروا إلى المبيت ولوقت قصير قرب المسجد، ولم يشكّلوا جماعة بأفكار محددة وبين مجموعات هائمة امتهنت الغزو بقصد الأخذ من الاغنياء وإعطاء المنبوذين والفقراء، ولم يعترفوا بالاتفاقيات بين القبائل ما أدى إلى طردهم منها. وقد حدد شوقي ضيف في كتابه **العصر الجاهلي** معنى الصعلوك لغة بأنه الفقير الذي لا يملك المال لتحمل أعباء الحياة، مؤكداً أن هذه اللفظة تجاوزت دلالاتها اللغوية وأخذت معاني أخرى كقطاع الطرق (المترجم).

(٨) المصدر نفسه، معتمداً على كتاب **الأغاني**.

(٩) John Glubb, *The Life and Times of Muhammad* (New York: Cooper Square Press, 2001), p. 321.

(١٠) Shoufani, Ibid., p. 42.

تم تقديم هذه الحجة في مجملها في صفحات ذلك الكتاب.

بطبيعة الحال، ولكن ذلك يمكن توقعه من أحد قادة المتمردين الذين فهموا أولوية السلطة السياسية على المخاوف العسكرية عندما يصل الأمر إلى إدارة الثورة. كان محمد على وشك خسارة كل ما قاتل من أجله. لإنقاذ الموقف، اتجه إلى الخارج من أجل حلٍّ عسكري لمعضلة سياسية.

كانت هناك عوامل أخرى ربما تكون قد أثّرت في قرار محمد بالقيام بحملة عسكرية كبيرة في ظل ظروف غير مواتية. فرض انتصار الإسلام في الحجاز قواعد جديدة تحكم السلوك العربي، وكانت لها عواقب وخيمة غير متوقعة. كانت الجزيرة العربية أرضاً فقيرة ولا تستطيع إطعام نفسها، وكان البدو على وجه الخصوص يعانون الجوع معظم الوقت، وكانوا يعيشون من خلال مداهمة الحواضر وقطعان بعضهم، والتي أعادت توزيع الثروة والغذاء للسماح للكثيرين بالبقاء على قيد الحياة، ومن دونها كانوا سيهلكون. لكن الإسلام نهى الآن عن مداهمة المدن وقطعان المسلمين الآخرين، مما زاد بشكل كبير من فقر الكثير من البدو. كما نهى الإسلام عن ممارسة الحرب التقليدية بين المسلمين للثأر من أخطاء فردية. كانت هذه الوسائل القديمة للترويح وإثبات الرجولة أحد الأسس النفسية الرئيسة لحياة الرجل العربي، والآن ذهبت. حتى تجارة التوابل لم تعد مربحة، فقد أضعفت القوانين الإسلامية ضد الربا الكثير من النشاط التجاري. كانت إحدى النتائج أن مكة نفسها، التي كانت ذات يوم المركز التجاري الرئيس للحجاز، تدهورت بشكل خطير. إن وعد الإسلام بالجنة من خلال الجهاد الذي نجح في اجتذاب القبائل للحرب ضد المشركين أصبح الآن على المحك، فكيف يصبح المرء شهيداً وينال الجنة من دون أعداء يقاتلهم؟ كل هذه المحظورات عنت أنه لم تكن هناك غنيمة، ومن ثم لا توجد طريقة لتحسين وضع المرء في الحياة.

دفع النظر في هذه الظروف البعض للاعتقاد أن حملة محمد ضد المقاطعات الحدودية البيزنطية كانت جزءاً من رؤية استراتيجية أكبر، وهي «استراتيجية التوجه شمالاً» مصممة لإيجاد أعداء جدد يمكن للمسلمين محاربتهم وسلبهم[11]. من وجهة النظر هذه، كانت الاستراتيجية الشمالية

---

(11) Caetani, *Annali dell'Islam*, vol. 1, pp. 307-308.

مفضلة على الهجوم على المحافظات الفارسية في العراق لأن الطرق إلى الشمال كانت معروفة وعبورها أسهل من الطريق الشرقي الأطول والأكثر صعوبة إلي العراق. لكن حتى لو ابتكر محمد مثل هذه الاستراتيجية، فهل هذا هو الوقت المناسب لمحاولة تنفيذها؟ كان محمد بالكاد قائد الحجاز، وظل معظم العرب مشركين. إضافة إلى ذلك كانت قبائل الشمال القوية معادية، وأي طريق شمالي إلى المقاطعات البيزنطية سيمر قرب أراضيها. إضافة إلى ذلك عرف محمد بالتأكيد أن جيشه لا يضاهي البيزنطيين. ربما كانت الاستراتيجية الشمالية خطة طويلة المدى ليتم تنفيذها بمجرد انتصار الإسلام في كل شبه الجزيرة، وعندما تكون جميع مواردها البشرية تحت تصرف محمد.

بالنظر إلى هذه الافتراضات، ربما كانت رحلة محمد الشمالية استكشافية، لاختبار دفاعات العدو ومعرفة الحلفاء الذين قد يتم اكتسابهم للعمليات المستقبلية. ربما كان محمد يفكر أيضاً بالانتقام لهزيمة المسلمين في مؤتة التي أودت بحياة ابنه بالتبني زيد(١٢). صعوبة القبول بهذا التحليل هو أنه لو كانت الحملة عقابية أو استطلاعية فلن توفر الغنائم اللازمة لتلبية احتياجات أتباع محمد المتململين(*). في النهاية، السبب الوحيد المنطقي هو أن محمداً كان ينوي بالفعل مهاجمة المقاطعات البيزنطية، لكن الظروف منعته من ذلك.

كانت الرحلة إلى الشمال صعبة للغاية، وربما كانت أكثر صعوبة مما توقعه محمد، واستغرقت وقتاً أطول بكثير مما كانت ستستغرقه لو تم السفر بعد شهرين عندما كان الطقس أكثر برودة. في ظروف أبرد، ربما تمت تغطية الـ ٢٥٠ ميلاً بين المدينة وتبوك بسهولة في غضون عشرة إلى اثني عشر يوماً، ولكن يبدو أنها استغرقت الآن ما يزيد على ثمانية عشر إلى عشرين يوماً. كانت الحرارة لا تطاق، وفي ظل هذه الظروف كان الجيش يتحرك في الغالب في الليل. نتج من ذلك وتيرة أبطأ حيث تحرك الجيش على مراحل ومسافات أقصر. كان علف الدواب شحيحاً، ومن المتوقع نفوق بعضها في

---

(١٢) Rodinson, *Muhammad*, p. 274.

(*) لم يذكر مؤرّخو السيرة ما يمكن وصفه بتململ أو معارضة إلا من عدد ضئيل جداً ممن عرفوا بالنفاق في المدينة. وهناك فرق كبير من المعارضة العقدية لمنافقي المدينة الرافضين للنبوة أصلاً والذين حاولوا استغلال أي قضية للتثبيط، وبين من استثقلوا الخروج مع الرسول في تلك الظروف الصعبة، وذكر المؤرخون أنهم كانوا ثلاثة فقط ثم تابوا وقبلت توبتهم (المترجم).

الحر. يخبر ابن إسحاق أن الماء كان شحيحاً أيضاً وأن القوات عطشت. توقف الجيش في منطقة الحجر على بعد ١٨٠ ميلاً عن المدينة. تميّز المكان بالكهوف وآثارٍ من عصور ما قبل التاريخ، ويبدو أن محمداً يعتقد أن المكان كان مسكوناً، ونهى رجاله عن الخروج من المعسكر إلا برفقة جندي آخر. وعلى الرغم من أن الجيش كان يعاني العطش، فقد نهاهم محمد أن يشربوا من بئر هناك. تجاهل أحد الجنود التحذير وأصيب بانقباض في الحلق أدى إلى وفاته(١٣). عانى الجيش طوال الليل، و«لما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ فأرسل الله سبحانه سحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء». مع وصول جيش محمد إلى تبوك، كان متوقعاً أن تكون قواته قد استنفدت ونقصت إمداداتها وكانت غير مستعدة لقتال البيزنطيين الذين كانت أقرب حامية لهم على بعد مئتي ميل.

من المحتمل أن محمداً علم على وجه اليقين في تبوك أن جيش هرقل معسكرٌ في حمص في سوريا، على بعد نصف المسافة من الحدود التي لا يزال يتعين على محمد تغطيتها من تبوك لمهاجمة المحافظات البيزنطية. في تبوك لا بد من أن محمداً قد أدرك أيضاً أن جيشه قليل التجهيز والبعيد عن الوطن لم يكن قادراً على مواصلة المسيرة والاشتباك مع البيزنطيين. كان القيام بذلك ينطوي على مخاطرة هائلة، ومن المحتمل ألا يستطيع محمد السيطرة على قاعدة دعمه الشعبي لو تعرض لهزيمة عسكرية أخرى مثل مؤتة، فقرر إلغاء الحملة.

مكث محمد في تبوك لمدة عشرة أيام، استراح خلالها جيشه ودخل في مفاوضات مع زعماء محليين لتشكيل تحالفات جديدة. «أقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة»(١٤). كان وجود جيش مسلم بهذا الحجم، مهما كان مُتعباً، دليلاً واضحاً على قوة محمد التي أثارت إعجاب الزعماء المحليين، وسافر بعضهم إلى تبوك

(١٣) في تعليقه على الحادثة يقول غيوم إنها حالة مرضية أو عدوى يعرفها العرب بالخنّاق تصيب البشر والخيول والطيور في الحلق.

(١٤) من رواية ابن إسحاق، وزعمت روايات لاحقة أنه بقي في تبوك ٢٠ يوماً، كما يذكر في:
Rodinson, Ibid., p. 275.

للتفاهم مع محمد. كان أحد هؤلاء الزعماء يحنّة بن رؤبة، «صاحب» أيلة (العقبة الحديثة بالأردن)، وأبرم اتفاقاً مع محمد وافق فيه على دفع الجزية مقابل حماية المسلمين للميناء، وامتدت هذه الحماية إلى السفن أيضاً(١٥). أبرمت أيضاً ثلاث بلدات يهودية اتفاقيات مماثلة: أذرح وجربا على بعد ٨٠ ميلاً شمال العقبة، ومقنا، وهي قرية صيد على البحر الأحمر(١٦). أرسل محمد خالداً بن الوليد وبضع مئات من الرجال إلى واحة دومة الجندل، حيث قتلوا شقيق الملك وأحضروا الملك النصراني مقيداً. وافق الملك على دفع الجزية وأُطلق سراحه. شكلت هذه الاتفاقات انتصارات صغيرة فقط، وذلك لأن أكبر وأقوى القبائل العربية على الحدود السورية ـ الغساسنة ولخم وبحرة ـ ظلت معادية بلا كلل لمحمد والإسلام. بعد أن ارتاح جيشه، استدار محمد جنوباً وسار إلى المدينة.

إن فشل الحملة السورية قد يزيد الأمور سوءاً في المدينة، ولا يسع المرء إلا أن يتساءل ما هي «الهمهمات» التي دارت بين الأنصار الذين رافقوا محمداً ليعودوا خالي الوفاض للمرة الثالثة. زاد استياء الأنصار من المكيين حيث عيّن محمد الآن مزيداً منهم في مناصب عليا(١٧). يخبرنا مصدر لاحق أن أحد الأنصار وبّخ علناً مستشاري محمد الجدد المكيين بقوله إنهم «أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء»(١٨)(*) وقال آخر:

---

(١٥) لم يكن ابن رؤبة «والياً» بمعنى المسؤول البيزنطي، بل كان أميراً محلياً أو زعيماً قبلياً، لذلك ينبغي عدم الظن أن محمداً كان يتفاوض مع مسؤولين في الإمبراطورية البيزنطية.

(١٦) المصدر نفسه، ص٢٧٥. هناك بعض الاختلافات بين المؤرخين ومنها زعم غلوب أن القرى تلك لم تكن يهودية بل نصرانية.

(١٧) يتجلى نجاح المكيين في الوصول إلى مناصب عليا في عهد محمد والخلافة اللاحقة في موقف أبي سفيان، العدو اللدود السابق لمحمد، والذي أصبح الآن أحد مستشاري محمد. وضع أبو سفيان عائلته في مناصب بارزة. كانت هذه العائلة هي التي أصبحت فيما بعد السلالة الأموية الشهيرة. تم تعيين يزيد نجل أبي سفيان والياً على تيماء، وأصبح ابنه معاوية معاون الرسول. في وقت لاحق، استبدل أبو بكر ضباطاً مكيين بالكثير من القادة المسلمين.

(١٨) المصدر نفسه، ص٢٧٧، اعتماداً على رواية الواقدي.

(*) جميع هذه المقولات كانت من قبل المنافقين، ولم يتفوه بها أحد من الأنصار المعروفين بإسلامهم. يقول الطبري في **جامع البيان في تأويل القرآن**: «روي أن رجلاً قال في إحدى المجالس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء، فقال له رجل في المسجد: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله. فلما بلغ ذلك النبي مُحمد ونزل قرآن، قال عبد الله بن عمر: =

«والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شرٌّ من الحمير!»[١٩]. يجب أن تكون التقارير عن أنشطة المعارضة في المدينة قد وصلت إلى محمد بينما كان لا يزال في مسيرة العودة. توقف في ذي أوان، وهي بلدة تبعد نحو ساعة من المدينة؛ حيث أقام بعض المسلمين مسجداً قالوا إنه للمرضى والمحتاجين. عرف محمد بطريقة ما أن المسجد أصبح مركزاً للمعارضة وأمر بإحراقه. وكان هناك رجال في داخله عند إضرام النار فيه «وتفرقوا عنه». ومع ذلك، يشير إرفاق قائمة تضم الاثني عشر رجلاً الذين بنوا المسجد إلى أنهم ربما قد احترقوا في الداخل. تشير بعض المصادر اللاحقة إلى أن مخططي المعارضة التقوا في المدينة في منزل يهودي. يبدو أن محمداً علم بذلك وأحرق المنزل فور عودته[٢٠].

تحرك محمد بسرعة ضد المعارضة بمجرد عودته إلى المدينة. تم تحديد هوية المخلّفين الذين رفضوا مرافقة الحملة من دون عذر وقوطعوا مدة ٥٠ يوماً. تم استدعاؤهم لاحقاً واحداً تلو الآخر أمام محمد[*] (وقد نتخيل حضور مستشاريه وأهل الصفة)؛ حيث كان عليهم التراجع علناً وشرح سبب رفضهم لأمر النبي. الموضوع برمته، على الرغم من غموضه من حيث التفاصيل، يذكّر بشكل من أشكال المحاكمات الاستعراضية العامة للأنظمة الثورية اللاحقة؛ حتى إن أحد المصادر اللاحقة يشير إلى أن زمرة من المعارضين تآمرت لاغتيال محمد بإلقائه من فوق منحدر[٢١]. فشلت المؤامرة ولا يُعرف شيء عن مصير المتآمرين. لا نعرف ما حدث لتجمعات المعارضة في المدينة، لكن ليس بعيداً عن الخيال أنه تم التخلص منها من قبل أتباع محمد تمهيداً لفرض انضباط أكبر على جميع أتباعه. ربما لم يكن من قبيل

= «وَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقاً بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنكُبُه الْحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ» (المترجم).

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٢٧٧. يبدو واضحاً من هذه الحوادث أن مخابرات محمد في المدينة كانت تعمل بشكل جيد في أثناء غيابه.

(*) بعد أن دخل النبي والمسلمون إلى المدينة جاءه المنافقون ليعتذروا عن تخلفهم عن الغزوة، ولم يستدعهم، وحلفوا له كذباً فقبل رسول الله علانيتهم ووكل سريرتهم لله (المترجم).

(٢١) المصدر نفسه (**جامع البيان**) اعتماداً على رواية للواقدي.

المصادفة أنه في هذا الوقت تلقى محمد وحياً في سورة التوبة، الآية ٨٤: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

لم يحتج محمد إلى التذكير برفض البعض غزوة تبوك، والمعارضة الواضحة في المدينة أظهرت بوضوح كافٍ عدداً من المسلمين المتحولين المذبذبين في صفّه عندما جاء زعماء عشائرهم إلى المدينة للتوصل إلى تسوية مع محمد. أقسم الكثير من هؤلاء الزعماء على الولاء للإسلام كطريقة لكسب دعم محمد في نزاعاتهم المحلية، ورأى آخرون في قبول الإسلام فرصة لكسب الغنائم. كان الكثير من حلفاء محمد مشركين، وظلت معظم شبه الجزيرة ما وراء الحجاز وثنية. لم يستطع محمد أن يأمل في النجاح في مهمته لنشر الدين الجديد في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ما لم يقم أولاً بتثبيت سيطرةٍ وانضباطٍ أكثر حزماً ضمن أتباعه، المسلمين والمشركين على حد سواء. كان قمع خصومه في المدينة هو الخطوة الأولى.

«الحرب حتى النهاية»

مثل كل حركات التمرد، حان وقت يجب فيه القضاء على المتسللين والانتهازيين أو إجبارهم على تقديم التزام حقيقي. بناء على هذه القاعدة، وبعد فترة وجيزة من عودته من تبوك، قام محمد بتغيير جذري في سياسته تجاه حلفائه غير المسلمين. يخبرنا القرآن أنه خلال العام نفسه (٦٣١) كان محمد تلقى وحياً يأمره بفرض ضريبة سنوية إلزامية على جميع المسلمين(*): ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٣ ـ ١٠٤]. سمى النص القرآني هذه الضريبة

(*) أخطأ المؤلف في توقيت فرض الزكاة، ووصل لبعض الاستنتاجات تبعاً لذلك. والصحيح أن الزكاة فرضت «مع تقدير أنصبتها في السنة الثانية من الهجرة»، في المدينة. ولاحظ المُفسّرون أن هناك سوراً مكية ذُكرت فيها الزكاة، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، و﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾. ويمكن تفسير ذلك بأنّ الزكاة التي فُرضت في مكة هي الصدقة المُطْلَقة؛ أي دون شروطٍ أنصبةٍ معيّنة، والزكاة التي فُرضت في المدينة هي الزّكاة ذاتُ المقادير والأنصبة الخاصّة. انظر: سعيد القحطاني، **منزلة الزكاة في الإسلام** (المترجم).

صدقة، وسميت فيما بعد بالزكاة. ربما حسب محمد أنه إذا كان قوياً بما يكفي لفرض إرادته في الحجاز، فإنه لم يكن قوياً بما يكفي لفرض إرادته في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية. كان فرض الضريبة على الجميع من المسلمين وغير المسلمين مخاطرة جريئة. كان سيعطي القبائل العربية فرصة أخيرة للانضمام إلى الحركة، وسيكون دفع الضريبة، وهي الوسيلة العربية التقليدية منذ زمن بعيد لإظهار الخضوع لزعيم، اختباراً لولائهم. أولئك الذين رفضوا سيقتلون.

عيّن محمد أبا بكر ليقود فريضة الحج السنوية إلى مكة؛ حيث أعلن أبو بكر فرض الضريبة الجديدة، وبقي محمد في المدينة. بعد وقت قصير من مغادرة المسلمين وأبي بكر للمدينة، تلقى محمد وحياً آخر وهو في القرآن باسم سورة براءة، أو «التحرر من المسؤولية»، كما تسمى أحياناً سورة التوبة:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١ ـ ٥].

من اللافت أن محمداً أرسل علياً إلى مكة لإعلان السياسة الجديدة. ربما لم يغفل الجمهور المتلقي حقيقة أن علياً كان أشهر جندي مسلم في الجزيرة العربية.

تغيّر العالم العربي جذرياً بتنزّل سورة التوبة. حان الوقت الآن للاختيار بين النظام القديم والجديد، وأعلن محمد الحرب على جميع من هم غير مسلمين. مُنح المشركين فسحة لمدة أربعة أشهر وبعد ذلك أعلن محمد أنه متحرر من أي التزام تجاههم، وعندها سيقوم المسلمون «بقتل المشركين»

أينما وجدوا. كانت القبائل غير المسلمة التي لديها عهود مع محمد آمنة في الوقت الحالي، لكن هذا الأمان كان فقط لفترة محددة. لم يعد محمد يشكّل تحالفات مع غير المسلمين. كان خيار كل العرب هو إما الانضمام إلى التمرد أو مواجهة حرب حتى النهاية.

سرعان ما أعلن محمد عن وحي آخر، مُنع فيه غير المسلمين من أداء فريضة الحج التقليدية إلى مكة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. أصبحت مكة الآن مدينة مقدسة للمسلمين فقط، وقد تم التخلص من قرنين تقريباً من الممارسات الدينية العربية التقليدية. من المثير للاهتمام أن سورة التوبة هي المثال الوحيد لفرض محمد «التحول بالسيف»، وقد حدث ذلك داخل شبه الجزيرة وبين العرب فقط، وليس، كما يقول الغربيون أحياناً، بين النصارى واليهود خارج شبه الجزيرة التي سقطت لاحقاً في يد الفتح العربي: من المهم أن نلاحظ أيضاً أن تهديدات محمد تنطبق فقط على المشركين العرب، ولم يتم تضمين النصارى واليهود، ولم يتعرضوا للأذى.

يبدو أن تهديد محمد بالحرب الدينية كان مدفوعاً بالظروف السياسية التي أُجبر على التعامل معها في ذلك الوقت، ولم يكن دافعها تعصباً دينياً. لقد كان وقت أزمة بالنسبة إلى الإسلام. إما أن يتم إجبار القبائل الوثنية على الانخراط في الصف الإسلامي، مما يمهد الطريق للتحول الديني لجميع شبه الجزيرة، أو سيظل الإسلام عقيدة تقتصر على الحجاز. في ظل الظروف التي واجهها الفتح العربي اللاحق، كان التحول بالسيف ممنوعاً. من المؤكد أن مقاومة الجيوش العربية كان عقابها الموت، ولكن بمجرد التمكين فإن الإسلام لم يعترف إلا بالقبول الطوعي له. كانت الضرائب مطلوبة من جميع الرعايا، مسلمين وغير مسلمين، حيث يدفع المسلمون الزكاة ويخضع غير المسلمين لضريبة الأرض (الخراج) وضريبة الفرد (الجزية). كان المسلمون مطالبين بأداء الخدمة العسكرية إضافة إلى الضريبة، بينما أعفي النصارى واليهود منها.

نقل الحجاج في مكة عند عودتهم إلى قبائلهم أخبار الأحكام الجديدة لمحمد، وكانت تلك الأخبار مقلقة لهم؛ حيث شكك عدد من الزعماء بنيّة محمد استخدام جيشه الضخم كما كان يهدد. من شبه المؤكد أن بعض

القبائل ستنضم أيضاً إلى محمد لإتاحة الفرصة لها لتسوية الخصومات القبلية القديمة، كما كانت السياسة دوماً في شبه الجزيرة. وكان هناك، كما هي الحال دائماً، احتمال الظفر بغنيمة. هدد محمد بتحويل كل شبه الجزيرة العربية إلى ساحة معركة، وفي ظل هذه الظروف اختار الكثير من الزعماء الانضمام إلى حركة محمد واعتناق الإسلام، والذي أصبح الآن شرطاً لأي اتفاق مع محمد. في عام ٦٣١م بدأ ممثلو قبائل بعيدة مثل تلك التي في اليمن بالوصول إلى المدينة للتصالح مع محمد واعتناق الإسلام، ويشار إليه في الروايات باسم عام الوفود. ليس هناك شك في أن الكثير من هذه «التحولات» كانت أقل من صادقة. بالنسبة إلى كثير من الزعماء، ربما لم يُنظر إلى قسم الولاء لمحمد والإسلام بعيداً عن الممارسة التقليدية لقسم الولاء لأي زعيم قوي كما حدث في شبه الجزيرة العربية لعدة قرون. ما إذا كان تحالفاً من خاضع أو إيماناً من صادق، فإن ذلك لم يُحدث فرقاً. الأمير الجديد وزعيم جزء كبير من شبه الجزيرة هو الآن محمد.

إن تغيير محمد في سياسته والضغط الذي فرضه على القبائل والعشائر لم يترك لهم خياراً سوى الخضوع لسلطته أو حمل السلاح ضده. عندما بدأ وكلاء محمد بالوصول إلى المناطق القبلية لجبي الزكاة، ظهر الاستياء على الفور. لم يكن أمام القبائل الأضعف والأقرب إلى مكة والمدينة سوى الوعد بالدفع. غير أن القبائل الأقوى تحدّت إنذار محمد ووقفت في عداء صريح معه. حتى بينما كان ممثلو بعض القبائل يتدفقون إلى المدينة خلال عام الوفود لقسم الولاء، كان زعماء القبائل الأقوى ـ الأسود في اليمن ومسيلمة في اليمامة وطلحة من أسد ـ قد أعلنوا جميعاً عن عدائهم لمحمد وحلفائه وضرائبه ودينه(٢٢). عندما مات محمد بعد أقل من عام، كانت هذه القبائل لا تزال مصرّة على التحدي الصريح، ولم يرسل محمد جيشاً للتعامل مع تمردهم. أما قبائل الشمال القوية، غطفان، والأخرى على طول الحدود السورية، فإنها لم تخضع لسلطة محمد خلال حياته. ربما يكون لسبب وجيه أن هناك رواية تقول إنه حتى موته اشتكى محمد بمرارة من أن الكثير من المسلمين كانوا غير ملتزمين وبعضهم كانوا منافقين صراحة.

---

(٢٢) Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia*, p. 46.

مهما كانت محدوديتهما فإن سلطة محمد وقاعدة قوته البشرية ما زالتا تمكّنانه من تكوين جيش أكبر بكثير من ذي قبل، وقد بدأ بالتخطيط لحملة أخرى ضد البيزنطيين[٢٣]. بينما كانت الحملة لا تزال في مراحل التخطيط، قام محمد بحجة الوداع الشهيرة إلى مكة. في ٩ آذار/مارس عام ٦٣٢، ألقى خطبة كرر فيها أوامر الله التي كانت تحكم سلوك جميع المسلمين. في نهاية الخطبة سأل الحشد: «أَلَا هَلْ بلَّغْتُ؟»، ردت الجموع: نَعَمْ والله. رفع عندئذ محمد عينيه إلى السماء وقال: اللهم فاشهد. ثم غادر مكة بلا رجعة.

وفاة محمد

عند وصوله إلى المدينة، استمر في استعداداته للحملة ضد البيزنطيين، وعين أسامة بن زيد بن حارثة البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً للقيادة. كان تعيين شاب بهذا العمر موضع شكوى كبيرة بين الجنود الأكثر خبرة، لكن محمداً ظل حازماً في قراره. إن تعيين مثل هذا الجندي الشاب عديم الخبرة أمر محيّر. ربما رغب محمد في الثأر صراحة لمقتل ابنه بالتبني، زيد، الذي قُتل في مؤتة من خلال تعيين الابن الوحيد لزيد، لقيادة الجيش الآخذ بالثأر[٢٤]. يصعب تأويل اختيار هذا القائد بتفسير عسكري بحت.

ذات ليلة في حزيران/يونيو عام ٦٣٢م، أخبر محمد أحد أصحابه أن الله أمره بالذهاب إلى مقبرة البقيع والصلاة على الموتى. صلى في المقبرة لبعض الوقت ثم عاد إلى المنزل حيث نام. في صباح اليوم التالي أصيب محمد بصداع شديد. وتقول بعض المصادر إنه كان يعاني الحمى والصداع لبعض الوقت، ربما بسبب التعب من الحج[٢٥]. على الرغم من آلامه، استمر محمد في قضاء ليلة مع كل واحدةٍ من زوجاته على التوالي. أرسل إلى أسامة، وبعد يومين كان قوياً بما يكفي لأداء المراسم العامة لتسليم راية الحرب لأسامة وجيشه. يخبرنا ابن إسحاق أن الرسول كان «يمشي بين رجلين من أهله: أحدهما الفضل بن العباس، ورجل آخر، عاصباً رأسه، تخط قدماه».

---

(٢٣) يقول ابن إسحاق إن محمداً بدأ يخطط للرحلة بعد عودته من الحج، بينما يقول شوفاني إنه بدأ التخطيط بعد عودته من تبوك.

(٢٤) Rodinson, *Muhammad*, p. 286.

(٢٥) المصدر نفسه.

كان هناك قلق كافٍ على صحته حتى إن أسامة أخّر موعد مغادرته إلى سوريا.

نُقل محمد إلى بيت زوجته عائشة حتى تتمكن من الاعتناء به، ويبدو أنه عانى حمى شديدة وصداعاً شديداً. فعن عائشة أنه قال: «أريقوا عليّ سبع قرب من آبارٍ شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم». قالت: «فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم». قال ابن إسحاق في رواية عن أسامة بن زيد: «لما ثقل رسول الله ﷺ، هبطت وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علي، فأعرف أنه يدعو لي». على الرغم من هذه الصعوبات، ذهب محمد إلى المسجد «عاصباً رأسه»، حيث أمر أبا بكر بإمامة الصلاة. في اليوم العاشر من مرضه أصيب محمد بحمى شديدة وكان جسده يعاني من ألم بالغ. اعتقد من حوله أنه ربما يعاني من التهاب الجنبة التي تشبه أعراضها متلازمة الضائقة التنفسية لدى البالغين التي تصاحب أحياناً عدوى الملاريا طويلة الأمد(٢٦). في الصباح قام وذهب إلى المسجد وجلس في الفناء ليستريح، ثم عاد إلى سريره في بيت عائشة وساك أسنانه.

في مرحلةٍ ما طلب إحضار مواد لكتابة وثيقة بها لمنع المؤمنين من الاختلاف، لكن لا يوجد دليل على أن محمداً أنجز مثل هذه الوثيقة(٢٧). تقول عائشة: «ووجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص، وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة، فقال: خُيّرت فاخترت، وقُبض رسول الله ﷺ». مع حرارة الظهيرة، وفي اليوم نفسه الذي جاء فيه إلى المدينة كمهاجر، توفي النبي بعد أن أكمل بالضبط اثني عشر عاماً منذ هجرته. حدث بعض الخلاف بين المسلمين حول مكان دفن النبي، فأراد البعض دفنه في المسجد، والبعض الآخر أراد دفنه مع رفاقه في مقبرة البقيع، ثم حسم أبو بكر الأمر عندما قال: «إني سمعت

(٢٦) Peter F. Weller, "Protozoan Infections: Malaria," in: David C. Dale and Daniel D. Federman, eds., *Scientific American Medicine* (New York: Scientific American, 1999), vol. 2, p. 5.

(٢٧) Rodinson, Ibid., p. 288.

رسول الله ﷺ يقول: ما قُبض نبيٌّ إلا دُفن حيث يُقبض»، فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه، فحفر له تحته.... ودُفن الرسول في منتصف ليلة الأربعاء. وكانت تلك خاتمة محمد بن عبد الله.

لم تكن وفاة محمد بالطبع نهاية تأثيره في التاريخ. لقد أسس ديناً جديداً اجتاح الشرق الأوسط في غضون سنوات قليلة. انتشر الإسلام عبر القرون إلى شعوب ودول غير معروفة في شبه الجزيرة العربية والغرب حتى أصبح من بين أعظم الديانات في العالم. داخل جزيرة العرب نفسها، أنار محمد الطريق نحو شكل جديد من الحكم والإدارة والحياة الاجتماعية التي من شأنها في نهاية المطاف أن تحل محل النظام القبلي القديم وإبداله بمفهوم الأمة الجديدة، أو مجتمع المؤمنين. في نهاية المطاف، حلّت الشريعة الإسلامية وتعليماتها الأخلاقية محل الكثير من الجوانب الأكثر قسوة للعادات العربية مع خسائر في الأرواح أقل بكثير مما كانت عليه الحال في السابق. لكن كل هذه الأشياء تحققت جزئياً فقط في وقت وفاة محمد، وربما لم تكن لتتحقق على الإطلاق لولا إنجازه المهم الآخر، وهو تحويله للجيوش العربية وطريقتها في الحروب. كان هذا الإرث، إرثه العسكري، هو الذي وفر لخلفائه الوسائل لغزو بقية الجزيرة العربية الوثنية وفرض الإسلام عليها، وإصلاح النظام الاجتماعي العربي على غرار الأخلاق والشريعة الإسلامية، والشروع في الفتوحات العربية الكبرى. دُمّرت الإمبراطوريات الفارسية والبيزنطية بعد ذلك واستبدلت إمبراطورية الإسلام بها.

الفصل الثالث عشر

الإرث العسكري لمحمد

بدأت وحدة التمرد الإسلامي التي تمكن محمد من الحفاظ عليها خلال حياته بالتضعضع حتى قبل وفاته. الآن هددت بالانهيار تماماً. حين وفاة محمد، لم يكن أكثر من ثلث سكان شبه الجزيرة قد اكتشفوا الإسلام بأي شكل من الأشكال، وكان أقل من ثلث السكان، ربما لا يزيد على خُمسهم أو نحو ذلك، قد آمنوا به بالفعل. أما خارج مكة والمدينة والطائف والقبائل البدوية في الجوار المباشر لهذه المدن، فقد كانت جاذبية الإسلام ضعيفة، إن لم تكن غير موجودة أصلاً[1]. حتى داخل التمرد، أعلن الكثير الولاء لمحمد نفسه أكثر من ولائهم للعقيدة. على النمط التقليدي للعهود العربية، بعد وفاة محمد، لم يعد الكثير من زعماء القبائل والعشائر يشعرون بأنهم ملزمون باتفاقياتهم القديمة مع النبي. كان جوهر المشكلة هو الزكاة، وهي الضريبة السنوية التي فرضها محمد. تم الإعلان عن الزكاة في الحج، لكن محمداً توفي قبل أن يجمعها من جميع القبائل باستثناء المدينة ومكة. أرسلت بعض القبائل المتحالفة وفوداً للتفاوض على اتفاقيات جديدة مع أبي بكر، الذي انتخب لخلافة محمد، ووعدوا بالبقاء مسلمين وأداء الصلاة اليومية مقابل إلغاء الضريبة. رفض أبو بكر ذلك بالقول: «والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم». وكانت النتيجة الردة، أو حرب المرتدين.

كان أبو بكر هو المسؤول عن النجاح النهائي للإسلام باستخدام الجيوش العربية لقمع كل معارضة وفرض أسلمة شبه الجزيرة عسكرياً. خلال فترة عامين من حروب الردة، نرى جيوش محمد التي تم إصلاحها تعمل على نطاق أوسع

---

(1) Philip K. Hitti, *History of the Arabs* (Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002), p. 40.

ومسافات أكبر من أي وقت مضى، ومع الكثير من الحملات التي تجري في وقت واحد، وكلها تحت قيادة موحدة لتنفيذ هدف استراتيجي واحد صاغه أبو بكر. تم الكشف عن الخصائص العملياتية نفسها التي أصبحت نموذجية لجيوش الفتوحات العربية اللاحقة لأول مرة خلال الردة، وكان أبو بكر هو العبقري السياسي والعسكري الذي كان وراءها(٢).

تولى أبو بكر قيادة التمرد عندما كانت الحركة على وشك الانهيار. لقد قدّر بشكل صحيح أن الإذعان للقبائل في قضية الزكاة يعني نهاية السيطرة المركزية على الحركة، وتعريضها للانقسام والتفكك في نهاية المطاف، وربما حتى الاستيعاب من قبل ديانات توحيدية أخرى. ولمنع ذلك أعلن أبو بكر الحرب على كل العصاة، وأعلن أن الانسحاب من تحالف محمد إنكار لإرادة الله (مفهوم الكفر)، وأعلن أن هذا الانفصال عن الأمة ردةٌ يُعاقَب عليها بالقتل. وأكد أنه بمجرد انضمام القبائل إلى محمد فقد انتفت عنهم حرية ألا يكونوا مسلمين. ولا يمكن أن يكونوا مخلصين لله في ظل أي قائد لم تُستمد شرعيته من محمد. أصبح هذا الاندماج بين ظاهرتين منفصلتين، وهما الانتماء إلى مجتمع محمد والإيمان بالدين، واحداً من أكثر السمات المميزة للإسلام. ربما لمنع تأثير الآخرين الذين زعموا أنهم أنبياء بالفعل في شبه الجزيرة خلال حياة محمد، أعلن أبو بكر أن محمداً هو آخر أنبياء الله. على الرغم من أن هذه المبادئ تم وضعها وتقديمها في الأصل كجزء من استراتيجية أبي بكر **السياسية** لعزل أعداء التمرد وتدميرهم، إلا أنها أصبحت مبادئ دينية مهمة للإسلام مع مرور الوقت.

استُخدم مصطلح الردة من قبل المؤرخين العرب التقليديين الذين رغبوا في تصوير معارضة القبائل دينياً على أنها ردة وانفصال عن العقيدة الصحيحة وبالتالي هجوم على الإسلام. اعتبر هؤلاء التقليديون أنها حرب دينية ودفاعية لإنقاذ الإيمان الحقيقي(٣). لكن هذا القول صحيح جزئياً. يمكن أن تنطبق

(٢) بالطريقة نفسها التي أثر بها بولس الطرسوسي في تطور العقيدة المسيحية وساعد في انتشار المسيحية وإضفاء الطابع المؤسسي عليها، كذلك يبدو أن أبا بكر أثر في مذاهب الإسلام في النقاط اللاهوتية المهمة. كان أبو بكر أيضاً مسؤولاً عن انتشار الإسلام وإضفاء الطابع المؤسسي عليه كدين رسمي.

(٣) Elias S. Shoufani, *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia* (Toronto: University of Toronto Press, Arab Institute for Research and Publishing, 1973), pp. 71-73 =

الردة فقط على تلك القبائل التي وافقت بالفعل على الزكاة. مات محمد قبل أن يتمكن عماله من تحصيل الزكاة ولم يوافق معظم الزعماء على دفعها بينما كان محمد على قيد الحياة. والآن بعد أن طالب بها أبو بكر، لم يروا أي سبب لدفعها لرجل لم يؤدوا أي دور في اختياره. لا يمكن اعتبار هؤلاء الزعماء مرتدين إلا بموجب تعاليم أبي بكر الجديدة للإسلام وليس بموجب المبادئ التي حكم بها محمد(*).

في حين كانت بالتأكيد حرباً حول الدين، كانت الردة أيضاً حرباً أعلنها أبو بكر وحلفاؤه المكيون والقبائل البدوية المحلية الموالية لنشر سلطة المدينة وعقيدة الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية. فقد خدم غزو شبه الجزيرة العربية مصالح الطبقة الأرستقراطية المكية لتوسيع أسواقها المالية والتجارية، وخدم مصالح آخرين، ومنهم أبو بكر بالتأكيد، الذي أراد نشر الإيمان الصادق وسحق المشركين، كما خدم مصالح الموالين من القبائل البدوية المتحفزة للقتال والغنائم. في هذا السياق الأوسع، لم تكن الردة حرباً ضد المرتدين بقدر ما كانت حرب غزو صريح مدفوع بمزيج من الدوافع السياسية والاقتصادية والدينية.

جيوش الردة

لم يكن قرار قتال «المرتدين» قراراً يحظى بشعبية لدى الكثير من المسلمين الملتزمين بمن فيهم بعض القادة الميدانيين والمستشارين لمحمد. أقال أبو بكر هؤلاء القادة من مناصبهم وعين ضباطاً مكيين دعموا انتخابه في مواجهة معارضة الأنصار وبعض المهاجرين(٤). وبمجرد الانتهاء من السيطرة

= لوجهات النظر الغربية حول الردة التي تتحدى المنظور الديني، انظر: Julius Wellhausen, *Skizzen und Vorarbeiten*, 6 vols. (Berlin: G. Reimer, 1884-1889), vol. pp. 7-8; Carl. H. Becker, "The Expansion of the Saracens," in: *The Cambridge Medieval History* (New York: Macmillan, 1913), vol. 2: *The Rise of the Saracens and the Foundation of the Western Empire*, pp. 332-338; Leone Caetani, *Studi di Storia Orientale*, 3 vols. (Milan: Hoepli, 1911-1914), vol. 3, pp. 349-352, and Bernard Lewis, *The Arabs in History* (London: Grey Arrow, 1958), pp. 51-52.

من وجهة نظري الخاصة هي أن وات كان محقاً في كتابه، حيث جادل في أن الردة انبثقت عن مجموعة من الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية. انظر: W. Montgomery Watt, *Muhammad at Medina* (London: Oxford University Press, 1956) pp. 147-148.

(*) لم يأت الخليفة الأول بنصوص جديدة أو تعليمات من عنده، وإنما فَهِم وأوّل أحكام الدين المنزّلة. وقد حاور الصحابة وأقنعهم بصواب اجتهاده فوافقوه على ذلك (المترجم).

(٤) Shoufani, Ibid., p. 62, =

على شبه الجزيرة العربية، تمت إعادة هؤلاء القادة واستمروا في أداء أدوار مهمة في الحملات ضد الفُرس والبيزنطيين(٥). عيّن أبو بكر خالد بن الوليد قائداً عاماً للقوات الإسلامية في الردة. حدثت هذه التعيينات ومفاوضات أبي بكر مع القبائل المتمردة مستمرة، وبينما كان أسامة يقود الحملة ضد البيزنطيين التي أمر بها محمد قبل وفاته. كان جيش أسامة صغيراً، ما بين سبعمئة وثلاثة آلاف جندي(٦)، ويبدو أنه نجح فقط في سلب وإحراق بلدة أبني في جنوب الأردن ثأراً لوالده(٧)(*)، وعاد أسامة إلى المدينة بعد أربعين يوماً. في أثناء غيابه، جمع أبو بكر جيشاً مسلماً من القبائل المحيطة بالمدينة وسار على الفور إلى ذي القصة (شمال شرق المدينة)، حيث هاجم الكثير من قبائل نجد وهزمهم. ثم أمر أبو بكر بتعبئة عامة لجميع القوات المسلمة وأمر قادته المكيين بالانضمام إليه في ذي القصة. يخبرنا الطبري أنه أرسل من هناك أحد عشر جيشاً، يفترض في الوقت نفسه، إلى جميع أنحاء شبه الجزيرة بهدف إخضاع القبائل «المرتدة»(٨).

نُفذت عمليات أبي بكر العسكرية في وقت واحد وفي أربعة اتجاهات مختلفة على مدار ثمانية عشر شهراً تقريباً، ما أدى إلى سقوط شبه الجزيرة في أيدي الجيوش الإسلامية وقبولها بالإسلام. يقدّم الطبري قائمة بالقادة

= معتمداً على آراء ابن أبي الحديد.

(٥) المصدر نفسه. ويقدم ابن أبي الحديد قائمة بهؤلاء القادة.

(٦) Shoufani, Ibid., p. 111, معتمداً على الواقدي و Leone Caetani, *Annali dell'Islam*, 10 vols. (Milan: Hoepli, 1905-1926), vol. 2, pp. 587-588.

(٧) Shoufani, Ibid., p. 109, معتمداً على رواية ابن سعد.

(*) لم يحابِ النبي ﷺ أحداً في قضية الإمارة وقيادة الجيوش، كما يذكر المؤلف نفسه، ولم تذكر المصادر أن إرسال أسامة كان متعلقاً بمقتل أبيه. وقد تعرض لذلك النبي بنفسه كما في الحديث الصحيح: «أمر رسول الله ﷺ على قوم فطعنوا في إمارته، فقال: إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله. وأيم الله لقد كان خليقاً بالإمارة. . .» وفُسّر الطعن على أنه عائد إلى كَونِه كان مَوْلىً، أي: عبْداً، وقد كانت العرب تستنكف من أتباع الموالي، وقيل إنما الطعن مصدره من ينسب إلى النفاق. ولربما ما ذكره الواقدي عن أسامة أنه «خرج على فرس أبيه التي قتل عليها يوم مؤتة وكانت تدعى سبحة، وقتل قاتل أبيه في الغارة» أثّر في رؤية المؤلف.

(٨) أعتمد في روايتي لحملات أبي بكر على ما كتبه الطبري، ويقول شوفاني، وهو الخبير العربي الرائد في الردة والمتوفر باللغة الإنكليزية، إن كتابات الطبري هي الأكثر اكتمالاً وجدارة بالثقة.

المسلمين والقبائل التي قاتلوا ضدها[٩]. (الخريطة ١٢ تصور الحملات الكبرى في الردة). نُفذت **الحملة الأولى** إلى الشرق والشمال الشرقي من المدينة تحت القيادة العامة لخالد بن الوليد برفقة شرحبيل بن حسنة والعلاء بن الحضرمي ضد طي وغطفان وأسد وتميم وبني حنيفة وربيعة. أشهر مواجهات هذه الحملة كانت معركة عقرباء (اليمامة)، والتي خاضها ابن الوليد ضد بني حنيفة بقيادة مسيلمة. من المفترض أن بني حنيفة وضعوا أربعين ألف رجل في ميدان المعركة، وقد قاموا بالفعل بسحق جيشين مسلمين تم إرسالهما من قبل[١٠]. هاجم خالد بخمسة آلاف رجل ودفع بني حنيفة إلى التراجع حتى لجؤوا إلى بستان محاط بسور معروف في التاريخ العربي باسم حديقة الموت. في قتال يائس قُتل معظم جيش بني حنيفة بما في ذلك قائدهم. خسر المسلمون ألفاً ومئتي قتيل[١١]، وكان من بين القتلى عدد من «القرّاء»، وهم رجال حفظوا الوحي الذي أُنزل على محمد، والذي جُمع لاحقاً في القرآن، ولربما اختفى القرآن من التاريخ لو قُتلوا جميعاً.

قاد **الحملة الثانية** إلى الجنوب الشرقي عكرمة بن أبي جهل وحذيفة ابن محصن وعرفجة بن هرثمة ضد قبائل عُمان والمهرة. وقاد **الحملة الثالثة** وكانت باتجاه الجنوب الغربي المهاجر بن أبي أمية وزياد بن لبيد، اللذان قاما بغزو اليمن وحضرموت. كانت **الحملة الرابعة** باتجاه الشمال والشمال الغربي تستهدف القبائل العربية على طول الحدود السورية التي كانت ذات يوم حليفة للبيزنطيين. نجح جنرالان، هما عمرو بن العاص وخالد بن سعيد، في إقناع بعض هذه القبائل بالانضمام إلى المسلمين قبل القيام بسلسلة من العمليات الكبرى في فلسطين وسوريا. عندما انضم حلفاء البيزنطيين السابقون إلى المسلمين، بعد نحو أربعة عشر شهراً من بداية الردة، تم إخضاع معظم شبه الجزيرة العربية. وكان خالد بن الوليد على حدود العراق. أمر أبو بكر خالداً بالسير لمساعدة عمرو بن العاص في حملته على الحدود السورية. وعندما بدأ القادة المسلمون المنتصرون بالعودة إلى المدينة من مختلف شبه الجزيرة العربية مع جيوشهم، وجههم أبو بكر بالذهاب إلى الجبهة السورية لتعزيز الجيوش الإسلامية هناك بقوات تم تجنيدها

---

(٩) قائمة الطبري للقادة الميدانيين لأبي بكر خلال الردة يمكن العثور عليها في: Shoufani, Ibid., p. 11.

(١٠) Hitti, *History of the Arabs*, p. 141.

(١١) المصدر نفسه.

من بين القبائل التي أسلمت حديثاً. وكانت النتيجة انهيار الدفاعات البيزنطية على الحدود السورية وبداية الفتوحات العربية باتجاه الغرب.

غادرت الجيوش التي نفذت حملات أبي بكر المدينة كوحدات صغيرة نسبياً، يتكون كل منها ربما من أربعة آلاف إلى خمسة آلاف رجل أو أقل، من الأنصار والمهاجرين والوحدات القبلية من البدو المحليين بقيادة قادة ميدانيين ذوي خبرة. يبدو أن جيش خالد بن الوليد وحده كان أكبر بكثير، وهو ظرف له معنى عسكري سليم لأنه كان مكلفاً بإخضاع بعض القبائل الأكبر والأكثر قوة في شبه الجزيرة. يبدو أن حجم تلك الجيوش المسلمة كان كبيراً بما يكفي لقتال تلك العشائر والقبائل الصغيرة التي واجهتها على طول طرق مسيرتها. كان من المتوقع أن تقوم هذه الجيوش بتجنيد المزيد من القوى البشرية على طول الطريق بالدعوة الدينية وبوعود الغنائم. إذا فشل هذا، فيمكن القيام بعمل عسكري لإلحاق الهزيمة بالعشيرة المتمردة، والتي ستعقد بعد ذلك اتفاقية سلام مع المنتصرين توجبهم بقبول الإسلام والانضمام إلى الحملة. بمجرد دخول منطقة العمليات المستهدفة سيسعى القادة المسلمون إلى الاستفادة من المنافسات المحلية لجذب المزيد من القوى البشرية إلى جيوشهم[١٢]. كانت هذه براعة استخدمها محمد في عدة مناسبات، وقد نجحت بشكل جيد مع جيوش أبي بكر.

أظهرت جيوش الفتح العربي كل القدرات العملياتية التي أدخلها محمد في الحرب العربية. كان الضباط المسلمون مؤهلين وذوي خبرة واكتسبوا في حروب محمد المهارات اللازمة لقيادة جيوش كبيرة لمسافات طويلة. تمكّن أبو بكر، في أثناء بقائه في المدينة، من تنسيق الحملات الإحدى عشرة الرئيسة ونقل القوات حسب الحاجة من جبهة إلى أخرى[١٣]. بينما كانت الوحدات داخل الجيوش

---

(١٢) Shoufani, Ibid., p. 118.

(١٣) من الأمثلة على مرونة الجيوش الإسلامية في عهد أبي بكر هو تحركات جيش خالد ابن الوليد. سار خالد من ذي القصة إلى بزاخة، حيث خاض معركة كبرى ضد تحالف قبائل نجد. بعد هزيمة التحالف، ضغط ابن الوليد في عدة اتجاهات حتى اشتبك أحد أرتاله مع العدو في البطاح ضد مالك بن نويرة. بعد انتصاره هناك، أُمر بالذهاب بعيداً إلى الجنوب الشرقي لإنقاذ عكرمة، الذي هزمته قبائل بني حنيفة مرتين. خاض ابن الوليد أكبر معركة في الردة في عقرباء وهزم بني حنيفة هزيمة مدمرة، ثم اتجه إلى الشمال الشرقي عبر الصحراء وبدأ مداهمة الحدود الفارسية. استعد ابن الوليد لعبور نهر الفرات، فأمره أبو بكر بالالتفاف غرباً والسير عبر الصحراء السورية والانضمام إلى الجيوش الإسلامية التي تستعد لمهاجمة فلسطين وسوريا.

منظمة في الغالب على خطوط قبلية أو عشائرية، كانت تعمل في ظل هيكل قيادة موحد ويُتوقَّع من جميع القادة المرؤوسين تنفيذ المهام الموكلة إليهم كجزء من خطة تكتيكية أكبر. أظهرت حملات أبي بكر أولوية الأهداف الاستراتيجية في التخطيط التكتيكي، وهو الشيء الذي كان غائباً في الحرب العربية حتى وطّده محمد. لم يكن غزو قبيلة واحدة أو مجموعة سياسية في الجزيرة العربية كلها متصوراً حتى أوضح محمد للعرب كيف يفكرون بطرائق استراتيجية. كما تحسنت اللوجستيات والإمدادات للجيوش الكبيرة بشكل كبير في عهد محمد وتم استخدامها بشكل جيد في حملات أبي بكر، فليس لدينا أي تقارير عن نقص خطير في المياه أو الأعلاف أو الأسلحة في أي من حملات الردة. كانت الروح المعنوية الإسلامية والروح القتالية أعلى من معنويات أي قبيلة قاتلتهم، مع استثناء محتمل لبني حنيفة الذين قاتلوا حتى الموت. لقد تعلم الجنود المسلمون القتال كوحدات تعمل ضمن تصميم تكتيكي أكبر، بينما قاتل المحاربون من معظم القبائل بالطريقة القديمة كأفراد. أخيراً، كانت جودة القيادة القتالية الإسلامية، وبالتأكيد على مستوى القائد الميداني وربما في الوحدات التابعة الرئيسة أيضاً، متفوقة على خصومها. لم يتم اختيار القادة الميدانيين المسلمين على أساس التقوى، ولكن دائماً على أساس الكفاءة الواضحة في الحرب.

انتقل إرث محمد في التفوق في مجال القدرات العملياتية الجديدة إلى جيوش أبي بكر ونتج منه غزو كل شبه الجزيرة العربية وأسلمتها. أثبتت التجربة العسكرية الإسلامية ضد الحاميات الحدودية للإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية أن كلتيهما كانت جوفاء ومستعدة للهزيمة. بحلول ربيع عام ٦٣٣م، كانت الردة قد انتهت وأصبحت الجزيرة العربية معسكراً مسلحاً مملوءاً بالقبائل المجنّدة المستعدة للبحث عن مغامرات جديدة وفيء. افتقرت شبه الجزيرة الإسلامية إلى الموارد الكافية من الغذاء والثروة للحفاظ على نفسها في ظل القيود التي وضعتها القوانين الإسلامية الجديدة على أساليب الحياة القديمة. إذا لم يتم العثور على مصادر جديدة للثروة، فإن الدولة الإسلامية التي أوجدتها حملات أبي بكر العسكرية فستنقسم إلى مجموعات قبلية متحاربة. قدّمت الغزوات السابقة لمحمد ضد المقاطعات الحدودية البيزنطية المفهوم الاستراتيجي التوجيهي لقرار أبي بكر باستخدام القبائل العربية الموحدة كوسيلة لغزو أكبر. في عام ٦٣٣م، أمر أبو بكر ثلاثة جيوش إسلامية بمهاجمة البيزنطيين. لقد بدأت الفتوحات العربية الكبرى.

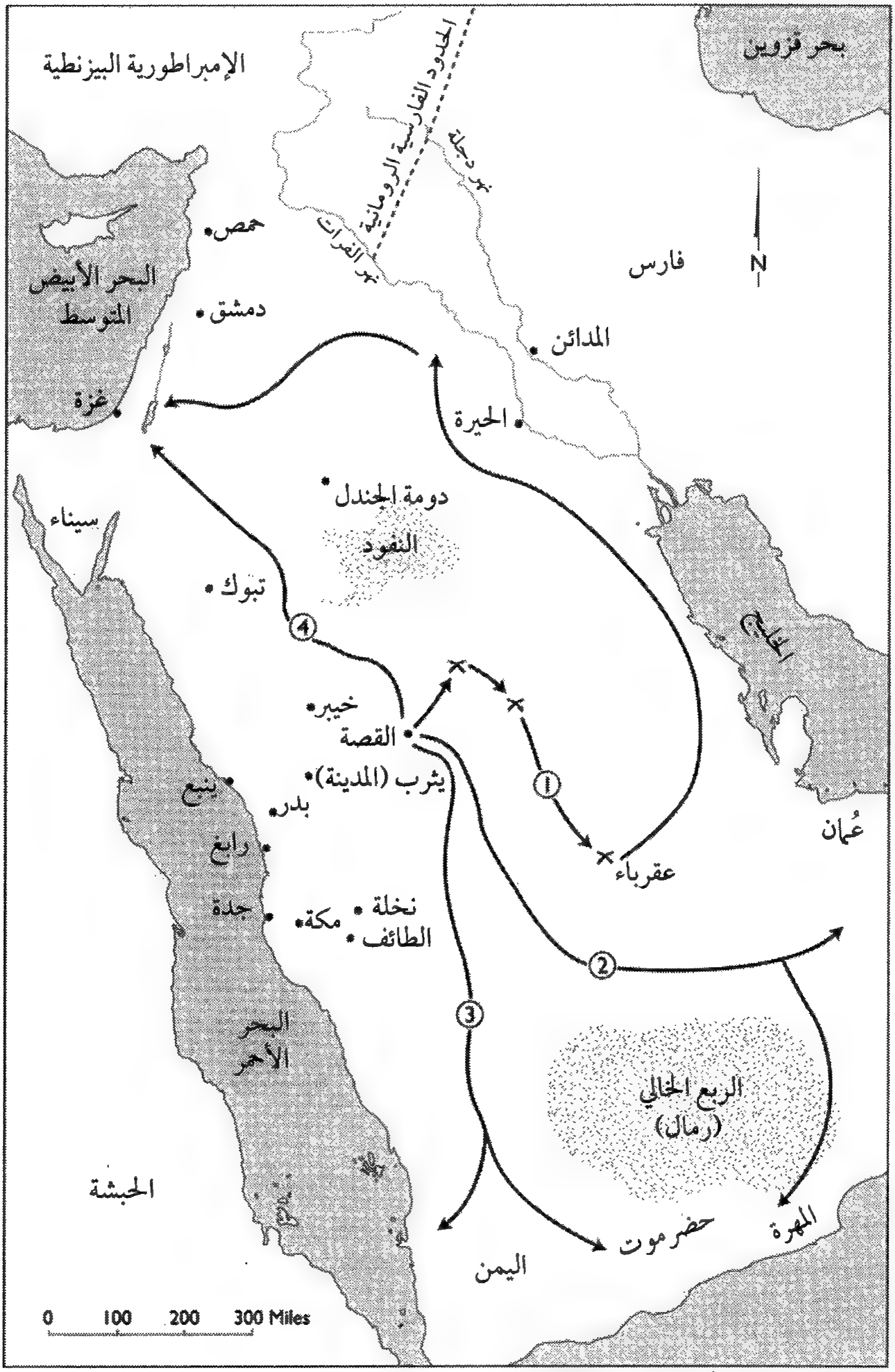

الخريطة ١٢: الحملات العسكرية في الردة ٦٣٢ ـ ٦٣٣م

جيوش الفتوحات العربية

كانت جيوش الفتوحات العربية هي تلك القوات العسكرية من أصل عربي التي أسست إمبراطورية الإسلام قبل أن يتم اندماجها في مجموعات السكان الكبيرة التي اعتنقت الإسلام. يمكن القول إن الجيوش العربية الأصلية كانت موجودة منذ عام ٦٢٢م عندما شكلها محمد لأول مرة إلى نحو عام ٨٤٢م عندما أدخل الخليفة العباسي، المعتصم، المؤسسة المملوكية للجنود الأتراك العبيد الذين حلوا محل الوحدات العربية الأصلية في جيوش الإسلام. حتى ذلك الحين، كانت جيوش محمد وخلفائه المباشرين تتألف بشكل شبه حصري من عرب الجزيرة. كانت هذه الجيوش هي التي غزت قطاعات كبيرة من الإمبراطوريات البيزنطية والفارسية بين عامي ٦٣٣م و٦٥٦م. على مدى المئة عام اللاحقة، خاض العرب ثلاثة حروب أهلية. في الأولى استُبدل الخلفاء الأصليون لمحمد بالسلالة الأموية، التي حكمت انطلاقاً من سوريا من ٦٦١م إلى ٧٥٠م. نجا الأمويون من الحرب الأهلية الثانية (٦٨٤م ـ ٦٩٢م) لكنهم طُردوا من السلطة خلال الحرب الأهلية الثالثة (٧٤٤م ـ ٧٥٠م)، وتم استبدالهم بالعباسيين الذين حكموا العراق واحتفظوا بالخلافة وإن كانت بشكل مختلف كثيراً حتى عام ١٢٥٨م. أنتجت الغزوات العربية نظاماً اجتماعياً سياسياً جديداً شمل في النهاية شبه الجزيرة بأكملها، وجميع الأراضي الفارسية، والمحافظات البيزنطية في سوريا ومصر[١٤].

عكست تركيبة الجيش العربي بنية مجتمعه القبلي. لم يطوّر المجتمع العربي في أيام محمد ولمدة أكثر من قرن بعد ذلك نظاماً سياسياً مستقراً يستحق أن يُطلق عليه اسم دولة. لم تكن هناك دولة في حد ذاتها ولا هيكل إداري للحكومة. ظل المجتمع العربي على ما كان عليه دائماً، مجتمعاً عشائرياً يتسم بالقيادة الشخصية ونواب معيّنين لا يميّزون بين الجوانب الاجتماعية والدينية والعسكرية للحياة[*]. في الواقع، لم يكن هناك جيش

---

(١٤) "Wars of Arab Conquest," in: Richard A. Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, 3 vols. (Westport, Conn.: Greenwood, 2005), vol. 2: *From Carthage to the Normans*, p. 639.

(*) في الواقع أسس النبي ﷺ كياناً سياسياً متميزاً عما سبقه من كيانات قبلية أو حضرية، وكان لها قانون وعاصمة ومركز، ووثيقة أولية لتنظيم العلاقة مع غير المسلمين، وآخى بين أفراد المجتمع، =

رسمي في حد ذاته. وبدلاً من ذلك، كان هناك تحالف من زعماء أقوياء لقبائل قادوا أتباعهم المسلحين في المعارك. لم يكن هناك نظام مالي، وما وجد في الخزينة كان مصدره الهدايا والغنائم التي تم الحصول عليها في الغزوات. كانت الحكومة في الأساس نظاماً قبلياً موسعاً للإجماع التفاوضي بين زعماء القبائل الأقوياء، وكان هؤلاء الزعماء المحاربون هم الذين سيطروا على السكان العرب والجيش. تم إنفاد الأحكام بشكل غير مباشر من خلال وسطاء قبليين. ابتليت الإمبراطورية الإسلامية حتى نهايتها بهذا النظام من الحكم غير المباشر. انحسرت وانطلقت القوة من مركز السلطة، لكن لم يتمكن أي خليفة على الإطلاق من الاحتفاظ بالسيطرة على جميع الجيوش القبلية والإقليمية لفترة طويلة. استمرت الثورات والتمردات المتجذرة في الغيرة والمصالح السياسية والردة الدينية والثأر لعدة قرون[١٥].

جادل بعض العلماء بأن غزو الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية من قبل القبائل العربية كان مشابهاً لغزو الإمبراطورية الرومانية الغربية من قبل القبائل الجرمانية، مع النتيجة العامة نفسها وهي إنشاء عدد من الدول المنفصلة على المدى الطويل من قبل ملوك وطنيين أقوياء. ويبدو الأصح أن نقول إن الغزوات العربية كانت مختلفة عن الغزوات القبلية في الغرب، لأنها كانت منسقة من مركز واحد، المدينة، لغرض ديني محدد، وهو توسيع حكم المؤمنين بالله على غير المؤمنين من خلال أوامر الله. أدى هذا التوجيه والقيادة المركزية والغرض الديني إلى نتائج مختلفة تماماً عن نتائج الغزوات الجرمانية. فبدلاً من احتلال الأراضي الجديدة واستيطانها ثم حكمها، بقي الفاتحون العرب معاً كجنود يعيشون في حامية المدن (أمصار) والمناطق العسكرية (الأجناد) وحتى الأديرة العسكرية (الرباط) التي لم يصطحب معهم

= وقائد عام لها وللجيش وهدف وهو نشر الدين. تطورت الدولة بعد وفاته واتسعت رقعتها، وتطورت القوانين وأنشأت مؤسسات متعددة للقيام بأعباء متخصصة وإن اختلف الحاكم وتبدلت العواصم. عني مبكراً الخليفة الثاني عمر بأمر الجند، وأنشأ لهم ديواناً للإشراف على شؤونهم، ثم أدخل عبد الملك ابن مروان الأموي التجنيد الإجباري. ولربما لم يشابه هذا النموذج ما كان مستقراً من تجارب إدارية وتنظيمية لدول مثل الروم والفرس حينها. وجميع هذه النماذج تختلف عن مفهوم الدولة الحديثة (المترجم).

(١٥) المصدر نفسه.

أعضاؤها زوجاتهم[١٦]. ظل الغزاة العرب بمعزل عن المجتمعات التي احتلوها وأظهروا قليل الاهتمام بحكم الأراضي الجديدة، تاركين الأنظمة القديمة والقادة والملوك والمسؤولين الحكوميين - الذين تحولوا الآن إلى الإسلام - في مكانهم لمواصلة إدارة الأراضي المحتلة[١٧].

بقيت الحاميات العسكرية كما هي، حصوناً تستوعب الجيوش العربية التي يمكن إرسالها لمزيد من الغزو أو لقمع ثورات. كان هذا الترتيب ممكناً لأن الجيوش العربية، على الرغم من تلقيها توجيهاً دينياً من المركز، لم تكن جيوشاً منظمة على الإطلاق، بل كانت تحالفات قبلية يقودها زعماء محليون وتتكون من مهاجرين من شبه الجزيرة تركوا منازلهم ليخدموا كجنود في حرب مقدسة. في الإسلام، كان جميع المؤمنين جنوداً، ولم يكن هناك جيش مسلم متميز عن مجتمعه. كان المسلمون جيشاً مقدساً وكان مجتمعهم - الذي يعيشون فيه بعيداً عن الكفار المحكومين، ومع عائلاتهم على نفقة الحكومة حتى يدعوا إلى مواصلة الجهاد - يعمل بشكل جيد.

ربما كانت الجيوش العربية التي هاجمت البيزنطيين والفُرس جيوش مشاة، لكنها لم تتحرك على الأقدام. وبدلاً من ذلك، استخدم العرب الجمال على نطاق واسع في نقل جيوشهم. وقد زودهم ذلك بحركية استراتيجية فائقة تمكنهم من تجاوز نقاط العدو القوية وخوض المعارك في الأوقات والأماكن التي يختارونها. كان المفهوم التكتيكي الموجِه هو التحرك بسرعة إلى موقع مناسب ونشر الجنود المشاة على الأرض، ثم إجبار العدو على الهجوم بمكان ووقت ليس في صالحه. بمجرد أن أصبح الخيل متوفراً على نطاق واسع، واصلت الجيوش العربية ممارستها باستخدام المشاة بطريقة استراتيجية. في نهاية المطاف أنتجت الجيوش العربية أفضل حصان حربي في ذلك الوقت، وهو الهجين العربي السوري الذي يجمع بين

---

(١٦) كان الخليفة عمر هو من كان يخشى أن يَفقد العرب روحهم القتالية ويُذنبون إذا اختلطوا بالكفار، وقرر فصل العرب عن طريق إقامة معسكرات عسكرية لهم للعيش فيها. من: John Glubb, *A Short History of the Arab Peoples* (New York: Stein and Day, 1969) p. 55.

(١٧) Patricia Crone, "The Early Islamic World," in: Kurt Raaflaub and Nathan Rosenstein, eds., *War and Society in the Ancient and Medieval Worlds* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999), p. 311.

الشمال ـ أفريقي القوي الصغير والإيراني الأثقل(١٨).

حاول العرب أن يظلوا مجتمعاً محارباً ومتديناً ومتجانساً عرقياً بمجرد استقرارهم في أراضيهم الجديدة، بعيداً عن الكفار الذين تم غزوهم. لكن أعدادهم لم تكن كبيرة جداً. تشير باتريسيا كرون إلى أن الحجم الإجمالي للجيوش العربية التي غادرت شبه الجزيرة العربية لم تتجاوز مئة ألف شخص بينهم رجال وأطفال، بينما ربما تجاوز عدد سكان الأراضي التي تم غزوها ٢٠ مليون نسمة!(١٩). عاش جميع المهاجرين العرب في مدن الحامية أو المناطق العسكرية وكانوا مسجلين في الديوان، وكان يحق للجندي المسجل الحصول على حصص إعاشة شهرية له ولأسرته، ويتقاضى راتباً سنوياً وكذلك زوجته وأولاده. كما تم توفير أماكن إقامة للجندي وعائلته. وفي المقابل، كان هؤلاء المحاربون الدينيون مستعدين للخدمة العسكرية في أي لحظة. مع استقرار الحكم العربي، أصبحت الدعوات للخدمة العسكرية الفعلية نادرة نسبياً. عندما يتم استدعاؤه للخدمة، كان على الجندي أن يحضر مطيته ـ فرس أو جمل ـ ومعدات عسكرية تشمل الرمح والسيف والقوس والجعبة والترس ودرعاً عادة ما يكون من الحديد(٢٠).

بمجرد تسجيله في الديوان، ظل الجندي على القائمة مدى الحياة. لم تكن هناك كلمة عربية تقليدية لقدامى المحاربين، ولم يتم وضع أحكام خاصة بهم. ربما كان الجنود المتقدمون في السن قد قدّموا بدائل عنهم أو عملوا في إدارة الجيش. تم تسجيل الجنود المعوقين كمقعدين واستمروا في سحب جزء من رواتبهم السنوية وبدلاتهم. عادة ما كان يُمنع الجنود العرب من الانخراط في الزراعة، وسُمح بذلك في حالات نادرة. القيود على «التزاوج» والنشاط الاقتصادي عملت ضد إنشاء «مجتمع» عربي في الأراضي

---

(١٨) D. Nicolle and A. McBride, *The Armies of Islam, 7th-11th Centuries* (London: Osprey, 1982), p. 11.

(١٩) حجم الجيوش العربية والعائلات المرافقة لها هي مسألة أثارت بعض النقاش، يزعم غلوب أنهم كانوا خمسمئة ألف، انظر: Glubb, *A Short History of the Arab Peoples*, p. 19.
بينما تزعم كرون بأنهم كانوا مئة ألف فقط. أما باستخدام طريقة حساب يادين فيعني أن الجيوش العربية تضم ما بين ١٢٥٠٠ و٢٥٠٠٠ جندي، وهو ليس عدداً كبيراً في أي من الحالتين. انظر: Crone, "The Early Islamic World," p. 314.

(٢٠) Nicolle and McBride, Ibid., p. 12.

التي تم فتحها. وهي مهام تُركت للسكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام. في بعض النواحي، قد يكون الديوان تم تبنيه لدوره العسكري عند البيزنطيين، ولكن مع اختلاف مهم للغاية: لم يكن يُنظر إلى الديوان من قِبل العرب كمؤسسة للحفاظ على الجيش، وإنما كمؤسسة اجتماعية للحفاظ على المسلمين. لم تكن الرواتب أجراً عسكرياً، بل كانت حقاً يطالب به كل مهاجر مسلم وذريته كمكافأة على المشاركة في غزو الإسلام للكفار. كان الإسلام ديناً ومجتمعاً وجيشاً في آن واحد، وكان الديوان آلية لاستدامة الثلاثة.

هذه المحاولة للحفاظ على هوية عربية منفصلة عن الكفار كانت محكومة بالفشل على المدى الطويل، وذلك بالنظر إلى تطور أعداد السكان وأرقام التحول للإسلام. حتى مع تزايد مطالب القوة البشرية العسكرية، لم يبذل العرب أي جهد لتجنيد الرجال القادرين من الأراضي المفتوحة في جيوشهم. كان الأسرى يُعاد توطينهم في بعض الأحيان في تلك الأراضي، بل إن بعضهم عملوا كوحدات خاصة، غالباً ما يكونون حراساً خاصين أو شرطة حضرية. تدريجياً، سُمح للسكان الأصليين بالخدمة العسكرية، وعادةً كوحدات عرقية منفصلة. ولكن بمجرد قبول الشعوب التي تم فتحها الإسلام، جاء المزيد من غير العرب للخدمة في الجيوش الإسلامية حتى مع بقاء العناصر العربية معزولة في حامياتها. مع مرور الوقت، أصبحت العناصر العربية من الجيوش الإسلامية تعد الديوان العسكري بمنزلة رتبة اجتماعية، وتضاءلت العناصر العربية وقلّ استخدامها في الجيوش حيث انغمر العرب تدريجياً في جيوش المسلمين من الشعوب المتباينة التي تحولت إلى الدين الجديد(٢١).

مع الاستيعاب التدريجي والتحول الواسع النطاق، أفسحت جيوش المواطنين القديمة المجال في النهاية لجيوش محترفة يقودها إلى حد كبير مسلمون غير عرب، على الرغم من أن قادتهم ظلوا عرباً لسنوات عديدة. نجت الجيوش الإقليمية لزعماء القبائل القدامى لعدة قرون، لكن في الغالب كانت محصورة في حامياتها المدعومة بالديوان ولم يكن لها فائدة تذكر.

---

(٢١) Crone, Ibid., p. 316.

عندما غُمر العرب في بحر من المسلمين، أصبح أسلوب الحكم القبلي التوافقي أكثر صعوبة وأثبت أنه غير كافٍ لتقييد الطموحات القبلية والشخصية. كانت النتيجة حربين أهليتين. أجبرت الحرب الثانية (٦٨٤م - ٦٩٢م) الأمويين على التخلي تماماً عن النموذج القديم للحكم التوافقي، وحكموا بالقوة بدعم من جيشهم المحترف المكون في الغالب من القوات السورية. ومع ذلك، لم تصبح الجيوش احترافية حتى مجيء الخليفة الأموي الأخير (٧٥٠م).

في ظل حكم الأمويين أصبح سلاح الفرسان الثقيل ذا أهمية متزايدة. في الأصل، تم تقسيم سلاح الفرسان العربي إلى خيول مدرعة وغير مدرعة، أو سلاح فرسان ثقيل وخفيف. لا يزال سلاح الفرسان الثقيل يتألف من عدد قليل فقط من الوحدات وكان يستخدم في الغالب كقوات هجوم بالطريقة البيزنطية نفسها تم استخدام سلاح الفرسان الخفيف، عند عدم توظيفه للمناوشات والاستطلاع، فقط لإكمال تدمير وحدات العدو غير المنظمة أو المحطمة بالفعل. تصف السجلات الباقية من هذه الفترة المعدات الكاملة لخيالة العرب في القرن السابع مثل الرمح والسيف والدرع والترس والمخرز والمقص ولجام الحصان وسلة العلف(٢٢). خلال الفترة الأموية، أصبح الجزء الأكبر من سلاح الفرسان العربي مدرّعاً في انتقالٍ نحو النموذج البيزنطي. ولكن على عكس البيزنطيين، احتفظت الجيوش العربية بتقاليد المشاة القديمة. على سبيل المثال، تم تدريب الفرسان البيزنطيين للقتال على ظهور الخيل فقط. أما سلاح الفرسان العربي الثقيل فتم تدريبه على التقليد القديم المتمثل في القتال أولاً على ظهور الخيل ثم الترجّل والقتال على الأقدام. لم يصبح سلاح الفرسان الثقيل ذراعاً حاسماً في الجيوش العربية إلا في وقت لاحق، وظل سلاح المشاة الثقيل الذراع القتالي المركزي. ينتشر سلاح الفرسان بأمان خلف تشكيلات المشاة ويتقدم كلما سنحت فرصة لمهاجمة العدو ثم يتراجع بسرعة خلف المشاة. كانت فكرة سلاح فرسان بمواجهة سلاح فرسان آخر في معركة مفتوحة أمراً غير معروف للقادة العرب.

عندما واجهت الجيوش العربية رماة السهام من فرسان خيل آسيا

---

(٢٢) Nicolle and McBride, Ibid., p. 12.

الوسطى على حافة الإمبراطورية، لم تتمكن من إيجاد حل تكتيكي لهذه الطريقة الجديدة للقتال. فعل العرب ما فعله البيزنطيون والفُرس من قبلهم: استأجروا مجموعات كاملة من رماة السهام الخيالة واستخدموها ضد أعدائهم. فرض تهديد الفرسان الجديد تغييراً في معدات الفرسان العربية، وأبرزها اعتماد درع من اللباد الخفيف للراكب والمركوب للحماية من السهام، وإدخال الرِّكاب الحديدي (على الرغم من اعتراضات بعض العرب الذين ادعوا أنه سيوهن الجنود بإعاقة قدرتهم على الصعود والنزول بسرعة في المعركة)(٢٣). ولكن حتى مع إدخال رامي السهام، ظل المشاة ملوك ساحة المعركة في التفكير التكتيكي العربي.

انتهى العصر الأموي بحرب أهلية أخرى، وتم جلب العباسيين إلى السلطة من قبل جيوش المتمردين التي نشأت في إيران. حلت هذه القوات محل القوات السورية للأمويين في حاميات الإمبراطورية ونُقلت العاصمة إلى بغداد. كانت هذه القوات الإيرانية، أو الخراسانية، في الغالب من رماة السهام الخيّالة، وأصبح هذا النوع من الفرسان مهيمناً في الجيوش العربية. على الرغم من أن سلاح الفرسان أصبح الآن القوة الضاربة، إلا أن المشاة ما زالوا يؤدون دوراً مهماً في ساحة المعركة، وظل التعاون الوثيق بين المشاة والفرسان محورياً في التصميم التكتيكي العربي الجديد. ارتدى هؤلاء الجنود الجدد ثياباً تشبه لباس الرهبان النصارى الشرقيين وأطلقوا لحاهم وشعورهم الطويلة. تم الاعتماد بشكل كبير على القوس والرمح، وتميز الهجوم بإطلاق زخات من السهام حين اقتراب سلاح الفرسان وهم يجرون بسرعة. بمجرد الاشتباك، استخدم الرمح مع أسلحة أخرى للقتال القريب مثل السيف المنحني والقضبان والفؤوس الحربية والسيف القصير أحادي الحافة(٢٤).

لم يبذل العباسيون أي جهد لتوسيع قاعدة جيشهم أو حكومتهم، معتمدين بدلاً من ذلك على تلك الجماعات والقبائل ذات الأصل الشرقي التي أوصلتهم إلى السلطة. أصبحت الجيوش العربية الآن في الغالب جيوشاً

(٢٣) المصدر نفسه، ص١٣.

(٢٤) Gabriel, ""Wars of Arab Conquest," p. 647.

من سلاح الفرسان، وبما أن الخيول كانت باهظة الثمن واستغرق التدريب وقتاً طويلاً فقد كان من الأفضل للعباسيين الاعتماد على الفرسان الخراسانيين المؤهلين بدلاً من تجهيز العرب وتدريبهم. أدى الاعتماد على القوات الأجنبية والفشل في توسيع نطاق المشاركة بالحكم إلى قيام الزعماء الإقليميين الأقوياء بإدارة الجيش الإمبراطوري مثل عصابة المافيا أكثر من كونه مؤسسة عسكرية. أصبح الخلفاء والجيش معزولين بشكل متزايد عن المجتمع ما أجبر العباسيين على التعامل مع ثورات متكررة(٢٥).

خلال إحدى الحروب الأهلية التي هددت بالإطاحة بالعباسيين، قام أحد المشاركين، وهو المعتصم (حكم ٨٣٣م ـ ٨٤٢م)، بتجهيز جيشه بأربعة آلاف جندي تركي اشتراهم كعبيد ثم أطلق سراحهم للخدمة العسكرية تحت إمرته. وبمجرد أن أصبح المعتصم خليفة، قام بتوسيع ممارسة شراء وتدريب العبيد الأتراك للخدمة في جيوشه، وبذلك ظهر ما أطلق عليه المسلمون اسم «مؤسسة المماليك». كان جوهر هذه المؤسسة هو الاعتماد المنهجي للخلافة على جنود من أصول أقل عراقة وغير إسلامية. كما زاد استخدام وحدات عرقية أجنبية أخرى غير مسلمة في الجيش بشكل كبير. وكانت النتيجة أن المناطق الخاضعة للسيطرة الإمبراطورية المباشرة كانت تحت سيطرة هؤلاء العبيد الأتراك. بمرور الوقت، تم تعيين معظم القيادات العسكرية الرئيسة ومنح بعض الولايات المهمة للمسؤولين الأتراك أيضاً. في النهاية قام المماليك بانقلاب عسكري على العباسيين وسيطروا على الخلافة.

على مدى القرنين التاليين، استمر الخلفاء العباسيون في الحكم من بغداد، ولكن في الغالب بالاسم فقط بينما تمارس السلطة الحقيقية من قبل القادة العسكريين الأتراك الذين استمروا في التظاهر بالخضوع لحكم الخلفاء. كرد فعل على هذا الوضع، ثار حكام المقاطعات المختلفة بجيوشهم الإقليمية مراراً، وانفصلت مقاطعة تلو أخرى عن الإمبراطورية بقوة السلاح. بحلول منتصف القرن التاسع، اندثرت الإمبراطورية العربية القديمة، ومعها «جيش الله» العربي الذي اجتاح عالم البحر المتوسط القديم شاهراً

---

(٢٥) Crone, "The Early Islamic World," p. 318.

سيف الله[٢٦].

لا شك في أن أعظم إرث عسكري لمحمد هو عقيدة الجهاد أو الحرب المقدسة. لا جدال في أن الحرب المبررة إلهياً أصبحت قوة ذات أهمية كبرى خلال الفترة الإسلامية المبكرة وظلت دافعاً قوياً للفتوحات الإسلامية التي أعقبت وفاة محمد. وهذا أمر مدهش أكثر عندما نتذكر أن شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام لم تكن لديها معرفة بأي أيديولوجية من أي نوع، فضلاً عن فكرة الحرب الدينية. كانت حرب ما قبل الإسلام مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالظروف الاقتصادية والاجتماعية للرعي والثروة المادية والمكانة، ولا يوجد دليل من أي نوع يشير إلى أي دافع ديني أو أيديولوجي للحرب العربية قبل التأثير المحمدي والإسلامي[٢٧]. في ظل هذه الظروف، كان للاستشهاد معنى ضئيل، ولم يُطبَّق أي معنى أخروي للحرب كجزاء على تنفيذ أوامر الله[٢٨]. يبدو أن فكرة الحرب كأمر من الله تُكافأ بالاستشهاد والجنة كانت ابتكاراً لم يسبق لها مثيل في الثقافة أو العادات أو الممارسات العربية، قدّمها بالكامل تفكير محمد وتأثيره في الأحداث.

أصبح لمفهوم الجهاد معانٍ كثيرة على مر السنين نتيجة لتأثير الفقهاء وعلماء الأصول والعقيدة المسلمين. المصطلح مشتق من الجذر «جَهَدَ»، والذي يتم تعريفه على أنه «بذل أقصى قدر من القوة أو الجهود أو المساعي أو القدرة في مواجهة موضوع ضخم جداً»[٢٩]. إذاً، هناك أنواع كثيرة من الجهاد معظمها لا علاقة له بالحرب. وهكذا، فإن «الجهاد الأكبر» يشير إلى صراع داخلي أو ضد النفس[*]، بينما يشير «الجهاد الأصغر» إلى القتال في

---

(٢٦) للاستزادة حول تطور الجيوش الإسلامية بعد فترة الفتوحات انظر فصلي: "The Crusades," pp. 791-836, and "Byzantines and Ottomans," pp. 987-1030, both in: Gabriel, *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, vol. 3: *From the Medieval Realm to the Ottoman Empire.*

(٢٧) Reuven Firestone, *Jihad: The Origins of Holy War in Islam* (London: Oxford University Press, 1999), p. 37.

(٢٨) المصدر نفسه، ص٣٧.

(٢٩) Edward Lane, *An Arabic-English Lexicon* (London: Williams and Norgate, 1865), bk. 1, pt. 2, p. 473.

(*) كثيراً ما ترد هذه المقولة عند الحديث عن الجهاد، وهي ليست بحديث عن الرسول وإنما كما قال ابن حجر في **تسديد القوس في تخريج مسند الفردوس**: «هو مشهور على الألسنة، وهو =

سبيل الله[٣٠]. لذلك، ربما لم يكن الجهاد دائماً مساوياً للحرب المقدسة، على الرغم من أن هذا هو المعنى الأساسي الذي يبدو أن محمداً قد أعطاه إياه. فيما يتعلق بالجهاد بوصفه حرباً مقدسة، يؤيد معظم علماء المسلمين ما يسمى بالنظرية التطورية التقليدية، وهي إنّ ما قصده محمد بالجهاد يعتمد على الظروف والاحتياجات التاريخية في أوقات مختلفة خلال رسالته النبوية. ولذا:

في بداية حياته النبوية في مكة عندما كان ضعيفاً وكان أتباعه قليلين، شجّع الوحي الإلهي على تجنب الصراع الجسدي. ولم يُعطَ محمد والمؤمنون الإذن الإلهي للانخراط في الحروب إلا بعد الاضطهاد البدني الشديد الذي أدى إلى هجرة المجتمع المسلم إلى المدينة عام ٦٢٢م، وفي حالة الدفاع فقط. مع استمرار نمو المجتمع المسلم عدداً وقوة في المدينة، وسَّع الوحي الظروف وقلص القيود التي يمكن أن تُشن الحرب في ظلها، حتى تم التوصل إلى أن الحرب ضد غير المسلمين يمكن شنها فعلياً في أي وقت، من دون ذريعة، وفي أي مكان[٣١].

إن هذا التفسير التقليدي للإسلام على أنه «دين سيادة» هو الذي قدم التبرير الأيديولوجي للفتوحات العربية، وهو ما زال حياً في أذهان الجهاديين الإسلاميين في يومنا هذا.

يعيش الإرث العسكري لمحمد في أذهان هؤلاء الجهاديين في ذاكرتهم عن محمد بصفته جنرالاً عظيماً وثورياً متحمساً أنشأ تمرداً ناجحاً وحارب من أجله لتحقيق أهدافه السياسية والدينية، وهذا ما يحفز المتمردين المسلمين والقادة الثوريين في العراق وأفغانستان وأماكن أخرى. إن هؤلاء الثوار المعاصرين يتبعون محمداً في تصويرهم لحركات تمردهم على أنها

= من كلام إبراهيم بن عبلة». ويرفض معناه العام كثير من علماء المسلمين لأنه يقلل من مكانة الجهاد برأيهم، مستشهدين بنصوص كثيرة من القرآن والسنة تبين علو منزلته (المترجم).

(٣٠) W. Montgomery Watt, "Islamic Conceptions of Holy War," in: Thomas Patrick Murphy, ed., *The Holy War, 141-156* (Columbus: Ohio State University Press, 1976).

(٣١) Firestone, *Jihad: The Origins of Holy War in Islam*, p. 50.

تكليف من الله. لا يمكن إنكار أن بعض المفجّرين الانتحاريين أيضاً مدفوعون برغبتهم أن يصبحوا شهداء بالطريقة نفسها التي كان فيها الكثير من جنود محمد على استعداد للموت من أجل إيمانهم. يتحدث أمثال أسامة ابن لادن في العالم الإسلامي اليوم، كما تحدث محمد من قبل، عن إنشاء عالم أكثر أخلاقية للعيش فيه، مجتمع مؤمن يعيش وفقاً لشريعة الله. ومثل محمد، هم على استعداد لاستخدام القوة لتحقيق هذا النظام الأخلاقي الجديد. أولئك الذين لا يفهمون الجذور التاريخية لحركات التمرد الإسلامية الحديثة يجازفون كثيراً.

المراجع

الكتابات عن محمد كثيرة، ومع ذلك فإن معظمها إما لا يتطرق إلى مآثر محمد العسكرية على الإطلاق، أو يقوم بذلك بشكل عابر وليس له فائدة تذكر للمؤرخ العسكري. تسرد قائمة المراجع أدناه فقط المواد التي وجدتها أكثر أهمية لفهم ودراسة الحياة العسكرية لمحمد. لا يقصد منها معالجة المجالات الأخرى ذات الاهتمام العلمي فيما يتعلق بحياة محمد. الغرض من أي قائمة مراجع هو مساعدة العلماء الآخرين على مراجعة عمل المرء أو انتقاده أو البناء عليه. أدرجت المصادر العربية الأصلية في قسم منفصل حتى يتمكن العلماء والمؤرخون العرب من استخدامها بطريقة مماثلة أيضاً. لقد قمت بتدوين ملاحظات من حين إلى آخر بشأن تلك الأعمال التي اعتقدت أنها قد تكون ذات قيمة خاصة للباحث العسكري.

١ ـ العربية

كتب

أبو يوسف الكوفي، يعقوب بن إبراهيم. **كتاب الخراج**. القاهرة: المكتبة السلفية، ١٩٣٣.

البغدادي، عبد القاهر بن طاهر. **الفرق بين الفِرق**. تحرير محمد عبد الحميد. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٩.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر. **أنساب الأشراف**. مج ١. تحرير محمد حميد الله. القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٩.

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. **سيرة النبي**. راجع أصولها وضبط غريبها وعلق حواشيها ووضع فهارسها محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: دار التحرير للطباعة والنشر، ١٩٦٣. ٤ مج.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد. **الطبقات الكبرى**. حرره إدوارد ساخاو. ليدن: بريل، ١٩٠٤ ـ ١٩٤٠.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الرسل والملوك**. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٩ ـ ١٩٠١.

الطفيل بن عوف. **قصائد الديوان**. حرره وترجمه ف. كرينكو. لندن: لوزاك، ١٩٢٧.

الطفيل، عامر. **قصائد الديوان**. حرره تشارلز ليال. لندن: بريل، ١٩١٣.

المقريزي، أحمد بن علي. **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**.

ـــــــــ. **كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم: ويليه رسالة للجاحظ في بني أمية**. عني بتصحيحهما محمود عرنوس. القاهرة: مكتبة الأهرام، ١٩٣٧.

الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر. **كتاب المغازي**. حرره مارسدن جونز. أكسفورد: [د. ن.]، ١٩٦٦. ٣ مج.

ياقوت الحموي، **معجم البلدان**.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. **تاريخ اليعقوبي**. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٦٠. ٢ مج.

٢ ـ الأجنبية

Books

Breasted, James H. *The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt.* New York: Harper and Brothers, 1959.

Bulliet, Richard W. *The Camel and the Wheel.* New York: Columbia University Press, 1990.

Caetani, Leone. *Annali dell'Islam.* Milan: Hoepli, 1905-1926. 10 vols.

________. *Studi di Storia Orientale.* Milan: Hoepli, 1911-1914. 3 vols.

The Cambridge Medieval History. New York: The Macmillan Company, 1913.

vol. 2: *The Rise of the Saracens and the Foundation of the Western Empire.*

Dale, David C. and Daniel D. Federman (eds.). *Scientific American Medicine.* New York: Scientific American, 1999.

Doughty, Charles M. *Travels in Arabia Deserta.* London: Jonathan Cape, 1936.

Dupuy, R. Ernest and Trevor N. Dupuy. *The Encyclopedia of Military History.* New York: Harper and Row, 1986.

Edwards, Michael. *Ibn Ishaq's Life of Muhammad: Apostle of Allah.* London: Folio Society, 1964.

Firestone, Reuven. *Jihad: The Origins of Holy War in Islam.* London: Oxford University Press, 1999.

Gabriel, Richard A. *Empires at War: A Chronological Encyclopedia*, 3 vols. Westport, Conn.: Greenwood, 2005. 3 vols.

Vol. 1: *From Sumer to the Persian Empire.*

Vol. 2: *From Carthage to the Normans.*

Vol. 3: *From the Medieval Realm to the Ottoman Empire.*

________. *Gods of Our Fathers: The Memory of Egypt in Judaism and Christianity.* Westport, Conn.: Greenwood Press, 2002.

________. *Jesus the Egyptian: The Origins of Christianity and the Psychology of Christ.* New York: iUniverse Press, 2006.

________. *The Military History of Ancient Israel.* Westport, Conn.: Praeger, 2003.

________. *Our Fathers: The Memory of Egypt in Judaism and Christianity.* Westport, Conn.: Greenwood Press, 2002.

________. *Soldiers' Lives through History: The Ancient World.* Westport, Conn.: Greenwood Press, 2006.

________. *Subotai the Valiant: Genghis Khan's Greatest General.* Westport, Conn.: Praeger, 2004.

________. and Donald W. Boose (Jr.). *The Great Battles of Antiquity: A Strategic and Tactical Guide to the Great Battles That Shaped the Development of War.* Westport, Conn.: Greenwood Press, 1994.

Giap, Vo Nguyen. *People's War, People's Army: The Viet Cong Insurrection Manual for Underdeveloped Countries.* New York: Bantam Books, 1968.

Glubb, John. *The Life and Times of Muhammad.* New York: Cooper Square Press, 2001.

________ *A Short History of the Arab Peoples.* New York: Stein and Day, 1969.

Goldschmidt, Arthur (Jr.). *A Concise History of the Middle East.* Boulder, CO: Westview Press, 1988.

Hamidullah, Muhammad. *The Battlefields of the Prophet.* Paris: Revue des Etudes Islamiques, 1939.

________. *Le Prophète de l'Islam.* Paris: J. Vrin 1959.

Hitti, Philip K. *History of the Arabs.* Hampshire, UK: Palgrave Macmillan, 2002.

Hoyland, Robert G. *Arabia and the Arabs: From the Bronze Age to the Coming of Islam.* London: Routledge, 2001.

Huntington, Samuel P. *The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order.* New York: Touchstone, 1996.

Ibn Ishaq, Muhammad. *The Life of Muhammad: A Translation of Ibn Ishaq's Life of Muhammad.* Translated by Alfred Guillaume. Oxford: Oxford University Press, 1967.

Kirsch, Jonathan. *Moses: A Life.* New York: Ballantine Books, 1998.

Kurt Raaflaub and Nathan Rosenstein (eds.). *War and Society in the Ancient and Medieval Worlds.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999.

Lane, Edward. *An Arabic-English Lexicon*. London: Williams and Norgate, 1865.

Lewis, Bernard. *The Arabs in History*. London: Grey Arrow, 1958.

Lings, Martin. *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources*. Rochester, VT: Inner Traditions International, 1983.

Murphy, Thomas Patrick (ed.). *The Holy War, 141-156*. Columbus: Ohio State University Press, 1976.

Nicolle, David and Angus McBride. *The Armies of Islam, 7th-11th Centuries*. London: Osprey, 1982.

Parry, Vernon J. and Malcolm E. Yapp. *War, Technology, and Society in the Middle East*. London: Oxford University Press, 1975.

Payne, James L. *Why Nations Arm*. Oxford: Blackwell Books, 1889.

Raaflaub, Kurt and Nathan Rosenstein (eds.). *War and Society in the Ancient and Medieval Worlds*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999.

Rodinson, Maxime. *Muhammad*. New York: New Press, 2002.

Roth, Jonathan P. *The Logistics of the Roman Army at War, 264 BC-AD 235*. Boston, MA: Brill, 1999.

Shoufani, Elias S. *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia*. Toronto: University of Toronto Press, Arab Institute for Research and Publishing, 1973.

Watt, W. Montgomery. *Muhammad at Medina*. London: Oxford University Press, 1956.

________. *Muhammad: Prophet and Statesman*. London: Oxford University Press, 1961.

Wellhausen, Julius. *Skizzen und Vorarbeiten*. Berlin: G. Reimer, 1884-1889. 6 vols.

Yadin, Yigael. *The Art of Warfare in Biblical Lands in Light of Archaeological Discovery*. New York: McGraw-Hill, 1964. 2 vols.

Periodical

Lowin, Shari. "Muslims and Circumcision." *JTS Magazine*: vol. 10, no. 1, Fall 2000.

تعريف

المؤلف:

درس ريتشارد غابرييل الحروب القديمة لما يقرب من نصف قرن، وكتب أكثر من ٥٠ كتاباً ونحو ٣٠٠ مقالة حول جوانب مختلفة من هذا الموضوع. وهو جندي سابق أيضاً وأستاذ في الكثير من الكليات العسكرية الأمريكية والكندية. من كتبه: **سكيبيو أفريكانوس: أعظم جنرال في روما، تحتمس الثالث: السيرة العسكرية لأعظم ملك محارب في مصر، فيليب الثاني ملك مقدونيا: أعظم من الإسكندر، هانيبال: السيرة العسكرية لأعظم عدو لروما، انعدام الكفاءة العسكرية: لماذا لا ينتصر الجيش الأمريكي.**

المترجم:

مترجم وإعلامي سوري نشأ بين الأردن وبريطانيا. حاز شهادة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة لندن، وترجم عدداً من الكتب التاريخية، كما أنتج الكثير من الأفلام الوثائقية، وله اهتمام بالتاريخ العربي الحديث وتاريخ روسيا والقوقاز.